عبد الكريم غلاب
عضو أكاديمية المملكة المغربية

قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي

عصر الإمبراطورية

العهد التركي في تونس والجزائر

الجزء الثاني



قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي

الجزء الثاني

عبد الكريم غلاب
عضو أكاديمية المملكة المغربية

قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي

عصر الإمبراطورية

العهد التركي في تونس والجزائر

الجزء الثاني



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

1426 هـ - 2005 م

دار الغرب الإسلامي

ص: ب. 5787 ـ 113 بيروت

عصر الامبراطورية
المحيط السياسي

عوامل داخلية وخارجية تمهد لعصر الامبراطورية

عصر الإمبرطورية كان تحولاً في تاريخ المغرب. ويعتبر هذا العصر نتيجة تطور عرفه العالم الإسلامي في النصف الثاني من المائه الرابعة للهجرة وبداية المائة الخامسة. لم يقتصر هذا التطور على المنطقة المشرقية ولكنه عم المنطقة المغربية كذلك.

تطور أفرزه التاريخ. ولعل التاريخ لا يخطىء فيما يفرز من تطورات سلبية أو إيجابية. التاريخ يريد أن يجدد نفسه فيسخر الأحداث والرجال والأفكار والإيديولوجيات لخدمة هذا التجديد، ويجعل كل ذلك يسير في المخطط الذي رسمه لنفسه، باعتباره كائناً حيا يرسم لنفسه المسيرة. قد يتعثر فيها وقد تستقيم خطواته إلى أن تتعثر أيضاً. لا يسير التاريخ في خط مستقيم. إنه يخدم الحضارة، وهي جزء من كيانه، والحضارة تستقيم وتتعثر لتتطور إيجاباً فتؤدي مهمتها الحضارية، أو سلباً فتنهار لتجدد نفسها من جديد، أو تخلفها حضارة أخرى بقيم جديدة يفرزها التطور الفكري والسياسي والاقتصادي والعمراني.

قد تكون شعوب ضحية هذه التعثرات الحضارية والتاريخية. والشعب المغربي من هذه الشعوب التي كانت ضحية للتعثرات التي عرفتها المنطقة، ربما لأن الجغرافية تحكمت فجعلته محاصراً في شمال إفريقيا الغربي، وجعلت الأرض نهاية العالم آنذاك، فكان المغامرون عسكرياً وسياسياً

وحضارياً يرغبون في أن يصلوا لنهاية الأرض: أرض المغرب. ولذلك استهدف لإنسياح ولاستعمار من الشرق والشمال في فترات مختلفة من التاريخ المعروف... وربما لأن الجغرافية جعلت من أرضه المتنوعة: الجبال والسهول والشطآن والنجود والجدب والخصب والصحراء... أرض اضطراب بمقدار ما هي أرض مطامع، وجعلت من سكانها محكومين بالجغرافية التي تقسمهم قبائل، والقبائل إلى شعوب، والشعوب إلى أفخاد...

قد لا تكون الجغرافية هي المسؤولة عن هذه القبلية، ولكنها مؤثرة فيها وخادمة لها ومبرزة لسلبيتها واحتدام التطاحن بين فرقائها. وربما لأن سكانه يمثلون شعوباً صامدة ومواجهة، فأدّت ثمن الصمود والمواجهة في أحقاب كثيرة من التاريخ تفرقاً وتشتتاً وخصومات وحروباً لعب فيها الجيران لعبتهم فاستغلوها لصالحهم وأذكوا نار العداوة، وصبوا الزيت على لهيب الحروب.

وكان الضحية هو الشعب.

ذلك جانب من المحيط الداخلي الذي دفع بالمغرب ليخرج من عهد الدولة الذي يبدو أنه لم ينجح في توطين الاستقرار ليصبح عصر الإمبراطورية عصر توحيد للأرض والإنسان.

والمحيط الداخلي هذا كان طبيعياً في مسيرة التاريخ. فقد لايكون من المنطق أن ينتقل المغرب ـ ووضعه الجغرافي والقبلي والاجتماعي والسياسي كما عرفنا ـ من عهد الفوضى الذي صاحب زمن الفتح الإسلامي والولاة، إلى عهد استقرار الدولة الكبرى الموحدة، (الإمبراطورية) وجارتاه الكبرتان: الفاطميون والأمويون تبذلان كل طاقاتهما لتتحاربا على أرض المغرب وبمواطن المغرب.

كل هذه الظروف الداخلية جعلت عصر الإمبراطورية يأتي بعد عصر الدويلات الصغرى والدول المذهبية ـ ثم الدويلات الأكبر منها التي حاولت أن تتخلص من المذهبية، وبعد عصر الأدارسة الذين حاولوا أن يعيدوا مجد الدولة الإسلامية الحقيقية في المغرب، فدمرتهم الخصومات والحروب

الداخلية، وأنهاهم خصوم النسب وخصوم المذهب.

وتأتي الظروف الخارجية، ويجب أن نشير إليها في بعدها الأكبر، هو أن المغرب لم يعد بعد الفتح الإسلامي ذلك الجزء من الأرض الذي يمثل نهاية المعمور، خاصة بعد أن قفز بنوه قبل العرب إلى أوروبا مجتازين البوغاز ومؤسسين نواة دولة، قفز عليها الأمويون، فجعلوا منها نواة صلبة لدولتهم. المغرب أصبح بلداً مهماً ارتبط بالمشرق فتكونت فيه دول خارجية وشيعية وسنية، وانتقلت إليه أفواج من العرب توجت بقبائل بكاملها (الهلالية والسليمية).

لذلك كان ما يحدث في المغرب متأثراً بما يحدث في البلاد الإسلامية التي كانت معتبرة مركز السلطة الدينية والزمنية.

ما حدث في بغداد مثلاً لا يمكن ألا يكون له أثر فيما يحدث في المغرب من تطورات سياسية. هو أثر من آثار التاريخ المتفاعل. والتاريخ السياسي للمغرب كان يتفاعل طبعاً مع التاريخ السياسي للمشرق، ولو لم يكن لصناع التاريخ يد مباشرة في هذا التأثير.

الحكم في بغداد ـ العهد العباسي ـ تخلخل بحيث أصبح مؤثراً في تخلخل الحكم في كل البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب. نعرف أن عهد استقرار الحكم العباسي بعد أن استولى العباسيون على الخلافة من يد الأمويين ونقلوها من دمشق إلى بغداد سنة 132هـ لم يكن حكماً مستقراً قوياً إلا نحو مئة سنة أي في عهد الخلفاء الأقوياء الذين سيطروا سياسياً وفكرياً وثقافياً، رغم أن عهدهم لم يخل من انفصال مثله الأمويون في الأندلس، والأدارسة في المغرب، ومن ثورات «مذهبية»: مثلها العلويون والخوارج.

وبدأت الشمس تغرب عن رايات الدولة ابتداء من سنة 232هـ فسيطر الأجانب،غير العرب، (فرس وأتراك...) على رأس الدولة، وبدأت الأطراف تستقل، وتنشأ دول وشبه دول في الولايات التي كان يحكمها ولاة أقوياء،

ووجدوا أن السلطة المركزية (الخلافة) بدأت تتسرب إلى الأجانب الذين كانوا يستولون على قصر الخلافة، ويضعون الخلافاء أحياناً تحت نفوذهم يضطهدونهم ويحاصرونهم، وأحياناً يقتلونهم ليقيموا مكان المقتول خليفة آخر مرشحاً للقتل.

إنهارت الدولة العباسية بسرعة بطيئة، بمعنى أن السلطة خرجت من أيدي العباسيين، ولو ظل عقبهم يتعاقب على «عرش الخلافة» حتى سنة 656 هـ حينما استولى هولاكو زعيم المغول على الدولة وقتل آخر «خلفائهم» المعتصم.

إهتز مركز الدولة الإسلامية في بغداد، وسقطت «الهالة» الإسلامية التي كانت الأقاليم الإسلامية تعتبرها رمزاً للسلطة الدينية إلى جانب السلطة المدنية أو الزمانية، ومع ذلك بقي لقب «الخلافة» أو لقب «أمير المؤمنين» مقدساً حتى إن أي رئيس دولة من الدول التي قامت في الأطراف لم يدع الخلافة أو إمارة المؤمنين. حتى الأمويون في الأندلس كانوا يلقبون أنفسهم بالأمير لإيمانهم بأن «الخلافة» و«إمارة المؤمنين» لا تتعدد. ولم يلقب بأمير المؤمنين إلا ثامن الأمراءوهو عبد الرحمن الناصر، بعد أن أيقن أن أمر الخلافة في بغداد صار إلى ضعف. وفي المغرب لم يلقب أي أمير نفسه بالخلافة أو إمارة المؤمنين حتى يوسف بن تاشفين مؤسس عهد الإمبراطورية لقب نفسه بأمير المسلمين. أما الفاطميون، الذين كانت أعينهم على بغداد منذ عهدهم بالمغرب، فقد لقبوا أنفسهم بالخلفاء منذ قيام دولتهم في تونس، وكان لقب الخليفة غير بعيد عن دعواهم حينما أقاموا دولتهم في مصر وبنوا القاهرة في عهد المعز لدين الله. إهتز عرش الخلافة إذن بعد أن استولى الفاطميون على مصر، وامتد نفوذهم نحو الحجاز وسوريا واليمن، واقترب نفوذهم من بغداد. وكانت ثورة الدولة الزيدية في اليمن واستقلال الأغالبة في تونس، وتأسيس الحسن بن زيد دولته في الديلم، وثورة القرامطة المدعومين بالعلويين، كانت هذه الشروخ في جسم الخلافة في كل مكان.

وانتهى الأمر بالعباسيين إلى سيطرة الولاة في كل إقليم من أقاليمهم ونزع الثقة من الخليفة في بغداد حتى لم يبق بين أيديهم إلا العراق وفارس وكلها بؤر للإضطرابات والفتن. وانهيار سلطان الخليفة بسيطرة المملوكين الأتراك والديلم، وأخيراً قامت دولة بني بويه واستولت على بغداد سنة 334 هـ استمرت «الخلافة» العباسية بعد ذلك إلى سنة 447 هـ لم يعد فيها الحكم الحقيقي لأي «خليفة» من خلفائهم. أما السلطة الحقيقية فيمثلها بنو بويه ثم انتقل الحكم إلى الأتراك من آل سلجوق حتى انهارت الدولة العباسية نهائيا على يد هولاكو حفيد جنكيزخان سنة 656 هـ.

ضياع نفوذ العباسيين وانهيار الدولة كان من العوامل الخارجية البعيدة لظهور عهد الإمبراطورية في المغرب. وكان، إلى جانب العوامل الأخرى، مبرراً دينياً لنشأة نموذج من الخلافة في جزء آخر من العالم الإسلامي لم يسبق أن دخل تحت سلطة الخلافة المنهارة في بغداد.

عامل خارجي آخر هو انهيار الدولة الأموية في الأندلس. فقد كانت هذه الدولة شوكة في جنب المغرب تحطم نفوذه وتسخر قومه للحرب في سبيلها، وتقضي على دولته الكبرى التي كان يمكن أن تكون بداية حكم الاستقلال المغربي، وهي الدولة الإدريسية. وتحتل أطرافه وشواطئه من المغرب حتى الجزائر. ولم يكن المغرب على عهدها قادراً على أن يوحد نفسه وأن ينشر السلام والوحدة في أرجائه.

وقد مرت الدولة الأموية بنفس الدور الذي مرت به الدولة العباسية. آخر انتعاشة لها كانت على يد الحاجب المنصور بن أبي عامر في الربع الأخير من المائة الثالثة. وكان هذا الوزير بسلطته النافذة سبباً في انهيار الدولة الأموية، ونهاية أمر الأندلس إلى مجموعة دويلات يدعوها التاريخ ملوك الطوائف. وهي التي مكنت للدولة القشتالية في الشمال أن تشن حرباً طويلة النفس على الأندلس حتى كانت نهايتها بسقوط غرناطة.

منذ عهد المنصور بن أبي عامر بدأت شمس الأندلس في الأفول. وكانت منذ القرن الخامس الهجري مركز اضطراب وفتن كان من شأنها أن تنعكس على المغرب. ولعل دولة لم تعرف من الإضطراب السياسي ما عرفته الأندلس حتى إن أحد المؤرخين (ابن رقيق) قال: إنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة 399 هـ إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة وهدمت الزهراء وخلع خليفة هو المؤيد، وولي خليفة هو المهدي وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقتل وزيرهم محمد بن علاجة، واقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي الوزارة آخرون. وكان ذلك كله على يد عشرة رجال «فحامين وجزارين وزبالين وهم جند المهدي».

إنهار هذا الركن الثاني من دولة الإسلام وكان يعتمد عليه في حماية الإسلام في المغرب الإسلامي. وأصبح المغرب ودولة الإسلام فيه مهددة بالعدو الذي أخذ يزحف من الشمال على الأندلس.

العامل الثالث داخلي. ولعله أهم العوامل المباشرة في تهيئة الجو لقيام دولة كبرى في المغرب تعتبر بداية عصر الإمبراطورية، يتمثل هذا العامل في تمزق وحدة المغرب بين دويلات بني زيري بن مناد في تونس، وبني حماد في الجزائر وبني زيري بن عطية في المغرب الأقصى. وقد كانت دولة بني زيري التي تزعمها بلكين بن زيري بن مناد ـ وقد قامت بالأمر نيابة أو ولاية من الفاطميين الذين غادروا المغرب إلى مصر ـ دولة قوية كان يمكن أن تبسط سلطانها على بقية المغرب، ولولا ما أوضحناه من الصراع القبلي الخطير الذي تزعمته القبيلتان الكبريان: صنهاجة ـ وزناتة، والذي لم يسمح بالسلام والاستقرار في المنطقة، ولولا ما أوضحناه أيضاً من صراع الأمويين والفاطميين، الذين اتخذوا المغرب مركز هذا الصراع، فساندت كل منهما دولة ودويلات وشجعت ثائرين وسلحت الدولة الأموية بالأخص عصابات للقضاء على دولة بني عطية، وكانت جيوشها تمتد من سبتة وطنجة أحياناً على كل

الشواطىء المغربية، مواجهة سيطرة الأمويين على المغرب، فإن لم يستطيعوا يحاولون تمزيق وحدة هذه البلاد حتى لا تقوم فيها دولة قوية تنافسهم في حكم المنطقة. والمغرب هو الجار الأقرب إلى الأندلس ثم ـ وهذا من ذاك ـ منع الفاطميين من أن يكون لهم نفوذ، حتى بالولاية، ولاية بني زيري على بلاد المغرب.

هذا التحدي وجد «الاستجابة» من الدول التي قامت في المغرب فشغلت نفسها بالصراع القبلي والسلطوي. ودخلها الضعف والوهن حتى إنها لم تصمد على عهد تكوين الإمبراطورية، وكانت نهاياتها في فترات مختلفة من القرن السادس الهجري على نحو ما شرحنا.

هذه العوامل مجتمعة هي التي مهدت لفكرة الإمبراطورية.

من المؤكد أن الذين اقاموا الدولة المرابطية لم يكن لهم من الفكر الشمولي ما جعلهم يتجهون نحو الإمبراطورية بفعل هذه العوامل جميعها. ولكنها مهدت لهم أرضية الدولة الكبرى، لأنهم وجدوا الفضاء صالحاً لتحقيق الآمال الكبيرة التي أخذت سعتها من سعة مفهوم الحكم في الإسلام.

كانت الأرضية محفوفة بالمكاره. فما من دولة قامت في المغرب أو المشرق إلا على أنقاض دولة أو مجموعة دول. وما من دولة أسلمت الحكم لغيرها إلا بعد هزيمة، تكون أحياناً ساحقة ومُرَّة. وهذا ما حدث بالنسبة لمجموعة الدويلات التي حكمت في المغرب العربي من الرستميين (160 هـ ـ 296هـ) (776 ـ 909م) والأغالبة 184 هـ ـ 800 م ـ 296 هـ ـ 909م) ودولة بني مدرار في سجلماسة 140 ـ 352 هـ ـ 757 ـ 963 م) ودولة الأدارسة (172 ـ 375 هـ ـ 793 ـ 985 م) والفاطميين (297 هـ ـ 362 هـ ـ 909م ـ 973م) ودولة بني زيري الصنهاجيين (362 ـ 543 هـ ـ 973 ـ 1148م) ودولة بني حماد (398 ـ 547 هـ ـ 1007 ـ 1152م) ودولة بني عطية (368 ـ 466 هـ).

ثلاثة قرون مر بها المغرب يراوح مكانه بين نجاح الدولة في الحكم وفشلها في الاستقرار والاستمرار. لم يستقر مفهوم الدولة إلا في فترات محدودة كانت الدولة فيها مدعوة إلى حرب هجومية أو دفاعية. ويكفي أن نعرف أن هذه الفترة عرفت ثمان دول إلى جانب إمارات أخرى صغيرة قامت هنا وهناك. في هذه السنوات الثلاثمائة تعاصرت دول من هذه الثمان وحاربت إحداها الأخرى؛ حتى إن بعضها (بني حماد) حاربت المرابطين في بداية عهدهم وزحفت على المغرب بقيادة بلكين بن محمد بن حماد. واحتل فاساً وكان ذلك بداية ظهور يوسف بن تاشفين. وعرفت كثيراً من الثورات والانقلابات والاضطرابات الأمنية. لم تتوحد هذه رغم أنها قابلة للوحدة جنساً ولغة (إلى حد ما) وديناً على قدر ما كان الاسلام منتشراً بعد عهد الولاة. ولكنها عرفت كثيراً من أسباب الفرقة في مقدمتها القبلية. ثم السلطة التى ما كاد أحد المتغلبين يستبد بها حتى يجد من يحاربه عليها. ثم ما كان من عوامل التفرقة المذهبية التي نقلها المهاجرون العرب كالخوارج بفرقتيهما: الإباضية والصفرية، والفاطميون الشيعة والأمويون (الأندلسيون) السنة والأغالبة والأدارسة السنة. والإسلام الطري في المغرب ـ الذي لم يكن قد تمكن من البلاد علماً وثقافة ـ كاد يضيع بين هذه الطوائف مع بقايا الديانة الفطرية في السكان الأصليين.

فترة طويلة من التمزق السياسي والعقدي والقبلي، وفترة حافلة بالتهديد الخارجي الذي كان يهدد الأندلس نفسها حتى بدأت تتساقط منطقة منطقة. هذا الوضع كان لا بد أن ينتهي إلى محاولة جادة لتوحيد البلاد وتقوية الدولة ومواجهة التحدي الخارجي من الأندلس، ومن الفاطميين الذين ظلوا في مصر على أبواب المغرب عين لهم على بغداد وأخرى على المغرب، ولو لرد كيد الأمويين. رغم أنهم لم يبق لهم طمع في المغرب بعد أن استقرت دولتهم في مصر وبسطت نفوذها على مناطق من البلاد العربية الأخرى حتى إنها لتقترب من بغداد.

بلاد المغرب إذن أصبحت مستعدة لاستقبال دولة قوية، مغربية تنبع من الصحراء، وتنشر ظلالها على المغرب الموحد والذي كانت بعض شواطئه على الأبيض المتوسط مهددة من النورمان، وقد احتلت بالفعل كما رأينا، كما تبسط سلطانها على الأندلس التي كانت مهددة بحرب مدمرة من المسيحيين في شمالها.

فكانت دولة المرابطين.

النشأة والسلطة

قصة نشأة دولة المرابطين يقصها المؤرخون بشيء من التفصيل. وتكاد نشأة الدولة تكون فريدة بالنسبة لنشأة الدويلات السابقة، باستثناء الدولة الإدريسية التي اتسمت بمغامرة سياسية. وتختلف مغامرة المرابطين عنها بأنها مغامرة دينية أو تعليمية. والمصدر في كليهما هو المشرق. الدولة الإدريسية نشأت عن فرار سياسي من بغداد. ولم يكن الأمر بالنسبة للدولة المرابطية فراراً ولا مغامرة يكتنفها خوف، وإنما كانت رحلة دينية للحج انتهت بإنشاء إمبراطورية.

من رحلة الحج إلى انشاء الامبراطورية:

القصة كما يرويها المؤرخون فيها جانب من الأسطورة التي لا تقوى على الإثبات. وتتجلى الأسطورة في نقط منها:

1 ـ ان يحيى بن إبراهيم الكدالي، وكان زعيماً في قبيلة لمتونة القاطنة في الصحراء، سافر لأداء فريضة الحج. وأثناء عودته مر بالقيروان وحضر دروس أبي عمران الفاسي، ثم اجتمع به وطلب منه أن يبعث معه فقيهاً إلى المغرب يعلم الناس أمر دينهم، فأرسله إلى أحد طلبته وجاج بن زلو اللمطي من أهل سوس، وكان فقيهاً.

2 ـ وجاج بن زلو كان ايضاً تلميذاً لأبي عمران، وكان مرموقاً في سوس وبنى دارا سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن في نفيس قريباً من أغمات أو في سجلماسة. لا يضبط المؤرخون المكان بالضبط: هل سجلماسة أو نفيس.

3 ـ انتدب وجاج، بعد أن وصله كتاب أبي عمران يحمله يحيى بن إبراهيم، عبد الله بن ياسين. وكان من حذاق الطلبة والرأي والدين والسياسة (هذه الأوصاف قد تكون كلها من صنع المؤرخين الذين كتبوا التاريخ بعد حدوثه).

4 ـ انتقل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى الصحراء. إلى أين في الصحراء؟ يقول بعض المؤرخين أنه ذهب معه إلى مضارب لمتونة. وبالضبط إلى قبيلة جذالة (إحدى القبائل الصنهاجية). المهم أن عبدالله بن ياسين إنتقل مع يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى حيث القوم الذين يعلمهم أمر دينهم.

5 ـ هل نجحت بعثة عبد الله بن ياسين؟

يشكك ابن خلدون في الأمر. فإن الصحراويين لم يطيقوا تشدده في الدين، وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه. ويضيف بعض المؤرخين أنه منعهم من أن يتزوجوا أكثر من أربع نسوة وقد كانوا يفعلون، فانصرفوا عنه، وطردوه. ويجد المؤرخون الفرصة ليؤكدوا أن أهل هذه القبائل كانوا جفاة وأهل فوضى واندفاع وقلة نظام.

6 ـ ولا تكتمل الأسطورة إلا بعنصر ديني آخر هو اعتزال عبد الله بن ياسين ونفر من صحبه للعبادة في منطقة، شبه جزيرة داخل نهر يسميه ابن خلدون «النيل» في جنوب الصحراء، وقد يكون نهر السينغال. وكان معه يحيى ابن عمر وأخوه أبو بكر.

هل اعتزال عبد الله بن ياسين للعبادة، أو للتفكير في صناعة فترة من تاريخ هذه المنطقة؟ الأحداث تؤكد أنه ـ وقد فشل في تأليف جزولة وإعادتهم إلى الاستقامة الدينية والأخلاقية ـ فكر فيما هو أبعد من ذلك. الدعوة والإرشاد وحدهما لا تكفيان، ولعلهما لم تكونا لترضيا طموح هذا الرجل الذكي الذي دخل منطقة بكراً الناس فيها فوضى. لا بد إذن من قوة وسلطة.

7 ـ ويتركه التاريخ في الجزيرة التي اعتزل فيها، ولم يكن اعتزال راهب

متبتل، ولكنه اعتزال داعية ينضم إليه الذين يتأثرون بدعوته. يتركه التاريخ هناك ليتحدث عن فصل فريد في تاريخه حينما يقول: إن عبد الله بن ياسين كان قد زار الأندلس وتعلم فيها. وعاد إلى المغرب من شماله إلى جنوبه ليتعرف على البلاد التي سيبدأ فيها تكوين الإمبراطورية، ولو لم يسعفه العمر بأن يكون هو صاحبها.

والمهم من هذه الرحلة أن القبلية تدخل على الخط فيعرف عبد الله ياسين أن الزناتيين يسيطرون على معظم أنحاء المغرب. وأن الصنهاجيين يعيشون تحت سلطتهم. وهو صنهاجي من جزولة. وإذا اجتمع له الفقه والعلم والذكاء والفكر السياسي والتجربة مع قوم أراد أن يهديهم فأبوا عليه ذلك، إذا اجتمع له كل ذلك مع الفكرة القبلية التي لا يكاد يسلم منها فرد عادي ولا فقيه ورجل دين فإن كل الحوافز أصبحت تتجمع ليفكر تفكيراً أوسع من مجرد مهمة مرشد لقوم لا يقبلون الإرشاد.

يضاف إلى ذلك أن زعيمين من زعماء لمتونة كانا سندا له، وهما يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر. ويحيى كان يفكر سياسياً وليس دينياً فحسب. فكره كان متجهاً دائماً إلى تخليص صنهاجة من سيطرة زناتة أو على الأصح تحويل السلطة مرة أخرى إلى الصنهاجيين، الذين سادوا في شرق المغرب فكونوا دولتين مهمتين: الزيريين وبني حماد. ولذلك انتدبه عبد الله بن ياسين إلى محاربة القبائل الصنهاجية التي استعصت عليه في البداية كما انتدبه لمحاربة أمير مغراوة وصاحب سجلماسة ومات في إحدى معاركه بالسودان. فقد كان أتباع عبد الله بن ياسين يحاربون في الجنوب (السودان ـ إفريقيا ما وراء الصحراء) وفي شمال الصحراء.

8 ـ تمت إذن الظروف المعرفية والمادية لعبد الله بن ياسين، وهي المعرفة بالبلاد، وإدراك خطورة سيطرة الزناتيين على المنطقة والتجمع الذي التف حوله، وهو في عزلته، وهي عزلة سياسية أكثر منها دينية، ثم الطموح الذي تطور من إرشاد قبيلة إلى «إرشاد» «أمة».

وتبدأ رحلة عبد الله بن ياسين التي لم يكملها بنفسه.

من هذه المراحل، التي لا نشك في أن بعضها صحيح وبعضها مما يصنعه المؤرخون عادة، نجد عناصر دينية تتدخل لتصنع مسيرة التاريخ: الحج ـ اللقاء مع فقيه كبير بل «شيخ المالكية» في القيروان، وقد تحولت هذه المدينة الإسلامية الكبرى من الشيعة إلى السنة، وكان الشيخ من فقهاء هذا التحول ـ الإرشاد الديني ـ امتزاج الدين بالسياسية ـ نفور قبيلة جدالة من تشدد عبد الله بن ياسين ـ العزلة والرهبنة ـ إلتفاف طائفة من المريدين حول الشيخ الذي اعتزل ليكونوا عدته في عمله السياسي.

هذا الربط ـ ربط الدين بالسياسة سنجده يطغى على الدولة المرابطية ثم الموحدية كما كان عند الإدريسيين. ولعل المؤرخين كانوا مضطرين أن يبحثوا له عن جذور، فكتبوا ـ ولا أقول اختلقوا ـ الأسطورة التي وصلت بعبد الله بن ياسين إلى التفكير في تكوين الدولة.

التفكير جاءه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بلغ حد محاربة القبائل التي استعصت عليه من لمتونة وكدالة ومسوفة التي قام فيها داعياً إلى الله ليردها إلى الصواب. وإذا لم تقتنع عن طريق الدعوة فسيحاربها بالسلاح إلى أن تقبل دعوته وتستقيم.

ومن سبل الدعوة أنه اقتضى منهم الزكاة.

ودفع بأتباعه إلى درعة وسجلماسة، وأمراؤها من مغراوة الزناتيين.

9 ـ من هنا تبدأ المعارك لاحتلال المغرب إنطلاقاً من الجنوب درعة وسجلماسة إلى سوس وماسة وتارودانت ثم إلى أغمات. ثم جبال درن (قبائل المصامدة) ثم تادلا ويستمر الاحتلال إلى شمال المغرب. يصطدم في فاس مع بني عطية ويتراجع، ثم يستأنف.

10 ـ الدور الأساس في هذا الغزو كان لأبي بكر بن عمر، الذي أصبح

قائد الحملة المرابطية بعد وفاة يحيى أخيه. وكان يحظى بثقة المرشد عبد الله بن ياسين، فينتدبه لكثير من المعارك التي مهد بها لدولة المرابطين حتى انتهى الأمر باستيلاء المرابطين على سهل تامسنا. وكان يساعده ابن عمه يوسف بن تاشفين.

11 ـ مات عبد الله بن ياسين، في إحدى المعارك ضد البرغواطين سنة 450 هـ بعد أن أدى رسالته في بعث فكرة البعث الإسلامي في المغرب كله ومقاومة المنحرفين.

لا تحدثنا الرواية عن منهج فكري معين كان عبد الله بن ياسين يسير عليه ويخطط لإقراره، كما سنجد عند الموحدين مثلاً. وإنما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقرار الشريعة في توزيع الغنائم الهائلة التي كان يحصل عليها كلما فتح جهة من الجهات فتوزع 20٪ من الغنائم على الفقهاء والصلحاء 80٪ يوزعها على المجاهدين، ومن سماهم المرابطين. والرواية التاريخية تتحدث عن إصلاح شأن البلاد التي يحتلها وتغيير المنكر فيها، ومنع المزامير وآلات اللهو وإحراق الدور التي كانت تباع فيها الخمور وإزالة المكوس وإسقاط المغارم. فهذا هو المذهب الذي أقام عبد الله بن ياسين الحكم عليه.

الروايات التاريخية لا تتحدث في هذه المسيرة من عمق الصحراء حتى شمال المغرب إلا عن النصر، وعن تصفية سكان البلاد التي يفتتحها عبدالله ابن ياسين. ولا تتحدث عما يأمر به الإسلام من العفو والسماح وفداء الأسرى إن كان هناك أسرى، وإنما هو القتل للمحاربين في كل البلاد التي افتتحها وغنم كل ما تركه المقاتلون وراءهم كفيء للمسلمين. فهو يعتبر هذه البلاد التي افتتحها بلاد كفر، مع أن الإسلام كان قد انتشر في منتصف القرن الخامس في جميع أنحاء المغرب. ونجد مثلاً هذه العبارة وهو يحارب في درعة عامل مسعود بن واذ و«بن» المغراوي وكان مسعود هذا أمير منطقة درعة، فلما حاربه

عبد الله بن ياسين بدعوة من فقهاء سجلماسة ودرعة، قاتل مغراوة وقتل أميرها مسعود ومعظم جيشه. وإستأصل جميع مخلفاته من أموال وإبل.

12 ـ أريد أن أشير إلى أنه حينما تتحكم الحرب بهدف فتح البلاد وتكوين الدولة، يختفي الإصلاح ومبادىء الإسلام وشعارات الوعظ. مع أن البلاد التي كان يفتحها عبد ألله بن ياسين كلها بلاد إسلامية. ويكفي أن يقال عن منطقة إن سكانها أو زعماءها منحرفون ليكون الغزو والفتح والقتل والاكتساح. حتى إنك لتجد من أقوال المؤرخين: وارتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة. ونجد من أقوال المؤرخين: ثم غزوا تادلا فاستباحوها، واستلحدوا بني يفرن ملوكها. . . ثم نازل أبو بكر بن عمر مدينة لواته وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة. . . فتحوا مدينة تارودانت عنوة. وقتلوا بها خلقاً كثيراً. . .

القبلية تتحكم مرة أخرى حتى حينما تكون الدعوة باسم الدين والإصلاح. الدعوة قام بها الصنهاجيون. ولذلك فليس إلا الحرب والقتل أينما وجد الزناتيون والقبائل المتفرعة منها. بالإضافة إلى القبلية فإن الفتح كان عندهم عنوة لاصلحا. ولذلك القتل كان سبيلهم إلى السيطرة على البلاد المفتوحة.

13 ـ استشهد عبد الله بن ياسين ولم يعمر المرشد الذي اختاروه من بعده ليرجعوا إليه في أمور دينهم وهو سليمان بن عمر إلا سنة واحدة. وبذلك اختفت المؤسسة الدينية من تاريخ الدولة. وبقيت المؤسسة العسكرية والسلطوية ولم يبق عليها إلا أبو بكر ابن عمر ويساعده ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي كان يضعه على المقدمة في حروبه. ويبقى يوسف يعمل في الظل حتى يتصرف التاريخ تصرفاً طبيعياً دون أن يقيم الوزن للطبيعة البشرية، فعلم القائد أبو بكر ابن عمر أن خلافاً وقع في الصحرا ء بين قبيلتين مهمتين من صنهاجة وهما لمتونة (قبيلة المرابطين) ومسوفة. (وهما من القبائل التي

حاربها عبد الله بن ياسين وردها إلى الصواب في دين الإسلام في بداية مسيرته)، فقرر أبو بكر العودة إلى الصحراء لإصلاح ذات البين حتى لا تختل الجبهة الداخلية. رحل القائد وترك نائبه يوسف بن تاشفين على المغرب وحينما عاد من رحلته، وجد الأمر قد استتب للقائد الجديد يوسف بن تاشفين. وتقول الرواية إنه عاد أدراجه إلى الصحراء تاركاً الأمر لمن استبد به.

- زينب النفزاوية

14 - ولم ينس التاريخ دور المرأة حيث نجد المؤرخين يشيرون إلى ظاهرة دور قامت به المرأة. سيدة ولا كالنساء هي زينب النفزاوية. يخصها المؤرخون بصفحات، وهم لا يكادون يذكرون النساء إلا حينما يستغل «الرجل الصالح الورع» عبد الله بن ياسين مركزه فيتزوج كل سيدة علم أنها جميلة. فقد كان - يقول المؤرخون - أنه شديد الورع في المطعم والمشرب، إنما يتعيش من لحوم الصيد، لم يأكل شيئاً من لحوم صنهاجة، ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم...؟ ويذكر التاريخ من كراماته الكثير... بالإضافة إلى أن القتل كان سبيله إلى التخلص من خصومه ومن يحاربهم إلى الأبد. يضيف المؤرخون: وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج كل شهر عدداً من النساء. ثم يطلقهن. ولا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها...

هذا دور من أدوار المرأة في التاريخ. ولكن الدور المهم هو الذي قامت به زينب بنت إسحق النفزاوية. كانت إمرأة جميلة وذكية ومن إحدى نساء المغرب المشهورات بالجمال والرياسة. وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور، حتى كان يقال لها الساحرة (نتذكر أنها تزوجت قاتلي زوجها لقوط). تزوجت في البداية يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة. ثم تزوجت لقوط بن يوسف بن علي المغراوي أمير أغمات. وكان هذا الأمير قد فر من وجه عبد الله بن ياسين حينما فتح أغمات إلى تادلا حيث ظفر به عبد الله بن ياسين وقتله عند ما فتح تادلا.

وكانت زينب من نصيب أبي بكر بن عمر. وللمؤرخين عبارة طريفة يقولون فيها: وخلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب...! ويبدو أن هذه السيدة الجميلة الذكية لم تكتف بثلاثة رجال كلهم سيد في قومه، وأمير في المنطقة التي يحكمها. فكان من حظها أن أبا بكر بن عمر رحل عن منطقة أغمات لإصلاح ذات البين بين لمتونة ومسوفة في الصحراء. ولم يكن قد قضى مع زينب في أغمات غير ثلاثة أشهر، فلما اعتزم السفر، عزم على تطليق زوجته الجميلة الساحرة. وتقول الرواية التي تطلق العنان للخيال عندما يتعلق الأمر بالنساء: إن أبا بكر قال لها: يا زينب إني ذاهب إلى الصحراء، وأنت أمرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها. وإني مطلقك... ويضيف أبو بكر: فإذا انقضت عدتك فانكحي يوسف بن عمي فهو خليفتي في بلاد المغرب...» اختاره لها. وقبلت الجميلة الساحرة مادامت تنتقل من رئيس إلى آخر.

لم يتوقف دور زينب عند هذا التنقل من زوج لآخر فقد لعبت دوراً مهما في تمكين يوسف بن تاشفين من السلطة الكاملة، وكان حتى عودة أبي بكر نائباً فقط. جاءتها الفرصة للانتقام من الرجل الذي طلقها وأهداها لابن عمه، لتهدي معها السلطة جميعها إلى ابن العم هذا. تقول الرواية: إن أبا بكر عاد من الصحراء بعد أن أصلح أحوالها. وكان كما يقول ابن خلكان: رجلاً ساذجاً خير الطباع... عاد إلى المغرب، وهو يفكر في عزل يوسف بن تاشفين بعد أن عرف أنه فتح كثيراً من مناطق المغرب ونشر نفوذه في معظم أنحائه.

وهنا يبرز دور المرأة الجميلة الذكية لتلعب الدور المنوط بها بين الرجلين. إستشارها يوسف بن تاشفين، وقد أحس بنية أبي بكر فاشارت بالرأي الذكي: إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء فإن رأيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه، وأظهر له الترفع والاستبداد حتى كأنك مساو له، ثم لاطفه بالهدايا من الأموال والخلع.

نفذ يوسف وصية الزوجة واتفق الطرفان على أن يعود أبو بكر إلى

الصحراء ليجاهد في إفريقيا وينشر الإسلام، وليبقى المغرب ليوسف بن تاشفين.

هكذا قتل أبو بكر وهو يجاهد بسهم مسموم في الصحراء سنة 480 هـ وظل يوسف ينظم المغرب ويحكمه ويؤسس إمبراطوريته.

ولن ينسى عصر الإمبراطورية زينب النفزاوية ووصيتها التي حقنت بها الدماء وضمنت الإمبراطورية لزوجها الجديد. ولعل التاريخ لن يذكرها بعد ذلك.

15 ـ أربعة من القادة أسسوا دولة المرابطين قبل أن يستلم زمامها يوسف ابن تاشفين هم:

1 ـ يحيى بن إبراهيم الجدالي:

تقول الرواية إنه كان زعيماً في قومه. ولعل الزعامة أو الإمارة جاءته وهو جدالي على القبائل الأخرى التي تكون صنهاجة وهما: لمتونة ومسوفة، جاءته هذه الزعامة من أنه كان متفتحاً راغباً في طلب العلم، والبيئة يؤمئذ بيئة جهل وغفلة. ولا بد أن يتساءل الباحث عن زعامة رجل ينتمي إلى قبيلة ـ ولو أنها فرعية على القبائل الأخرى، ولو أنها فروع من القبيلة الأم. ويؤيد التساؤل غرابة أن الزعامة في صنهاجة آنذاك كانت للمتونة لا لجدالة ولا لمسوفة، ولمتونة هي التي استولت على السلطة بالقوة وحاربت لتأكيد سلطتها في داخل الصحراء، وفي السودان أي في إفريقيا ما وراء الصحراء لنشر الإسلام ضد الوثنية التي عرفت هذه المناطق قبل أن يدخلها الإسلام، متأخراً زمناً ما لبعد هذه المناطق الصحراوية الجنوبية عن نفوذ الولاة. القضية إذن قضية الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه. ولهذا كانت المنطقة تجتاز مرحلة حرب. وستستمر هذه (الدعوة الإسلامية والدفاع عنها) ذات التأثير الكبير في سيرة دولة المرابطين على عهد التأسيس أو على عهد بناء الدولة وتوسيع نفوذ الإمبراطورية. الفكرة إذن ستكون هي الحافز وبتطورها يتطور تاريخ المنطقة جميعها من شمال الأندلس حتى حدود ليبيا.

في هذه المرحلة كانت السلطة للمتونة، ومنهم نبغ زعيم، أمير استطاع أن يوحد بينهم ضد الخلافات التي مزقت وحدتهم وهو أبو عبد الله محمد بن تيفاوت. وكان لمتونيا، قتل في إحدى المعارك، فآلت القيادة إلى صاحبنا يحيى بن إبراهيم الجدالي. ولعلهم تشبعوا شيئاً بفكرة الأخوة الإسلامية فلم يجدوا مانعاً من قبول زعامة جدالي على القبيلتين أو الثلاث: لمتونة وجدالة ومسوفة.

يحيى هذا كان يتمتع بنفس المزايا الأخلاقية التي كان يتمتع بها سلفه أبو عبد الله محمد بن تيفاوت من ديانة وفضل. وتلك المزايا ـ مع الرغبة في طلب العلم ـ هي التي رشحته للحج. وفي طريق عودته إلتقى بأبي عمران الفاسي.

مجموعة من المؤهلات الشخصية والصدف منحت يحيى بن إبراهيم هذا الدور الذي سيكون له ما بعده في تكوين دولة المرابطين.

واسم يحيى بن إبراهيم سيختفي رغم زعامته وإمارته بعد أن ساعد عبد الله بن ياسين حتى أصبح زعيماً مرشداً ومحارباً قوياً. ومع اختفاء اسمه سيبقى المؤسس الأول (بالفكرة) لدولة المرابطين.

2 ـ عبد الله بن ياسين:

شخصية غريبة متبتل زاهد، لا يأكل من اللحوم إلا الصيد ولا يشرب الألبان (لست أدري بما كان يتعيش والقمح لم يكن معروفاً أو مستعملاً في معيشة الناس في ذلك المحيط الصحراوي) ولكنه يتزوج كل شهر عدداً من النساء ويطلقهن بعد أن يروي شبقه. ويعتقد أن ذلك من صميم الإسلام. وكان يحارب قومه لأنهم يتزوجون أكثر من أربع عرائس في وقت واحد. ثم هو داعية إسلامي كبير، ولكنه يقتل القبيلة التي انتصر عليها ويصفيها. وكان هدفه قبلياً إلى جانب أنه إسلامي. زناتة كانت مستهدفة عنده. فما وجد سبيلاً لقتالها إلا سلكها.

ومن دهائه أنه أظهر الرغبة في الاعتزال والتعبد وترك المهمة التي انتدب

إليها وهي الإرشاد لما وجد من صعوبة الإقناع.

ولعل فكره الذكي دفعه ليتحول من الدعوة إلى قتال قوم لم ينفع معهم إرشاد. فلما اعتزل للعبادة أخذ في تكوين خلية المجاهدين حتى تكون له منهم ألف أو يزيدون فخرج بهم لقتال الذين كان يرشدهم فلم يرشدوا.

وبدأت المسيرة.

هل كان وراء فكر عبد الله بن ياسين إيديولوجية محددة؟ هل كانت وراءه فكرة تكوين دولة؟

أما عن الإيديولوجية فما أظن أن رؤية معينة في الدين كانت وراءه على نحو ما سنجد عند الموحدين أو كما وجدنا عند الفاطميين، وإنما كان له فكر إسلامي داعياً ومرشداً، يدفعه إلى الحماس الذي يصل إلى القتال. إن القبائل كانت لاتلتزم بتعاليم الإسلام بكاملها، كما هو الأمر بالنسبة لمعظم القبائل المشتتة في الآفاق، وخاصة في المناطق الصحراوية. ونجد هذا حتى في الجزيرة العربية بعد وفاة النبيّ والخلفاء الراشدين. كانت القبائل تعرف الإسلام كفكرة مضببة، ولكنها لا تتبع كل تعاليمه. وفيما يخص القبائل المغربية كان إسلامها لا يمنع الرجل من زواج أكثر من أربع نساء، ولم يكن أحد منهم يلجأ إلى الصلاة أو الصيام فأحرى الزكاة. ومع ذلك فهم مسلمون متعصبون للإسلام، ولكن ما أتى به عبد الله بن ياسين من التشدد في فروض الإسلام دفعهم ليبتعدوا. ودفعه ليحاربهم. فكان القتال رديفاً للدعوة الإرشادية. وهو تطور طبيعي عند الدعاة المشتددين على نحو ما نرى في العصر الحاضر.

ونستخلص أن الرجل لم يكن يحمل فكرة إيديولوجية منطلقة من الإسلام، لأنه وجد في قوم لا يقبلون الصلاة والصيام، فأحرى أن يرتقي فكرهم إلى التفكير إيديولوجيا.

أما عن فكرة الدولة فما من شك في أنه أخذ يفكر في تكوين الدولة بعد

أن أخضع القبائل الكبرى، وبعد أن أصبحت له السيطرة على معظم القبائل الكبرى، وبعد أن ضمن إلى جانبه زعماء لمتونة وجدالة وصنهاجة التي هي الأصل ولكنه لم يعلن الدولة لأنه لم يكن قد حقق كل أهدافه في السيطرة على شمال الصحراء قبل أن تدركه المنية.

ولعل القبلية لعبت دورها فهو جزولي وليس صنهاجياً، وبالتالي ليس لمتونيا ولا جدالياً. ولذلك حارب بضراوة جدالة ولمتونة ومسوفة حتى دانت له صنهاجة جميعها.

ومن دهائه أنه اعتمد على المال الذي يغنمه والأسلاب لشراء السلاح من القبائل لشن حرب استهدفت ما وراء الصحراء شمالاً وجنوباً لتكوين دولة قوية تجمع حولها القبائل والدويلات التي نشأت هنا وهناك.

القتال والدعوة الدينية هما سبيلان إلى الانتصار. وقد كان له ما أراد حتى استشهد في قتاله مع البرغواطيين سنة 451 هـ.

وواضح أن عبد الله بن ياسين هو مكون الدولة دون أن يعلنها. فهو الذي وحد المناطق الصحراوية الجنوبية من المغرب حتى مشارف شمال المغرب وغزا السينغال وأقر الإسلام هناك ووصل بالدعوة إلى نواحي مراكش الحالية. مهد أرضية الدولة فحارب الخصوم من جميع القبائل وقضى على معظم الزعماء القبليين وعلى كل النزعات غير الإسلامية.

هو المؤسس الحقيقي لأنه اهتدى إلى مفهوم جديد في السياسة والحرب، وهو استخدام الإسلام سياسياً. كان يحارب باسم الإسلام ويمارس تعاليم الإسلام في كل قبيلة غزاها، فيأمر بالمعروف ويحارب المنكر ويأخذ الزكاة ويرشد لتعاليم الإسلام. وما من شك في أن هذا الأسلوب نفعه في السيطرة على كثير من القبائل لأنهم كانوا يجدون فيه جانباً من الروحانيات، وليس فقط الحرب للحرب أو للسيطرة القبلية.

ذلك جانب من دهاء عبد الله بن ياسين ولم يستشهد في حربه لبرغواطة

بتامسنا سنة 450 هـ كما يقول ابن خلدون وسنة 451 كما يقول مؤرخون آخـرون : حتى كان قد مهد الطريق لدولـة كبرى تمتد من حدود السنغال (حيث اعتكف في بداية حركته وبدأ يكون جماعة المرابطين) حتى نواحي تانسيفت.

بضع سنوات من حياته الجهادية كافية لقلب المغرب وتوحيده والتمهيد لدولته الكبرى. فقد أقبل يحيى بن إبراهيم الكدالي يحمل كتاب أبي عمران الفاسي سنة 440 هـ فانتدب وجاج بن زلو عبد الله بن ياسين للمهمة. وكانت تلك السنة بداية نضاله، حتى فترة اعتزاله للعبادة كانت في عمق عمله النضالي.

وعبد الله بن ياسين بعمله هذا كان من أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب لما استطاع أن يقوم به في توحيد البلاد وتدعيم الإسلام، رغم الوسائل التي اتبعها - وبعضها عنيف ولا أخلاقي - في الوصول إلى أهدافه.

تبقى كلمة «الرباط» و«المرابطون» يرجع بها بعض المؤرخين إلى عبد الله بن ياسين حينما اعتزل في الجزيرة للعبادة. وبنى فيها رباطاً لأصحابه وسماهم المرابطين. ويرجع بها بعض المؤرخين إلى وجاج بن زلو الذي كان من فقهاء سوس، بعد أن اتصل هو الآخر بأبي عمران الفاسي في القيروان وعاد إلى بلاده في سوس يعلم الناس في دار سماها دار المرابطين.

وليس ببعيد أن يكون عبد الله بن ياسين أخذ الفكرة والاسم من أستاذه. مهما يكن فإن الرباط كلمة قديمة في الجماعات الإسلامية التي كانت تتكون على السواحل من مصر حتى المغرب. تقيم هذه الجماعات في رباط تدرس العلم وتجاهد ضد العدو الذي يأتي من البحر أحياناً، فيخبر كل رباط الرباط الذي يليه باقتراب العدو. وذلك بوسيلة قد تكون بدائية ولكنها مجدية، بإشعال نار على منارة الرباط، وتنتقل الإشارة من رباط إلى آخر لتستعد كل الرباطات لمقاومة العدو.

ولكن كلمة رباط ومرابطين أخذت بعداً مهما حينما سميت الدولة التي

أنشئت بزعامة هؤلاء القادة قبل يوسف بن تاشفين بالمرابطين. انتقلت الكلمة من مفهوم المجاهدين إلى مفهوم الدولة.

3 ـ يحيى بن عمر:

الشخصية الثالثة التي كانت وراء النشأة هي يحيى بن عمر. وقد ظهر يحيى في ظل عبد الله بن ياسين، حتى استشهد كقائد عسكري قبله بنحو ثلاث سنوات أي سنة 447 هـ. يظهر هذا الرجل بعد يحيى بن إبراهيم الذي حمل رسالة أبي عمران إلى وجاج بن زلو.

ويبدو أن كتابة الاسم «يحيى» جعل الأمر يختلط على بعض المؤرخين، يقول ابن خلدون إن يحيى بن عمر تنسك مع عبد الله بن ياسين في الجزيرة التي اعتكف بها. ولذلك يقول إن يحيى بن إبراهيم توفي قبل قضية التنسك. ولكن مؤرخين آخرين يزعمون أن عبد الله بن ياسين قدم يحيى بن عمر كقائد للحرب بعد وفاة يحيى بن إبراهيم. ومعنى ذلك أن يحيى ابن عمر ظهر وعملية الحرب قد بدأت.

مهما يكن فالتاريخ لا يعرف كثيراً عن نضال عملي قام به يحيى بن إبراهيم إلا الفكرة الأولى التي انبعثت في فكره وهو يمر بالقيروان حينما طلب من أبي عمران الفاسي أن يبعث معه من اصحابه من يعلم الناس أمر دينهم وحمله الرسالة لوجاج بن زلو، وبداية صحبته لعبد الله بن ياسين. ويعرف عنه من جهة أخرى أن القبائل كانت تحترمه وتقدره وبفضله دان من دان منها لعبد الله بن ياسين، ولم يحتمل اللمتونيون شدة عبد الله بن ياسين نسبيا ولم يدينوا إلا بفضل ولائهم ليحيى بن إبراهيم. يؤكد هذا الذين يزعمون ـ مع ابن خلدون ـ أن صنهاجة لم تنصرف عن عبد الله بن ياسين إلا بعد وفاة يحيى بن إبراهيم، فلم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يصدهم عن الابتعاد عن دعوة عبد الله بن ياسين وشدته. ولذلك كان الاعتزال. وسواء كان في صحبته أثناء التنسك، بل شجعه عليه وأشار عليه بالجزيرة المنعزلة في نهر السينغال، أو

توفي قبل ذلك. فإن التاريخ يكاد يؤكد أن يحيى بن عمر جاء بعد وفاة يحيى ابن إبراهيم.

المهم أن يحيى بن عمر كان له دور أولي كقائد حرب انتدبه عبد الله بن ياسين واعتمد عليه في السيطرة على مناطق شاسعة بالصحراء، وما بعد الصحراء شمالاً. ولم يكن هذا الرجل وأخوه أبو بكر ـ مغمورين في قومهما ـ وإنما كان زعيماً في لمتونة، ولو أنه جدالي إلا أنه انتمى إلى لمتونة بالمصاهرة. وسيعرف التاريخ أن من أبنائه تاشفين الذي سيصبح أشهر اسم في الدولة بفضل ابنه يوسف بن تاشفين. وسيكون ابن عمر جد يوسف. وهذه وراثة تحسب في عمر الدولة. فلم تقم الدولة بفرض سلطة من خارج، وإنما كانت متأصلة وراثياً، وراثة نسب، ووراثة نضال وجهاد.

ويذكر التاريخ أن عبد الله بن ياسين اهتدى إلى يحيى بن عمر في منسكه. وعندما كثر المرابطون معه في الجزيرة المعزولة، حتى بلغوا ألفاً، خرج بهم واجتازوا الصحراء. ثم بدأوا في محاربة العاصين من رجال لمتونة ومسوفة وكدالة. وأمر عليهم يحيى بن عمر وانطلقوا يحاربون إلى درعة وسجلماسة. ولم تطل قيادة يحيى بن عمر فقد قتل (بعد سنتين؟ من قيادته) سنة 447 هـ.

هل قتل في حرب سجلماسة ضد زناتة أم قتل في إحدى غزواته في السودان؟ المؤرخون القدماء لا يتيقنون قبل أن يكتبوا ما كتبوا. وقد لا يهم أين قتل لولا أن أحداث التاريخ الحقيقي لا تعفينا من ضرورة التعرف على أن حرب السودان كانت في سنة 447 هـ أم أنها جبهات حرب متداخلة: الحرب في السودان في نفس الوقت التي كانت في سجلماسة؟

4 ـ أبو بكر بن عمر:

الشخصية الرابعة التي مهدت أرضية دولة المرابطين هو أبو بكر بن عمر. وهو مثل أخيه كان من الرجال الذين أمكن لعهد جديد ينبع في المغرب أن

يعتمد عليهم إخلاصاً وشجاعة وأخلاقاً وصدق عزيمة. وقد كانت روح الجهاد بمفهومه الديني ـ لا بمفهوم تكوين الدولة ـ تغلب على هذا الرجل.

لعله عاش في ظل أخيه يحيى بن عمر كان يحيى هو القائد وكان متعلقاً بعبد الله بن ياسين يريد منه أن يرشد أهله ويعود بهم إلى الصراط السوي. ولذلك أشار على عبد الله بن ياسين أن يعتزل للعبادة حينما يئس من الوصول به إلى نتيجة في قومه، فأراد أن يحقق النتيجة في نفسه ليتعلم من الفقيه ابن ياسين، ما دام قومه لم يقبلوا. وزعم أن عبد الله بن ياسين كان يقصد من الاعتزال أخذ نفس للاستعداد وتكوين المجاهدين من حوله، ولم يكن يقصد الاعتزال للعبادة، فليس ذلك من طبعه، فقد كان يحيى مخلصاً في فكرة الاعتزال للعبادة والاستفادة من الشيخ. اعتزل معه واعتزل أخوه أبو بكر. فلما تكونت لابن ياسين العصبة من أولو القوة من المؤمنين خرج ومعه إبنا عمر للجهاد.

لم يظهر أبو بكر في الساحة العملية إلا عند وفاة أخيه. فلم تكن بين الأخوين ـ وهما من بيت إمارة وزعامة وخلق ـ منافسة. ولذلك إدخر ابن ياسين أبا بكر لما بعد وفاة يحيى فتولى القيادة من بعده.

من المؤكد أن أبا بكر تحمل العبء الأكبر فيحيى قتل سنة 447 أو 448 وحركة ابن ياسين لم تبدأ بدايتها الحقيقية بالخروج من الصحراء في اتجاه الشمال للجهاد إلا سنة 445. ولذلك فمدة قيادته لم تتعد سنتين احتل فيها المرابطون درعة وسجلماسة، بينما دامت قيادة أبي بكر حتى سنة 453 في هذه السنوات الثمان عادت له القيادة بعد وفاة عبد الله بن ياسين. غزا بلاد سوس الواسعة ومنطقة المصامدة. واصطدم في تارودانت مع طائفة الرافضة ـ جماعة شيعية متطرفة.

وفي فتح بلاد المصامدة بايعته قبائل مهمة: رجراجة وحاحة، ووصل في فتوحه إلى أغمات.

وفي تامسنا اصطدم بالبرغواطيين فقاتلهم قتالاً مريراً. وفي المعركة

معهم قتل عبد الله بن ياسين، فأنهى أبو بكر ـ الذي كان حتى تلك اللحظة قائداً للجيش يعمل تحت إمرة عبد الله بن ياسين ـ قتال برغواطة حتى أنهى نحلتهم ـ واستمر في فتوحه حتى وادي نفيس.

الفكر العسكري والديني كان يغلبان على الفكر السياسي عند أبي بكر بن عمر، حتى إن بعض المؤرخين يصفه بالسذاجة. حينما استعان بابن تاشفين وسلمه القيادة وطلق زوجته زينب النفزاوية، وأوصاها بالتزوج بابن تاشفين كما قدمنا.

انتهى أبو بكر كما ينتهي الأبطال الصالحون السذج، قتل في حرب السودان بسهم مسموم سنة 480 هـ بعد أن قام بدور كبير في تمهيد الطريق ـ عسكرياً ـ لدولة المرابطين.

القضاء على البرغواطيين

16 ـ نشأة المرابطين لم تمر بقتال المتمردين على الدين وأمراء القبائل المسيطرة على بعض المناطق فحسب، وإنما كانت أمامها صعوبات كبرى في الجيوب الثائرة وبقايا الدول الإقليمية أو المحلية. هناك دولة بني حماد الصنهاجية في القلعة، ودولة زيزي بن عطية في فاس. وكان هناك الخطر الذي دوخ المغرب وهو سيطرة البرغواطيين بمذهبهم الثوري المتمرد على الإسلام في كثير من مناطق المغرب.

غير أن التمهيد للدولة مر على عمل مهم هو القضاء على البرغواطيين.

ولعله من سوء حظ المغرب أنه كان بيئة صالحة لكثير من الدعوات المنحرفة التي تستهدف السلطة عن طريق تضليل المواطنين والسيطرة على فكر الأتباع. من هذه الدعوات الخطيرة دعوة البرغواطيين التي نشأت مبكراً في بداية القرن الثاني. وكانت نهايتها على يد المرابطين قبل أن ينتهي الأمر فيهم إلى يوسف بن تاشفين. كان القضاء عليهم تمهيداً لأرض الدولة.

ينتسب البرغواطيون إلى قبائل المصامدة (إحدى شعوب البرانس) فهم ليسوا نحلة فحسب، ولكن كانت لهم قوة قبلية تضاهي صنهاجة. ولذلك تبعتهم قبائل هذا الشعب وقبائل أخرى لا يستهان بقوتها مثل كدالة وزواغة ومطغرة ومطماطة وبنو وار زكيت وبنو يفرن وإصادة وركانة وإيزمن ورصافة... هذا يؤكد أن قوتهم القبلية كانت مهمة، تشكل خطورة على الحفاظ على الإسلام الصحيح في المغرب.

ومن المهم أن نلاحظ أن اعتماد الفتح الإسلامي على الحكم السياسي والعسكري، أكثر من ترسيخ الفكر الإسلامي، جعل كثيراً من القبائل المغربية تنساق وراء كل دعوة خرافية تتخذ من الإسلام مظهراً ولو تمردت على الإسلام بدعوى دين آخر، كما هو الأمر بالنسبة للبرغواطيين.

مركز الدعوة كان في تامسنا، وانتشروا على شاطىء البحر من سلا حتى آسفي.

نحلتهم كانت ترتكز على تحريف الإسلام والدعوة إلى دين آخر. وادعى رؤساؤهم النبوة من طريف إلى ابنه صالح، إلى آخر دعاتهم أبي حفص عبد الله الذي كانت هزيمته على يد المرابطين آخر العهد بالبرغواطيين.

كان خطرهم ـ الذي امتد من سنة مائتين هـ حتى سنة 450 أي نحو 250 سنة ـ أنهم كانوا يوقظون الفتنة ويكونون دولة منحرفة داخل الدول الإسلامية، ويجدون أتباعاً وأنصاراً من مختلف القبائل. ولذلك لم تقم سلطة في المغرب والجزائر والأندلس إلا اصطدمت بهم وحاربتهم. وكانوا ينتصرون في بعض المعارك، حاربهم الأدارسة، ومبعوث المنصور بن أبي عامر إلى المغرب. وانتصروا في معركة ضد جند الأندلس. وحاربهم بلكين بن زيري الصنهاجي وهو يغزو المغرب. وحاربهم اليفرنيون وانتصروا عليهم، حتى احتلوا تامسنا. ولكنهم صمدوا حتى جاء المرابطون، فكانت دعوتهم قائمة على نشر الإسلام والحفاظ على مبادئه، فحاربهم عبد الله بن ياسين بنفسه. وكان مصرعه في

إحدى المعارك ضدهم. ثم ورث مسؤولية حربهم أبو بكر بن عمر حتى قضى عليهم نهائياً.

هذه الدعوة كان من طبيعتها، وهي ذات إيديولوجية تتصل بالدين وتختلف عنه وتعرقل طريق المرابطين إلى الدولة، وقد تمرست على القتال، والحرب مع دول كانت لها مكانة في القتال والحرب.

وكانت دعوتها خطيرة على الإسلام في بلاد كان الإسلام فيها معرضاً لكثير من الانحراف. وقد عرف الإسلام دعوات الخوارج والشيعة والسنة وتشدد المرابطين. وعرف بعض المتنبئين كحاميم بن عبد الله.

كان ظهور المرابطين ـ رغم تشدد عبد الله بن ياسين واتخاذه القتال سبيلاً لتصحيح الدعوة الإسلامية ـ تمهيداً لأرضية دولتهم وإنقاذا للمغرب من التمزق واضطراب الحكم والعقيدة.

* * *

هكذا نشأت دولة المرابطين، اسمها يؤكد مفهومها. ونضالها من أجل الدولة كان متميزاً عن بقية الدول التي نشأت. بدأت من الجذور الأولى:

1 ـ **الأرض**: لم تحارب ـ منذ البداية ـ من أجل الدولة، وإنما حاربت من أجل السيطرة على أرض واسعة. تبدأ من حيث يبتدىء المغرب جغرافياً وهي الصحراء. وسارت متصاعدة شمالاً وشرقاً تمهد الأرض وتنظفها من كل سلطة سياسية أو قبلية يمكن أن تعوق طريقها إلى الشمال.

2 ـ **العقيدة**: اتجهت لتحصن الدولة بالعقيدة، الإسلام هو دين القبائل والإمارات والتجمعات البشرية. ولكنه إسلام فوضوي يفهمه كل كما يريد، وكما يوحي له به جهله. فالذين نشروا الإسلام كانوا يكتفون بانضمام الجماهير والقبائل إلى القيادة العسكرية. لم يصحبوا عملهم بالتعليم والتثقيف. ولذلك كان الذين عرفوا الإسلام في حقيقته، أو نصف حقيقته، قلة بين الناس. هكذا اهتدى يحيى بن إبراهيم إلى البحث عن الطريق لهداية قومه فاتصل بأبي عمران

الفاسي. واهتدى وجاج بن زلو إلى الاستعانة بعبد الله بن ياسين. واهتدى عبدالله بن ياسين إلى الجهاد في سبيل العقيدة. وهو في الوقت نفسه كان يفكر في الدولة. واهتدى الذين حاربوا إلى جانبه: الأخوان يحيى وأبو بكر بن عمر إلى الجهاد لتثبيت الدعوة حتى عمت الفكرة الإسلامية السلمية من قلب الصحراء إلى حدود مراكش. وبذلك كانت الدولة موحدة في الجزء الأهم من المغرب أرضاً وعقيدة، وبقي أن يوحدها الحكم السياسي. وهذا ما قام به يوسف بن تاشفين.

الدولة ـ الإمبراطورية

يختلف التفكير في الدولة عند المرابطين عنه عند الدول والدويلات الأخرى التي نشأت في المغرب العربي. إتساع رقعة المغرب وظروفه الجغرافية كانت لا تساعد على سعة افق الذين أنشأوا الدول المختلفة في المغرب العربي جميعه. ابتداء من عصر الولاة الذين بدأوا فتح المغرب في سنة 95 هـ/ 714 م حتى نهاية عهدهم بتكوين الدولة الرستمية في الجزائر سنة 164 هـ/ 781 م (نحو ثلثي قرن) لم يتعرف الولاة على المغرب جميعه. وذلك شيء طبيعي للظروف الجغرافية التي شرحنا (راجع الجزء الأول من هذا الكتاب) ثم الدويلات الصغيرة التي قدمنا الحديث عنها كانت جميعها محدودة في الأرض.

وقد تحكمت الجغرافية كما تحكمت السياسة في هذه التجزئة. ولم تستطع أية من الدول التي تحدثنا عنها أن تكون دولة قوية. لأن النشأة إقليمية وقبلية. فالصنهاجيون يضعون أمام أعينهم القضاء على الزناتيين، ونفس الفكرة كانت تتملك الزناتيين وهذا العامل إلى جانب العامل الجغرافي والسياسي جعل المغرب مجموعة جزر كل جزيرة عليها دولة، مهما تكن قوتها وسلطتها فهي محدودة النفوذ بالنسبة لشساعة المغرب العربي.

هذا كله أعطى للدولة المرابطية، والموحدية بعدها تميزاً خاصاً حول مجرى التاريخ في المغرب العربي.

* * *

وتعتبر بداية الدولة من عهد المؤسس السياسي يوسف بن تاشفين كما كانت البداية العقدية في عهد المؤسس المنظر الديني عبد الله بن ياسين.

ولم يكن التأسيس السياسي أقل أهمية من التأسيس المذهبي. فقد وجد يوسف بن تاشفين يوم استلم السلطة نفسه في وسط المغرب الأقصى (جغرافياً)، وفي وسط الجزء الأصغر من المغرب العربي الكبير. وكان عليه أن يبدأ المسيرة على أرض مشحونة بالمصاعب السياسية لوجود الدول وبقايا الدول التي أشرنا إليها.

وكان عليه أن يبدأ المرحلة بالحزم الذي يتطلبه الموقف، فقام بانقلاب أبيض ضد رئيسه الذي ائتمنه على القيادة وهو أبو بكر بن عمر.

استسلام أبي بكر ورحيله كان الانتصار الأولي السلمي في عمل يوسف.

وكان عليه أن يؤسس قاعدة للدولة التي يريد تكوينها تكون مرجعاً لجيوشه وإدارته وحكمه، مهما اختلفت به السبل شرقاً وشمالاً وجنوباً، فكانت مراكش كقاعدة للحكم على غرار ما سار عليه الحاكمون في الشرق والغرب.

معظم العواصم الكبرى أسست لهدف سياسي. ولكن الجغرافية والهدف العسكري تحكما. الجبلية منها أسست لتكون عاصمة للدولة مخافة من أن يصلها الطامعون والمعتدون. والسهلية منها أسست لتكون ملتقى طرق الشمال والجنوب (فاس)، والصحراوية منها أسست لتكون واحة تضمن للدولة الماء والغذاء، ولتكون واسطة بين أطراف الدولة. ومراكش كانت الوسط في مفهوم يوسف بن تاشفين بين شمال المغرب وجنوبه. وما من شك في أنه لم يكن له بعد المغرب الإسلامي عندما بدأ رحلته الواسعة لبناء دولة المرابطين.

استراتيجية عسكرية لبناء الدولة

كان يوسف بن تاشفين ذا عقلية عسكرية تمرس عليها في عمله المستمر

مع ابن عمه أبي بكر بن عمر. ووضع استراتيجية عسكرية لتكوين الدولة وجمع شتاتها وبنائها:

تأسيس مراكش في موقعها المتميز أحد معالم الاستراتيجية، لأنها أصبحت المرجعية الأساس للدولة (عاصمتها).

واختار موقع مراكش لسبب قبلي يدخل في استراتيجيته للتعامل مع القبائل. ففي موقعها كانت قبائل المصامدة تنزل بها من جبل درن. وهي من أشد القبائل وأقواها شكيمة وأغزرها عدداً. موقع المدينة يجعلهم يراوحون بينه وبين جبل درن في معيشتهم ما يمكنه من تألفهم واستئناسهم بجانبه.

الأساس الثاني للإستراتيجية أنه اختار أربعة من القواد الكبار ليقودوا المعارك التي كان مقبلاً عليها. واختارهم من قبائل مختلفة ليضمن ولاء هذه القبائل عن طريق قوادها. فمن (جدالة) اختار محمد بن تميم. ومن (مسوفة) اختار عمر بن سليمان. ومن (تلكاتة) اختار مدرك. ومن لمتونة اختار سير بن أبي بكر.

وتدخلت إستراتيجية القبلية في تكوين الجيش المحارب يضم هذا الجيش القوي قبائل من صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة، ومن مرتزقة «الأعزاز» ـ الأتراك ـ وقد عمل هؤلاء مع بعض الدول المغربية الأخرى. إختار قواده من هذه القبائل المختلفة لأنه كان يدرك أنه سيقابل في طريقه إلى فاس قبائل مختلفة. قد يكون في حرب أولئك لهؤلاء ما يمكنه من النصر.

الأساس الثالث للإستراتيجية أنه اتجه إلى غزو مدينة فاس على بعد المسافة لأن المدينة كان لها مركز سياسي وديني، ولأن الحكم فيها قوي صارم. مركزها الجغرافي جعلها طريقاً سالكة نحو الشرق والشمال. وهما هدفان مهمان ليوسف بعد أن استسلم له الجنوب وركز وجوده في الوسط. الاستراتيجية العسكرية تتطلب الهجوم على فاس. ولم تخضع أية منطقة أو مدينة للدولة الجديدة بدون معارك عسكرية. ولكن فاس ومنطقتها لم تخضع

بسهولة. وكان يعرف ذلك. ولو كان على علم قليل بالتاريخ ـ ولا شك أنه كان يسمع قصصاً عنه ـ فالحروب التي درات ضد الأدارسة، والحروب التي قام بها الأمويون في الأندلس، على عهد المنصور ابن أبي عامر، مع وضد بني عطية، وقوة الدولة التي نشأت فيها، كل ذلك يجعل من الاستيلاء على فاس مغامرة خطيرة، ولكن لا مفر له من المغامرة. فهو يريد دولة للمغرب كله قبل أن تتسع آفاقه إلى المغرب الأوسط ثم إلى الأندلس.

الطريق إلى فاس محفوف بالمصاعب

الهجوم على فاس بدأ بمحاربة القبائل التي تقع على طريقها، وهي طريق حافلة بالقبائل القوية وقد حاربها حتى انتصر عليها، وتقدم نحو فاس.

فاس كانت ما تزال تحت قيادة عقب زيري بن عطية الذي أنشا فيها دولة بني عطية. وكانت من أقوى الدول الزناتية التي عملت للاستيلاء على المغرب المعروف لديهم آنذاك: شماله وشرقه. وكان لهذه الدولة صراع مع الأمويين في الأندلس. واكتسبت قوة لم تضعف بالحروب التي عرفتها المنطقة، وفاس نفسها، حتى بين الأخوين (الفتوح وعجيسة) اللذين اقتسما فاس، وتحاربا داخلها حتى قتل هابيل قابيل ـ الفتوح عجيسة. واستمرت فاس تحت سلطة عقب ابن عطية. فكانت ـ ويوسف بن تاشفين يقترب منها ـ تحت حكم معنصر ابن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية. وقتل معنصر هذا في معارك مع جيش يوسف، فبويع ابنه تميم من بعده.

جيش يوسف حارب من أجل فاس ـ دولة قائمة لها جذور في تاريخ المدينة ولها صلة بنواحيها. ولذلك ليس بغريب أن يحاصرها الجيش بعد أن مهد الطريق عسكرياً لاحتلالها ثم يرتد عنها وينهزم. ثم يعيد الكرة ثانية، ثم يفتحها ثانية ويقتل عامله عليها وتطرد سلطة يوسف عنها، حتى إذا كان الفتح الثالث إستطاع أن يستولي على المدينة لتنضم نهائياً إلى دولة المرابطين.

الحصار الأول كان سنة 454 هـ ورغم قتل عاملها ورغم أنه إستولى على جميع الأحواز فكان حصاراً شديداً، فإن المدينة امتنعت عليه فرحل عنها. المحاولة الثانية كانت بعد سنة فدخلها ونصب عليها عاملاً، وانصرف شرقاً ليكمل المسيرة. ولكن ملكها تميم بن معنصر عاد إلى فاس واحتلها وقتل عامل يوسف. وكانت المحاولة الثالثة بعد معارك طاحنة مع تميم ـ الذي انتصر في بعض المعارك مع حلفاء يوسف، وخاصة حاكم مكناس المهدي بن يوسف ـ وقتل تميم دون فاس. ولكن متزعماً آخر نهض لقتال جيش يوسف بن تاشفين، فانهزم جيش القائد المرابطي. وعاد يوسف بجيشه القوي الذي كان يحارب وينتصر في جبهات في الشمال، لأن فاس كانت هدفاً أسمى، إنهزم جيشه دونها. فحاصر المدينة حصاراً قوياً حتى دخلها عنوة بعد قتال عنيف في الشوارع والدور والمساجد. وكان هو الفتح المبين (الثالث) ودانت المدينة للمرابطين سنة 462 هـ (1070 م) بعد أن كانت مسرحاً لحروب طاحنة نحواً من ثمان سنوات لم يعرف يوسف حرباً مثلها في استيلائه على المغرب.

شيء طبيعي أن تمتنع عليه فاس لأنها كانت مركز القوة لقبائل زناتة. واللمتونيون صنهاجيون. تنتصر صنهاجة على زناتة في كثير من المواقع وتنتصر زناتة في مواقع أخرى. ولكن حينما يتعلق الأمر بمركز الدولة القوية الزناتية (بني عطية) الذين نازلوا بني زيزي وبني حماد والأمويين من قبل لا يمكن أن يستسلموا بسهولة. ولذلك قتل عدد من أمرائهم في حربهم ضد اللمتونيين.

ماذا فعل يوسف بفاس؟

الرواية تقول إنه أحسن إليها فهدم السور الذي كان يفصل بين عدوتي القرويين والأندلس ليجعل منهما مدينة واحدة. وبنى المساجد ـ وأمر السكان أن يبنوها وإلا عوقبوا ـ والحمامات والأسواق. . .

لم يكن ليتخذ منها عاصمة لبعدها عن الصحراء. ولو أنها أقرب إلى

الشمال، وكان الشمال مهما، ليس لأنه سيتخذ منه معبراً إلى الأندلس، فلم تكن فكرة الأندلس قد تبلورت في استراتيجيته، ولكن لأن طنجة وسبتة كانتا مهمتين، فقد تعرض المغرب عن طريقهما إلى متاعب من الأمويين. ومن سبتة كانت جيوش المنصور بن أبي عامر تتجمع لمحاربة الزيريين في المغرب الأوسط، ولمحاولة القضاء على بني عطية في فاس. وفي سبتة تحصن الإدريسيون في مرحلة من مراحل محاولتهم لاستعادة السلطة. ثم هما ثغران مفتوحان على البحر. ورغم أن يوسف لم يكن بعد يقدر أهمية البحر في بناء استراتيجيته، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن البحر وأهميته الستراتيجية، إلا أن أهمية الثغرين المهمين كانت مما يضعه في حسابه.

تألفه للقبائل وزعمائها

الأساس الرابع من استراتيجيته كان سياسياً. فإنه ليعرف أهمية القبائل في تكوين الدولة، وفي هدمها على السواء. ورغم أنه لمتوني صنهاجي ملك معظم المغرب وقويت سلطته وشوكته، فإنه اهتدى إلى استرضاء زعماء القبائل وأمرائها فاستدعاهم من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل المغرب فبايعوه وأكرم مثواهم وأصحبهم معه لتفقد المناطق التي افتتحها.

قام بهذه المبادرة ليستأمنهم ـ كلما أمكن ذلك ـ وليروا بأعينهم ما كانوا يسمعون عنه بآذانهم حول المناطق التي استولى عليها واتساع مملكته. ويبدو أنه حقق الكثير مما كان يهدف إليه. فقد أصبح الملك غير المنازع من هؤلاء الزعماء الأمراء الذين كانت لهم مكانتهم في قبائلهم.

وكما اختار قواده على جبهات القتال (الأساس الثاني في الستراتيجية) اختار الحكام المدنيين على الجهات. فولى أربعة من الولاة على مناطق شاسعة من المغرب الذي فتحه، وكان منهم ابنه تميم الذي اختصه بمنطقة مهمة لها بعد إستراتيجي خطير وهي مراكش وأغمات وسوس وبلاد المصامدة وتادلا وتامسنا.

اختار ابنه لأنه كان يمنحه ثقة لا يمنحها لغيره. ولم يكن يظن به السوء. فالمنطقة تمثل الخلفية التي تحمي ظهر الدولة وقد اتسعت شمالاً، وما يزال يخطط لإنهاء احتلال الشمال والشرق، وما يزال يخطط للوصول إلى تلمسان.

الاتجاه نحو الشمال والشرق

الأساس الخامس للاستراتيجية استكمال احتلال الشمال بافتتاح طنجة وسبتة. ومهد لفتح طنجة بالاستيلاء على غمارة والريف. وكان يعرف أن طنجة ممتنعة وفي حاجة إلى حرب ضارية، لأن حاكمها كان هو «سكوت البرغواطي» هذا الرجل كان من عمال بني حمود في الأندلس، وكانوا يعتبرون أن طنجة وسبتة تابعتان للأندلس وقد حكم طنجة سكوت البرغواطي نائباً عن بني حمود، ولكنه استقل بها بعد انهيار سلطة بني حمود. ولذلك اعتبرها يوسف صعبة المنال. ورغم صلابة سكوت وعزمه القوي للدفاع عنها، فلم يكن له قبل بالقوة العسكرية التي جهزها يوسف تحت قيادة صالح بن عمران، انتصر هذا القائد على سكوت فقتله وضم المرابطون طنجة.

بقيت سبتة، وهي المدينة الثانية التي كان يحكمها كنائب عن بني حمود واستقل بها. فلما قتل سكوت اعتصم بها ابنه يحيى ضياء الدولة. ولن يفتحها المرابطون إلا بعد نحو خمس سنوات من فتح طنجة لانشغالهم بالحرب في شرق المغرب وغرب الجزائر. وكان المعتمد ابن عباد قد اقترح على يوسف أن يجتاز إلى الأندلس فاعتذر له بالقوة التي تحكم طنجة وسبتة وهما الثغران اللذان يمكن لقواته أن تجتاز البحر منهما. ولا يمكن أن يغامر باجتياز البحر إذا لم يحم ظهره، فاقترح ابن عباد أن يحاصر هو سبتة من البحر ويوسف من البر حتى يمكن الاستيلاء عليها. وتضافرت قوة ابن عباد مع قوة المرابطين فدخلتها القوة المرابطية بعد أن انهزم يحيى وقتل كما قتل أبوه.

ذلك يؤكد مناعة سبتة وقدرتها على التحصن. كما يؤكد أن محاصرتها بحراً له أثر في احتلالها والبحر لعب دوراً مهما في احتلال المدينة، سواء في

عهد الأمويين أو الحموديين أو المرابطين أو الإسبانيين في الأخير. التاريخ يعيد نفسه. ولكن الجغرافية تتحكم. ورغم أن يوسف بن تاشفين احتل الريف واحتل طنجة فقد أجل سبتة حتى كان الحلف الأندلسي المغربي ليضمها إلى مملكته.

الأساس السادس لاستراتيجية يوسف بن تاشفين الاستيلاء على شرق المغرب وغرب الجزائر. وبدأ تنفيذ هذه الستراتجية بالاستيلاء على شرق المغرب من تازة والريف حتى وجدة وكرسيف. وكان الاستيلاء على غرب الجزائر سهلاً فاستولى على تلمسان ووهران وانتهى به الأمر إلى مدينة الجزائر مخترقاً جبال ونشريس وسلف.

التاريخ يتوقف شرقاً

يبدو أن التاريخ لا يسعف دائماً الأباطرة.

يوسف بن تاشفين فكر في إمبراطورية واسعة تشمل المغرب العربي حتى حدود مصر. كان ولا شك يعرف ما قصد إليه العبيديون، وما استهدفه الأمويون. وكان إلى جانب ذلك يفكر في أن إمبراطوريته يجب أن تشمل ما بين نهر السينغال حتى طرابلس.

وإذا كان قدر التاريخ سيصل بهذه الإمبراطورية شمالاً إلى الأندلس (وسنتناول الموضوع في فصل آخر) فقد وقف به هذا القدر عند الجزائر. لم يستمر للظروف الداخلية التي كانت تعانيها كل من تونس والجزائر، وللظروف الخارجية التي فتحت أبواب الحروب الصليبية في وسط البحر الأبيض المتوسط.

عهد المرابطين الذين أنشأوا الإمبراطورية عهد قصير لم يزد على 89 سنة هجرية. باعتبار بداية المؤسس: يوسف بن تاشفين سنة 453 هـ ولكن العهد إنحدر بعد وفاته على عهد ابنه علي ثم انتهى على عهد حفيده تاشفين الذي طارده الموحدون حتى قضى هاوياً من شاهق قريب من وهران سنة 539 هـ ومثل هذه الإمبراطوريات تنهار بعد المؤسس، لأن خلفاءه لا يتمتعون بالقدرة ولا بالحيوية التي ترفع المؤسس إلى السلطة، ولأن خصوم الدولة ـ والتاريخ يولد الخصم ـ عند بداية مرحلة الانحدار ـ يكونون أقوى وأكثر إمكانات، لأنهم في مرحلة الصعود.

وإذا كان الذي يبدأ قراءة تاريخ المرابطين، منذ عهد عبد الله بن ياسين يصعب عليه أن يفهم تصرفات التاريخ في الصعود الصاروخي في عهد يوسف

لمدة 47 سنة ثم الإنحدار السريع في نحو 30 سنة، فإن الظروف التي أحاطت بالمنطقة من جهة، وضعف الشخصية التي وليت الحكم بعد يوسف من جهة أخرى تبرر حكم التاريخ.

وتأسيس إمبراطورية واسعة الأبعاد في ذلك التاريخ (المائة الرابعة) ليس عملية سهلة يهضمها التاريخ بيسر. وسنحاول أن نوضح هذه الظروف الخارجية على الأقل، والتي يبلورها تاريخ بقية أقطار المغرب العربي في هذه الفترة، بصورة عن نهاية هذه الدولة. لتكتمل الصورة التي رسمناها من قبل عن نشأة الدولة المغربية وظروفها الداخلية والخارجية.

الفاطميون يدمرون الزيريين:

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر م.) بدأت الدولة الزيرية الصنهاجية في تونس تشهد انحدارها. آخر ملوكها الكبار المعز بن باديس الذي ولي الملك أو الإمارة في بداية القرن، 406هـ (1015 م). وكان حصيف الرأي، قاد الدولة بحكمة ودهاء في الداخل فكسب ود المواطنين، وفي الخارج فكان على وفاق مع الفاطميين في مصر (وهم أولياء نعمة الدولة لأنها نشأت كتابعة للفاطميين كما قدمنا). كما كان على صلة طيبة بدول إفريقية، وبقسطنطينة، كانت تونس دولة قوية مسالمة محترمة الجانب على عهد المعز نحوا من ثلاثين سنة.

العلاقة مع الفاطميين لم تستمر بعد ذلك. فقد قام صراع بين الشيعة، وبقية المذهب الذي نشره الفاطميون، والسنة في القيروان، واعتدى الشيعة على السنة في مذابح دامية. وأخذ المعز جانب السنة وألغى مذهب الشيعة لصالح المذهب المالكي، وقطع صلته بالفاطميين. وكانت الدولة تقوم على أساس الولاء لهم. ومن المؤكد أن الفاطميين لم يقبلوا الأمرين معاً: الصراع الشيعي ضد السنة وانصراف الدولة عن الولاء التقليدي للدولة الأم. فكان ذلك بداية نهاية الدولة. والفاطميون قادرون إلى تحقيق هذه النهاية.

لم تكن المعركة ضد الشيعة معركة عارضة، بل إنها سياسة مدبرة سلكها المعز منذ بداية ولايته. تتمثل في مطاردة الشيعة ونشر المذهب المالكي والتاريخ لا ينكر أن الخلفاء الفاطميين: الحاكم بأمر الله أشهر خلفاء الفاطميين (386 هـ ـ 411 هـ) والظاهر لإعزاز دين الله (411 هـ ـ 427 هـ) والمنتصر بالله (427 هـ ـ 487 هـ) ظلوا يجاملون باديس والمعز ابنه طمعاً في الحفاظ على ولاء الزيريين للفاطميين. فقد كان الزيريون يعلنون التبعية للفاطميين، ويخطبون لهم على المنابر حسب الاتفاق الذي تم بين المعز لدين الله وزيري بن مناد. ولكن الدولة الزيرية حينما تمكنت بدأت شيئاً فشيئاً تتخلص من هذا الالتزام الذي يربطها بالفاطميين في مصر، حتى كان عهد باديس بن منصور، حينما بدأ الصراع المذهبي يشتد بين الشيعة والمالكية، فقد سلك الشيعة سبيلهم لتركيز المذهب الإسماعيلي في تونس عن طريق الدروس في المساجد وتكوين الخلايا. وهو نفس الخط الذي سلكه الشيعيون في الدعوة لمذهبهم منذ كان المذهب الشيعي. بل إن كل الدعوات السرية (الخوارج مثلاً) كانت تسلك نفس المخطط. والسنيون أيضاً كانوا ينشرون الدعوة سراً في القيروان. الصدام بين الحركتين السريتين هو الذي فجر الموقف.

الصراع المذهبي إذن انتهى بالمذابح المتبادلة بين الشيعة والسنة حتى كانت المذبحة الفاصلة في عهد المعز بن باديس. وقضى نهائياً على المذهب الشيعي في بلاد المغرب سنة 443 هـ.

إعلان إنفصال الزيريين عن الفاطميين لم يكن عملاً فردياً يهم المعز بن زيري، ولكنه وهو يفصل دولة مهمة عن مرجعيتها السياسية والمذهبية، كان في الوقت نفسه يحفر ثغرة في توسع نفوذ الفاطميين السياسي في المغرب. وكان ذلك يسند توسعهم في الشرق، الحجاز والشام والعراق، بل كان يسند مواقفهم العسكرية حتى مع الدولة البيزنطية، التي كان نفوذها في البحر المتوسط يزعج القوة الكبرى هناك وهي الدولة الفاطمية.

المهم أن الثورة الشعبية ضد الشيعة في تونس يسندها موقف المعز بن باديس من المذهب الشيعي ومن الدولة الفاطمية، يضاف إلى ذلك أن الحاكم بأمر الله الفاطمي بدأ ينال من نفوذ الزيريين في طرابلس، وقد حاول إنتزاعها منه.

والتاريخ يعرف أن المُعز لدين الله الفاطمي استثنى طرابلس حينما ولى زيري بن مناد على تونس. ولكن توسع سلطة الزيريين شملت طرابلس، حتى اعتزم الحاكم بأمر الله انتزاع طرابلس من سلطة الزيريين.

هكذا تحالفت السياسة والمذهبية لخلق جو خطير من التوتر أدى إلى تحول في التاريخ.

السبيل إلى ذلك، وقد استبعد الفاطميون حرب الصنهاجيين في تونس لانشغالهم بمناطق أخرى، هي الفكرة التي أشار بها وزير المستنصر بالله الحسن بن علي اليازوري، وهي تخريب الدولة من الداخل. فقد أشار بترحيل العرب الذين كانوا محاصرين في الجنوب الشرقي لمصر، حتى لا يقوموا بأعمال تخريبية في دولة مصر، وكانوا يضايقون الدولة بالأعمال التخريبية غير المتحضرة التي يمارسونها ضد الدولة من جهة، وبالصراعات التي تحدث بينهم باعتبارهم قبائل متفرقة يعيشون حياة قبلية متخلفة. أشار بترحيلهم إلى تونس. وبذلك يتخلص منهم حينما يتيح لهم فرصة واسعة لنشاطهم التخريبي، ويخلصونه من الدولة التي أوقفت الدعوة للفاطميين وحاربت المذهب الإسماعيلي وقتل فيها عدد من أتباع هذا المذهب.

وهكذا ضرب الفاطميون عصفورين بحجر.

وأوتي الزيريون الصنهاجيون من حيث لم يحتسبوا، كانوا يحتسبون لحرب مريرة تشنها الدولة الفاطمية على تونس، ولكنهم كانوا يعرفون أنها لا تستطيع ذلك لانشغالها في مناطق بعيدة في المشرق، ولأن أهمية القيروان عندها لا تعادل بأهمية بغداد، وقد أخذت تطرق أبوابها لتحقق الحلم الذي

راود الشيعة ـ وخاصة الإسماعيليين ـ منذ نشأ المذهب. وقد استطاعوا أن يستميلوا أمراء الدويلات التي انفصلت ـ أو كادت ـ عن الخلافة العباسية. وتسربوا بدعوتهم إلى العراق من خلال نفوذهم في مصر والشام وفلسطين والحجاز. وحالفوا ـ على نحو ما يكون الحلف بين الأعداء ـ البويهيين في موقفهم العدائي ضد العباسيين.

في هذه الظروف المضطربة المتوترة التي كان الفاطميون يخلقونها ويخوضون غمارها جاءتهم مشكلة التخلص من الدعوة إليهم على منابر تونس واضطهاد مذهبهم وأنصاره. ولذلك اتجهوا إلى خوض المعركة بالعرب ـ الهلاليين والسليميين ـ الذين وجهوهم إلى تونس واطلقوا يدهم في تخريبها.

تنتمي هذه المجموعة الخطيرة من العرب الذين بقوا على هامش الدول العربية إلى «بني هلال» و«بني سليم» و«رياح» و«زغبة». عانت الدولة العربية في بغداد من هذه المجموعات القبلية التي لم تندمج في المجتمع المتحضر، وعانت منها كل الإمارات، وحاصرها الفاطميون في جنوب مصر، حتى جاءت الفرصة للتخلص منهم من جهة، وتكليفهم بتدمير الدولة الزيرية في تونس من جهة أخرى.

تلك كانت بداية النهاية للدولة الصنهاجية الزيرية في تونس.

المعركة العسكرية التي قام بها المعز بن باديس ضد الأعراب (يقدر المؤرخون عددهم الزاحف بأربعمائة ألف. والعدد عند المؤرخين لا مفهوم له...؟) كانت الهزيمة نتيجتها. تحصن بعاصمته المنصورية فحاصره (جرادهم)، حاول معهم الصلح، فترك القيروان والمنصورية ولجأ إلى عامله بالمهدية ابنه تميم بن المعز. وتلك كانت نهاية سلطاته، ولو أنه عاش بعد ذلك أربع سنوات، بعد أن تخلى عن السلطة لابنه تميم. في سنة 453 هـ (لنتذكر هذا التاريخ فقد كان يوسف بن تاشفين في أوج سلطانه).

الدولة انتهت تقريباً بهزيمة المعز أمام الأعراب. ولكن فتيلها ظل ينبض

بنور خافت على عهد من أتى بعده: ابنه تميم ويحيى بن تميم وعلي بن يحيى والحسن بن علي وفي عهده انتهت دولة الصنهاجيين الزيريين التي أنشأها بلكين ابن زيري سنة 362 هـ (979 م) وانتهت سنة 543 هـ و(1148 م).

بقدر ما تكون بدايات الدول مضيئة تكون نهايتها مؤسفة، لتراكم الأخطاء، أخطاء من يتخذون القرار، ولإفرازات التاريخ لأحداث داخلية وخارجية ليس للدولة يد فيها. فالتاريخ يتحكم، والجغرافية تظل حية لتفرض أحكامها هي الأخرى على سير التاريخ.

وإذا كانت الصراعات المذهبية بين الشيعة والسنة وما تلاها من خلع المعز بن باديس طاعة العبيديين كان المعول الأول لهدم الدولة، فقد كان من شأن ذلك أن يدعو الآخرين من حاملي المعاول ليجهزوا على الدولة الصنهاجية.

قد لا تكون لأصحاب القرار في هذه الدولة يد في حمل المعاول الأخرى، ولكن هي الجغرافية، وهي إفرازات التاريخ تتحكم في مصير الأحداث.

الخطر هذه المرة أتى من الشمال. وبلاد المغرب العربي لم يكن لها أعداء من الجنوب. فالصحراء كانت عاصما لها من الزحف الإفريقي، حتى لو كان هناك زحف، ولم يكن لها أعداء من الغرب فالمحيط الأطلسي لم تكن الحياة قد دبت فيه بعد. ولذلك كان في عرف الجغرافية السياسية محيطاً ميتاً. ولم يكن لها أعداء من الشرق. والفتوحات التي تمت من الفينيقيين حتى العرب، كانت فتوحات حضارية ـ بالرغم مما صاحبها من عنف ـ أو انتهت إلى فتح حضاري ديني، وليس فتحاً تخريبياً، إلا زحف الأعراب الذي دبر بليل ضد الدولة الصنهاجية في تونس.

ـ خطر الصليبية في الشمال على تونس

إذن فالخطر يأتي من الشمال. وتشاء الأقدار أن يرتبط بالصليبية لأن

الذين أتى الخطر على أيديهم حملوا الصليب في الشمال ليواجهوا الجنوب، وهم يعتبرون أنهم يواجهون الهلال.

الخطر القاتل الذي أنهى الدولة الصنهاجية في تونس ـ متضافراً مع خطر زحف القبائل الأعرابية ـ هو الزحف النورماندي.

أقرب مكان إلى تونس في الشمال (وسط أوروبا) هو صقلية. كما أن أقرب مكان إلى المغرب في غرب أوروبا إلى المغرب هو الأندلس. وقد كان من الطبيعي أن يعزز الإسلام مكانته في المناطق التي انتصر فيها وشمال إفريقيا عمّها الفتح الإسلامي. ولا يمكن أن يضمن له الاستقرار والاستمرار إلا إذا تعزز بفتح المناطق القريبة.

هكذا تحكم الجغرافية. وهكذا يطيع التاريخ.

لذلك فكر الفاتحون المسلمون في فتح صقلية وهم يستقرون في تونس، كما فكروا بعد ذلك في فتح الأندلس، وهم يستقرون في المغرب.

الفتح العربي لصقلية بدأ مبكراً سنة 212 هـ وكما انتبه طارق بن زياد إلى أن فتح المغرب وإقرار الإسلام فيه لا يتم إلا بفتح الأندلس! انتبه زيادة الله بن إبراهيم، الشخصية التي دعمت حكم الأغالبة في تونس، إلى أن الإسلام لن يستقر له قرار إلا بفتح صقلية.

الجغرافية تحكمت في التفكيرين معاً. فالخطر لن يأتي للمغرب إلا من النصرانية في الأندلس ولن يأتي لتونس إلا من النصرانية في أقرب مكان تحكمه الدول البيزنطية النصرانية في أوروبا وهو صقلية. من المؤكد أن البابوية كانت تعمل في كل مكان من بلاد النصرانية تحسباً من المد الإسلامي. وإذا كانت قد وجدت الدليل في افتتاح المسلمين لمصر، واحتلال الإسكندرية عاصمة من عواصم الحكم البيزنطي، وكما أن الإسلام ناجز الدولة البيزنطية والمناطق التابعة لها منذ عهد عمر، فقد فكر حماة النصرانية في أن يحصنوا المناطق التي تحتلها دول مسيحية ومنها الأندلس في إسبانيا وإيطاليا والجزر القريبة منها ومنها صقلية.

الحذر كان متبادلاً من الجانبيين. والموضوع ديني وسياسي في آن:

المسلمون يريدون أن ينشروا الإسلام في كل مكان يمكن أن تصله الدعوة. ولكنهم في الوقت نفسه يريدون أن يدافعوا عن الإسلام من كل جهة يمكن أن تقف في وجهه قوة مضادة.

والمسيحيون كانوا ينشرون النصرانية في كل مكان تصله الدعوة. وفي الوقت نفسه يريدون أن يدافعوا عن المراكز المسيحية حتى لا يعمها الإسلام، وإن اقتضى الأمر بالمناجزة والحرب.

هذا هو سر الصراع الأبدي بين الإسلام وخصومه. وكما تمثل في المشرق في هجوم النصرانية على بلاد الشام وفلسطين ومصر، تمثل في بلاد المغرب في هجوم النصرانية من صقلية نفسها على تونس، ومن إسبانيا على الأندلس ثم المغرب.

صقلية الإسلامية من البداية إلى النهاية

لا نسبق الأحداث ونحن نشير فقط إلى صلة تونس بصقلية فقد فتحها زيادة الله الأغلبي بقيادة الفقيه الصالح أسد بن الفرات. وتلك هي الغلطة الأولى، فهو رجل فقه، وليس عمرو بن العاص، ولا طارق بن زياد رجلي الحرب والسياسة.

لم يوفق الفتح الأول، الذي فقد فيه المسلمون كثيراً من القادة والمجاهدين، وأنجد المسلمون الأندلسيون المجاهدين في صقلية. واستعاد المسلمون نفسهم فاحتلوا كثيراً من المناطق بقيادة قادة أغلبيين، وانتهى الأمر بالاستيلاء على الجزيرة بعد تضحيات جلى، كان يمكن توفيرها لو كانت القيادة العسكرية منذ البداية في مستوى المعركة التي قرر زيادة الله أن يخوضها.

ومن صقلية فتح المسلمون مالطة. وأخذوا يتطلعون إلى إيطاليا فهاجموا الشواطىء الإيطالية، واستطاعوا أن يحتلوا روما سنة 232 هـ في عهد محمد

ابن إبراهيم بن الأغلب رداً على هجوم مباغت قامت به جيوش نصرانية متحالفة على الشواطىء التونسية. ولم يستمر احتلال روما، مركز البابوية، لأن هدف الجيش كان هو النهب والغنائم.

نترك التاريخ يتصرف لنأخذ منه حقيقتين:

أولاهما: أن تونس إمتدت بالإسلام إلى صقلية ومالطة وروما ـ التي لم يطل احتلالها، ولم يصلها الإسلام ولو وصلها جنود المسلمين.

ثانيتهما: أن صقلية، وحكامها من النصارى، انتقمت لنفسها فهددت تونس في عدة غزوات واحتل الحاكمون النصارى فيها العاصمة «المهدية» في عهد الدولة الصنهاجية الزيرية. وكانت صقلية أحد سببي انهيار هذه الدولة الماجدة.

لا نعنى بالتفاصيل، فالخلاصة تؤكد الحقيقة التي أشرنا إليها. ذلك أن صقلية سقطت في أيدي النورمانديين. بعد أن استمرت تحت الحكم الإسلامي 270 عاماً في أيدي الدول التي تعاقبت على تونس في العهد الفاطمي والعهد الصنهاجي. ولم يستطع النورمانديون أن يحتلوا الجزيرة بمساعدة البابوية إلا سنة 484 هـ (1091 م) بعد أن ضعف الحكم في تونس بانتهاء عهد الأغالبة، ثم رحيل الفاطميين إلى مصر، ثم ضعف الدولة الصنهاجية.

حاول الصنهاجيون في عهودهم الأخيرة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وبعد هزيمة المعز بن باديس أمام العرب، تكوين قوة بحرية، ربما للتعويض عن الهزيمة في البر وربما أيضاً لإرهاب النورمان، وقد توقعوا أن يغيروا على تونس بعد ضعف دولتها، وربما، ثالثاً، لمناجزة خصومهم الزناتيين الذين استولوا على طرابلس. غير أن الأسطول ومناجزة الخصوم في الحرب على عهد ضعف الدولة لم يعد عليها إلا بالشر.

ذلك أن النورمانديين أغاروا عدة مرات على الشواطىء التونسية واستولوا أخيراً على العاصمة المهدية التي احتلوها وجلوا عنها عدة مرات في حروب

متوالية ينتصر فيها النورمان ثم يتغلب عليهم التونسيون ويعيدون الكرة حتى استولوا على جزيرة جربة وعلى السواحل التونسية جميعها بما فيها المهدية.

كان ذلك في منتصف القرن السادس الهجري (منتصف القرن الثاني عشر الميلادي).

هكذا تضافر نصارى الشمال مع عرب الشرق على احتلال تونس والقضاء على الدولة البربرية الصنهاجية التي حققت لتونس مجداً وحضارة وحكماً سليماً.

لنتذكر دائماً أن بداية الانحدار والسقوط للدولة الزيرية كان يتفق مع عصر الصعود والتمكن لدولة صنهاجية أخرى هي دولة المرابطين. لم يكتب لهما أن يلتقيا حتى للتناوب على الحكم في تونس. فقد توقف يوسف عند الجزائر البلاد التي كان يحكمها الشق الثاني من الدولة الزيرية: دولة بني حماد.

كيف دبرالتاريخ وجود دولتين صنهاجيتين على أرض الجزائر إحداهما صاعدة والأخرى غاربة؟

ذلك ما سنشير إليه في الفقرة القادمة.

نهاية دولة بني حماد

دولة بني حماد، التي امتد توسعها في بعض فترات تاريخها إلى فاس، كانت أقرب إلى نفوذ المرابطين من دولة زيري الصنهاجية في تونس. وبذلك كان على يوسف أن يصطدم بها أو يتحاشاها، وهو يمتد بنفوذه إلى المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر.

هناك عاملان مهمان جعلا يوسف بن تاشفين يتحاشى الاصطدام مع بني حماد أصحاب القلعة وبجاية:

أولهما: أنه تأكد من أن الدولة تسير نحو السقوط. ولعله آمن بأن

التاريخ في صالحه. ولذلك وفر على نفسه حرباً هو مدعو أن يتوجه بها إلى عدو حقيقي يهدد الأندلس.

ثانيهما: الدعوة الملحة التي تلقاها من المعتمد بن عباد لينجد الأندلس. وكان قد اعتذر بأن سبتة ما تزال خارجة عن نفوذه. وهو لا يستطيع أن يبحر بجيوشه من موانىء لا يسيطر عليها تماماً. ومعنى ذلك أنه أيضاً لا يستطيع أن يخوض حرباً مع دولة قوية، أو كانت قوية متمكنة من المغرب الأوسط وهو مدعو أن يدافع عن الإسلام في بلاد أعزت الإسلام والحضارة الإسلامية، وأصبحت الآن مهددة في إسلامها وحضارتها.

التاريخ كفاه شر إحدى الحربين. ولكنه دفع ثمن ذلك من توقف نفوذ المرابطين عند الجزائر. وكان طموحه أوسع من ذلك. فقد حاول أسطوله أن يغزو صقلية. لا يؤكد التاريخ إذا ما كانت هذه المحاولة مساهمة في الدفاع عن تونس التي تهددها الصليبية من هذه الجزيرة ـ العائدة إلى المسيحية ولم تختف منها مآذن الإسلام ـ التي سيطر عليها النورمان فقضوا على النفوذ الإسلامي فيها؟ أم إنها تلبية لمنطق السيطرة على المنطقة جميعها؟ أم تحسبها لصيانة حربه المنتظرة في الأندلس حتى لا يجد نصارى إسبانيا سنداً من نصارى صقلية؟ مهما يكن فإن هجوم الأسطول المرابطي على صقلية كان خطراً على سلامة تونس. فقد حسب النورمان أن ذلك كان باتفاق مع الزيريين، فشددوا من هجماتهم على الدولة التي تحتضر. واحتلوا المهدية في إحدى المرات التي احتلوها فيها.

لعل التاريخ لا يربط بين الدولتين (الحمادية والزيرية) إلا في مرحلتي الصعود والسقوط.

ما عدا مرحلتي البداية والنهاية فقد جمعت بينهما حروب لم تكن غريبة على الأقرباء حينما يصلون للسلطة. خاصة وأن باديس لم يكن يتصور أن عمه حماد سيكون دولة قوية بعاصمة متميزة في المغرب الأوسط. وقد استعرت نار

الحرب بين باديس وحماد ثم بين حماد والمعز بن باديس، حتى وجد حماد ألا قبل له بدولة بني أخيه فركن إلى الصلح. واقتنع الجانبان بمصلحتهما في المصالحة.

وقد عرفنا كيف قامت دولة بني حماد بتولية باديس بن المنصور لعمه حماد بن بلكين على بلاد الجزائر، على أن يتملك كل المناطق التي يحتلها في وجه الثورات الصغيرة التي تثيرها زناتة في وجه صنهاجة. ومنهم زيري بن عطية الذي كان يقيم دولته في فاس تابعاً للأمويين تارة وثائراً عليهم تارة أخرى.

زحف الأعراب لم يتوقف عند تونس، فقد كان الطريق أمامهم سهلاً بعد أن ركزوا نفوذهم في منطقة القيروان وهزموا المعز بن باديس. وانطلقت جحافل منهم إلى الجزائر فهجموا على جبل راشد ومصاب والزاب الشرقي وانهزمت الدولة الحمادية في وجههم كما انهزمت الدولة الزيرية في تونس. وانهزم أمراء آخرون كبني خزر في تلمسان. واقتسم بنو هلال وبنو سليم المنطقة. فكان لبني سليم الناحية الشرقية ولبني هلال الناحية الغربية من الجزائر.

فهذا هو السبب المشترك الأول في سقوط دولتي بني زيري التونسية والجزائرية.

لماذا لم يتجاوز ابن تاشفين مدينة الجزائر؟

والسبب الثاني ـ وهو خاص بدولة بني حماد ـ طموح يوسف بن تاشفين لضم المغرب الأوسط إلى الوحدة المغربية تحت قيادته. ورغم أن دولة بني حماد استعصت عليه لأنها كانت ما تزال أقوى من أن يهضمها يوسف بن تاشفين، فقد، هاجم القطر الجزائري حتى مدينة الجزائر. وأجلى المنصور بن الناصر جيوش ابن تاشفين عنها، ثم عاودت الكرة حتى دانت أخيراً للمرابطين ومدينة آشير كذلك، وهي المدينة التي أقطعها باديس إلى حماد قبل أن يبني القلعة.

الصراع بين المرابطين والحماديين استمر طويلاً. ولم يستطع المرابطون من أجل ذلك أن يمدوا نفوذهم في المغرب الأوسط فتوقفت دولتهم في حدود الجزائر لينصرف يوسف إلى الأندلس. ولعله اكتفى بذلك لقوة دولة بني حماد من جهة، ولأنه استأمن على دولته من هجوم الحماديين مرة أخرى على شرق المغرب حتى مدينة فاس بعد أن تأكدوا أن قوة المرابطين لا يمكن أن تقهر، وهي تسيطر على جزء من المغرب الأوسط وكل المغرب الأقصى حتى حدود إفريقيا السوداء مما يلي الصحراء.

أما الحماديون فقد عانوا محنة ثالثة كانت من أسباب سقوط الدولة وهي هجوم النورمان الذي تخطى حدود تونس فوصل إلى الجزائر اتقاء من مساعدة بني حماد للتونسيين بعد أن احتل النورمان المهدية وتونس. وكان هجوم النورمان على الجزائر شديداً حتى احتلوا مدينة جيجل ودمروها ثم برشك وشرتشال وتنس.

فهذه الأسباب جميعها جعلت دولة بني حماد لا تصمد في وجه الأعاصير رغم أنها كانت أكثر صموداً من دولة الزيريين التي سقطت أمام عاملين: الأعراب والنورمان، دولة بني حماد هاجمت تونس واستولت عليها بحجة الدفاع عنها ضد النورمان. ولعلها بذلك كانت تحمي نفسها من المرابطين والموحدين بعدهم، ومن النورمان. ولكن مصيرها كان مقرراً بصعود دولة الموحدين. وقد وجدت هذه الطريق مفتوحة بعد أن خطها المرابطون، ثم ضعف الدولة أمام العوامل التي ذكرنا. وكانت نهاية دولة بني حماد بوقوع القطر الجزائري تحت سلطة الموحدين سنة 547 هـ 1242 م بعد أن حكمت نحوا من 150 سنة.

* * *

نهاية الدولتين الزيريتين لم تفد يوسف بن تاشفين في بسط نفوذ المرابطين على المغرب العربي، ولكن نهاية الأولى في تونس وضعف الثانية

في الجزائر جعلته يقدم على نصرة الإسلام في الأندلس وهو مطمئن البال على مملكته الواسعة في المغرب الأقصى. ومشكل هذه الدول جميعها أن رؤيتها للوضع السياسي والعسكري في المنطقة لم تكن شاملة. ولذلك كان يوسف يخشى على مملكته ليس فقط من النصرانية في الأندلس وصقلية، ولكن كذلك من ملوك بني حماد في الجزائر، الذين هاجموا المغرب في بعض الفترات حتى فاس. وكان هؤلاء بدورهم لا يخشون على مملكتهم من النورمانديين والأعراب الذين دمروا دولة بني عمهم في تونس، بقدر ما يخشون من صنهاجي تونس حتى وقعت بين الدولتين حروب مدمرة، وبقدر ما يخشون على مملكتهم من المرابطين الصاعدين في المغرب حتى حدثت بينهم حروب من أجل الجزائر ومن أجل تلمسان على نحو ما عرفنا.

ولعل يوسف بن تاشفين قد اطمأن على مملكته من الشرق قبل أن يقرر إنجاد المسلمين في الأندلس.

المغرب في الأندلس
والأندلس في المغرب

المغاربة لم يجتازوا المضيق إلا أثناء الفتح الإسلامي

لا يكاد التاريخ يعرف صلات سياسية أو عسكرية بين الأندلس والمغرب قبل الفتح الإسلامي للضفة الشمالية من البوغاز. ورغم أن المغرب كان محط غزو الرومان ثم الوندال الأوروبيين، فإن إسبانيا التي لم يكن لها استقلال دولة ولا وحدة شعب، شغلت بنفسها، وبالصراع أولاً بين الوندال والقوط حول السيادة وهما شعبان أجنبيان عن إسبانيا. وشغل الملوك القوط بالصراع الداخلي بينهم لأخذ زمام السلطة وتوحيد البلاد تحت سلطان الغالب منهم، شغلوا عن التفكير فيما فكر فيه الرومان أو الوندال من قبل الوصول إلى إفريقيا، وأقرب مكان إليهم منها هو المغرب.

والمغاربة أنفسهم شغلوا بمشاكلهم، وصراعهم ضد الغزاة ثم الصراع الداخلي القبلي بينهم، ولذلك لم يفكروا في أن يجتازوا المضيق لغزو ما وراء البحر. وهم شعوب جبلية وصحراوية وسهلية.

إشارة بسيطة تلفت نظر بعض المؤرخين تشير إلى نوع من الصلات غير واضحة للقوط الإسبانيين بالمغرب قبيل الفتح حينما يزعم بعض المؤرخين أن الصراع حينما اشتد بين روذريق الحاكم المسيطر على إسبانيا في بداية القرن الثامن الميلادي وبين أبناء ملك سبقه في الحكم هو «غيطشة»، فاضطهد روذريق أبناء هذا الملك الذي لعب دوراً مهماً في توحيد إسبانيا، ولو أنه لم ينجح في أن يترك لأولاده أو الحاكمين بعده بلداً قوياً يستطيع أن يصمد

للأحداث التي غيرت مجرى التاريخ، وهي الفتح الإسلامي.

بعض المؤرخين يقولون إن أبناءه الذين اضطهدهم خلفه روذريق بعثوا رسلاً إلى المغرب يدعون العرب إلى القدوم إلى إسبانيا. ويزعمون أن هؤلاء الأبناء انضموا للعرب أثناء الفتح الإسلامي، وأنهم لعبوا دوراً في التمهيد لهذا الفتح.

الصلة الأقوى بين الشمال والجنوب هي هذه التي تكرسها شخصية تدعى يوليان الذي كان يحكم سبتة وما حواليها. ورغم اختلاف المؤرخين في أصل هذه الشخصية حتى إن بعضهم ينكر وجوده ويعتبره شخصية أسطورية صاغتها الأسطورة أثناء الفتح الإسلامي، فإن الثابت من الروايات المتضاربة أنه شخصية حكم منطقة سبتة لصالح البيزنطيين. وأنه تمكن من المنطقة بفضل العلاقات الودية التي أنشأها مع القبائل المجاورة. وتؤكد بعض الروايات أنه قوطي من الفئة المتمردة على سلطان روذريق، انتقل جنوباً إلى سبتة وحكمها.

يحيط الغموض بكل هذه الروايات التي لا يكاد الباحث يطمئن إلى إحداها، خاصة وأنه من الصعب أن نسلم بأن المغاربة سمحوا لهذا الأجنبي الغريب أن يحكم منطقة استراتيجية هي سبتة. ولكننا لا نستطيع أن ننكر وجوده أو نقبل أسطوريته خاصة وأن المؤرخين العرب يجمعون على أنه لعب دوراً في التعامل مع موسى بن نصير في فتح الأندلس. لماذا لعب هذا الدور؟ هل انتقاماً من الدولة القوطية وحاكمها روذريق؟ هل لأنه وجد نفسه محاصراً بالعرب، ولا يمكنه الاحتفاظ بحكمه لمنطقة سبتة التي أصبحت محاصرة بالعرب الفاتحين وبالبربر المجاهدين؟ ثم لماذا لم يحاربه العرب والبربر ليخلصوا المنطقة من حكم هذا الغريب؟

والمهم عندنا في هذا الموضوع هو أن يوليان ربط صلة بين الشمال والجنوب، سواء كان قوطياً كما تزعم بعض الروايات، أو ممثلاً للبزنطيين كما

تزعم أخرى. وهي صلة شكلية لم يكن لها تأثير في سير التاريخ إلا ما تقوله الروايات التاريخية من أنه تعاون مع العرب والبربر أثناء الفتح الإسلامي للأندلس.

ولكن اللقاء الحقيقي الأول بين العدوتين منطلقاً من الجنوب إلى الشمال كان أثناء الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

الحديث عن السبب «المباشر» للفتح لا يقدم ولا يؤخر في الموضوع، فسواء كان يوليان دعا موسى بن نصير وشجعه على الفتح انتقاماً من روذريق، أم إن الفتح كان نتيجة طبيعية واستمراراً للمسيرة الإسلامية منذ خرجت من الجزيرة العربية على عهد عمر لفتح مصر، وهذا ما تؤكده أحداث التاريخ ولم تقف حتى واجهها المحيط. ولكن البوغاز ليس هو المحيط. وقد يكون الحديث إلى يوليان حاكم سبتة مما جعل موسى يتعرف على الأندلس ويستسهل القفز على البوغاز. والرواية تقول: إن موسى بعث بسرية صغيرة (500 مقاتل) بقيادة طريف بن مالك لاختيار المكان إتباعاً لنصيحة الخليفة في دمشق «الوليد بن عبد الملك»، هذه الرواية تؤكد أن موسى وقائد الحملة طارق بن زياد كانا مستعدين فكرياً ونفسياً وعملياً لفتح الأندلس دون التأثر بدعوة يوليان إلى ذلك. والأسباب لا تتعارض.

المهم في موضوعنا هذا أن الفتح العربي الذي بدأ سنة 92 هـ (711 م) كان لقاء إسلامياً عربياً بربرياً (مغربياً). نلح على هذه الفكرة الثلاثية لأنها ستفسر لنا كثيراً من جوانب التاريخ الأندلسي، وستضعنا أمام الصورة الحقيقية للمجتمع الذي لعب فيه العرب دوراً كبيراً، كما لعب البربر دوراً لا يقل عن دور العرب، وربما أكبر في عملية الفتح. ثم في عملية حماية الدولة العربية (الأموية) والدفاع عنها عسكرياً، ثم في حفظ التوازن بين الدولة والزعامات العربية التي أصبحت في أواخر عهد الدولة ـ وربما منذ استولى المنصور بن أبي عامر على مقاليد الحكم ـ في صراع قبلي وقيادي مع الزعامات العربية.

أغلب جيش الفتح من البربر

وسيفسر لنا وجود البربر بالكثرة الكاثرة حتى إن المؤرخين يؤكدون أن الجيش كان بربرياً صرفاً، ومعه بعض وجوه الجيش العربي، سيفسر لنا ذلك شيئين اثنين:

أولهما: المكانة التي احتلها المغاربة في الأندلس.

ثانيهما: أن يوسف بن تاشفين عرف السابقة، وأدرك أهميتها، سابقة فتح المسلمين بقيادة بربرية للأندلس من أجل نشر الإسلام. ولذلك فدور يوسف سيكون الخطوة الثانية للدفاع عن الإسلام.

الهجرة إلى الشمال إذن بدأت مع الفتح الإسلامي فيما يخص الأندلس. ولكن هجرات أخرى قام بها المغربيون إلى الشمال في وسط البحر الأبيض المتوسط لنفس السبب هو نشر الإسلام ولسبب آخر هو الدفاع عن الإسلام في الجنوب، جنوب البحر الأبيض.

ولا نعيد ما تحدثنا عنه في فصول سابقة من محاولات المسلمين في المغرب العربي التوسع إلى الشمال، دفاعاً عن الجنوب وتحسبا من هجوم يأتي من النصرانية التي كانت تتربص بالبلاد التي فتحها المسلمون في إفريقيا، ونشر الإسلام في بلاد كان يمكن أن تصبح إسلامية على غرار ما أصبحت الأندلس.

تبادل الغزو بين الشمال والجنوب

في هذا الإطار نعيد الإشارة إلى التوسع الذي دفع بني الأغلب ملوك تونس إلى فتح صقلية، في عدة حملات ابتدأت بالحملة التي قادها أسد بن الفرات سنة 212 هـ ـ 827 م. وكان فتح صقلية ـ مع ما صاحبه من انكسارات المسلمين ـ بداية لنشر الإسلام في المنطقة ففتحت جزيرة سردينيا ومالطة حتى وصل المسلمون إلى روما كما تحدثنا في فصل سابق وما كان لذلك من تحد نصراني للمسلمين في تونس. وما صاحبه من غزو الفاطميين للجزر

والشواطىء الشمالية للبحر الأبيض.

سلطة المسلمين في صقلية لم تستمر طويلاً على غرار ماحدث في الأندلس، ولكن الإسلام وحضارته استمرا فيها رغم أنها سقطت في يد النورمان سنة 485 هـ ـ 1091 م، إستمرت الحضارة الإسلامية في جو من التعاون والسلام مع الحاكمين النورمان فتكون فيها مجتمع متعاون إسلامي مسيحي، عربي نورماني، علمي أدبي بعيداً عن التسلط السياسي.

المهم من هذه الصفحة من تارخ المغرب (التي تحدثنا عنها بشيء من التفصيل في فصل سابق) أنها كانت منطلق انفتاح للجنوب على الشمال، وللشمال على الجنوب بالرغم مما صاحب الانطلاقين من طابع الغزو والعنف، وهذا شكله السلبي، ولكنه كان منطلقاً لحضارة وثقافة ودين في جانبه الإيجابي.

نأخذ مثالاً لسابقات تمثل اجتيازاً نحو الشمال.

الظاهرة المقابلة هي اجتياز الشماليين (الأندلس) نحو الجنوب. ونشير إلى هذه الظاهرة لنؤكد بها أن الحملة التي قام بها يوسف بن تاشفين لها مظهر آخر يبررها وهو أن الأندلسيين كانوا، على عهد قوتهم، يجتازون المضيق لمحاولة التحكم في السياسة المغربية، خاصة بعد أن أصبح المغرب بين شقي الرحى تحاول احتلاله أو استغلاله كل من القوة الفاطمية والقوة الأموية.

نلخص تدخل الشمال في الجنوب في بعض النقط:

1 ـ يسجل التاريخ الصراع بين الأموية والعلوية أو بين السنة والشيعة من المشرق إلى المغرب كما قدمنا.

2 ـ هذا الصراع لم يكن يعني المغرب في شيء. فلم يكن مديناً للشيعة ولا تشيع رغم أن الدولة الإدريسية ومنشؤوها من آل البيت ورغم أن الشيعة قبل أبي عبيد الله الداعية الفاطمي الأول قاموا بالدعوة للشيعة فنشروا المذهب بين بعض الكتاميين.

3 ـ الفاطميون في المغرب وفي مصر ناصبوا الأمويين في الأندلس العداء وناصبهم هؤلاء العداء، وكان المغرب ضحية الصراع بين هؤلاء وأولئك.

4 ـ لذلك حاول الأمويون أن يبسطوا سلطانهم على المغرب الأقصى وغرب الجزائر على عهد دولةِ زيري بن عطية، تحسبا لامتداد نفوذ الفاطميين إلى المغرب وبالتالي محاربة الأمويين في عقر دارهم .

5 ـ لذلك اشتد الصراع القبلي الدائم بين الصنهاجيين والزناتيين. وكان يذكي أواره في هذه الفترة الفاطميون والأمويون بسبب تدخلهم في الشؤون الداخلية للمغرب.

6 ـ وقد عرفنا أن المنصور بن أبي عامر كان يرغب في أن تكون دولة زيري بن عطية تابعة للعرش الأموي، حتى إنه لقب زيري بن عطية عندما زاره بالوزير، فأغضب هذا اللقب ابن عطية الذي كان يعتبر نفسه أمير الدولة وصاحبها، والجالس على عرش فاس ـ وكانت تحمل طابع الأدارسة أهم دولة عرفتها المنطقة منذ الفتح الإسلامي ـ.

7 ـ تدخل آخر عرفه الجنوب من دولة الشمال على عهد آخر أمراء الإدريسيين: الحسن بن كنون المطالب بعرش الأدارسة. فقد حاول هذا المغامر الكبير أن يستعيد مجد الدولة الإدريسية، ولو في إمارة صغيرة في الريف. ولكنه استهان بمسيرة التاريخ، فقد كانت القوتان العظميان (الفاطمية والأموية) لا تقبلان إقامة دولة، وخاصة إذا كانت تنتمي إلى إدريس الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب. إذا كان قد أدرك صعوبة الموقف فقد حاول أن يلعب على الحبلين، فيظهر الولاء تارة للأمويين وتارة للفاطميين، ولكن كلا منهما كان عديم الثقة فيه، ويرمي إلى تصفيته طمعاً في أن يساعد هؤلاء وأولئك على إقامة دولته، ولو كانت تابعة أو مدينة للأخرى.

ملحمة ضارية خاضها الأمويون العامريون بالأخص ضده، بحروب متوالية

اجتازت فيها جيوش أموية الزقاق إلى المغرب كان فيها الحسن بن كنون ينهزم فيظهر الطاعة والولاء، ثم ينهض ليقاتل الأمويين مظهراً الولاء للفاطميين. انتهت هذه الملحمة التي كان فيها الجيش الأموي يدخل للمغرب لمطاردة هذا الأمير الصلب. وحينما استسلم وانتقل طائعاً إلى قرطبة أكرمه الخليفة الحكم المستنصر، ثم بعث به إلى مصر ليبتلي به خصمه الفاطمي (العزيز بالله) وجنده هذا بمساعدة بلكين أمير دولة الزيريين الصنهاجيين في تونس ليدفع به مرة أخرى إلى محاربة الأمويين وإقامة دولته في المغرب لتكون شوكة في جنب الأمويين.

المهم أن هذه الملحمة، التي انتهت بتصفية الحسن بن كنون آخر المطالبين بعرش الأدارسة، كانت سبباً في تدخل الجيش الأموي في المغرب عدة مرات.

في إطار هذا التدخل المتبادل، الذي سيكون اجتياز يوسف بن تاشفين إلى الضفة الشمالية نموذجه الكبير، نتتبع بإيجاز نشاط المغاربة في الأندلس فمنذ الفتح العربي البربري للأندلس اصبح للمغاربة وجود يتحدث عنه التاريخ بكثير من الإسهاب والإعجاب. غيرأن المؤرخين العرب لم يكونوا يترددون في وصف نشاط المغاربة بالعنف و«الوحشية» تارة، بينما كانوا يغفلون عن الروح العنصرية للعرب ضد البربر، ولو أن الدولة «الأموية» كانت مدينة لهم عسكرياً في وجودها وصمودها ومقاومة الثائرين عليها. كانوا أحياناً يخلصون لدعي أموي وآخر عامري مثلاً. وذلك اعتباراً منهم لإسلام الخلافة الإسلامية.

بداية التفاعل العربي البربري

يصطلح المؤرخون جميعهم على «الفتح العربي للأندلس». والواقع أنه فتح مغربي بربري كما قدمنا. ثم إن البربر واصلوا الهجرات المتولية إلى الأندلس بعد الفتح من كل القبائل وخاصة القبائل الزناتية. ومن الواضح كذلك أنهم توزعوا فاتحين ومقيمين في مختلف أنحاء الأندلس من الجنوب حتى

الشمال حتى الشرق والغرب. وهم الذين قاموا بالفتوح الواسعة داخل الأندلس وخارجها. واستمروا في الفتوح في غالبه وقاموا بمعظم المجهود الحربي الذي طبع عمل المسلمين في الأندلس وخارج شبه الجزيرة من أنحاء فرنسا ومنازلهم كانت معروفة في البرتغال وإسبانيا. كان ذلك في عصر الولاة، وكان لهم تأثير سياسي مهم حتى إنهم هم الذين اختاروا ثاني ولاة الأندلس: أيوب بن حبيب اللخمي. إختاروه طبعاً عربياً. وكان لهم سلطان حتى في وقت دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.

وكان الخلفاء يولون أمراء بربراً على المناطق التي يكون أغلب ساكنيها من البربر، وعرفت بيوتاتهم المشهورة في مختلف نواحي الأندلس. وكثير من مناطق الأندلس أخذت أسماء القبائل التي كانت تقيم فيها.

فزع كثير من العرب من الأعداد الكثيرة للقبائل البربرية إنطلاقاً من النزعة العرقية التي اشتد أوارها في الأندلس لاختلاف أعراق الساكنين والطموح الذي كان يغري كل ممثلي القبائل العربية بالوصول إلى السلطة، ثم بالمكانة ـ وخاصة العسكرية ـ التي أدركها البربر سواء، عند الأمويين أو العامريين.

الصراع كان قائماً بين فريق من العرب ـ ممثلو قبائل مختلفة وفدت على الأندلس ـ وفريق آخر، وبين بعض الفرقاء والبربر، خلاف قبلي عرقي وطمعاً في السلطة.

ورغم أن العلاقات بين البربر وبعض العرب لم تكن على ما يرام، إذ أن بعض العرب كانوا يضيقون بالبربر، وبعض البربر كانوا يضيقون ببعض العرب ويعتبرونهم دخلاء، لأنهم شهدوا بانفسهم ورودهم على الأندلس وبعض الامتيازات التي فازوا بها. رغم ذلك فإن البربر اختلطوا ببعض القبائل العربية اختلاط مصاهرة وعمل ومساكنة حتى إنهم استعربوا، وإن كثيراً من البربر احتفظوا لأنفسهم بالمناطق التي سكنوها، منها مناطق جبلية وسهلية، وموزعة في مختلف أنحاء الأندلس.

ويعرف التاريخ أيضاً أن البربر كانوا شديدي التعلق بالإسلام وأسهموا إسهاماً كبيراً في أسلمة الأندلسيين الأصليين.

ويسجل لهم هذه الفضيلة رغم ما لاقوه من فريق من العرب من كراهية وتقتيل في بعض الأحيان، وبعض الفرقاء من العرب على الأخص الشاميين والقيسيين. ورغم أن كثيراً من البربر إختصوا بأماكن سكناهم فقد اختلط كثير منهم بالأندلسيين وتزوجوا منهم، واتخذت الأجيال الجديدة العربية لغتهم، واندمجوا في البيئة الأندلسية أكثر من العرب، وساهموا في بناء الأندلس العربية المسلمة مساهمة كبيرة.

لماذا لم يستبد البربر بالأندلس

ويبقى السؤال مع ذلك قائماً: لماذا لم يستبد البربر بأمر الأندلس، ولم يقيموا فيها دولتهم بدلاً من الدولة العربية، سواء قبل الأمويين على عهد الولاة، وقد شهدت الأندلس اضطرابات سياسية واقتصادية كبرى، أو بعد تضعضع أمر الدولة الأموية على اثر انهيار سلطة المنصور بن أبي عامر؟

السؤال مُلح والجواب عنه ليس سهلاً. وقد تفيدنا في ذلك الصراعات التي كانت تطبع المجتمع العربي الإسلامي حتى في العصر الذهبي للدولة القرطبية الكبرى. هذه الصراعات بين الزعامات العربية، وبين الدولة التي كانت تخشى أن تطغى طائفة منها على سلطان الدولة، قد تكون بعض أسباب احتفاظ البربر بشخصيتهم، وقد يكون من أسباب ذلك أن البربر لم تكن لهم مراكز الدولة الكبرى، فكانوا في الغالب في خدمة الدولة ـ عسكرياً على الأخص ـ ولذلك احتفظوا بشخصيتهم المتميزة.

مهما يكن فإن المجتمع العربي الإسلامي في الأندلس كان معقداً بسبب البيئة الغريبة عن الطبيعة العربية، وبسبب العناصر المختلفة أوربية وعربية وبربرية وموالي ومماليك وصقالبة وغيرهم من الجاليات الأجنبية التي أسهمت في تعقيد المجتمع. والأمر ليس بغريب عن الدولة الأندلسية العربية فهو يشبه

إلى حد ما وضعية الدولة العباسية. وتضيف الدولة الأموية الأندلسية إلى ذلك الصراع العربي - العربي.

ونعود إلى نشاط المغاربة في الأندلس كنتيجة لأنهم الفاتحون الحقيقيون، ولو كان الفتح باسم العرب لنجد أن نشاطهم انتهى إلى تكون إمارات تعتبر - إلى حد ما - من نوع ممالك الطوائف التي سيأتي الحديث عنها.

كانت للبربر مكانة مهمة، فقد كان الخلفاء يفضلون التعامل معهم على التعامل مع القبائل العربية، وخاصة في تأطير الجيش والدفاع عن البلاد. وكانوا يثقون بهم. ولكن الموقف تغير بالنسبة للأمويين تجاه البربر والمغاربة عموماً، عندما اشتد الصراع بين الأمويين وأبناء المنصور بن أبي عامر بعد رحيله فقد أخذوا على المغاربة أنهم كانوا عضد المنصور الذي كانت له السيطرة المطلقة على الدولة. وكان يؤخذ عليه كما أخذ على ابنه عبد الملك تمكينه للصقالبة والبربر. ثم كان للمغاربة موقف استقلالي في الانقلاب الذي وقع ضد عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الذي قاده محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لصالح الأمويين ضد العامريين. أراد عبد الرحمن أن يستيعن بجيش البربر لاستعادة سلطته من الانقلابيين، فعاهدوه تحت قيادة محمد بن يعلى الزناتي زعيم زناتة أن يتخلوا عن عبد الرحمن (شنجول) فلا يحاربون أهل قرطبة الثائرة. وغادر معظم جند البربر مضاربهم تحت جنح الظلام تاركين عبد الرحمن لمصيره حتى قتل سنة 399 هـ 1009 م بعد 3 أشهر من ولايته.

وبقتله انهارت الدولة العامرية التي أسسها حاجب بني أمية المنصور بن أبي عامر.

قوة جيش البربر تضاعفت في عهد المنصور بن أبي عامر وبنيه. وعند عودة السلطة المؤقتة إلى الأمويين في عهد محمد بن هاشم المهدي نال البربر كثير من الضيم إنطلاقاً من موقفهم القديم منهم لاعتقادهم أنهم كانوا عضد

العامريين، رغم أن البربر لم يحاربوا في صف عبد الرحمن ضد الأمويين، فكان رجال السلطة يخصونهم بالبغض والزراية إنتقاماً من خدمتهم في جيش المنصور ومساندة نظامه. وأهينت كرامة زعيمهم زاوي بن زيري بن مناد فمنع من الدخول إلى القصر. واضطهدهم الخلفاء وقتلوا بعضهم. وقد اشتكى زعماؤهم لمحمد بن هشام فوعدهم برفع الضيم عنهم. ولكن الإهانة لم يمحها وعد فزادت في اضطرام سخطهم على الدولة (الأموية) مما سيكون له أثر في مواقفهم بالأندلس عامة.

في غمرة الاضطرابات انضم البربر إلى الناقمين على محمد بن هشام ولكنهم انهزموا في المعركة التي خاضها ضد خصمه هاشم بن سليمان. وذلك ما عرض البربر مرة لانتقام الشارع فقتلوا وذبحوا ونهبت دورهم واغتصبت نساؤهم. فانتقلوا من قرطبة إلى قلعة رباح ليتدبروا أمرهم.

إنشاء دولة بربرية بقيادة أموي

انتقاماً من نكبة المغاربة على يد محمد بن هشام (المهدي) وأتباعه جمع البربر أمرهم في قلعة رباح، والتفوا حول أموي هو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فنصبوه أميراً مكان المهدي ولقبوه (المستعين) استعان هذا المدعي بالنصارى لقاء تسليمهم بعض القلاع. دارت معركة بين سليمان بن الحكم على رأس المغاربة وجيش المهدي بقيادة واضح، انتصر فيها البربر فهزموا جيوش المهدي التي فرت إلى قرطبة.

لم ييأس المهدي رغم هزيمة جيشه تحسباً لهجوم المنتصرين على قرطبة فحصن العاصمة واستعد لقتال جديد. سار سليمان بن الحكم على رأس البربر للهجوم على قرطبة، ساعدهم في ذلك النصارى بقيادة أمير قشتالة تنفيذاً للحلف الذي تم بينهم وانهزم جيش قرطبة مرة أخرى في معركة ضارية (سنة 400 هـ 1009 م). فر (المهدي) في جنح الظلام ودخل زاوي بن زيري قائد المغاربة إلى القصر، ثم بويع سليمان بن الحكم بالخلافة ولقب (بالمستعين).

المغاربة دائماً كانوا يعيشون في الظل مع أنهم الجيش المنتصر. ولكن التركيبة القبلية والاجتماعية كانت تتطلب شخصية قوية لتتولى السلطة.

نقطة لم تلفت نظر المؤرخين هي أن المغاربة كان يمكنهم في عصر الاضطراب ألا يظلوا في الظل، وأن يستولوا على الدولة، وقد كانت بين أيديهم. فقد قاوموا محمد بن هشام (المهدي) الذي حاول الاستيلاء على الخلافة، والتفوا حول أموي هو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فنصبوه أميراً مكان المهدي وقاوموا المهدي حتى هزموه وفر إلى قرطبة. لماذا نصبوا أمير أموياً عليهم مع أنهم المنتصرون؟ لماذا لم يؤمروا عليهم مغربياً ويسيروا به منتصرين إلى قرطبة مركز الخلافة؟

موقف آخر هو أنهم لم ينصروا عبد الرحمن (شنجول) بن المنصور بن أبي عامر ضدا على محمد بن هشام. فقد تعاهدوا تحت قيادة الزعيم الزناتي محمد بن يعلى ألا يحاربوا أهل قرطبة، وقد كان في استطاعة قوتهم أن تنتصر على العامري ويحتلوا قرطبة ليتولوا الأمر فيها.

لم يقوموا بهذا العمل وقد كان في استطاعتهم ذلك. لماذا؟

المؤرخون لا يتساءلون ولا يجيبون إنطلاقاً من رأيهم في أن المغاربة أقلية، وأن مطامحهم لا ترتفع للسيطرة على الخلافة، ولأن معظم مؤرخي في هذه الفترة كانوا من العرب وهم لا يقدرون البربر بل يحملون فكرة سيئة عنهم. والواقع أن العرب (الأمويين) كانوا أقلية حقيقية لأنهم كانوا يعادون كل القبائل العربية الأخرى. وكانوا تحت سيطرة المنصور بن أبي عامر، رغم أنه عربي فقد استطاع أن يستولي على الدولة ويترك الخليفة صورة بلا واقع واسما بلا سلطة. وكانوا أيضاً تحت سيطرة الصقالبة الأجانب من الناحية الإدارية وتحت سلطة المغاربة عسكرياً. كان في استطاعة المغاربة، وهم القوة الضاربة أن يستميلوا إليهم القبائل العربية المعادية للأمويين، وأن يسيطروا على الصقالبة غير المحاربين، وأن يتولوا الأمر بعد الصراع القاتل الذي خاضه أبناء

المنصور بن أبي عامر، وأن تكون للمغاربة السلطة من بعده.

ويبدو أن الوازع الديني الذي يوحي باحترام مركزي الخليفة والخلافة كان وراء بقائهم في الظل وقيامهم بواجبهم العسكري لنصرة الخلافة، وامتناعهم عن محاربة سكان قرطبة في محنتهم ضد الثائرين من بني عامر.

أغلب الظن أنهم لو استولوا على قرطبة ونصبوا خلافة مغربية لتغير وجه التاريخ، ولاختصروا فترة ملوك الطوائف، ولما كانوا لعبة في يد النصرانية الزاحفة.

معركة أخرى قام بها المهدي بمساعدة النصارى إنطلاقاً من طليطلة التي كان قد التجأ إليها فانتصر فيها على سليمان بن الحكم وجيشه البربري، وأعلن نفسه من جديد خليفة وطارد البربر في طريق انسحابهم إلى الجزيرة بجيش قوي تدعمه قوة نصرانية. انتصر البربر مرة أخرى وهزموا المهدي وحلفاءه من النصارى.

كانت هذه المعركة نهاية عهد المهدي الذي غدر به أنصاره فقتلوه وأعادوا هشام المؤيد إلى الخلافة في قرطبة.

أما البربر فقد زحفوا على الزهراء يحيطون بقرطبة وانتشرت جيوشهم جنوباً بعد معارك طاحنة في أرباض المدينة. دخل البربر قرطبة (403 هـ 1013 م) وفتكوا بأهلها انتقاماً من قتل أهل قرطبة لأحد زعمائهم (حباسة بن ماسكن) وعاد سليمان بن الحكم إلى الخلافة وأخفى هشاماً (وربما قتله) وسيطر البربر على الدولة (الحجابة والوزارة وكل الوظائف الهامة).

منحهم سليمان بن الحكم ـ جزاء لهم ـ الولاية على ست مناطق: لكل قبيلة الولاية على منطقة.

ثم ولى بني حمود: علي بن حمود والقاسم بن حمود ثغور المغرب.

البربر سيطروا على جنوب الأندلس والولايات الوسطى. وغلب سلطانهم، وتحكموا حتى تمخض عملهم عن انقلاب جديد في مصير الخلافة.

الإمارات والدول البربرية

نجد الجواب على السؤال الذي ألح علينا طويلاً وألقيناه في الفصل السابق، في أن البربر كانوا مخلصين لدولة الإسلام خدموها ـ في صورة دولة الأمويين، ومنها دولة المنصور بن أبي عامر ـ خدمة للإسلام. فلما انهارت الدولة، وإنهار لقب الخلافة، وأخذ كل زعيم أو وال عربي ينصب نفسه والياً على منطقة عمله ويحارب الولاة الآخرين الذين نصبوا أنفسهم على المناطق المجاورة، وأخذ الخصم النصراني يتربص بهم جميعاً الدوائر ليزحف على الأندلس جميعها؛ وأخذ الولاة يستعينون بالنصارى على خصومهم المسلمين، حينما ظهرت الأندلس بهذا المظهر الممزق، بدأ البربر يأخذون حريتهم، كان بعضهم يناصر هذا الفريق أو ذاك، ولكنهم كانوا يتحرجون من الهجوم على قرطبة، عاصمة الخلافة، ثم أخذوا يفكرون في تكوين إمارات بربرية أندلسية في مقابلة الإمارات العربية، تقوم بالحكم في مناطقها.

ويحاول المؤرخون أن ينسبوا إلى المغاربة دولتين قويتين من دول الطوائف، هما: دولة بني الأفطس، التي حكمت مملكة بطليوس نحو سبعين سنة، وكانت من أهم الدول التي لعبت دوراً مليئاً بالحروب والهزائم والانتصارات مع بني عباد في إشبيلية. وكان من أهم ملوكها المظفرين الأفطس والمنصور بن الأفطس وعمر المتوكل. وكانوا جميعاً من المثقفين والشعراء. عاشت هذه المملكة من سنة 413 هـ ـ 1022 م حتى سقطت في يد النصارى في حدود سنة 473 هـ 1080 م وكان المتوكل الذي سقطت مملكة بطليوس في عهده من الذين طلبوا العون من يوسف بن تاشفين.

والدولة الثانية التي يعتبرها المؤخرون مغربية هي مملكة **بني ذي النون في طليطلة**. وقد كانت هذه الدولة أيضاً من أهم دول الطوائف التي قامت بعد انهيار الخلافة في قرطبة. وحكمت بين سنتي 427 هـ 1036 م و477 هـ 1084 م حينما استولى عليها ألفونسو من يد القادر بن ذي النون آخر ملوكها.

عاشت هذه المملكة مراحل سياسية صعبة في الصراع مع بني هود والنصارى المغيرين على الأندلس كلها. ولكنها عرفت مجداً وحكماً مستقراً على عهد المأمون بن ذي النون الذي وسع سلطان المملكة وبنى في طليطلة القصور والحدائق. فكان ملكاً عظيماً بين عظماء ملوك الطوائف. ولكن حفيده القادر سلم المملكة لألفونسو السادس بعد أن غلب على أمره.

ما يدعو بعض المؤرخين إلى اعتبار هاتين الدولتين مغربيتين هو أن أصولهما مغربية فأصول بني الأفطس مغاربة ينتمي جدهم ابن مسلمة إلى إحدى قبائل مكناسة. وبنو ذي النون من أصل بربري من إحدى قبائل هوارة.

ولكن من تتبع تاريخ الدولتين لا تكاد تجد ما يشير إلى مغربيتهما. وهذه الحقيقة تؤكد أن بعض القبائل المغربية اندمجت وتعربت، ولم يعد في تاريخها السياسي ما يشير إلى مغربيتها حتى صراعها مع الدول المجاورة (وهي عربية) لم يكن يقوم على أساس عرقي عربي بربري. وإنما كان يقوم على أساس سياسي سلطوي.

وكذلك نجد أن الدول والإمارات التي يمكن أن تكون مغربية هي الآتية:

بنو حمود

كان المغاربة ينقمون على الأمويين وعلى المنصور بن أبي عامر ـ رغم أنهم خدموا الدولة ودافعوا عنها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. نقمتهم لها سببان أساسيان:

أولهما: الاضطهاد الذي لقيه المغاربة على يد الأمويين، وإثارة الرعاع ضدهم لاعتقاد الأمويين المتخلفين أن المغاربة كانوا في نصرة العامريين، وقد أشرت إلى هذه القضية في فقرة سابقة.

ثانيهما: قضاؤهم على بقية الأدارسة ممثلين في دولة الحسن بن كنون كما سبق القول.

المغاربة لا ينسون الإحسان ويعترفون بالفضل لأهله، ولكنهم لا ينسون، وبضراوة، الإساءة.

فلما انفرط عقد الدولة الكبرى، وأخذ «يصيح فوق كل غصن ديك» كما قال ابن الخطيب عن ملوك الطوائف إتجه المغاربة إلى تكوين دولهم وإماراتهم على الجهات التي يمكنهم التحكم فيها.

أولى هذه الدول المهمة دولة بني حمود. يعود مؤسسو هذه الدولة إلى بقايا الأدارسة الذين سحقهم الأمويون، وينتسبون إلى علي والقاسم ابني حمود الذي يعود نسبه إلى إدريس. وكان المغاربة في عضد سليمان الذي انتصر على خصمه محمد بن هشام (المهدي)، هم الذين اختاروا سليمان أميرا ومكنوه من الحكم. ولذلك انتدب بعض المغاربة لولاية الثغور. وممن انتدبهم علياً لحكم سبتة، والقاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا. وكانت هذه الثغور تعتبر ـ اسمياً ـ تحت السلطة الأندلسية.

هذه الولايات لم ترض هذين القائدين المنتصرين. ويذكر التاريخ أن علياً كان يطمع في حكم قرطبة بعد أن انهارت الخلافة، خاصة وأن الحكم فيها لم يستقر، ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن سليمان ولى علياً بن حمود ولاية عهده، بعد أن اهتز كرسي الحكم من تحته، بينما يؤكد آخرون أن علياً ادعى ذلك، وأظهر كتاباً مزعوماً حاول أن يستميل به زعيماً آخر من العامريين هو خيران الذي كان قد استولى على المرية ومرسية يستنصره لدعوته.

بادعاء علي ولاية العهد استطاع أن يتحالف مع كثير من الولاة، واجتمع جيشا علي وخيران يعتزمان الهجوم على قرطبة. بويع علي فانضم إليه زعماء المغاربة الذين كانوا يحكمون غرناطة. وفي معركة مع سليمان في ظاهر قرطبة انهزم أمام قوة علي بن حمود وأسر هو وأبو الحكم وأخوه عبد الرحمن، ثم قتلهم جميعاً حينما تبين أن سليمان قتل «الخليفة» هشام المؤيد. وكان يزعم أنه اختفى ويحكم باسمه. وبذلك بويع علي بن حمود بالخلافة في قرطبة سنة 407 هـ 1016 م. وبمبايعة علي بن حمود انتهت الخلافة الأموية، بعد أن عاش الأخيرون من دعاتها في اضطراب قتالي منذ وفاة المنصور بن أبي عامر (سنة 392 هـ 1002 م). والواقع أن الأمويين، ولو أضاءت شعلتهم بعد المنصور بضع سنوات إضاءات خافتة، فإن دولتهم كانت قد انهارت بولاية المنصور. أصبحت الدولة دولته والخلفاء إنما هم ظل للدولة الأموية.

لذلك كان من السهل على المغاربة أن يؤسسوا دولتهم في قرطبة على أنقاض الدولة الأموية ويعرفها التاريخ بدولة بني حمود.

في سنوات الاضطراب لا يمكن أن يستقر الحكم، ولو انتصر الحاكم. ثار خيران ضد علي ابن حمود (الناصر) ونصب أحد الأمويين أميراً. حارب المغاربة في غرناطة فانتصروا عليه. وكان انقلاب خيران سبباً في انقلاب علي ابن حمود على أهل قرطبة وأخذهم بالشدة. فانتهى به الأمر إلى أن قتل في الحمام سنة (408 هـ ـ 1018 م) ولما يقض في الحكم غير سنة وبضعة أشهر.

كان من الطبيعي أن يبايع أخوه بالإمارة أو الخلافة ـ أو من غير الطبيعي فقد كان لعلي أبناء ـ ولقب نفسه بالمامون.

فهل كان حظه أحسن من حظ أخيه؟

من الصعب أن تبحث عن الحظ الحسن في زمن الفتنة والاضطراب، ولو أنه من الغريب أن يطمع الطامعون في مثل هذه الظروف، التي تميزت بالاضطرابات والانقلابات الداخلية والهجوم النصراني الزاحف على أقاليم

الأندلس، من الغريب أن يطمع الطامعون في ملك أو إمارة، في غياب أرضية جغرافية أو سياسية أو اجتماعية لإنشاء دولة. وأغرب من ذلك أن المغاربة لم يفكروا في إنشاء إمارات أو دول إلا في هذا الزمن الرديء الذي بدا فيه أن الأندلس انتهت كدولة، وتنتظر الانقاذ من قوة كبرى تتعدى إمكانات هذه الإمارات والطوائف.

الحمود الثاني الذي خلف علياً هو أخوه **القاسم**، وكان أكبر من الأمير القتيل ببضع سنوات، وكان والياً على إشبيلية. حاول هذا الخليفة الحمودي أن يسلك سياسة جديدة لينة وأن يترضى خصومه (خيران وغيره)، وانتهت الحرب التي شنها خيران باسم خليفة أموي سماه المرتضى، بهزيمة المرتضى على يد المغاربة المتولين في غرناطة بقيادة زاوي بن زيري.

ثار عليه ابن أخيه **يحيى بن علي** (القتيل) وانسحب القاسم من قرطبة إلى إشبيلية تاركاً الميدان ليحيى يسنده المغاربة الذين كان بعضهم ضده لأنه آثر عليهم السود في تسيير شؤون الدولة.

الخليفة الثالث في هذه الأسرة يحيى (بويع بالخلافة في قرطبة سنة 412 هـ (1022 م).

خليفتان من عائلة بني حمود أحدهما في قرطبة والآخر في إشبيلية، وقد تصالحا وتهادنا ما دام في البلاد متسع لأكثر من خليفة، ولو كانوا من عائلة واحدة.

خلع أحدهما كما هو الطبيعي، وعاد القاسم إلى قرطبة خليفة. وخلع القاسم بعد ذلك لأن سياسته في تمكين المغاربة من القرطبيين كانت خرقاء. قامت حرب بين القرطبيين والمغاربة انهزم فيها المغاربة. وعاد الأمير المخلوع إلى إشبيلية علها تؤويه فطرد منها. وكان مصيره إلى السجن، هو وبنوه، على يد يحيى بن علي حتى قتل سنة 431 هـ.

يحيى تردد على قرطبة، ليطرد منها ويعود إلى إشبيلية في محاولة لحرب

ابن عباد. وتدور عليه الدوائر، بعد أن استهتر وفسدت أخلاقه، ومحاربة ابن عباد بمساعدة البرزالي أحد قواد المغاربة فقتل يحيى. وكالعادة أحتزت رأسه لتقدم هدية لابن عباد سنة 427 هـ 1035 م أي قبل مقتل القاسم.

وكلما هزم المغاربة في معركة تعرضوا للعدوان من المنتصرين. ولذلك أصبح ـ في الزمن الردي هذا ـ العدوان مستحكماً بين المغاربة والعرب والأندلسيين، كل منهم يفتك بالآخر حينما يتمكن من النصر.

الخليفة الرابع في هذه العائلة هو **إدريس** أحد إخوة يحيى. نصبه وزيران لوالده القتيل في مالقة. إستطاع هذا الأمير (الخليفة) الجديد أن يضمن الاعتراف به من بعض الولاة في الجزيرة ورندة والمرية وغرناطة، مغاربة وعامريين. كلهم انضموا إليه لمحاربة ابن عباد. محاربته أصبحت أول أهداف أي والٍ أو أمير، ولو جاء على جدث والده أو أخيه.

توفي هذا الأمير بعد أحداث وقعت بين المغاربة بقيادة البرزالي والقاضي ابن عباد الذي أخذ يحاول أن يمكن له ولعائلته في إشبيلية.

ويأتي **يحيى بن إدريس** كخليفة سادس في مالقة، ليتحول الأمر إلى **حسن بن يحيى**، فقد أصبح الحجاب والوزراء يولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون. ولم يلبث هذا الخليفة أن قتل مسموماً إنتقاماً لقتله يحيى القاسم.

استمر أمر بني حمود، لا يكاد يعتلي أحدهم العرش حتى يعتقل ويقتل في مسيرة حربية عارمة بين الخصوم والحلفاء لا تهدأ إلا لتشتعل. بويع منهم بعد يحيى بن إدريس أبن أخيه حسن، ثم إدريس بن يحيى مرة أخرى، ثم محمد بن إدريس بن علي بن حمود (وقد استمر في الخلافة نحو من ست سنوات) ثم قتل ليلي الأمر إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ليقتل في سبتة بعد أن أصابته لوثة، ثم إدريس بن يحيى مرة أخرى ليخلفه ولده محمد ليتوفى في مليلية بعد أن طارده جيش المغاربة بقيادة باديس صاحب غرناطة.

إنهار سلطان الحموديين على يد باديس أمير غرناطة سنة 449.

لم نأت على ذكر هذه السلسلة لأهميتها التاريخية، ولم تكن لها أهمية تذكر، وإنما لندلل على أشياء:

أولها: أن المغاربة، وقد جربوا حظهم في تكوين دولة، لم تجد لها مستقرا بين قرطبة وإشبيلية ومالقة وغيرها من عواصم الأقاليم، المغاربة الذين جربوا حظهم لم يكونوا أحسن حالاً من الأندلسيين بعد انهيار الدولة الأموية.

ثانيها: أن المغاربة أنفسم ـ كالعرب ـ عاشوا في صراع، فكان المغاربة ضد بعض الخلفاء الحموديين، كما كان العرب ضد بعضهم البعض.

ثالثها: أن الفترة التي قامت فيها الدولة الحمودية نحواً من ثلاث وأربعين سنة (407 ـ 450) لم تكن تختلف عن الفترة التي عاشها الأمراء الآخرون من الأمويين (المتخلفين) والعامريين. كانت فترة حروب واضطرابات وعنف. لذلك لم يؤد الحموديون أي دور لصالح الأندلس، سواء من أجل الاستقرار السياسي أو العمل الاجتماعي والثقافي.

لكل ذلك فإن دولة بني حمود لم تضف جديداً للأندلس، ولم تحقق هدفاً من أهداف وجود المغاربة في الأندلس. بل إن الأندلسيين، في قرطبة وفي غيرها، إزدادوا كرهاً، للمغاربة فاستمر العنف بين الجانبين كما كان بين المغاربة أنفسهم طيلة عهد الدولة الحمودية.

كان طبيعياً ألا تنجح هذه الدولة في إقرار حكم مستقر في الأندلس أو في إقليم من أقاليمها. جاءت في خريف السلطة الإسلامية، وجاءت بعد أن أنهكت الأندلس من جراء الصراعات الداخلية. وجاءت وقد أصبح العدو يتربص بالإسلام، وجاءت، وقد اشتدت العداوة بين العرب والبربر من جراء رغبة العرب في استغلال البربر كل لصالحه، وللعداوة التي نشأت بين العرب أنفسهم من جراء طغيان الدولة العامرية، فلما انهارت اتهم المغاربة بأنهم كانوا ضد الأمويين، فنقم منهم بقايا الأمويين، ثم نقمت منهم الطوائف العربية التي

كان الأمويون يبعدونهم تخوفاً من عصيانهم ويستعينون بالمغاربة في الجيش والصقالبة في الإدارة، فنقمت هذه الفئات العربية عليهما معاً، ولقي المغاربة منهم شر ما يمكن أن يلقاه شعب أدخل الإسلام للأندلس وفتح لهم باب الهجرة إلى نعيمها.

الحموديون أنفسهم أصابهم ما أصاب المجتمع الأندلسي في ذلك العصر من تشرد ومنافسة ورغبة في العنف ومحاولة الاستبداد بالسلطة. فكان الأخ يقتل أخاه، وابن الأخ يثور على العم. . . ولم يكن لهم فكر مستقيم في إدارة الدولة التي أنشأوها. بدلاً من أن يقتنعوا بإقليم على غرار ما فعل ملوك الطوائف، طمعوا في مركز الخلافة (قرطبة). وكان قد أصبح لهذه العاصمة مركز سياسي واستراتيجي لم يكن يسمح لأحد بأن يستولى عليه، خاصة إذا لم يكن عربياً ولم يكن أموياً. وفي قرطبة كانت تتكسر سلطة الحموديين، ومن هناك يدب الخراب في الدولة.

كانت دولة الحموديين مصطنعة. ولذلك لم يكن لها أن تعمر، ولا أن تقدم للأندلس دولة ومجتمعا، أي خدمة تساعد على إنقاذها من التمزق والانحلال.

المغاربة بناة غرناطة

الحملة الجديدة، أو ما يمكن أن نسميه الحملة الثانية المغربية إلى الأندلس، بعد حملة الفتح، هي حملة بني مناد الزيريين الذين أقاموا دولتهم في تونس بتوجيه وتأييد من العبديين عساهم يكونون عمالهم على تونس بعد رحيل العبيديين إلى مصر.

تحدثنا عن الدولة الزيرية الصنهاجية في تونس، ومؤسسها، بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ولخصنا الدور الذي قامت به هذه الدولة، سواء في الحفاظ على الدعوة العبيدية في إفريقية، أو محاربة الدعوة الأموية في المغرب التي كان يقوم بها الزناتيون.

انقسمت هذه الدولة التي كان لها مكان في تونس والجزائر إلى دولتين:

الدولة الزيرية في تونس، وبني حماد أصحاب (القلعة) في الجزائر. وكان ذلك بداية النهاية لهذه الدولة القوية، التي كانت تعتز بحماية العبيديين ضد الأمويين، الذين كانوا يطمعون في احتواء المغرب كله والقضاء على الدعوة الفاطمية، وخاصة على عهد المنصور بن أبي عامر. وانتهت الدولة ـ بعد هجمة الهلاليين ـ بقيام الدولة الموحدية في المغرب التي بنت امبراطورية المغرب العربي.

استمراراً لطبيعة العصر كانت الحوادث التي تنتهي بالحروب بين الأقارب ـ بعد الحروب مع الخصوم ـ تخلخل كيان الدولة، وتمزق وحدتها. ففي عهد باديس بن منصور أحد ملوك بني مناد الزيريين في تونس ـ وقعت بين زعماء القبيلة معارك كان ضحيتها أعمام الأميروقتل فيها ماكسن بن زيري بن مناد.

لذلك هاجرت جماعة منهم بقيادة زاوي بن زيري إلى الأندلس سنة 391 هـ على عهد المنصور بن أبي عامر. ولم يسع المنصور إلا أن يرحب بفريق من القبيلة التي كانت تناصر العبيديين، وربما طمعا في استخدامهم لمحاربة الدولة الزيرية في تونس. ولكنهم لم يقوموا بذلك. بل بقيت هذه الدولة التونسية تواجه مشاكلها لأمد طويل حتى قيام الموحدين.

المنصور بن أبي عامر ضم إليه المهاجرين وصالحهم مع الزناتيين الذين كانوا يحكمون المغرب، والفريق منهم الذي كان يقطن الأندلس. وكون منهم جيشاً كان عضداً لدولته لأنه يعرف قوة البربر وشجاعتهم وقدرتهم على حماية دولته.

القوة التي كونها البربر لم تكن لصالح المنصور بن أبي عامر، فقد انهارت دولته بعد ذلك. وبقيت القوة البربرية يساعد بعضها هذا الدعي أو ذاك من الأمويين. وقد عرفنا أنهم ناصروا سليمان في الإستيلاء على قرطبة. ولكن خصومتهم مع القرطبيين الأبدية جعلتهم ينسحبون إلى أماكنهم في الجنوب.

واستفادوا أخيراً من تمزق الأندلس ففكروا في إقامة دولة على نحو ما فكر بنو الأفطس وبنو ذي النون على فرض أن هاتين الدولتين مغربيتان.

كان المناخ السياسي مناسباً. ذلك أن زعماء عرباً لم تكن لهم سابقة في رياسة الدولة أقاموا دولاً ضمن مجموعة دول الطوائف. **كابن جهور الذي** كان رئيس حكومة، ولعله من أقرب الزعماء إلى أن يلي الحكم بعد تمزق الخلافة. فقد كان أجداده حجاباً ووزراء وتولى هو الكتابة. فكان اختياره للولاية في قرطبة اختياراً موفقاً. ومثل بني عباد، الذين كان زعيمهم **القاضي إسماعيل،** قد وجد في نفسه الكفاءة والمقدرة على جمع سلطة الدنيا إلى سلطة الدين بين يديه، فكون دولة بني عباد في إشبيلية. والدولتان الجمهورية والعبادية كانتا من أهم دول الطوائف في الأندلس. وهناك دول أخرى قامت في ألمرية ومرسية ودانية وبلنسية وشنتمرية والبونت وسرقوسطة. والمشهور من هذه الدول الطائفية إلى جانب بني جمهور وبني عباد: دول **بنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود.**

ولم تكن هذه الدول جميعها عربية أو تنتمي إلى أصول عربية. وقد عرفنا أن بني الأفطس وبني ذي النون ينتميان إلى أصول مغربية بربرية، وهناك إمارات وليها أمراء ذوو أصول صقلبية كمملكة المرية ومرسية ودانية... إذن لم لا يكون للمغاربة دولة أو دول، وقد قامت الدولة الكبرى (الأموية ـ العامرية بالذات ـ) على حرابهم وبجهودهم العسكرية؟

في غمرة الفوضي والاضطراب، كانت مدينة البيرة وإقليمها معرضة لنصيبها من الفوضى فلجأ أهلها إلى المغاربة بزعامة **زاوي بين زيري** للدفاع عنهم والإقامة بينهم مع قومه. ولكن منطقة البيرة كانت غير قابلة للدفاع فاهتدى بنو مناد إلى موقع غرناطة الحالية فبنوا المدينة لتصبح من أشهر مدن الأندلس حتى الآن، وأجملها موقعاً.

عاف البطل المؤسس **زاوي بن زيري** حياة الصراع والحرب، بعد أن تعرض لتجربة مريعة حينما هاجم غرناطة الدعي خيران المنتمي لبني عامر،

والذي نصب نفسه خليفة على قرطبة بعد أن قتل آخر امراء الأمويين **سليمان**. خيران هذا هاجم غرناطة فقاومه زاوي حتى هزمه شر هزيمة، ولكن نفسه ابت أن يعيش في هذا الجو القتالي فهاجر من الأندلس مع الأقربين من عائلته وقومه إلى عقر قبيلته تونس، تحسبا من أن يكون ضحية صراع أبدي مع الأندلسيين الذين كانوا لا يهادنون المغاربة، رغم أنهم أولياء نعمتهم. أقام في الأندلس هو وقومه نحوا من 19 سنة من 391 هـ إلى 410 هـ (1020 م) السنة التي كانت فيها الهجرة المضادة من الأندلس إلى إفريقية.

هذه ظاهرة غريبة في التاريخ الأندلسي بالأخص نجد فيها قائداً مؤسساً ومنتصراً ومحبوباً في المنطقة وزعيما دعي إلى السلطة، يتخلى عن الملك والزعامة، رغم الحب الذي كان يحظى به، لأنه عرف بتجربته وحنكته أن الزمن السيىء الذي كانت تعيش فيه الأندلس سيجعله وقومه حطباً لحروب لا يلبث أهل الأندلس أن يشعلوا نارها في وجهه. وعرف بخبرته أن معظم المتقاتلين من الأمراء وأدعياء الملك يلجأون إلى النصارى يستعينون بهم على خصومهم من المسلمين، حتى إن أمراء نصارى الأندلس كانوا ينقسمون على أنفسهم، أحدهم كان يؤيد هذا الأمير فيغزو ـ بدعوى تأييده ـ أراضي خصمه، والآخر يؤيد الخصم فيغزو ـ أراضي خصمه بدعوى تأييده، كما حدث في كثير من مناطق الأندلس الشمالية قبل أن تسقط في يد النصارى، وقبل أن ينقذ يوسف ابن تاشفين الأندلس جميعها.

هجرة المؤسس **زاوي بن زيري** لم تمنع من استمرار دولة بني مناد في غرناطة ومالقة، بقيادة ابن أخيه **حبوس بن ماسكن**. ولم يكن هذا الأمير باقل حكمة من الرائد، فسلك في الحكم مسلكاً حسناً من قومه، إذ ولاهم ولايات إطمأنوا إليها حتى لا يقيموا في وجهه حرباً أهلية على غرار ما فعل الكثيرون. واستمر في بناء غرناطة. وأقام علاقات طيبة مع الأمراء من جيرانه. ولم تخل أيامه من حروب ضد بني عباد، الذين قتلوا أمير بني حمود المعتلي في قرمونة طمعاً في ضم أراضي الحموديين إلى مملكة إشبيلية. ورغم هذه الحرب

العارضة فقد سلك مسلكاً طيباً ضرب به مثلاً في حكم المغاربة، كما ضرب عمه المثل في الإنسحاب من جحيم الحروب. توفي سنة 424 هـ بعد أن قضى في الحكم زهاء 17 سنة لم يسجل عنه إلا الذكر الحسن والأخلاق السامية وحب السكان له ورضاهم بحكمه.

جاء بعده الأمير الثالث ابنه **باديس بن حبوس**. لقي من المؤامرات الشخصية والحروب ما كان يلقاه كل الأمراء في ذلك الزمان السيء. وواجهه بالحرب منافس له هو زهير **العامري** والي المرية، أراد أن يضم غرناطة إلى أملاكه الواسعة. فانتصر باديس إنتصاراً ساحقاً على خصمه زهير فقتل ودمرت جيوشه. ويذكر التاريخ أن من بين الأسرى علماء وكتاب **كأحمد بن عباس** مدبر الحرب وقد قتله باديس بيده وأفرج عن الآخرين **وابن حزم والباجي**. دارت المعركة قريباً من غرناطة سنة 429 ـ 1038.

استفاد باديس من هذه المعركة فقد استولى على جزء من مملكة خصمه المنهزم فاتسعت دائرة حكمه فأصبحت من أكبر ممالك المغاربة ومن أهم ممالك ملوك الطوائف.

معركة أخرى خاضها **باديس** ضد **بني عباد** الذين حاولوا أن ينتزعوا السلطان من بقايا بني حمود المغاربة، ومن سلطان البرزالي فانتصر عليهم وقتل في المعركة القائد العبادي إسماعيل سنة 431 هـ 1039 م. ومعركة انتصر فيها ضد العباديين الذين حاولوا احتلال مالقة سنة 458 هـ 1066 م.

واستخلص لنفسه أيضاً بقايا مملكة الحموديين فاحتل مالقة عاصمة دولتهم بعد معركة مع الطامعين سنة 449 هـ 1057 م.

دولة بني مناد خلدها **باديس** بمحاسنه ومباذله. فقد كان ملكاً مقتدراً سيطر على مملكة واسعة، وهابه كل ملوك الطوائف الذين لم يكن أحد يطمع في الانتقاص من مملكته إلا هزمه. ولكن عهده انتهى باضطراب بعد أن إستوزر يهودياً إستولى على الدولة حتى قتله المشفقون عليها.

في تاريخ الأندلس تتمثل القاعدة التي تكاد تكون مطردة وهي أن الدولة تقوى بسلطان مؤسسها أو الشخصية القوية فيها، ثم بعد ذلك تبدأ في الانحدار. فرجال الدولة الكبار كانوا يستنزفون قوى الدولة عسكرياً ومالياً وسياسياً، وخاصة في عهد الانحدار الأندلسي. ثم لا تجد الدولة شخصية في مثل قوة المؤسس وسلطانه فتبدأ في الانهيار. يزيد في تأصيل هذه القاعدة أن الملك القوي لا يعدم كثيراً من الخصوم والمنافسين داخل الدولة ـ حتى من أفراد العائلة ـ وخارج الدولة من الملوك المجاورين والطامعين في توسيع مملكتهم على حساب الدولة القوية. ولذلك لا يكاد القائد المؤسس أو الملك الكبير يختفي حتى تبدأ الخصومات الداخلية طمعاً في خلافته. وتتكشف المطامع الخارجية عن شرهها لأنها تخلصت من السلطان القوي. وتبدأ الحروب لإضعاف الدولة. وفي كثير من الأمثلة كان الخلف الذي ورث الملك أضعف من الشخصية المؤسسة أو البارزة في الدولة، ضرورة أن الخلف يكون عادة مغموراً بالسلف لا تظهر شخصيته أمام سلفه يتعمد طمسها حتى لا تطغي عليه، ولو كان ابنه. فلا يقوى الخلف على سد الثغرات التي انفتحت بوفاة الشخصية الكبرى.

تكاد هذه القاعدة تتفق ولا تختلف في تاريخ الأندلس. وحسبك مثالاً عليها عهد المنصور بن أبي عامر الذي انهارت الدولة جميعها، وليس فقط سلطته كحاجب مسيطر، بعد غيابه.

ونأخذ الأمثلة الأخرى من عهد الأدارسة، وسنتعرف عليه في عهد يوسف بن تاشفين بالمغرب والأندلس، ويعقوب المنصور في عهد الموحدين.

ونأخذ المثال الذي بين ايدينا من عهد دولة بني مناد في غرناطة. فقائدها الكبير ـ باديس ـ عمر طويلاً في الملك (428 هـ 1037 م ـ 465 هـ 1073 م) (نحوا من 37 سنة) وقليل من الملوك الذين صمدوا هذه المدة في وجه المشاكل الداخلية والخارجية. استطاع باديس أن يصمد رغم أنه في آخر حياته

أسلم أمر الدولة إلى يهودي كان وزيراً له. ثم حينما ثار الشعب ضد هذا اليهودي وضد اليهود جميعهم إستعاد سلطانه ـ رغم إدمانه الشراب كما يدعي المؤرخون وبعضهم عرب ـ وأعاد للدولة مكانتها حتى توفي.

لم يكن حفيده **عبد الله** في مثل قوته. وقد أنهكه الصراع مع بني عباد ومع وزرائه، ومع القشتاليين الذين كانوا يزحفون على الممالك الطائفية، فدخل في اللعبة التي دخل فيها بنو عباد وغيرهم من الطائفيين من الاستعانة بالنصارى ضد خصومه كما كانوا يستعينون بهم ضد مملكته «غرناطة». وانتهى الأمر به وبدولة بني مناد باستدعاء يوسف بن تاشفين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأندلس. وانتهت الدولة بحكم المرابطين في وجه القشتاليين، وانتقاله منفياً إلى اغمات.

المغاربة حماة جنوب الأندلس

أينما انتشر المغاربة في شبه الجزيرة الإيبيرية كان لهم مكان في السلطة، ومركز في القيادة العسكرية. وحينما ضاقت رقعة الأندلس المسلمة كان لهم مكان عظيم تحت اسم دولة بني مناد. ثم كانت لهم مكانات صغيرة في جهوب الأندلس تجمعوا فيها وصمموا على الدفاع عن الوجود الإسلامي، ضدا على الزحف النصراني من جهة، وضدا على الأطماع التي كانت تؤرث العداوة ضدهم، كمغاربة، من بعض زعماء الطوائف وملوكها. لم يكونوا دولة أخرى على نحو ما كانت دولة بني مناد. ولكنهم كونوا إمارات أو زعامات مغربية تعاونت مع بني مناد وكانت تحت حمايتها. لم يطمع فيها باديس، ولا حاول اغتصابها أو احتواءها، لأنها لم تكن تكون خطورة على مملكته من جهة، ولأنها تجمعات مغربية من الأحسن أن تنهض بحماية الإسلام في مناطقها. وأغلبها كان في جنوب الأندلس.

ورغم أنهم لا يكونون خطراً على دولة كبرى من دول الطوائف، فقد كان بنو عباد، أمراء إشبيلية، ولم يكونوا قادرين على الدفاع عنها، وهم

يعرفون ذلك، كان يناصبون هذه الإمارات الصغيرة العداء طمعاً في ضم أراضيهم إلى مملكتهم.

من هذه الإمارات الصغيرة إمارة **قرمونة** وتتبعها بعض المدن الأخرى، وكانت تحت ولاية **أبي عبد الله بن برزال**. وكان هذا الزعيم البربري الزناتي ـ الذي رحل أهله إلى الأندلس إبتعاداً من الصنهاجيين ـ والياً على قرمونة منذ أيام المنصور بن أبي عامر، جزاء خدمته وأهله في الجيش العامري. ثم نصب نفسه أميرا على قرمونة سنة 404 هـ ـ 1013 م. طمع ابن عباد في ضمها إلى مملكته فهاجمها واحتلها، ثم استردها منه البرزالي بمساعدة باديس والمتأيد أمير مالقة.

تتأكد القاعدة مرة أخرى، ولا تختلف، فأبناء البرزالي الذي ولي أمر هذه الإمارة الصغيرة نحوا من 30 سنة (أعلن نفسه اميراً سنة 404 هـ ـ 1013 م وتوفي سنة 434 هـ ـ 1042 م)، أبناؤه لم يكونوا في مستواه فسلمت قرمونة في الأخير إلى بني عباد أمراء إشبيلية.

رندة هي الأخرى إمارة من هذه الإمارات المغربية. نزلها بنو يفرن الزناتيون بعد أن خدموا الجيش على عهد الدولة العامرية. تزعمهم أبو نور هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرني. كانت رندة قلعة حصينة تتبعها مدن أخرى، نصب ابن أبي قرة نفسه والياً عليها سنة 431 هـ ـ 1039 م.

إلى جانبها إمارة **بني دمر** في مورون، وإمارة **بني خزون** في أركش.

وقد احتال عليها جميعاً بنو عباد حتى اعتقلوا قادتها فمات قائدا الإمارتين الأخيرتين في معتقل المعتصد بن عباد ومات صاحب رندة، بعد أن اعتقل هو الآخر وافرج عنه، مات وقد داهمه جيش المعتصد فقضى.

لم نرد من هذا العرض الذي لخصنا فيه أخبار الإمارات المغربية في الأندلس من بني حمود حتى بني مناد والإمارات الأخرى المجهولة في التاريخ الأندلسي، إلا أن نؤكد أنهم قاموا بدورهم على عهد نهاية الأندلس قبل أن

تصبح تابعة للمغرب، كما أدوا واجبهم منذ أن فتحها طارق بن زياد، ثم على عهد الدولة الأموية ودولة المنصور بن أبي عامر، وهو غرة عهد الأندلس. قاموا بدورهم فاتحين، ثم مناصرين ومحاربين لصالح الدولة في الجيش، ثم رؤساء قبائل وزعماء إمارات. وقد لقوا ما لاقاه الأندلسيون على اختلاف أصولهم العربية والإسبانية والنصارى الذين بقوا على دينهم واليهود والصقيليون والموالي من محنة الحروب المتوالية، ومحنة الصراعات الداخلية، ومحنة الزحف النصراني وقتل منهم الكثير. ومع ذلك كانوا هدفاً لعداوة مستحكمة من الأندلسيين. لماذا؟

هذا موضوع الفقرة التالية:

لماذا استحكم العداء
بين المغاربة والأندلسيين؟

لا تكاد تخطو خطوة في تاريخ الأندلس، منذ الفتح حتى السقوط، إلا وتجد للمغاربة ذكراً ومكانة وعملاً مجيداً في إقامة الدول والدفاع عنها. ولكن لا تكاد تخطو خطوة، في هذا التاريخ الطويل، حتى تجد رائحة كريهة للعداوة بين المغاربة والأندلسيين. وتستثير المؤرخين ـ ومعظمهم من العرب، بمن فيهم ابن خلدون المتأثر بالعرب الذين استفاد من كتاباتهم ـ إلا تجد عبارات تقطر حقداً، وأوصافاً عدائية للبربر. أقلها كلمة «الوحشية». ومعروف أن كتاب التاريخ الأندلسي، ومعظمهم أدباء، كانوا يتأنقون في العبارات ويختارون الكلمات التي تتجاوز مدلولها اللغوي لتدخل في باب الوصف الأدبي.

عرفنا في فصل سابق أن البربر توزعوا في البلاد الأندلسية عقب الفتح، ثم بعد الهجرات المتتالية، التي كانت تفد على الأندلس لسبب أو لآخر، حتى على عهد المنصور بن أبي عامر، كانت هجرات من أشراف وسادة البربر. من الذين كان لهم سلطان انهار بسبب الصراع بين أنصار الأمويين وأنصار العبيديين، أو بسبب هزيمة قبيلة زناتية أمام قبيلة صناجية مثلاً. الهجرات كانت لأسباب: الأولى كانت لأسباب الجهاد ونصرة الإسلام، والهجرات المتأخرة كانت لأسباب سياسية، وقليل منها اقتصادية.

وقد تحدثنا من قبل أن البربر الذين أقاموا في الأندلس لم يكونوا يقيمون في مناطق متخلفة أو جبلية فحسب، كما يقول بعض المؤرخين، وإنما كان

بعضهم (قبائل وتجمعات) يقيم في مناطق خصبة، وبعضهم يقيم في الثغور، في مراكز استراتيجية دفاعية في الشمال والجنوب والشرق والغرب، كما كانت مجموعات منهم تقيم في عاصمة الدولة: قرطبة وما حواليها. وأقاموا في مناطق جنوبية حتى كونوا فيها دولا وإمارات كما تحدثنا عن ذلك في الفصل السابق.

استقرار المغاربة في الأندلس بهذه الكثرة الكاثرة لم يكن يخلو من متاعب لهم أنفسهم، وللعرب الذين يقاسمونهم الاستقرار بعد الفتح وبعد الهجرات.

القبلية والعرقية أساس الصراع بين الجانبين

من هذه المتاعب أن الفتح كان ـ في غالبه على عاتق البربر. فأغلبية الجنود الفاتحين كانوا منهم. ولكن العرب، الذين نقلوا معهم عصبيتهم من المشرق، كانوا يعتبرون أنهم فتحوا بلاد المغرب. ولذلك فالمغاربة كانوا شعباً أخضعه العرب للفتح وللإسلام ـ وهم مجرد جنود للفاتحين. والمغاربة كانوا يفهمون الإسلام على حقيقته لا يميز بين عربي و غير عربي. ولذلك كانت هذه الفكرة العرقية غريبة عن الإسلام كما فهموه، ولو أن حياتهم وعقليتهم لا تخلو من قبلية وعرقية، عاشوا الأمرين بسببهما.

الاصطدام القائم على هذه العقلية هو بداية الصراع بين الأندلسيين والمغاربة.

ويمكن أن نعالج موضوع الصراع بين المغاربة والأندلسيين من منطلقين:

المنطلق الأول: الصراع داخل المغرب

نجد المؤرخين يعودون إلى الوراء بعيداً: إلى ثورة البربر الذين إعتنق كثير منهم المذهب الخارجي في بداية الفتح الإسلامي. وقد قام هؤلاء بثورة ضد العرب السنة واحتلوا القيروان. ونشأ صراع عقدي وسياسي بين الجانبين منذ منتصف القرن الثاني الهجري أو قبل ذلك بقليل. وكانت لثورة البربر على العرب آنذاك آثار إنتقلت إلى الأندلس، لنزاع بين الطرفين حتى نهاية الأندلس.

ويبدو أن هذا التوجه في تفسير الصراع مبالغ فيه. فليس مفهوماً أن تكون لثورات الخوارج التي طواها التاريخ آثارها في تحديد مصير العرب والبربر على مدى قرون عديدة.

مظهر آخر لهذا الصراع العربي المغربي على أرض المغرب، لم يعره المؤرخون كبير وزن، هو «التناوب» على محاولة استغلال المغرب والمغاربة بين العبيديين في تونس من جهة، والأمويين، والعامريين منهم على الأخص، من جهة أخرى. العامريون كانوا يحاولون أن يسخروا الدول المغربية ـ ودولة زيري بن عطية كمثال ـ لمحاربة الزيريين الصنهاجيين في تونس والجزائر، والعبيديون يسخرون الزيريين الصنهاجيين لمحاربة دولة زيرى بن عطية الزناتية. كل لمصلحته. مهما تكن العداوة بين القبيلتين فإن الاستغلال العربي لهذه العداوة وتحويلها إلى حرب مستمرة كان له بدون شك أثر في وعي زعماء القبيلتين.

ويذكر المؤرخون نموذجاً من استغلال المنصور بن أبي عامر لزيرى بن عطية حينما استقبله في الأندلس، وعاد إلى المغرب وهو يضع يده على رأسه ويقول: الآن علمت أنك لي. . . كما يذكرون حنقه على المنصور، وقد ذهب إليه زيري ملكاً فعاد وهو يحمل لقب وزير. طبعاً رفض اللقب باحتقار، وكان المنصور يعتبر أن زيري بن عطية تطاول عليه، ولذلك عاقبه بأن قطع عنه مرتب الوزارة وألغى اسمه من ديوانه لأنه عصا السيد المطاع في الأندلس. ولم يكن

زيري أقل تمرداً فقد محا اسم المنصور من الخطبة، وقطع الصلة معه وطرد موظفيه. بلغ الصراع فمته بأن بعث المنصور جيشاً لمحاربة زيري بن عطية، وضم حوله قبائل بربرية بعد أن أختار قائده واضح البوغاز. وانتهت المعركة بالقرب من طنجة بهزيمة جيش المنصور. وتجددت الحرب بقيادة عبدالملك ابن المنصور فانهزم جيش ابن عطية وجرح في المعركة وفر إلى الصحراء.

هكذا استولى المنصور على فاس ووضعها تحت سلطته. فحقق بذلك جزء من الفكرة الأموية التي تستهدف ضم المغرب إلى الإمبراطورية الأموية.

ولكن زيري عرف كيف يستعيد ولايته على فاس، فاستجمع قواته وهاجم خصومه الصنهاجيين في الجزائر، وبعث إلى المنصور يضع كل هذا «الفتح» بين يديه. وهي وسيلة يمكن أن يتقرب بها إلى عظيم الأندلس، لأنه سيسعد بالسيطرة على جزء من سلطان العبيديين. ولذلك عفا عن ابن عطية وأعاده إلى ولايته على فاس. واستمرت الولاية في أبنائه. ولكن ظل العامريون يعتبرون المغرب ولاية تابعة للأندلس، كما كان الفاطميون يعتبرون إفريقيا (تونس) ولاية تابعة لمصر. مع أن سلطان كل من الزيريين الصنهاجيين والزناتيين لا يقل عن سلطان العامريين مع الفارق طبعاً.

ثم إننا لا ننسى الحرب التي شنها الأمويون ـ والمنصور بالأخص ـ على الأدارسة، والتي انتهت بتصفية الحسن بن كنون على نحو ما أسلفنا. فهذه الحروب المتوالية لا يمكن ألا تترك أثرها العدائي والنفسي بين الجانبين. ومن شيم المنصور وبطانته احتقار الآخرين الذين يضعهم القدر في طريقه. وقد كان المغاربة في طريقه طيلة استيلائه على السلطة، فكان يصارعهم ويقاتلهم من جهة، ويسخر الدول منهم لمصارعة بعضهم بعضاً من جهة أخرى. وفي ذلك ما فيه من احتقار العنصر البربري. والبربر بالطبع لا يقبلون هذه المعاملة.

منطلق الصراع في الأندلس:

المغاربة كانوا قوة في الأندلس. قوة عددية، وقوة جهادية. ولذلك لم يكن الولاة ثم الدولة الأموية يعتمدون على غيرهم في النضال الجهادي. وقد تحدثنا عن صور من ذلك. ولكن من المهم أيضاً أن السلطة العربية اعتمدت عليهم في الصراع الداخلي. فقد كان المنصور بن أبي عامر يستند عليهم في إقامة دولته والاستبداد بالسلطة. وكانوا فعلاً يناصرونه بإخلاص لأنه ممثل السلطة الشرعية، التي يصورها في الخليفة السجين. كان المنصور يعرف قوة شكيمة المغاربة، وكانوا يخلصون له. وسيؤدون ثمن هذا الإخلاص والوفاء بعد أن دالت دولته. وقد عرفنا من بعد النقمة التي عاناها المغاربة في عهد المتنافسين على عرش قرطبة من مرحلة **محمد بن هشام** (المهدي) **وهشام بن سليمان**، و **محمد بن هشام وسليمان بن الحكم** وغيرهم من المتصارعين على الخلافة. كان بعضهم يعتمد على البربر. وكان البربر يقاومون الزحف النصراني الذي كان ينتهز فرصة الفتنة الكبرى. كانوا ينتصرون وينهزمون. وكان بعض المتسلطين على سلطة الخلافة يستعينون بالبربر حينها، إلا حينما يتعلق الأمر بالهجوم على قرطبة مركز الخلافة، فقد كان المغاربة يقفون بعيدين عن المعركة. وكان بعض المتسلطين على الخلافة ينتقمون من البربر لنصرتهم لخصومهم. وكانوا يدفعون بغوغاء الشارع أن يناصبوا البربر العداء ويضطهدونهم، بل يقتلونهم حينما ينفردون بجماعة منهم، ويحرقون ديارهم حينما ينفردون بحي سكناهم.

ولم يكن المغاربة يقبلون هذا الوضع. ولذلك كانوا هم أيضاً يهاجمون المجموعات العربية ويفتكون بهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ورغم أن الفتنة الأندلسية دفعت المغاربة إلى تكوين إماراتهم في جنوب الأندلس محاولين صد النصارى عن الزحف على الجنوب إبتداء من غرناطة

فإن المغاربة لم يسلموا من مهاجمة بعض ملوك الطوائف وفي مقدمتهم بنو عباد الذين لم يهتموا بالدفاع عن البلاد ضد الهجوم النصراني بقدر ما اهتموا بتوسيع دائرة مملكتهم في إشبيلية بمحاولة ضم الإمارات المغربية إليها. وكانت بين الجانبيين صراعات وحروب على نحو ما تحدثنا عن ذلك في فصل سابق.

أسباب الصراع الأندلسي المغربي

ما هي الأسباب العميقة لهذا الصراع؟

يبدو أن طبيعة العرب المهاجرين إلى الأندلس تختلف عن طبيعة المغاربة الذين عبروا المضيق وسكنوا الأندلس، يختلفان في طبيعة الإنسان، إلى حد ما، كما يختلفان في نوعية الحياة التي عاشها كل من العنصريين في البلاد التي كانت غريبة عنهما معا. وعاشا فيها حياة جديدة بعقليتين مختلفتين وتقاليد حياتية مستحدثة.

من حيث طبيعة كل من العنصرين نجد العرب المهاجرين، في معظمهم، ينتمون إلى قبائل مختلفة. وفي هذا العنصر يستوي العرب والبربر. فهؤلاء أيضاً يختلفون في الأنتماء القبلي. وإذا كان معظم المهاجرين العرب من **القيسيين** أو **اليمنيين**، وقد نقلوا إلى الأندلس خلافاتهم وعصبياتهم، فإن معظم البربر الذين هاجروا إلى الأندلس من البرانس والبتر. تختلف طبيعة القبائل العربية نتيجة عصبياتها كما تختلف طبيعة القبائل البربرية نتيجة عصبياتها، أو إن العصبية عند هؤلاء وأولئك تختلف نتيجة طبيعة هذه القبائل وتلك.

ولا نريد أن ندخل في تحليل إجتماعي عميق عن طبيعة هؤلاء وأولئك، ولكنا فقط نشير إلى أن تعامل هؤلاء وأولئك مع الحكم لم يكن يقوم على أساس من فهم لهذه الطبيعة واختلافها. ولذلك عاملوا البتر والبرانس معاملة واحدة تقوم على الجفاء والاستخفاف بحكم ما أشرنا إليه سابقاً من أنهم

يعتبرون البربر خدموا الفتح ولم يكونوا فاتحين. وأنهم يقلون عن القادمين من دمشق، وارثي دولة الأمويين بما كان لها من مجد تعود به إلى أصولها القبلية المنحدرة من أجداد معاوية بن أبي سفيان الأموي، الذي ينتمي إلى أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف. وكان ينافس في الرفعة والشرف عمه هاشم في رياسة قريش. ينضاف إلى هذا الشرف القبلي ـ الذي يكاد يكون عرقياً في نظرهم ـ أنهم بناة الدولة الأولى في الإسلام بعد عهد أبي بكر وعمر. فعثمان نفسه منهم. ثم يضاف إلى ذلك أنهم بنوا حضارة عربية في دمشق بعيدة عن بدوية العرب في مكة والمدينة وأحوازهما.

بهذه العقلية كان الأمويون يحكمون الأندلس. أضافوا إليها أنهم كونوا أعظم دولة إسلامية خارج الجزيرة، منفصلة عن مركز الخلافة في بغداد. وفي بلاد تتميز عن العراق بخصبها وبهائها وطيب هوائها. وبسكانها الأوروبيين مختلفي الطبيعة والشكل واللغة والحضارة عن العرب. حتى عن العرب الوافدين من قيسيين ويمنيين الذين ما تزال البداوة تطبع حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم.

هذه العقدة العربية الأندلسية التي ركبت الحكام الأمويين، ومن انتمى إلى حكمهم في الأندلس، كان لها أثر في التعامل مع الوافدين العرب، فكونوا منهم خصوماً وأعداء. وكان لهذه الخصومة أثرها فيما عرفته الأندلس بعد سقوط الخلافة فيها. كما كان لها أثر في تعامل الحكم مع هذه الجاليات العربية على عهد المنصور بن أبي عامر.

وبهذه العقلية المعقدة تعاملوا مع البربر، رغم أختلاف البثر منهم عن البرانس في بداوة الأولين وتحضر الآخرين. تعاملوا معهم بعقلية الاحتقار والاستخفاف. ثم إن البربر، كما عرفنا، كان عملهم الأساسي في الأندلس هو الجهاد والمحافظة عسكرياً على الدولة والدفاع عن الإسلام الذي تمثله. بينما اختص العرب بالحكم، وما يوفره من رفاهة عيش وسلطة ومظاهر العظمة.

يقول بعض المؤرخين إن العرب الذين عرفوا قوة البربر النضالية كانوا يخافون منهم إذا ما هم اقتربوا من السلطة والحكم. ولذلك كانوا يبعدونهم ما أمكن ذلك عن مراكز السلطة، منذ أيام الولاة. وكان لهذا أثر في نفوس البربر. زاده اضطراماً الصراعات التي قامت بين العرب والبربر في المغرب، ثم في الأندلس.

التركيبة السكانية للأندلس

ومن الأسباب العميقة أن الحاكمين في الأندلس لم يكونوا يدركون عمق خطورة التركيبة السكانية. كانوا يعرفون الخلافات القبلية العربية، وخاصة بين اليمنية والقيسية، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أن سكان الأندلس يتكونون من أندلسيين وقشتاليين وقوط، إنضاف إليهم عرب على اختلاف قبائلهم، التي كان يتكون منها الجيش العربي الفاتح، والبربر على اختلاف قبائلهم التي تنتمي في معظمها إلى بتر وبرانس. وينتمي إلى كل من هذين الأصلين عدد كبير من القبائل. ثم صقالبة وأفارقة يعود أصلهم إلى الروم والأجانب الذين استوطنوا المغرب على عهد الرومان واصبحوا أفارقة أسلم كثير منهم، وهاجر بعضهم - بكل تراثهم الإفريقي الأجنبي وبكل عقليتهم إلى الأندلس.

هذه التركيبة السكانية كانت لها أهمية في بناء المجتمع الأندلس. ولكن الحكم الأموي لم يعرف كيف يتعامل معها. فكان يحتقرها جميعها، بمن فيها العرب الوافدون بعد الفتح، والذين لا ينتمون إلى الأرومة الأموية. وقد نال البربر حظهم من هذه المعاملة غير الكريمة فأثر ذلك سلباً في نفوسهم. وكانوا هم أيضاً يكنون العداوة لبعض العرب. مما دفع ببعض قبائلهم، أو مجموعات منهم، إلى هجرة مضادة نحو المغرب.

من المؤكد أن المغاربة كانوا يحملون تراثاً مجيداً في الحكم والمجد القبلي لا يقل، إن لم يتفوق، على التراث العربي. حكموا بلادهم قروناً. وقاوموا القرطاجيين والرومان والوندال وتعاونوا معهم كلما كان ذلك

لمصلحتهم ومصلحة بلادهم. ثم جاء العرب، وكانت للمغاربة ملاحم معهم. حرب الكاهنة مثال لذلك. «تعاونوا» معهم ـ ولم يخضعوا كلما كان الإسلام هو السبيل لضبط العلاقات بين الفاتحين والمغاربة. وتولوا هم كبر نشر الإسلام والدعوة إليه ـ فنصروا إدريس، وكون دولته منهم، قبل أن يفد عليه العرب من المشرق. ونصروا المذهب الخارجي وقامت دولتان خارجيتان في الجزائر والمغرب على سواعد المغاربة. ثم حينما بدأ العرب يتطاولون عليهم منذ فتح الأندلس، كانوا يقومون بمناورات أشرنا إلى ملامح منها.

هذا التاريخ يؤكد أن المغاربة كانوا على غير استعداد لتقبل التطاول العربي في الأندلس. وهذا أحد الأسباب العميقة للصراع العربي المغربي في الأندلس.

ونستشف سبباً آخر من الظروف الاجتماعية و«الحضارية» التي حكمت الأندلس. فقد انساق معظم العرب مع جانب من الحضارة كثير منه إيجابي، وبعضه سلبي، لا يقتصر على ما أشرنا إليه من تجاوز الحكام والطبقة المشرفة والقريبة من الحكم في شعائر الإسلام، ولكن يتعدى ذلك إلى مظاهر الترف الكبرى التي عاشها العرب. المغاربة ظلو محكومين بطبيعتهم البدوية الجبلية. لم ينساقوا مع ترف الحاكمين والمستفيدين من ثروة الأندلس، ولكنهم ظلوا محافظين يستنكرون نوعية الحياة التي يحياها العرب.

وذلك بعض أسباب الجفاء الذي كان بين العرب والمغاربة.

ثم إن المغاربة كانوا يعانون في الجهاد الذي يقومون به، ولم يقتصر على أراضي الأندلس، بل تجاوز شبه الجزيرة نحو فرنسا وسويسرا. عانوا في هذا الجهاد، استشهد منهم الكثيرون. انتصروا وانهزموا. ولعلهم كانوا يفكرون في أنهم لم يقوموا بكل ذلك ليتمتع بنعماته العرب.

ترف العرب وجهاد البربر.

يضاف إلى هذه الأسباب وهي عميقة الغور أن العرب الحاكمين كانوا يتجاوزون في التمسك بمظاهر الإسلام، مع أنهم يمثلون الخلافة. فلا تكاد تجد خليفة أو وزيراً أو حاجباً إلا كان يعيش حياة مترفة قوامها النساء والخمر، وعدم الالتزام بالفروض الإسلامية. البربر كانت لهم طبيعة أخرى. كانوا يتمسكون بشعائر الإسلام تمسكهم بالعقيدة، وكانوا يجاهدون عن عقيدة إسلامية، وليس فقط لمجرد الفتح. الطبيعة البدوية، التي كانت تحكم البتر منهم بخاصة، كانت تجعلهم بعيدين عن احتمال سلوك العرب الحاكمين وغير الحاكمين الذين انساقوا مع حضارة مترفة، انتهت ـ فيما يرى كثير من المؤرخين القدماء الذين كانوا شهداء على العصر ـ إلى تفسخ المجتمع وضياع الدولة وتمزق الهيئة الحاكمة، وانتهى الأمر بكل مباذله إلى ملوك الطوائف الذين كانوا أكثر تفسخا من الناحية الاجتماعية والدينية والأخلاقية، وكان الضحية هو الوطن الذي اضاعوه.

هذا التحليل يؤكد أن كل ما يقوله المؤرخون العرب عن البربر وطبيعتهم الوحشية دفعهم ذلك إلى إيقاد نار الفتنة في الأندلس غير صحيح. فالعرب كانوا هم السبب. ولكن البربر لم يحتملوا، ولم يتحملوا فكانوا يردون الصاع صاعين كلما تعرضوا للعدوان. وكانوا يسالمون ويقومون بواجبهم في الدفاع عن الإسلام ونقل الإسلام خارج الأندلس إلى فرنسا وأطراف سويسرا وإلى صقلية وروما كلما دعاهم داعي الجهاد.

مهما يكن فهذه صفحة من التاريخ لا يجوز لمؤرخ معاصر ـ كما كان الأمر عند بعضهم ـ أن يحاكموها على أساس عرقي أو عنصري. فكل من العناصر التي استقرت في الأندلس أصابت وأخطأت، والتاريخ الحقيقي شاهد أخطاء هؤلاء وإصابة الآخرين. لا ينبغي أن يشقى البربر بضرائه. ويضيع العرب نتيجة هذا العمل الجهادي بسياستهم المتردية والتي انتهت إلى ما انتهى إليه

أمر الأندلس جميعها، وليس فقط المناطق التي ضاعت من الحكم الإسلامي في فرنسا، بل وشمال إسبانيا، حتى لم يبق ضمن الحكم العربي إلا الأندلس بسبب سياسة العرب التي كانت تتراوح بين العمل الجدي في الحكم والسياسة، والانصراف إلى اللهو والصراعات الجانبية.

إلى جانب كل ذلك نستشف بعض الأسباب من الصراع العربي ـ العربي. فقد عرفنا في الفصول السابقة أن العناصر القبلية العربية تتصارع، وكان الخلفاء الأمويين يبعدون بعض القبائل العربية لأنهم ليسوا أمويين، وخوفاً من تطاولهم، ويقربون في بعض فترات حكمهم ـ وخاصة في عهد المنصور بن أبي عامر ـ المغاربة لاحبا فيهم، ولكن لقدرتهم الجهادية. ثم أحياناً يبعدونهم خوفاً منهم. ووضعية المغاربة هذه كانت تثير حفيظة القبائل العربية ضدهم، فكانوا يعادونهم خوفاً منهم. ويعتدون عليهم كلما وجدوا لذلك سبيلاً. والمغاربة كانوا يردون الصاع صاعين فينشأ الصراع الذي ينتهي بالقتال.

هذا العداء الذي استحكم بين العنصرين الأساسيين في فتح الأندلس وحكمها طوال أربعة قرون اضر بالوجود العربي الإسلامي ومكن للقشتاليين المتربصين بالإسلام والعرب أن يلعبوا على حبل الصراع بين الجانبين. وكان بعض المتسلطين على الخلافة يستعينون بهم على خصومهم، بينما كان الخصم يستعين بفريق آخر من القشتاليين. وقد وقع المغاربة في الفخ نفسه، فكانت بعض قبائلهم تساير الفريق العربي الذي يستنصر بالنصارى على خصومهم.

المهم أن هذا الصراع بين العناصر التي كانت تكون المجتمع الأندلسي، وخاصة منه العرب والمغاربة لم يكن في صالح الحكم العربي.

ولم ينقذ الوضع إلا المغاربة حينما قاموا بواجبهم في إنقاذ الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين.

ينبغي أن نذكر الوجود المغربي في الأندلس في المراحل التي وصفنا

لنعرف أنه لم يكن الطلب الذي تقدم به ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين للانقاذ منبعثا من فراغ فإن الأندلسيين كانوا يعرفون قيمة المغاربة من معاشرتهم أربعة قرون كاملة. ثم كانوا يعرفون أهمية الدولة المرابطية التي بناها يوسف. ولم يكن أمامهم إلا الحل الذي انتهوا إليه. ولم يكن أمام يوسف بن تاشفين إلا الحل الذي انتهى إليه حينما عبر إلى الأندلس.

الحكم في الأندلس
من إشعاع الإسلام إلى أطماع النصرانية

نشأ المرابطون كما عرفنا لتعليم المسلمين أمور دينهم. وتطورت الفكرة عند عبد الله بن ياسين، للدفاع عن القيم الإسلامية ولو بقتال الذين لا يلتزمون أسس الإسلام. ولعله أدرك أو فهم أن كل المسلمين في الصحراء وفي أطرافها لا يلتزمون سنن الإسلام فحارب، وحارب قواده من بعده حتى أصبحت مخايل الدولة تتجلى أمام ناظريه. كان يحارب، فيمن يحارب، رؤساء حكم وزعماء قبائل إلى أن يدينوا له أو الموت. ثم تجلت هذه المخايل واضحة في فكر يوسف بن تاشفين الذي فكر في الدولة، ثم اتسع فكره نحو الإمبراطورية.

ولكن التفكير في الإمبراطورية لم ينسه الدفاع عن الإسلام. وحينما طلب منه المعتمد بن عباد أن ينجد المسلمين في الأندلس، وقد تمزقت السلطة فيها إلى ملوك طوائف، بعد سقوط الدولة الأموية في قرطبة، كانت الفكرتان معاً (الدفاع عن الإسلام وتوسيع مدى الإمبراطورية) تتجاوران ولا تتنافران. ولم يؤجلها عن ساعة الطلب إلا تأمين منطقة العبور بتحرير سبتة، وتأمين الشرق باحتلال الجزائر.

انتهى من هذا النشاط حوالى سنة 474 (1083 م) وكان جواز الجيوش المرابطة إلى الأندلس سنة 477 هـ (1087 م).

ـ هل فكر يوسف بن تاشفين وهو يقرر الجواز، في الخطر الذي يأتي المغرب من الشمال فيما لو انتصرت النصرانية على الإسلام في الأندلس بعد

سقــوط طليطلــة سنــة 478 هـ وتهـديـد إشبيليــة وقـرطبـة وبقيـة عـواصــم الأندلس؟.

التفكير في الصراع القديم بين الضفتين لا يمكن أن يغيب عن قائد إستراتيجي كيوسف بن تاشفين، فيفكر في تأمين الإمبراطورية من الشمال (الأندلس) بضمها لتكملة الإمبراطورية، كما فكر في تأمينها من الشرق بمحاولة ضم الجزائر.

ـ هل فكر في ضم الأندلس إلى المغرب، وهو قائد صحراوي، قد يكون من طبيعته أن يخاف إجتياز البحر بالدولة ـ الإمبراطورية، وما يتطلبه ذلك من توزيع الجيش والسلطة وتثبيت القدرة الدفاعية، والبعد من مركز الدولة «مراكش»؟ أنهت الدولة مرحلة الهجوم، ولكنها بدأت مرحلة الدفاع ضد من تسول لهم أنفسهم الثورة لبناء دولة جديدة أو استرجاع الدولة التي أنهى بناءها يوسف بن تاشفين. فهل فكر، وهو يعتزم اجتياز البحر فيما قد تسبب لدولته هذه الرحلة الجهادية من متاعب؟

أغلب الظن أنه أصبح واثقاً من دولته وقوتها بعد أن اطمأن إلى ميناء الاجتياز (سبتة) والشرق (الزيريين والحماديين).

ـ هل كان من عواقب هذه الرحلة طموح الموحدين إلى إرث الدولة؟ قد يبدو التساؤل بعيداً عن واقع الأحداث. فما بين اجتياز يوسف البحر وتحرك محمد بن تومرت نحو من ست وثلاثين سنة يصعب التفكير، في بدايتها، في استغلال فرصة بعد المرابطين عن مركز الدولة، ووجود قواتهم في الضفة الأخرى من المضيق. ولكن الحروب التي خاضها المرابطون في الأندلس، وفي مقدمتها واقعة الزلاقة سنة 480، ثم انشغال يوسف بن تاشفين بمشاكل الأندلس وهو يصفي ممالك الطوائف ويواجه العدو الذي لم يكن يقبل الهزيمة. ما من شك في أن مشاغل المرابطين بالأندلس، سواء على عهد يوسف أو على يد ابنه علي، مهد للتفكير في قيام الدولة (الموحدين) في

جنوب المغرب على نحو ما فعل المرابطون من قبل. وبذلك يكون يوسف قد دفع ضريبة هامة لنصرة الأندلس هي ضياع الدولة من حيث لم يكن يشعر بذلك، ولا قرأ له حساباً.

التراث الامازيغي قبل ابن تاشفين

ـ هل فكر يوسف وهو يقدم على اجتياز البحر أن المغاربة سبقوا إلى هذا العمل العظيم، وأن طارق بن زياد كان له الفضل في فتح الأندلس، وأن دولا مغربية الأصل قامت في الأندلس، خاصة بعد سقوط الدولة الأموية:

بالإضافة إلى ما قدمناه في فصل سابق من خلال مظاهر التنافس ـ الذي يؤدي إلى الصراع بين العرب والبربر فقد كان للبربر نفوذ سياسي، رغم أن بعض العرب كانوا يمارسون تمييزا بين العرب والبربر. ولكن البربر استطاعوا بنفوذهم أن يختاروا أيوب بن حبيب اللخمي كوال على الأندلس وقبله العرب، لأن قوتهم كانت تسمح لهم بفرض ولاية هذا الرجل. ومن نفوذهم السياسي قيام إمارات بربرية في مناطق عديدة، إختارهم لولايتها بنو أمية. ومن المؤكد أن هؤلاء الولاة كانوا يتولون على مجتمع بربري أو معظم سكانه من الأمازيغ الذين وفدوا من المغرب. وقد عرفت واشتهرت بيوتات من البربر في الأندلس، ولو أنها تحمل اسماء عربية أو في صيغة عربية، لأن البربر الأندلسيين تعربوا واختلطوا بالعرب. كبني عبدوس وبني هذيل وبني غزلون وبني عميرة، وبني رزين، وبني ذي النون، وبني بنيه وبني الأخطل، وبني الفرج، وبني رسين وبني إلياس وبني عزون... هذه العائلات الكبيرة وغيرها يعود بها المؤرخون إلى أصولها القبلية البربرية كمديونة وهوارة ومصمودة ومغيلة وزناتة... وكان على هذه النواحي أمراء برابرة لأن سكانها في أكثرهم أمازيغيون. وإذا كان البرابرة قد توزعوا في مختلف أنحاء البلاد فإن هناك مناطق معروفة كانت تضم كتلا بربرية ضخمة تعمر نواحي واسعة وعرفت باسم القبائل التي تقطنها.

ورغم هذا التكتل فإن كثيراً من القبائل والتكتلات البربرية إندمجت في العرب وتعاونوا في القضايا السياسية والاجتماعية التي عرفتها الأندلس. وإذا كان الحكم المركزي (الخلافة) كانت للعرب الأمويين فإن الإمارة كانت في كثير من الجهات للبربر. حتى إن بعض المؤرخين المحدثين يقولون أن الطابع البربري أوضح وأظهر حتى عصرنا هذا من الطابع العربي في إسبانيا والبرتغال.

وقد عرف عنهم أنهم نشروا الإسلام ودافعوا عنه وجاهدوا في سبيله. وقد شاركوا مشاركة فعالة في الفتوح والغزوات التي تمت خارج الأراضي الأندلسية. ومع الغزو كان نشر ازسلام والتمكين له على يد البربر، ربما أكثر منه على يد العرب.

ومعروف أن البربر تأقلموا فتعربوا وساهموا في الدراسات الإسلامية كما ساهموا في إقامة صرح الحضارة الأندلسية المطعمة بكل تراث المغرب والعرب والأندلس. بل أنهم إندمجوا بسرعة في البيئة الأندلسية. وكان لهم أعظم الأثر في بناء الأندلس الإسلامية.

قد يكون يوسف بن تاشفين اطلع على كل هذا التراث البربري في الأرض التي تستغيث. ولذلك فدفاعه عن الإسلام وعن الأرض المسلمة كانت له صلة بأنه يدافع عن أرض مغربية. لا يفصل بينها وبين المغرب غير زقاق طريفه.

وهذا ما يفسر لنا أن اندفاع المغرب للدفاع عن الأندلس وتخليصها من الاحتلال القشتالي والانحلال السياسي والأخلاقي يعود إلى نفس الفكرة التي دفعت عبد الله بن ياسين وقواده لتخليص المغرب الصحراوي من التمرد على الإسلام.

المهم أن المغاربة كانوا هناك حينما كانت السلطة تنسحب من بني أمية لتقع الأندلس في يد ملوك الطوائف. ويتهيأ الجو للقشتاليين للهجوم على

الأندلس في الحرب الصليبية الأولى. وذلك ما مهد لاستدعاء يوسف بن تاشفين لمساعدة ملوك الطوائف على الدفاع عن الإسلام في الأندلس.

الدوافع الأساس لاجتياز ابن تاشفين

ماهي الدوافع العميقة المباشرة لعبور قوات يوسف بن تاشفين إلى الأندلس؟

بعضها مما أشرنا إليه. من بربرية الأندلس في أغلبية أصول سكانها ودفاعهم عن الإسلام والتبشيرية.

وما من شك كذلك في أن الوضعية السياسية المنهارة في الأندلس هي إحدى الدوافع الأولى.

ولم يكن انهيار الوضعية السياسية حادثاً عارضاً. ولو أنه يلفت النظر بالنسبة لدولة بلغت مجداً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً على نحو ما بلغته الأندلس على عهد الأمويين.

عرف الحكم الأموي شخصيات مهمة في مقدمتها: عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) مؤسس الدولة. الذي دخل الأندلس مروراً بالمغرب وبتأييد من قبيلة زناتة إحدى القبيلتين الكبريين، والتي ستعرف دولتها (دولة زيري بن عطية) صلات متراوحة بين الولاء للأمويين والصراع معهم على عهد المنصور بن أبي عامر كما قدمنا.

ومنهم عبد الرحمن الناصر الذي كان من أعظم خلفاء بني أمية. وهو أول من لقب نفسه بأمير المؤمنين لأن الذين سبقوه كانوا يتحرجون من التطاول على لقب الخليفة العباسي. وقد ولي الخلافة نحواً من خمسين سنة (300 ـ 350هـ).

ومنهم ولده المستنصر العالم الأديب جماعة الكتب المهتم بالعلماء وقد وفد على قصره كثير من العلماء والأدباء.

ومنهم (وزير لا خليفة) المنصور بن أبي عامر، الذي لم يكن ينقصه من الخلافة إلا الإسم. وقد استطاع أن يضبط الحكم في الأندلس، بعد أن وجد الفرصة مواتية في ولاية طفل في العاشرة من عمره، هو هشام بن المؤيد. وواتته الفرصة أكثر بتأييد أم هشام التي كانت تثق به فتمده بالمال لضبط الدولة لصالح ابنها، فضبطها لنفسه وحجب ابنها عن أي تدبير.

غير أن الكثيرين من الخلفاء كانوا دون المستوى فأساءوا إلى الدول وكانوا سبب إنهيارها، وخاصة بعد غياب المنصور بن أبي عامر الذي لم يكن ابنه في مستوى الدسؤونية التي تحملها والده. وكان تصرفه وممارساته من أسباب انهيار الدوله.

وعرف حكم الوزراء واستلاؤهم على مقاليد الدولة، على نحو ما عرف عهد العباسيين في المشرق من سيطرة البرامكة. وكان المنصور بن أبي عامر أبرز هؤلاء الوزراء الذين دعموا أسس الدولة بعد عبد الرحمن الناصر، ولكنه ـ وقد لخص الدولة في شخصه ـ سبب انهيار الدولة بعد غيابه.

ولكن الخطر الأكبر الذي هدد دولة الإسلام في الأندلس جاء من القشتاليين لم يهدد مثيله الدولة العباسية، إلا إذا قارنا القشتاليين في الغرب الإسلامي بالمغوليين في المشرق.

الأمويون الذين حكموا الأندلس بعد عصر الولاة أقاموا دولة حقيقية بدأت قوية عزيزة الجانب. إستطاع أمراؤها وخلفاؤها أن يسندوا الدولة بقوة عسكرية واقتصادية وثقافية. يسندهم البربر، وخاصة في الجانب العسكري والمدني كذلك. ويخيفون خصومهم من القشتاليين الذين كانوا يطمحون إلى استرجاع البلاد إلى النصرانية وقد اعتبروها ضائعة منها. واستطاعوا أن يكونوا مجتمعا متجانسا من البربر والعرب والأندلسيين أسلموا وتعربوا. واستطاعوا أن يكونوا مجتمعاً متجانساً من البربر والعرب والأندلسيين أسلموا وتعرّبوا. واستطاعوا أن يتغلبوا على الصراعات القبلية، وخاصة بين القيسيين واليمنيين،

وهما القبيلتان الكبريان هاجرت طائفة مهمة منهما إلى الأندلس، فكانوا تارة يفضلون هذه القبيلة ويستعينون بها على تسيير دفة الحكم، وتارة يفضلون الأخرى ضد على الأولى. وهي سياسة اتبعها الأمويون في دمشق من قبل، ويتبعها كل حاكم يعتمد على نظام قبلي وعلى استغلال الصراع بين القبائل للتمكين لسيادته.

حكم الدولة الأموية في الأندلس ازدهر على عهد ولاية الوزير المنصور بن أبي عامر (366 ـ 392) ازدهاراً سياساً وعسكرياً وثقافياً، لم تعرف الدولة نظيراً له إلا في عهد عبد الرحمن الداخل (المؤسس) وعبد الرحمن الناصر.

المنصور بن أبي عامر كان بمثابة الشعلة الأخيرة في الدولة الأموية. قيادته للدولة وجهاده في الحدود لتوسيع المجال الحيوي للإسلام في أوروبا، وسيطرته على مناطق في المغرب، بل رغبته في ضم المغرب للأندلس، حتى إنه اشترط على زيرى بن عطية مؤسس الدول الزيرية في فاس أن يكون تابعاً لقرطبة، كل ذلك ـ وغيره من النشاطات الثقافية وإغناء الدولة بالمال جعله في مقدمة من حكم المسلمين على الإطلاق.

أخطاؤه أقل من إصاباته، ولكنها كانت قاتلة. في مقدمتها أنه اعتمد في بناء سلطته على السيدة صبح والدة هشام المؤيد، الذي ولي السلطة وهو طفل، فمكنته من المال والسلطة. وبذلك استطاع أن يهمش هشاماً ـ وحسناً فعل ـ بتدبير من صبح لأنها كانت تعرف أن ابنها الطفل لن يستطيع إدارة الدولة. ولى المنصور بن أبي عامر السلطة كاملة. وبذلك انحرفت السلطة إلى الوزراء بدلاً من الأمراء.

قد لا يكون استبداده بالسلطة ـ عملياً ـ من أخطائه لأن ولاية هشام المؤيد كان من شأنها أن تضيع الدولة، ولذلك زادت ولاية المنصور في عمرها. ولكن الخطأ أنه اعتبر نفسه الخليفة الحقيقي فسمى نفسه بالمنصور ـ وهو من الألقاب التي كان يتخدها الخلفاء لأنفسهم ـ ثم إنه ترك الأمر لأبنائه من بعده: المظفر

(تولى سبع سنوات) ثم ابنه الثاني عبد الرحمن الناصر، الذي لقب نفسه بولي العهد. وكانت ولايته بداية النهاية للدولة الأموية في الأندلس. فقد ثار عليه الأمويين من نسل الأمراء وقتلوه، وبدأت الفتنة الكبرى التي أنهت حياة الدولة.

خطأ المنصور أنه لم يقم وزناً للقبلية ولإرث الدولة: الدولة الأموية التي أسسها عبد الرحمن الداخل لها أصل في الخلافة. فهو مرواني من نسل معاوية ابن أبي سفيان. فر من وجه الدولة العباسية عند سقوط الأمويين في دمشق، وأنشأ الدولة في البلاد الجديدة (الأندلس) وهي استمرار لدولة دمشق تستمد نفوذها ـ رغم ضعف المتخلفين من أمرائها ـ من هذه السلطة الخليفية، خاصة عند الذين قامت واستمرت على أكتافهم: القبائل اليمنية تارة والقيسية تارة، والقبائل المغربية الأمازيغية التي ساندت الدولة باعتبارها استمراراً للخلافة الإسلامية. ولذلك حينما يأتي المنصور بن أبي عامر، لا أصل له في الملك قروي (من قرية طرش) بالقرب من الجزيرة الخضراء، ولا عزْوَة قبلية له رغم أنه من عائلة مجيدة، ولا يعود بأصله إلى دولة لبني أمية، ثم تراوده أحلام السلطة فيقفز إليها عن طريق طموحه، وعن طريق السيدة صبح التي وجدت فيه ـ بالإضافة إلى الحب الشخصي الذي كان حديث المجالس ـ المنقذ لسلطة ابنها فأمدته بالمال والسند. مثل هذا الرجل إذا أتيحت له السلطة على عهد ـ وباسم ـ هشام المؤيد وبتأييد من السيدة الغنية الجميلة العاشقة ذات النفوذ، وإذا أتيحت له بجهاده وحنكته وعلمه ومهارته، فلن تتاح لأبنائه ـ الأجانب عن الحكم ـ بعده.

حينما يأتي حاكم نزق مثل الناصر بن المنصور بن أبي عامر، ويستمر في تهميش «الخليفة» وفي الاستبداد بالأمر، وليس له شخصية أبيه ولا عقله ولا نفوذه ولا سند صبح، ثم يلقب نفسه ولياً للعهد، فسيكون ذلك من أسباب الفتنة بين الطامعين: كمحمد بن هشام بن عبد الجبار، ثم يثور عليه هشام بن سليمان عبد الرحمن الناصر يسانده الجيش المغربي (البربري). ثم يقدم البربر سليمان بن الحكم أميراً عليهم ويتصارع مع ابن عبد الجبار في حرب أهلية

ضاربة بعد أن قتل من أهل قرطبة الآلاف. وفي عهده قامت دولة بني حمود لتنتهي الدولة الأموية على أيديهم (النهاية الأولى).

من هنا ندرك الخطأ الأكبر للمنصور بن أبي عامر الذي حجبته السلطة ـ بحق ـ عن إدراك مصلحة الدولة في عهده وبعد غيابه. ومن المؤكد أن السلطة الطاغية تعمي عن التفكير في المستقبل. ولذلك أفاد المنصور الدولة الأموية ومنحها سعة افقية وعمودية في حياته، بقدر ما كانت وفاته بداية نهايتها.

هناك شبه بين نهاية بني أمية ونهاية بني العباس، مع اختلاف أساسي وهو أن الفرس الذين بدأوا السيطرة على الدولة وهي في بداية عزتها لم يدعوا لأنفسهم الملك أو ولاية العهد، كما فعل عبد الرحمن الناصر بن المنصور بن أبي عامر، رغم أنه من عائلة عربية. ولكنهم مثل بني عامر حجبوا الخلفاء واستولوا على الحكم الفعلي حتى كانوا يولون الخلفاء ويعزلونهم على هواهم.

وياتي الشبه أيضاً أن بني أمية نأوا عن جانب من العصبية والقبائل العربية ومالوا إلى الصقالبة تارة وإلى البربر تارة أخرى، فكانت ثورة الزعامات العربية ضد الدولة. سحقها محمد بن عبد الرحمن ثم عبد الرحمن الناصر، ثم المنصور بن أبي عامر. وفي ذلك ـ وفي الاعتماد على الأقليات والطوائف ـ بداية انهيار الأندلس.

القوي التي ظهرت من كل هذه الاضطرابات تنتمي إلى القوى التي اعتمدت عليها الخلافة والملك في الأندلس، منذ قيام الخلافة فيها. وهي: القوة الأموية والقوة البربرية التي اعتمد عليها رجال السلطة، وخاصة في الجيش والدفاع عن الدولة، والأجانب (الصقالبة) الذين اعتمد عليهم بنو أمية في خدمة دولتهم (إدارياً) والزعامات العربية.

نشأة ملوك الطوائف

هذا الخليط من القوى التي حاول كل منها أن يحتفظ بسلطته بعد انهيار القوة الكبرى (الخلافة) هو الأساس الذي قام عليه نظام ملوك الطوائف. وقد بدأ هذا النظام بقيام دولتين بربريتين صغيرتين هما الحموديون، الذين لم يعمروا غير ثلث قرن حكموا فيه قرطبة وأجهزوا فيه على دولة بني أمية. ولو أنها عادت إلى الظهور لفترة قصيرة نحو 8 أعوام حتى أسلمت الروح سنة (422 ـ 1031م) بعد حكم دام 184 عاماً. وإلى جانب الحموديين في قرطبة قامت دولة بربرية أخرى في غرناطة هي بنو مناد (سنتحدث عن هذه الدول في فقرات أخرى).

المهم أن ظاهرة ملوك الطوائف بدأت بهذين النموذجين ولو أنهما لم يستمرا طويلاً.

أما ملوك الطوائف الذين عرفوا بهذا الاسم فقد تكونوا في جهات مختلفة من الأندلس من الزعامات العربية، الذين كانوا خصوماً للأمويين ناقمين على طغيانهم وتنكرهم لزعاماتهم العربية. لم تكن لهم سابقة في الملك، وإن كان لهم إنتساب لوزارة أو قيادة أو حكم أو قضاء أو نفوذ.

هكذا تمزقت الأندلس إلى ست مناطق تراس كل منطقة منها زعيم دعي ملكاً وكان جمعيهم يمثلون بحق «ملوك الطوائف».

لا نقصد إلى التأريخ لملوك الطوائف في هذه الفقرة من هذا الفصل. فقد يبدو الحديث عنهم نشازاً، ونحن نتحدث عن مغرب الإمبراطورية. ولكن تاريخ المرحلة في المغرب العربي لا يمكن أن يفهم وتدرك أسبابه بغير توضيح للظروف المباشرة التي دفعت بيوسف بن تاشفين إلى اجتياز المضيق. وهي المرة الثانية البارزة في التاريخ التي ركب فيها المغاربة البحر لحكم الأندلس: الأولى كانت عندما اجتاز طارق بن زياد المضيق لنشر الإسلام في الأندلس، ولحماية المغرب من هجوم الشمال على الجنوب. والثانية هي اجتياز يوسف

بن تاشفين بجيوشه القوية لإنقاذ الإسلا في الأندلس من هجوم الشمال الذي بدأ يتحقق على عهد ملوك الطوائف كما سنرى.

لذلك كانت ظاهرة ملوك الطوائف باعثاً قوياً للمغرب للقيام بعملية الإنقاذ، خاصة بعد أن أكدوا أنهم غير قادرين عملياً على حكم الإندلس ـ ولو بطوائفهم ـ وبالتالي غير قادرين على الحفاظ عليها مسلمة. وتلك مسؤولية إسلامية، إذا لم يستطع القيام بها نظام حكم متفسخ فعلى النظام الذي ما يزال يمتلك القدرة على ذلك أن يقوم بها.

وتلك هي المسؤولية التي إضطلع بها المرابطون.

نتعرض فقط إلى الظروف والعوامل التي هيات للقيام بمسؤولية المرابطين. قد يضطرنا ذلك إلى توضيح بعض الملامح التاريخية، ولكنها ستكون مرتبطة بالظروف التي جعلت الدفاع عن الإسلام في منطقة من أهم مناطقة مسؤولية كبرى تلزم الدولة القوية في المنطقة. ولم تكن إلا المرابطين.

ظاهرة طبيعية أملتها الجغرافية الطبيعية للأندلس، والجغرافية الإدارية التي أنتهجها حكم المنصور بن أبي عامر، والجغرافية البشرية التي تتمثل في التركيبة السكانية التي عرفها الحكم الإسلامي في الأندلس.

تعتبر بلاد الأندلس ـ الجزء الجنوبي والغربي والشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية ـ آخر منطقة غربية فتحها المسلمون. وبعدها عن المشرق العربي، والجزء الكبير من شمال إفريقيا الذي يفصلها عن مركز الخلافة وضعها في مركز يجمع المتناقضات. فهي في مأمن من سلطة الخلافة العباسية، وهي بذلك ملجأ للمغامرين من القبائل العربية والطامحين للسلطة، وتكاد تكون مستقلة عن أي تأثير يأتي من الشرق، إلا التأثير الداخلي الذي سنشير إليه. وهي إلى جانب هذا بلاد شاسعة تتميز طبيعتها بالتنوع: الجبال والسهول والشواطىء الواسعة، والمضيق الذي يفصلها ـ ويصلها في نفس الآن ـ عن المغرب، البلاد المتنوعة الحافلة بالمشاكل السياسية.

الحكم في بلاد كهذه لم يكن سهلاً بحيث يستقيم السلطان فيه إذا امتلك الوسط الجنوبي: قرطبة. ففي كل منطقة يمكن أن يتكون هذا الوسط، لخصب البلاد وغزارة مياهها واعتدال هوائها وقابلية كل منطقة لتكوين سلطة.

ثم إن السلطة الأموية في الأندلس لم تجد البلاد كلها ممهدة. المناطق التي وصلها الفتح في عهد الولاة بقيت بعضها تحت الحكم الإسلامي يحكمها ولاة يختلفون قوة وضعفا. ويستعيد النصارى بعضها. حينما نشأت الخلافة لم تجد المملكة ممهدة، وإنما كانت بين مناطق تثور على الدولة، ولو كانت مسلمة، ومناطق يحتلها النصاى، ومناطق في الشمال ـ بالأخص ـ كان الخلفاء، وخاصة في عهد الناصر، يرغبون في فتحها وضمها لدولة الإسلام، ولذلك عاش الخلفاء الأولون، وفي عهد المنصور بن أبي عامر، حياة فتح وغزو وعمل لفرض الاستقرار في المناطق الثائرة.

هذا الحكم، الذي يسعى للاستقرار والامتداد، كان يفرض تنظيم الإدارة على أساس تنصب الولاة في المناطق التي تخضعها الدولة أو تفتحها. مناطق متباعدة كان الوالي في كل منها يكاد يستقل.

ثم إن النظام الإداري كان يعتمد على الحجاب والوزراء إلى جانب الولاة. ولكل منهم نفوذ يتطاول أحياناً فيقضي على نفوذ الخليفة. والمنصور أبي عامر كان حاجباً فاصبح هو الحاكم المطلق حتى اتخذ لقب الأمراء (المنصور) ونصب ابنه ولياً للعهد.

هذا النظام الإداري ـ وكان نظاماً محكماً وطبيعياً ـ منح بعض الوزراء مكانة سيستغلونها في وظيفتهم، وبجهاز عملهم.

وحينما انتهت الدولة الأموية والعامرية، كانت الأندلس الكبرى مقسمة إلى نحو ست ولايات كبرى كل منها تحت إمرة وزير أو أمير. وكان هذا التقسيم الجغرافي الإداري أحد أسباب تكوين ملوك الطوائف. كانت منها منطقة قرطبة (العاصمة) والأراضي والمدن التابعة لها: وهذه تكونت فيها إمارة

بني **جهور**، ومنطقة طليطلة، وقد تكونت فيها إمارة **بني ذي النون**، ومنطقة إشبيلية وغرب الأندلس، وقد تكونت فيها مملكة **بني عباد**. ومنطقة بطليوس وقد تكونت فيها دولة **بني الأفطس**، ومنطقة غرناطة وقد تكونت فيها الإمارات البربرية بداية من دولة **بني مناد**، ومنطقة سرقسطة وأمراؤها **بنو هود**، ومملكة دانية والجزائر، وإمارة شنتمرية، وإمارة ألبونت.

وسنشير فيما بعد إلى أهم هذه المملكات كما سنشير إلى الإمارات البربرية، لالنؤرخ لها، ولكن لنؤكد من خلال هذه الممالك الكبرى أن الأندلس لم تعدالأندلس، وأن التمزق بين الأمراء والملوك كان سيفضي بها إلى الاحتلال القشتالي المحتوم.

التركيبة البشرية والقبلية

وكانت الأندلس ذات تركيبة بشرية متنوعة فرضتها طبيعة البلاد ونوع الفتح وانتماء الفاتحين (عرب وبربر) والقرب من المغرب والهجرات المتعددة عربية من المشرق والمغرب (القيروان) وبربرية من المغرب والجزائر وتونس، ثم النصارى الذين أسلموا والذين احتفظوا بدينهم وهم أندلسيون أصليون، والصقالبه الذين وفدوا على الخلافة وعملوا في الحقل الإداري، واليهود الذين لم يكن الخلفاء يستغنون عن خدماتهم. تركيبة متنوعة الديانة والعرق والقبلية. وكان الحكم يتعامل مع هذه التناقضات بكثير من التصرفات المتناقضة. ولذلك لم يكن يضمن له الإجماع حتى في عهود الناصر والحكم المستنصر والمنصور ابن أبي عامر، وهم من أهم وأعظم من حكم الأندلس الأموية.

وحينما ضعف الحكم وسقطت الدولة كانت الأندلس معرضة لتمزق الحكم الداخلي من جهة، ولهجوم النصارى القشتاليين من جهة أخرى. وقد خبروا الحاكمين، فوجدوهم على استعداد للتنازل عن أجزاء من ممالكهم لقاء مساعدة عسكرية على خصم، يسعى هو الآخر إلى مساعدة عسكرية من عدو

نصراني لينتصر على خصمه المسلم.

بنو جهور

في هذا الاضطراب نشأت دول الطوائف، مستندة إلى هذا الخلل الذي وصفنا، وإلى اتساع رقعة الأندلس وتقسيماتها الإقليمية الإدارية. ربما كانت من أهم هذه الدول دولة بني جهور. أسسها وزير ينتمي إلى عائلة لها قدم في المجد الوزاري منذ جده الذي كان من أنصار عبد الرحمن الداخل. ولذلك كان الوزير جهور بن محمد بن جهور يستند إلى مركز سابق في الحكم. وحينما انهار الحكم الأموي في قرطبة، ثم غادرها علي بن حمود الذي أنشأ الدولة الحمودية المغربية وتولى هشام بن محمد الخلافة فلم يحسن السيرة، ولم يكن له أن يفعل، طرد أهل قرطبة بقايا بني أمية وأسندوا الأمر إلى الوزير جهور. فكانت دولته أحدى دول الطوائف في قرطبة. ولم يكن ليضم إليه الأندلس بكاملها. فهو ليس خليفة للمسلمين، ولو أنه كان أقوى وأكثر استقامة من أي خليفة ينتجة بنو أمية.

بسط بن جهور سلطانه على منطقة غير كبيرة من الأندلس. ولم يدع الخلافة وإنما كان شبه رئيس حكومة باعتباره وزيراً سابقاً. وقد حكم منطقته حكما عادلا ومستقيماً وحازماً في نفس الوقت. وكان عاقلاً حكيماً بين الإمارات المجاورة التي كان كل همها توسيع دائرة نفوذها بالحرب مع الجيران. ولكن الأمر لم يلبث أن اضطرب ـ كالعادة ـ بعد وفاة القائد الرائد سنة 435 هـ 1044 م وولاية أبنائه. وقد أدركته المحنة، محنة الاعتقال والنفي هو وأولاده بسبب خصومات ولديه، وطمع بني عباد في ضم قرطبة إلى إشبيلية رغم ما أسداه جهور وهو في عزه لهم من الصداقة والرعاية والنصح.

بنو عباد

المملكة الثانية المهمة هي مملكة إشبيلية تحت سلطة بني عباد.

وهذه المملكات والإمارات تعتمد على قاعدة سابقة في الحكم والسلطة. وبنو عباد اعتمدوا على سلطة قضاء كان يتولاها في إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عباد منذ أيام المنصور بن أبي عامر. وكان يراقب الفتنة التي حلت بالأندلس جميعها، ومنها إقليم إشبيلية من قريب. ويوطد أقدام حكمه كقاض يلجأ إليه الناس في أيام الفتنة. انتهز فرصة انشغال الحموديين بالاستيلاء على قرطبة وخوض معركة حربية فيها فقوي سلطانه، وأصبحت له السلطة المطلقة بعد أن تخلص من الحموديين وأنصارهم المغاربة، الذين كان يعمل للتخلص منهم. وأصبحت خطة القضاء والحكم في يد ابنه أبي القاسم بعد أن كبرت سن القاضي أبي الوليد.

وبدأت حروب بني عباد، التي لم تنته، مع الجيران: حاربوا بني الأفطس في بطليوس. انتصر العباديون ثم انهزموا حتى فر إسماعيل بن عباد إلى لشبونة بعد أن هزم جيشه الأفطش بجيش مغربي. صراع مرير مع الحموديين استعمل فيه بنو عباد اسم خليفة موهوم هو هشام المؤيد.

وحارب في سبيل قرمونه حتى احتلها من يد حاكمها المغربي البرزالي. ثم انهزم العباديون في معركة استرداد خاضها المغاربة حتى اقتحموا إشبيلية وقتلوا إسماعيل بن عباد. وكالعادة احتزوا رأسه.

بداية النهاية

بداية الدولة كانت سيئة بسبب المطامع في الجيران والحروب المتوالية. وهو سلوك طبيعي بين «ملوك طوائف» كل منهم يريد أن يدعم مملكته بأراضي مملكة جيرانه.

وكان من أهم ملوكهم المعتضد الذي شغل نفسه أيضاً بالحروب،

فاستولى على الجزيرة الخضراء. وحاربه ملك قشتالة فاضطر أن يصالحه ويدفع الجزية... ولم يسلم المعتضد مما يحدث لبعض الملوك فقد قام خلاف، وصل حد المؤامرة، بينه وبين ابنه إسماعيل، فقتله وصفى كل أنصاره وأمواله. ورغم أن المؤرخين يصفون عهده بالعظمة فقد كانت لديه حديقة جمع فيها رؤوس القادة الذين قتلهم بنفسه. وكان يفتخر بها، ويسعد وهي تحمل إليه في ليالي سكره (هكذا كان ملوك الطوائف التي أصبحت الأندلس في حوزتهم يشهدون الزحف النصراني عليها).

خلفه ولده، بعد نهايته بالموت، المعتمد بن عباد، أشهر ملوك إشبيلية. وقد تعاظمت شهرته في التاريخ الأدبي بعشيقته «الرميكية» ـ اعتماد ـ ثم بقصته مع يوسف بن تاشفين الذي نفاه إلى أغمات، وبعض ملوك الطوائف الذين كانوا يسلمون الأندلس للقشتاليين مملكة بعد مملكة. وخاض المعتمد معارك طاحنة ضد جيرانه من الأمراء العرب والبربر، وحالف النصارى ودفع الجزية، عز وذل، وعاش حياة الأدب واللهو، ورفع من مكانة إشبيلية ووسع سلطانها. ووجد أخيراً أن الزحف النصراني كان أقوى فخضع لمطالبة البربر (يوسف بن تاشفين) الذي طالما اضطهدهم هو وأبوه وحاربهم في عقر دارهم طمعاً في الاستئثار بالسلطان الذي لم يكن يملك منه إلا المظاهر. أما البلاد (الأندلس) فكانت في مهب الرياح. لم تعد تستطيع الصمود مع أي من الولاة والملوك ومدعي الخلافة، ولا أن تقف في وجه النصرانية التي كانت تزحف من كل جانب.

لا نريد في هذه القراءة أن نتابع ملوك الطوائف في كل الأقاليم. فقد قرأنا لبعضهم (المغاربة) فقرات من فصول سابقة، دول الطوائف أشهر فترة في تاريخ الأندلس لأنها فترة التحول يقوم المغرب فيها بدور الحكم. وأشرنا هنا إلى نموذجين من هذه الدول، وسنشير إلى نماذج أخرى لنقرأ بعض الحقائق التي تتصل بموضوعنا:

أولها: أن ملوك الطوائف لم يكتفوا بأنهم ساهموا في تمزيق الأندلس، ولو أنهم ورثوا وضع انهيار الدولة، وهو وضع لا يحسدون عليه. وكان من الطبيعي أن يؤدي إلى قيام هذه الممالك المتعددة التي لا يجمع بينها وضع جغرافي ولا إداري ولا نسب في الحكم، ولا يمكن لأي منها أن يدين بالطاعة للآخر. لم يكتفوا بذلك، وإنما كان منهم، من يستعين بالنصارى على خصمه. وإذا استثنينا دولة بني جهور فإن كل ملوك الطوائف وأمرائها التجأوا إلى القشتاليين يطلبون منهم العون، أو يحالفونهم أو يستعدونهم على خصومهم، أو يتقون هجماتهم بأن يدفعوا لهم «الجزية» ـ وهم صاغرون ـ وكان دفع الجزية بداية الهزيمة. فإن القشتاليين لم يكونوا يكتفون بالجزية ولا بحلف الشرفاء، وإنما كانوا يأخذون الجزية ويطالبون بالمزيد، أو ينقضون الحلف فيهاجمون الدولة التي دفعت الجزية، والدولة التي حاربوها مع حليفتهم الدولة المسلمة. وقد استمرت هذه السياسة الانهزامية تضعف قوة المسلمين وتنهك دول الطوائف، والعدو الحقيقي يطغى على هذه الدولة وتلك حتى انهزم ملوك الطوائف جميعهم أمام القشتاليين، وسقطت عواصمهم على نحو ما سنرى.

نأخذ كمثال على ذلك:

ـ المعتضد بن عباد، الذي كان أوفر ملوك الطوائف قوة وسطوة وجبروتاً. وكانت إشبيلية في عهده أعظم ممالك الطوائف وأوفرها غنى وسلطة وسمعة بين الممالك الأخرى، بعد أن انهارت دولة بني جهور. ومع ذلك التجأ المعتضد ـ وكان بمثابة المؤسس الأكبر ـ إلى أن يدفع الجزية إلى فرناندو الأول، ملك قشتالة حتى تنمر ضد ملوك الطوائف وانتصر على مملكة طليطلة سنة 444 هـ ـ 1067 م ثم هاجم في السنة بعدها مملكة إشبيلية، فلجأ المعتضد إلى طلب الصلح ودفع الجزية. وذهب إلى معسكر العدو بنفسه وقدم له التعهد بدفع الجزية. وقد ظل يؤدي الجزية لفرناندو ولابنه من بعده حتى توفي.

ـ المعتمد بن عباد، وهو من أشهر ملوك الطوائف الإشبيليين في الأدبيات

العربية، بسبب اعتماد الرميكية ومجالسه الأدبية، ولأن مصيره كان في أغمات «ضيفاً» على يوسف بن تاشفين، هذا الملك الهمام سلك مسلك والده المعتضد، فكان يدفع الجزية لألفونسو بن فرناندو. ولم يكتف بالجزية، بل إنه في بعض المواقف التي اعتبرها منصفة للعرب، قدم له مجموعة كبيرة من التحف والهدايا.

وقد تخوف المعتمد بن عباد من أن الجزية لا تكفي لصد عدوان القشتاليين على مملكته، فعقد مع ألفونسو حلفاً يقوم ألفونسو بمقتضاه بمساعدة المعتمد في حروبه ضد سائر خصومه من الأمراء المسلمين. . .!! لقاء جزية سنوية يؤديها. وأن يقوم المعتمد بغزو أراضي تابعة لطليطلة، ويسلم جزء منها إلى ألفونسو بل تعهد في الاتفاق أن يترك له حرية احتلال طليطلة (ملك مسلم يحارب دولة مسلمة بمساعدة ملك نصراني وسلم له جزء من أراضي المسلمين). هذا هو ابن عباد. . .!! ويقال: إن المعتمد قدم إحدى بناتـه زوجة أو حظية لملك قشتالة (هذه المعلومة كتبها المؤرخون النصارى؟).

والعباديون لم يكونوا يتورعون عن الاستعانة بالنصارى على تحقيق مطامعهم في ممالك الطوائف الأخرى. وقد طمعوا ـ فيما طمعوا فيه ـ في الاستيلاء على مرسية وكان يحكمها عبد الرحمن بن طاهر (الدولة العامرية). وقد اتفق المعتمد مع وزيره ابن عمار ـ وهذا هو الذي أقنعه بالفكرة ـ على احتلال مُرْسِيَّة. ولم ير المعتمد وابن عمار بدا من الاستعانة بالكونت يرنجير على العمل معاً لاحتلال مرسية. وإذا كان هذا المشروع قد أخفق في البداية، فإن ابن عمار ألح في احتلال بلنسة حتى نجح في احتلالها وأرادها له، ليكون أميراً عليها. تم له ما أراد. ولكن عاقبته لم تنته مع المعتمد إلى خير على نحو ما يفصل المؤرخون.

ومعروف أن الجزية والهدايا والحلف لم ينفع ملك إشبيلية في شيء بعد أن هانت هيبته إزاء العدو الذي يضمر له ولمملكته الشر، وكان ينتظر الفرصة. وقد جاءت عندما أهانت بعثة ألفونسو وفد المعتمد الذي ذهب يقدم الجزية، فانتقم منه المعتمد. وعند ذلك هاجم ألفونسو مملكة إشبيلية، وخرب جميع أراضيها، ووصلت جيوشه ـ وكان يقودها بنفسه ـ حتى «طريفة» على المضيق.

- عم هذا الانهيار كل ملوك الطوائف. وكان منهم ابن الأفطس أمير دولة بطليوس. كانت هذه المملكة الصغيرة تعيش تحت مضايقات بني عباد على عهد المعتضد الذي كان يريد أن يضمها إلى مملكته الإشبيلية. وتحت مضايقة بني ذي النون ملوك طليطلة من جهة أخرى. وطبعاً حينما تقع مملكة من هذه الممالك تحت طائلة عدوان مملكتين إسلاميتين، يشجع ذلك القشتاليين الذين يتربصون الدوائر بهذه الممالك جميعها، فهاجمها أحد ملوكهم (فرناندو بن شانو ملك قشتالة وليون، واخترق منطقة بطليوس سنة 449 هـ 1057 م. وكانت النتيجة أن اتفق ابن الأفطس مع المهاجمين على دفع الجزية بعد أن امتنع قبل ذلك عن دفعها.

ويجد **بنو الأفطس** أنفسهم أمام واقع خطير، بعد أن سقطت مدينة تُلْمُريّة وطليطلة وتولى المتوكل أخو المظفر الملك في ظروف تقوت فيها سلطة القشتاليين. ملك قشتالة طلب من المتوكل تسليم بعض قلاعه وحصونه وأداء الجزية. أبى المتوكل وأجاب بعنف في رسالة قوية. ويبدو أن الهزيمة لم يكن منها بد ليخضع لما خضع له بنو عباد.

- **بنو ذي النون** ملوك طليطلة كانوا يحكمون مملكة من أهم ممالك الأندلس، وعاصمتهم بعد قرطبة من أعظم عواصم الأندلس. وقد تحالف عليهم المسلمون والنصارى على السواء. وقد عرفنا موقف المعتمد بن عباد مع ألفونسو ضد ملوك طليطلة، وإلى جانب بني عباد كان من خصومهم **بنو هود** ملوك سرقسطة. النصارى والمسلمون من كل جانب. وطليطلة هدفهم جميعهم. وكان المأمون، وهو أهم ملوك طليطلة يقاوم هنا وهناك، ويضطر إلى أن يفاوض فرناندو ملك قشتالة لمساعدته على حرب إخوانه المسلمين، فساعده بجنود لم يكن هدفهم حماية أراضي طليطلة فحسب، ولكنهم عاثوا فساداً في أراضي بني هود وحطموا قواتها. وطبعاً كان الثمن هو الجزية التي دفعها المأمون لمساعدته وحمايته مملكته إلى حين.

ـ ويأتي دور **بني هود** ملوك سرقسطة فيحالف ملكهم العدو الذي عاث في أرضه فساداً ضد خصمه **ابن ذي النون**. ويتحالف فرناندو ـ الذي كان مستعداً لهدم كل الممالك كلما طلب منه ذلك، وحتى إذا لم يطلب ـ مع ابن هود للدفاع عنه ضد المأمون لقاء جزية مالية وتحف ضخمة يدفعها إلى فرناندو وكان جيش النصارى على استعداد ليعيث فساداً في أراضي طليطلة ويقضي على ممكناتها. ويبدأ التسابق بين «الملكين» ذي النون وهود لاستعداء الأخوين: فرناندو وغرسية ـ وكان بينهما خلاف على السلطة ـ كل منهما يعمل على هدم وقتال طائفة من المسلمين. وكل منهما يأخذ الجزية والتحف النادرة. وكل من الطائفتين المسلمتين تمهد الطريق للاحتلال النصراني.

ـ الأمراء البربر لم يسلموا من هذه العقلية الانهزامية التي عمت ملوك الطوائف وأمراءهم. هكذا نجد أن مملكة غرناطة كانت أقوى مكانة على عهد الملك باديس بن حبوس الصنهاجي. غير أن ملوك إشبيلية من العباديين ـ الذين لم يتركوا مملكة صغيرة أو كبيرة إلا طمعوا في الاستيلاء على أراضيها والقضاء على ملوكها ـ شنوا حرباً قوية ضد باديس من أيام المعتضد. ولم يكد باديس يرحل سنة 465 هـ 1073 م حتى هاجم المعتمد بن عباد بعض مدن مملكة غرناطة، وكان يحكم المملكة واليان من حفدة باديس: عبد الله بن بلقين على غرناطة، وتميم على مالقة. ولم يبق بين يدي الأميرين غير العاصمة فاضطر عبد الله بن بلقين إلى الاستعانة بالنصارى، وعقد مع ألفونسو ملك قشتالة معاهدة صداقة وتحالف أساسها دفع الجزية. ولم تسلم غرناطة من اعتداء المعتمد رغم الحلف. فقد عقد المعتمد مع ألفونسو حلفاً مناقضاً ـ الجزية ثمنه ـ ليقتسما ما تبقى من أراضي غرناطة بين بني عباد (العاصمة) وبين النصارى الأراضي المحيطة بها.

هكذا نجد أن معظم ملوك الطوائف ساروا في نفس الخط، وهو الاستعانة بالنصارى على بعضهم ودفع الجزية وعقد اتفاقات ومعاهدات مع

الملوك القشتاليين. لم يكن الدافع إلى ذلك في البداية تهديد نصراني لأي منهم، ولكن التهديد الذي يأتي من بعضهم، وطمع بعضهم في مملكة الآخر - وقد لعب بنو عباد دور مخزياً حينما كانوا يهددون جيرانهم ويطمعون في توسيع سلطانهم، ويدخلون حروباً متوالية في سبيل ذلك، وسنوا سنة الاستعانة بالنصارى ضد الملوك المسلمين، فأصبحت سنة اتبعها جميعهم. وكانت المناسبة الكبرى التي انتهزها الملوك القشتاليون ليبتزوا من ملوك المسلمين المال، وليحاربوا مع بعضهم لتدمير مملكة الآخرين، وليعدوا من جهة ثالثة المخطط الأكبر للهجوم على الأندلس جميعها.

حكم التاريخ

هل كانت الاستعانة بالنصارى ودفع الجزية لهم غريبة عن حكم التاريخ في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأندلس؟

أما أنها غريبة عن حكم الإسلام وشريعته فذلك ما لا يرقى إليه الشك. وأما أنها غريبة عن حكم التاريخ فذلك ما يحتاج إلى تحليل.

ملوك الطوائف كانوا نشازاً في الدولة الإسلامية. الشيء الطبيعي في الحضارة الإسلامية أن الدولة القوية التي كانت تحكم الأندلس تحت اسم الدولة الأموية انهارت. ولكنها كانت تقوم على أساس دولة محكمة التنظيم. وكان من الطبيعي أن تخلفها دولة في مثل قوتها تحكم البلاد جميعها. كما حدث عندما انهارت الدولة الأموية في دمشق وخلفتها الدولة العباسية في بغداد، ولو أن أحوال هذه وتلك لم تستقم إذ قامت في أرجاء العالم الإسلامي دول. ولكنها كانت بعيدة عن المركز. وبقيت الخلافة قوية حينما استقلت الولايات الأخرى عنها، حتى أدركها هي الأخرى الوهن. ولكن ما حدث في الأندلس كان داخل حدود الدولة الواحدة الصغيرة نسبيا.

ويبدو أن الفكرة التي أوحت بتوزيع أقاليم الدولة إلى ممالك هي استقلال المنصور بن أبي عامر بالسلطة، وهو ليس من العائلة الأموية، فاقتدى

به الآخرون: بنو جهور وبنو عباد وبنو ذي النون وبنو مناد وبنو الأفطس...

والسبب الثاني هو أن المتسلطين على الخلافة بعد انهيار الدولة كانوا كما عرفنا غير أهل للحكم والسلطة. وكان الصراع بينهم وقتال بعضهم لبعض لا يمنحهم المشروعية في وراثة الدولة. ولذلك كان كل زعيم أو وزير أو قاض أو حاكم ينصب نفسه والياً، ويحكم باسم الملك. ويبدا الصراع على السلطة بينهم جميعاً لينتهي بالأندلس إلى المصير.

هؤلاء الولاة كانوا عملية مصطنعة في التاريخ. وإلى جانب الاصطناع الذي كان يدفع ببعضهم ليحارب الآخر، كانو يواجهون قوة قشتالية تتحكم في مصير التاريخ. كانوا يعرفون قدرهم وقوتهم، ولم يكونوا يستطيعون البقاء دون أن يحارب أحدهم الآخر لتنتصر دولته، أو على الأقل لتبقى في وجه الأقوى منها. ولذلك لم يكونوا يجدون سبيلاً للبقاء أو الانتصار في غير الاستعانة بالعدو الأكبر قوة ونفوذا.

ثم، وهذا سبب ثالث، كان القشتاليون يعرفون ضعف هؤلاء الملوك فبدأوا يهددونهم ـ ولم يكونوا مستعدين بعد للإجهاز على الأندلس جميعها ـ ويرغمونهم على دفع الجزية حتى يكفوا عنهم شرهم ويحمونهم من خصومهم. وربما كانت فكرة الجزية آتية مما كانت تفرضه الدولة الكبرى على بعضهم ممن كان يدخل تحت حماية الدولة الإسلامية ويحتفظ بدينه وكيانه. ومن دفع الجزية إلى الحلف الذي كان يبيح للنصارى أن يهاجموا أراضي بعض ملوك الطوائف. ومن هذه الخطوة إلى احتلال الأرض ثم المدن الكبرى. وطليطلة المثال الأكبر.

نستخلص خلاصتين:

أولاهما: أن ملوك الطوائف كانوا نشازا في الأندلس، ولم يكونوا، لنشازهم، قابلين للبقاء أو لحماية الأندلس من الاحتلال القشتالي. رغم أن بعضهم كانت لهم ممكنات للحكم: الأرض المتسعة والمال والسلطة المنظمة

والأطر، وعاشوا حياة مترفة أدبيا وفنياً. ولكنهم جميعاً كانوا نشازا في بلاد لا يمكن أن تحكمها إلا سلطة مفردة وقوية.

ثانيتهما: أن الانهيار الذي أدرك الأندلس على أيديهم كان نتيجة تمزق الحكم من جهة، وأطماع بعضهم وعدم إدراكهم للمسؤولية مما دفعهم إلى الطمع في ممالك بعضهم، رغم أن أياً منهم لم يكن يستطيع حماية مملكته من جهة ثانية، ثم تنمر القشتاليين وتصميمهم على احتلال الأندلس بدافع ديني صليبي، أكثر منه وطني، فالأندلس لم تكن وطنا للقشتاليين الشماليين. فقد ملكها القوط قبل المسلمين.

المرابطون في معركة الإنقاذ

لماذا طلب النجدة؟ ولماذا الاستجابة؟

السؤال الذي يمكن أن يطرحه قارىء التاريخ هو: هل فكر يوسف بن تاشفين في ضم الأندلس إلى إمبراطوريته، قبل أن يستنجد به ملوك الطوائف؟

بعض المؤرخين يزعمون أن يوسف فكر في ذلك حينما انتهى إليه:

1 ـ عظمة بلاد الأندلس التي فتحها المغاربة قبل نحو مائتين وثمانين سنة، فلم لا يجدد المغاربة الفتح، خاصة ولم يكن لهم من حكم الأندلس إلا الجهاد والقتال وعداوة الطوائف العربية.

يؤيد هذا الرأي أن المغاربة المقيمين في الأندلس، والذين كانوا إمارات صغيرة في الجنوب: غرناطة وما حواليها، كان بعضهم يتنقل بين الضفتين. وإذا صح ذلك فما من شك في أنهم كانوا يتحدثون عن هذه البلاد وعظمتها من جهة، وكانوا يتحدثون عن وضعية العرب الحاكمين والمقيمين فيها، سواء من حيث الحكم، أو من حيث حياتهم وأوضاعهم الاجتماعية. وكان المغاربة يعرفون أيضاً هذه الأوضاع من خلال الصلات التي كانت متوالية بين الحاكمين في الأندلس والدولة الحاكمة في المغرب، خاصة دولة زيرى بن عطية، التي كان المنصور بن أبي عامر يعتبرها ولاية أندلسية. يضاف إلى ذلك ما كان يقوم به من غزو للمغرب ليجعل منه ولاية أندلسية.

الأندلس إذن كانت معروفة لدى المغاربة. ويوسف بن تاشفين كان يفكر في الإمبراطورية التي تضم ما بين الجزائر حتى صحراء المغرب جنوباً وحتى

شمال المغرب بما فيه طنجة وسبتة اللتين كانتا تحت سطوة أحد موالي الحموديين الأدارسة.

والتاريخ يذكر صلات أخرى قام بها يوسف نفسه. المؤرخون يذكرون أنه بعث إلى الأندلس فاشترى ـ وهو يقوي جيوشه بالعبيد ـ من الأندلس عدداً كبيراً من العلوج والأرقاء النصارى، وأنشأ منهم فرقة من الفرسان كان لها موقع في الحروب التي خاضها. وما من شك في أن هؤلاء كانوا يقدمون له كثيراً من المعلومات عن الأندلس وأهلها وأوضاع المسلمين والنصارى على السواء.

ولهذا فليس بعيداً عن فكر يوسف بن تاشفين أن يطمح إلى ضم الأندلس إلى إمبراطوريته الواسعة. ولم يكن غير ذلك.

2 ـ ما كان ينتهي إليه من أن المسلمين تهاونوا في الحفاظ على الأندلس بعد انتهاء عهد الدولة الأموية، وأن النصارى يزحفون سنة بعد أخرى على مواقع الأندلس الكبرى، وأن حكام الأندلس (الطوائف) مشغولون بالحروب الأهلية إلى جانب حياتهم اللاهية.

ما أشك في أن ذلك كان سينتهي إلى المرابطين. فمن دراسة الحكم الذي نظمه يوسف، عسكرياً وإدارياً، يمكن أن نستشف أنه كان يعرف الكثير عن الأندلس، وأن فكرة كان متجهاً شمالاً.

3 ـ يضاف إلى هذا أن يوسف كان يخشى ويتحسب غزو النصارى لبلاد الأندلس. فالقوات النصرانية التي انتهت إلى طريفة بقيادة ألفونسو في وجه مقاومة منهارة، هذه القوات لا يمكن إلا أن تتابع مسيرتها العسكرية نحو بلاد المغرب، بلاد الإسلام، التي عبر منها الإسلام إلى الأندلس. والروح الصليبية، ثم الوطنية، التي كانت تدفع بالقشتاليين إلى مهاجمة كل إقليم يوجد فيه الإسلام، لا يمكن أن تقف عند شاطىء طريفة، وهي ترى الشاطىء الجنوبي رأي العين.

لماذا إذن انتظر يوسف بن تاشفين فترة من الوقت ليست قصيرة قبل أن يقرر القيام بالجهاد إلى الأندلس؟ فقد وصل حدود طنجة سنة 1069 م. ولم يرحل إلى الأندلس إلا سنة 479 هـ. كان فيها الجيش النصراني قد عبث بالأندلس ووصل إلى طريفة؟ لماذا انتظر استغاثة ملوك الطوائف، رغم أنه كان يعرف وضعيتهم وتهاونهم في الدفاع عن الإسلام والأراضي الإسلامية؟

عن السؤال الأول يجيب التاريخ بأن يوسف لم يكن قد أكمل مشروعه، ولم يكن قد حرر سبتة وطنجة ليحمي ظهره كما قدمنا في فقرة سابقة.

تم له الاستيلاء على الجزائر وسبتة وطنجة بين سنتي 477 و479 هـ.

عن السؤال الثاني يبدو أن يوسف، ـ وكان يعرف ولا شك الصراع القوي بين ملوك الطوائف ـ لم يرغب في أن يدخل المعركة التي قد تجعله طرفاً في حروب داخلية. ولذلك تريث إلى أن يقرر هؤلاء الملوك طلب النجدة فيقوم بعد ذلك بعملية شرعية تستهدف الدفاع عن الإسلام، وليس القيام بحركة قد تكون مشبوهة، أو تشغله بحرب داخلية عن حرب القشتاليين الزاحفين على الأندلس.

وفود الاستنجاد

التاريخ واضح في أن المعتمد بن عباد هو الذي تزعم فكرة مطالبة يوسف بن تاشفين بالعبور إلى الأندلس. اختمرت الفكرة عنده بعدما تأكد من أن ألفونسو لن يترك الأندلس دون أن يبسط عليها سلطان النصرانية. وزاد فتأكد عندما احتل ألفونسو طليطلة وسرافوسطة، وبدأ الزحف نحو إشبيلية.

هل ائتمن يوسف بن تاشفين وهو يعرف أنه أصبح إمبراطوراً على مملكة واسعة؟

سواء كان صحيحاً أن بعض ملوك الطوائف حذروه من هذه المغامرة أم لم يصح، فإن مصير مملكته كان هو مصير الممالك الأخرى. وفي مقدمتها طليطلة. وقدرته لن تنفعه في الدفاع عن مملكته، وقد اخترقه ألفونسو منذ بدأ

يدفع له الجزية ويتآمر معه ويتحالف لتمزيق الممالك الأخرى ومنها غرناطة. وكان متأكداً أن ألفونسو سيسحق بلاده، حاصة بعدما فعله برسوله اليهودي الذي قدم إليه يستنجزه الجزية فأغلظ اليهودي، واحتد ابن عباد وقتله. وهذه حادثة ـ إذا صحت روايتها وقد أجمع عليها المؤرخون ـ اعتبرها ألفونسو إهانة خطيرة لسلطته ومكانته.

ثم إن ابن عباد كان متأكداً أن الملوك الآخرين جميعهم خصومه لما فعل فيهم بنو عباد، وهو بالذات، فكيف يأمن جانب أي منهم إذا ما واجه ألفونسو وحده؟ وجد نفسه أخيراً بين قوتين لا ثالث لهما: المرابطين في الجنوب، والقشتاليين في الشمال.

هكذا بعث إلى يوسف بعثة تضم قضاة: المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس، وعبد الله بن حبوس (المغربي) أمير غرناطة، وقاضي الجماعة بقرطبة، وأضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون. أراد من هذه البعثة التي أوفدها إلى يوسف بن تاشفين أمرين: أولهما التعبير عن إجماع العواصم المهمة، بواسطة مسؤولين دينيين وسياسيين. ثانيهما إشراك الملوك الآخرين في المسؤولية لأنه يعرف أن كلا منهم يجب أن يتحمل مسؤوليه في الحرب المقبلة ونتائجها.

ويؤكد المؤرخون أن كل ملوك الطوائف كانوا متفقين على الاستنجاد بيوسف بن تاشفين، رغم ما نقله بعضهم من تحذيرهم للمعتمد بن عباد، ليبرروا بذلك الأسطورة التي يقال إن المعتمد قال فيها: رعي الجمال خير من رعي الخنازير...؟ أو الأسطورة التي يحلو للمؤرخين أن يحلوا بها كتاباتهم، والتي يزعمون أن ابن عباد فلسف التجاءه إلى يوسف ـ وهم يحذرونه من أن الملك المغربي قد يحتل بلاده ـ بأنه قال: إن هناك أمرين متوقعين أحدهما مشكوك فيه وهو أن يوسف إذا انتصر سيضم مملكتي إليه، والثاني مؤكد وهو أن ألفونسو سيضم الأندلس إليه جميعها.

الوفد الأندلسي المكون من القضاة والوزير لم يكن الأول والأخير. فإن كثيراً من أعيان المدن الأندلسية من رجال العلم والدين والمفكرين في مصير البلاد كانوا يبعثون برسائل إلى يوسف. وكان الوفد الرسمي تتويجاً رسمياً لهذا الاستنجاد. وكان إلى جانبه وفد مفاوضة عقد اتفاقاً مع يوسف الذي طلب أن تسلم له الجزيرة لتكون قاعدة جيشه، كما اتفق الوفد فيما يبدو مع يوسف على مساهمة كل ملوك الطوائف في الحرب تحت قيادته. بعد استرجاع سبتة رحل المعتمد إلى المغرب يحمل إجماع الملوك والعلماء بطلب النجدة، واستقبله يوسف قريباً من طنجة فوصف له أحوال المسلمين في الأندلس والزحف المتوالي لألفونسو على عواصمها وأقاليمها، والفساد والخراب الذي يبذره في كل مكان حل به. وعند ذلك اتخذ يوسف قراره التاريخي بالعبور إلى الأندلس.

ـ الجزيرة قاعدة عسكرية

المخطط الذي اتبعه يوسف ـ بعد أن ترك له المعتمد الجزيرة الخضراء مقراً للجيش ـ هو إرسال الجيوش لتعسكر في المدينة وتنظم نفسها، تحت قيادة قواد اختارهم لشجاعتهم ورغبتهم في الجهاد ومهارتهم في القيادة. وكان الجيش مكوناً من آلاف المحترفين والمتطوعين من الصحراء وشمال المغرب والزاب. وبعد أن استقر الجيش ونظم نفسه اجتاز يوسف مع بعض القواد والرؤساء والعلماء.

في مقر التجمع استدعى إليه ملوك الطوائف الذين قبلوا الجهاد، منهم **ابن صمادح، بن حبوس، وابن مسلمة وابن الأفطس وابن ذي النون وابن باديس والمعتمد بن عباد**. طلب منهم أن تكون قواتهم جميعها تحت قيادة ابن عباد. كما نظم جيشه على أن يكون ردفاً للجيش الأندلسي.

معركة الزلاقة

استعد ألفونسو السادس لهذه الحرب بعد أن علم باجتياز يوسف المضيق. ودارت بين الرجلين رسائل اقتصرت رسالة يوسف فيها على مطالبته بالإسلام أو الجزية أو الحرب. واستعد ألفونسو لحرب طاحنة استعان فيها بأعظم قواده وحشد لها جيشاً كبيراً.

وبدأت الحرب مع الجيش الأندلسي الموحد بقيادة المعتمد. وحينما بدا أن الجيش القشتالي متفوق دخل الجيش العظيم: جيش يوسف الذي أعاد التوازن للجيش الإسلامي، بعد أن اتضح أن الجيش الأندلسي قد انهزم وعاد بعض ملوكه على أعقابهم، إلا المعتمد فقد كان من الصامدين حتى أصيب بجراح كثيرة.

انتصر الجيش الإسلامي أعظم انتصار في تاريخ الإسلام في **الزلاقة** (موقع بالقرب من مدينة طرطوشة وعلى نهرها) وانهزم ألفونسو انهزاماً شنيعاً حتى إن بعض المؤرخين يقول إن المجاهدين لم ينج منهم أحد إلا ومعه مائة فارس.

عاد يوسف إلى المغرب بعد النصر تاركاً الأندلس لملوكها. ولكن ألفونسو نظم جيشه وأعاد الكرة فاحتل حصن لبيط في مملكة **بني عباد** واتخذ منه مركزاً للاعتداء على المناطق الأخرى، وفي مقدمتها مملكة إشبيلية. فاشتكى المعتمد ليوسف الذي عاد مرة أخرى فاجتاز المضيق. وحاول أن يجمع أمراء الممالك كما فعل في موقعة الزلاقة، ولكنهم تكاسلوا وامتنعوا عن تلبية الدعوة إلا المعتمد وابن عبد العزيز أمير مرسية. وكان بين الرجلين خلاف حسمه يوسف بأن اعتقل ابن عبد العزيز وسلمه للمعتمد، حتى لا يكون الجيش الإسلامي تحت قيادة منخورة بالخلافات التي كانت من أسباب انهزام المسلمين في الأندلس.

أدرك يوسف من تخلف الملوك الآخرين أن النزعة الطائفية ما تزال

تتحكم في نفوس هؤلاء الحكام الذين أكدوا أنهم غير جديرين بحكم الأندلس. وحرر حصن ليبط، وبذلك حرر مملكة إشبيلية من طغيان ألفونسو، ووضعه في يد المعتمد، الذي استولى على مخلفات ألفونسو بعد أن رحل عن الحصن.

للمرة الثانية يعود يوسف إلى المغرب ويترك الأندلس لأهلها وحكامها. ولكن ألفونسو ما يزال يعيث في بلاد الأندلس فكان الجواز الثالث هو الفاصل بين المسلمين والنصارى. وفي هذه المرة أيضاً تخلف «الملوك» وبقي وحده. ولعله وجد الحرية في الجهاد أكثر مما كان يجدها مع جيوش منخورة خائفة، بل إن بعضهم صالح ألفونسو وظاهره ضد يوسف. ويذكر التاريخ من هؤلاء المتآمرين عبد ألله بن بلكين بن باديس بن حبوس. لعل ذلك خوفاً من أن يطغى ابن عباد الذي بدا أنه في مركز القيادة على الأندلس وأثيراً لدى يوسف بن تاشفين.

هكذا فتح يوسف طليطلة ثم غرناطة التي عزل عنها ابن بلكين لخيانته، ولأنه لم يعد يأمن رئيس منطقة يتآمر مع العدو ويدفع له الجزية ضد القائد المحرر. وقد بعث بابن بلكين وأخيه تميم الذي كان يحكم مالقة إلى مراكش وأقاما تحت رعايته وإكرامه إلى أن ماتا.

ابن عباد خشي على مصيره بعد أن احتل يوسف غرناطة فانطوى على نفسه. وكان يوسف قد عاد إلى المغرب. وترك بقية الفتح لقواده ومنهم سير بن أبي بكر. وكان أن طلب هذا من ابن عباد أن يسلم إليه إشبيلية. وحاضره فاستعان بألفونسو ضد جيش يوسف فأنجده بجيش كبير حارب جيش يوسف فاستسلم. وسار الفتح في طريقه لتصفية نفوذ ألفونسو من جهة وتصفية ملوك الطوائف. فاحتل جيش سيري قرطبة وكانت تحت نفوذ المعتمد ثم بقية المدن. في حرب سيري مع ألفونسو انتصر جيش يوسف وعاد إلى إشبيلية فدخلها على المعتمد الذي استسلم وتملكها المرابطون كما تملكوا بقية ممالك الطوائف:

ابن عباد وابن حبوس وابن الأخوص وابن عبد العزيز وعبد الله بن أبي بكر وبذلك توحدت هذه البلاد، تحت إمرة المرابطين.

بدأت معركة الأندلس باجتياز يوسف لأول مرة سنة 479 هـ و1086 م وانتهت سنة 486 هـ 1093 م.

بذلك أنهى يوسف بن تاشفين حياته الجهادية فتوفي سنة 500 هـ - 1106 م.

ولادة جديدة للأندلس

الحملة الصليبية لاحتلال الأندلس

لا يمكن أن يتصور التاريخ نهاية الأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري بمثل ما تصورها المعتمد بن عباد، وقد كان يعرف الخطر الذي يهدد البلاد أكثر مما كان يشعر به أي ملك آخر من ملوك الطوائف. ذلك أن مملكته ـ وهي أقوى هذه الممالك ـ تمتد من قرطبة حتى حدود غرناطة. داهمها الخطر الزاحف مع ألفونسو السادس، وهو المغامر الذي وطئت قوائم فرسه مياه طريفة على ما تروي الرواية العربية.

كانت الأندلس على شفا الهاوية. وكان يمكن أن تسقط في أواخر القرن الخامس، لولا أن تداركتها جيوش المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين، فبقيت إسلامية أربعة قرون أخرى.

لم يكن خطر النصرانية ـ وهي تخوض معركة صليبية أكثر منها وطنية ـ مقتصراً على الأندلس، فقد كانت الأندلس طريقاً إلى المغرب العربي جميعه. وقد عرفنا من قبل أن الحكم في تونس تعرض للهجوم النصراني عدة مرات ولذلك خاض البحر إلى صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية حتى دخل روما، وأن صقلية ظلت مسلمة رغم خروج الحكم الإسلامي دفاعاً عن تونس ضد الغزو النصراني. وكان نصارى شمال إسبانيا القشتاليين يستعينون بالطوائف النصرانية في فرنسا (حاكم ليون كان يحارب إلى جانب القشتاليين) والبابوية كانت مشغولة بالحكم الإسلامي في الأندلس. وما من شك في أنها كانت تنصر النصرانية على المسلمين.

ثم إن شمال إسبانيا كان في اضطراب كامل وصراع على السلطة بين الملوك، والإخوة منهم، منذ كانت الخلافة الأموية في عزها، كانت مملكة ليون تحت سلطة ملك قوي هو أردونيو، ولم يكن عهده مستقراً، إذ كان له خصوم يثورون عليه. وكان المسلمون قد انتهزوا فرصة هذا الخلاف فغزوا ليون، ثم عقد الناصر اتفاقاً ومعاهدة صلح مع هذا الملك، نقضها أخوه الذي استولى على العرش بعده، فأعلن الناصر عليه الحرب وغزا مملكة ليون. ثم عاد الصلح بين الفريقين.

لا يهمنا من هذا الموضوع إلا أن الصراع النصراني ضد الأندلس لم يكن مقتصراً على القشتاليين، فقد كان مع **مملكة قشتالة** و **مملكة ليون** و **مملكة نافار**. ورغم ما كان بين هذه الممالك من صراع على السلط، فقد كانت تتوحد ضد المسلمين، خاصة على عهد ضعف الأندلس وانهيار الدولة القوية. وخرجت الجيوش إلى حرب يتقدمها القساوسة والرهبان من كل بلد يحملون صلبانهم وأناجيلهم، كما يقول المؤرخون، مما يؤكد أنهم كانوا يخوضون حرباً صليبية.

ثلاث معارك لتحرير الأندلس

يؤكد هذا خطورة الوضعية التي كانت عليها الأندلس على عهد ملوك الطوائف من جهة، وقوة النصر الذي أحرزه يوسف من جهة أخرى. فقد طلب ألفونسو العون من سانشو ملك أراجون القوي. ولن ينس هذا أن المسلمين حاربوه وغزوا ليون أيام قوتهم. كما بعث ألفونسو يطلب العون مما وراء البرينيه، وحشد ما استطاع حشده من القوات المساعدة من جليقة وأشكوريس ونافار، وجاءته جيوش مساعدة من فرنسا وإيطاليا... كانت البابوية وراء هذا الحشد القوي من الجيوش النصرانية كما قلنا. وكان يوسف يقاتل بقواته المغربية وحدها باستثناء الحشد الذي تزعمه المعتمد لملوك كانوا منهزمين نفسياً. ولم تلبث الهزيمة أن حاقت بالقوات الأندلسية، فتراجع هؤلاء الملوك إلى ممالكهم إلا المعتمد. فكان الضغط الأكبر على القوات المغربية حتى انتصرت في الزلاقة.

هذه الخيانة الأولى في قلب المعركة أثرت في نفس يوسف بن تاشفين. وكان الأثر قبلها قوياً من الفكرة التي كونها عن ملوك الطوائف الذين أوصلوا بلادهم إلى هذا الدرك، درك يدرك عمقه ألفونسو الذي كان يهينهم فيأخذ منهم الجزية أولاً، ثم بالإهانة الكبرى حينما شق الأندلس حتى وصل إلى طريفة، وكان في طريقه هذا يعيث فساداً في كل مملكة يمر بها. بالإضافة إلى أنه احتل الكثير من عواصمها كما قدمنا، وحاصر إشبيلية وقرطبة.

استمراراً لهذه الآثار الخطيرة نجد يوسف بن تاشفين يعود إلى المغرب بعد معركة الزلاقة، لأنه أنهى مهمته فيما اعتقد، ولأنه يريد أن يتفقد الأوضاع في المغرب فلا يجوز أن يبقى بعيداً عن مركز إمبراطوريته.

مرة أخرى يعود إلى الأندلس بعد أن احتل ألفونسو حصن لبيط الذي اتخذ منه مركزاً لمهاجمة المسلمين ثم العودة إليها بقوات كبيرة. ولم يستطع ملوك الطوائف وقد تحقق النصر على ألفونسو أن يحموا أنفسهم، فكان أن اشتكى المعتمد مرة أخرى إلى يوسف. ظن أنه سيدعو أمراء الطوائف للجهاد مرة أخرى وتواعد معهم في حصن لبيط، ولكنهم تقاعسوا جميعهم ولم يأته أحد منهم غير المعتمد وابن عبد العزيز صاحب مرسية.

هزم مرة أخرى ألفونسو.

ولكنه تأكد أنه لا يمكن الاعتماد على هؤلاء الأمراء لأنهم يخونون بلادهم وعاجزون عن الدفاع عنها ولو احتلهم العدو لأنهم الفوا أن يعطوا الجزية وهم صاغرون.

لم يعرف حكم ملوك الطوائف عدلاً ولا رأفة بالشعب، ولو عرف عهد بني جهور وبني عباد كثيراً من المنجزات العمرانية. ويذكر التاريخ أن المواطنين في كثير من الممالك التي طرقها يوسف بن تاشفين وجدوها فرصة يؤكدون فيها الوضعية التي يعيشون عليها في ظل الحكم الطائفي. ويعلل ابن

خلدون تخلي هؤلاء الملوك عن الاستجابة ليوسف بن تاشفين في رحلته الثانية إلى الأندلس لأنهم علموا بشكاية طوائف الشعب إليه من المظالم التي يلقونها. حتى إن الفقهاء طلبوا من يوسف رفع الظلم عنهم. فطلب ذلك من الملوك فامتثلوا. ثم عادوا إلى سيرتهم بعد رحيله. ولذلك انصرفوا عنه حينما عاد إلى الأندلس. مهما تكن الأسباب فإن الهزيمة النفسية التي كانت تتملكهم خوفاً من عدو مقيم، لا من نصير مغادر، هي التي كانت تدفع بهم إلى التخلي عن قتال العدو في ظل المنقذ يوسف بن تاشفين.

ويؤكد ابن خلدون أن يوسف بن تاشفين قام بعملية عزل هؤلاء الملوك بناء على فتاوي شرعية تلقاها من علماء المغرب والمشرق مثل الغزالي والطرطوشي. قد تكون هذه الفتاوي صحيحة، ولكنه أسلوب إتبعه كثير من الملوك في النيل من خصومهم، ولو بحق ـ استناداً إلى الدين أو على الأقل إلىفتاوى فقهاء الإسلام.

الجواز الثالث كان لتحرير طليطلة دون أن يجد مساعدة أو اتصالاً من ملوك الطوائف. بعد طليطلة سار إلى غرناطة. وكان أميرها عبد الله بن بلكين قد صالح ألفونسو ضداً على يوسف بن تاشفين ودفع الجزية. ولذلك حاصره يوسف حتى استسلم فبعث به وبأهله إلى مراكش في ضيافته واستولى على غرناطة.

على من يعتمد يوسف بن تاشفين في الحفاظ على الأندلس التي يجتاز إليها البحر بجيوشه ليحررها بعد هذه الخيانات المتوالية؟

تحرير إشبيلية ومصير المعتمد

بقي المعتمد بن عباد أمير إشبيلية الذي وَفَّيَ في الحرب الأولى (الزلاقة) والحرب الثانية (تحرير حصن لبيط). ابن عباد هذا قد أدركته الخيانة بعد أن رأى يوسف يستولي على غرناطة ورأى جيوشه تحتل جيان وقرطبة، وكان والياً عليها المأمون بن المعتمد، ثم يفتح بقية المدن الصغيرة في طريقه. رأى المعتمد، عن حق، أن دور إشبيلية آت لا ريب. وما من شك في أنه لم يكن

ليقبل المصير الذي ينتظره بتوحيد الأندلس على يد يوسف، رغم أنه عانى الهوان الذي لحق بالأندلس الممزقة. وكان بين خيارين: أن يضع نفسه تحت تصرف يوسف، وهو القوة الكبرى التي أصبحت في الأندلس، أو تحت تصرف ألفونسو. وهو القوة النصرانية المنهزمة مبدئياً أمام يوسف.

لعل المعتمد لم يتذكر كلمته التي قالها ـ فيما يروي المؤرخون: رعي الجمال خير من رعي الخنازير. . . نسي الكلمة وفضل هذه المرة أن يرعى الخنازير، فاستعان بألفونسو ضد يوسف بن تاشفين، ويعد ألفونسو بالمال والأرض.

التاريخ لا ينسى هذه الخيانة الكبرى التي ختم بها المعتمد حياته في الملك.

وقامت الحرب الثانية بين قوات المرابطين وقوات ألفونسو، وتنتصر مرة أخرى على ألفونسو وتحاصر إشبيلية حتى تدخلها على المعتمد. ويؤمنه القائد سيري بن أبي بكر على نفسه وأهله وولده. ويبعث به إلى يوسف ليضعه في إقامة إجبارية بأغمات.

المؤرخون العرب ـ غير المغاربة حتى المحدثون منهم ـ مأخوذون بشعر ابن عباد، وبما يروى عنه من وصفه للمكانة التي انتهى إليها في أغمات، والأسطورة التي يروونها عن «اعتماد» الرميكية زوجته التي كانت تغوص بأقدامها الجميلة في المسك فأصبحت تغوص في الطين. بهذه الأساطير يقيسون التاريخ وينحون باللائمة على يوسف، الذي سجن المعتمد في أغمات.

ماذا كان يريد التاريخ من يوسف؟

كان يريد منه أن يترك المعتمد وغيره من أمراء الأندلس يرعون خنازير ألفونسو، وعند ذلك كان سيترك للرميكية حقول المسك ولابن عباد قصور

إشبيلية والزهراء؟ أم كانوا يريدون من يوسف أن يترك الأندلس نهباً للقشتاليين ينهبونها ويهدمون معالمها وينصرونها ليعبروا البوغاز بعد ذلك إلى المغرب العربي يحتلون مدنه وقراه ويهدمون حضارته، وينصرون سكانه وشعبه؟

التاريخ سجل مرحلة صراع كبرى منذ دخول العرب إلى الأندلس وإنشاء الدولة الإسلامية في قرطبة والانسياح شمالاً حتى جنوب فرنسا ووسط إيطاليا عن طريق المغرب الكبير، وبناء الدولة الإسلامية في صقلية وأسلمة الجزر المتوسطية واحتلال جزء من إيطاليا عن طريق تونس، وبين ملوك النصرانية من قشتالة وأراجون والنافار ونصارى برشلونه. هذه المرحلة بدأت بنقل الإسلام إلى الأندلس ولم تلبث أن تحولت إلى حرب استرداد صليبية أكثر منها وطنية. صراع الإسلام في البداية كان مع القوط والأندلسيين الذين أسلم الكثير منهم وتعربوا وامتزجوا بكل الشرائح الاجتماعية التي كانت تتساكن في الأندلس من عرب ومغاربة وصقالبة وغيرهم من السكان الأصليين والمهاجرين. ولم تعد بهم رغبة في العودة إلى النصرانية تحت رعاية القوط. ولذلك لم يكن الأندلسيون هم الذين رغبوا في «استرجاع» الأندلس، ولكنها النصرانية التي تتكون من سكان شمال إسبانيا وجنوب فرنسا، وهم ملوك مختلفو الانتماء السياسي والوطني، يحارب بعضهم بعضاً للاستيلاء على مملكته، على غرار ما كان ملوك الطوائف. ويتوحدون لمحاربة المسلمين.

ثم إن البابوية في روما كانت تدعم هذه «الحرب المقدسة» ضد المسلمين وتؤلف بين الملوك المتناحرين ليصمدوا في الحرب. بل إنها كانت تحرم عليهم أن يهاجروا ليحاربوا في صفوف الصليبيين الذين اشعلوا الحرب ضد الإسلام في المشرق، لأن لهم جبهة حرب مقدسة أخرى في الغرب عليهم أن يحاربوا فيها.

يوسف بن تاشفين كان ملكاً مسلماً قامت دولته (المرابطون) على النضال من أجل الإسلام وتصحيح العقيدة عند المسلمين المنحرفين، ولا يمكن مطلقاً

أن يتخلى عن رسالته، وقد بذل فيها ما بذل في حروبه المتكررة في الرحلات الثلاث التي قام بها للأندلس بجيوشه الجرارة. لم يكن ليوسف أن يحرر هذه البلاد من الاحتلال القشتالي ثم يتركها «لملوك» متهاونين يغزوهم ألفونسو وحلفاؤه، وهم عاجزون عن الدفاع عن ديارهم وإسلامهم. بل إنهم أخذوا يستعينون بالعدو ضد المحرر يوسف بن تاشفين.

ثم إن يوسف لم يكن يدافع عن الأندلس فحسب، ولكن كان يدافع عن المغرب الكبير أيضاً، ولم يكن ليترك هؤلاء الملوك يعبثون بمقدرات بلاد المغرب جميعها. طموح العدو كان يتعدى الأندلس إلى المغرب، لأنهم أدركوا أن مصدر القوة الإسلامية هو المغرب الكبير، وحيثما انتشر الإسلام في إفريقيا. وقد أكدوا ذلك عندما ضعفت الإمبراطورية المغربية، فلم يقتصروا على استرداد الأندلس، ولكنهم تجاوزوا البوغاز في حملة استعمارية، متضافرة خاضت فيها دول جنوب أوروبا الحرب ضد الإسلام في شمال إفريقيا. فمنذ القرن السابع هاجم النصارى من جنوة مدينة سبتة المغربية، واستمر هجوم البرتغال وإسبانيا على السواحل المغربية والْجَزَائِرِيَةِ والليبية. قد يكون بعض الهدف تجارياًأو المرور إلى الشرق عن طريق الشواطىء الإفريقية، ولكن الهدف الاستعماري ظل يراود الملوك الأسبان والبرتغاليين والانجليز ثم الحكام الفرنسيين حتى كان الاستعمار الفرنسي والإسباني والإيطالي في القرنين التاسع عشر والعشرين للجزائر وتونس وليبيا والمغرب.

الأندلس تحت حكم المرابطين

انتهت مهمة يوسف بن تاشفين بتحرير الأندلس من ملوك الطوائف، وتحرير معظمها من أيدي النصارى، والحد من سلطتهم التي كانت تتنامى على عهد ملوك الطوائف حتى كادت الأندلس أن تسقط في يد التحالف القشتالي والنصارى كما تقدم القول.

ورث علي بن يوسف دولة واسعة الأرجاء من حدود السودان (السينغال ومالي) جنوباً حتى شمال الأندلس، ومن المحيط حتى بجاية والجزائر شرقاً. ومن المؤكد أن يوسف لم يكون هذه الدولة بالعمل السياسي، ولكن بعمل جهادي. بدأ مع عبد الله بن ياسين جندياً أو شبه جندي، وانتهى بإمبراطورية واسعة يحميها جند المتطوعين في الغالب، وقيادة قواد كبار قاموا بدور كبير في تحرير الأندلس.

وإلى جانب ذلك لعبت القبلية دوراً كبيراً. كان فرع كل قبيلة كبرى تُسْنِدُ القبيلة الأصل في حروبها وقيادتها للدولة. اَلْقَبَلِيَّة كان لها دور كبير في نشأة المرابطين ثم الموحدين وكل الدول الكبرى. وقد اعتمد عليها يوسف في استقرار حكمه واتساع نفوذه.

علي يواصل رسالة والده

واصل علي بن يوسف تدعيم الوجود الإسلامي في الأندلس، معتمداً على مجد والده ورجاله، عن طريق الولاة المغاربة الذين ولاهم المناطق الكبرى في شرق الأندلس وغربها وفي الجزر التابعة لها: ميورقة ودانية.

غير أن جيوباً مهمة كانت ما تزال مهددة بالقشتاليين. وكان من الضروري لعلي بن يوسف أن يكمل تحريرها. ولذلك خاض جيشه معركة «أتليج»، التي كاد ينهزم فيها قائده وأخوه تميم بن يوسف لولا قواده العسكريون الكبار الذين اصروا على الجهاد حتى النصر. حاصر الجيش **برشلونة وطليطلة** وقاتل في سبيلهما قتالاً مريراً واحتل **مدريد ووادي الحجارة ثم شنترين وبطليوس واشبونة**.

من المؤكد أن العمليات العسكرية لتحرير الأندلس من الهجمات النصرانية لم تكن ميسورة حتى للقائد الكبير يوسف بن تاشفين. فرغم أن المؤرخين يقولون إن جميع بلاد الأندلس دانت له، فإن كثيراً من المناطق والمدن المهمة لم تستسلم. وكان لملوك الطوائف وسلوكهم الانهزامي أثر في

المصاعب التي تركها يوسف لابنه علي ولحفيده تاشفين بن علي. من ذلك مدينة **طليطلة** التي حاصرها يوسف ثم علي واستوليا على الحصون المحيطة بها. ولكنها لم تستسلم بسبب خذلان ملوك الطوائف ليوسف حينما حاصرها وطلب منهم تجنيد جيوشهم لمساعدته فلم يأته أحد منهم. ورغم أنه حاصرها وخرب الأراضي المحيطة بها إلا أنه لم يَحْتَلَّها. ومن ذلك **سرقسطة** التي احتلها ألفونسو الأول بعد أن كان المرابطون قد استرجعوها من **ابن هود**. ثم حاصرها ألفونسو حتى سقطت في يد النصارى. وسرقسطة كانت تلعب دوراً استراتيجياً مهما في شرق الأندلس. وسقوطها كان كارثة من الكوارث العسكرية التي حدثت في عهد علي بن يوسف. فقد زحف ملك أراكون على شرق الأندلس واحتل قلعة أيوب. ومنها انطلقت الغارات على وسط الأندلس.

عهد الأميرين علي وتاشفين (نحو 39 سنة) مرت في تَرْكِيزِ قدم المرابطين في غرب الأندلس وجنوبها، وقتال النصارى في الشرق. وقام علي باستكمال احتلال المناطق التي ذكرنا والحفاظ على بعض ما حققه يوسف بن تاشفين من فتوحات في الأندلس.

في العهد المرابطي كان ولاة الأندلس كلهم من المغاربة المرابطين الذين شهد لهم التاريخ بالبطولة والنضال والحكمة. كانوا عسكريين وقاموا بإدارة البلاد التي ولوا عليها. وكانت أيامهم كلها أيام حرب ونضال، فكان منهم **سير ابن أبي بكر اللمتوني**، وكان قائداً كبيراً ولى أمر الأندلس كلها، وهو الذي أنهى عهد عبد الله بن بلكين في غرناطة، وأنهى عهد المعتمد في إشبيلية واعتقله وبعث به إلى المغرب، كما فتح كثيراً من المناطق الأندلسية كقائد ليوسف. ومن القواد الكبار **محمد بن الحاج** و **مزدلى بن تبلكان** الذي كان عاملاً على تلمسان **وداود بن عائشة** **وإبراهيم بن إسحاق اللمتوني** و **محمد بن أبي زلفى** **وتميم بن يوسف بن تاشفين**.

استمر حكم المرابطين في المغرب والأندلس من 455 هـ ـ 1063 م

وإذا اعتبرنا اجتماع اللمتونيين على عبد الله بن ياسين وإعدادهم للجهاد ـ حتى وفاة علي بن يوسف سنة 537 هـ أو 539 هـ 1149م، سنة قتل تاشفين بن علي وهو يقاتل الموحدين في ناحية وهران بالجزائر. كان حكمهم نحو 85 سنة. وهي معدل حياة الدول في ذلك العصر. خاصة في الظروف النضالية التي عاشها المرابطون والمسؤولية الكبرى التي تحملوها بتحرير الأندلس. من المؤكد أن المجهود الذي بذله يوسف وابنه علي إستنفد الدولة عسكرياً وسياسياً.

ومن المؤكد أن شخصية يوسف ما كانت لتعوض، فالقواد الكبار حينما يرحلون يتركون وراءهم فراغاً لا يستطيع من يأتي بعدهم أن يملأه، وخاصة إذا عاش في الظل (نسبيا) في عهد القائد الكبير.

ورغم المدة القصيرة التي عاشتها الدولة المرابطية فقد قامت بأكبر عمل قامت به دولة إسلامية في منطقة شديدة الوعورة قبلياً وسياسياً وجغرافياً. كان المغرب مجموعة قبائل ودول متفرقة متصارعة قبلياً. وكان جنوب المغرب الكبير جميعه ممزقاً. إسلامياً لم يكن قوياً. ثم كان الصراع بين الفاطميين والأمويين يزيد في تمزيق وحدة المغرب. وقد قدمنا صورة عن الصراع بينهما على المغرب.

الدولة المرابطية ركزت الإسلام السني ـ المالكي ـ في جنوب المغرب، ووحدت الصحراء مع بقية أنحاء المغرب حتى أصبح حكم يوسف بن تاشفين من السودان حتى شمال الأندلس. وعملية التوحيد الديني والسياسي لهذه المنطقة من أعماق الصحراء حتى الجزائر حتى شمال الأندلس ليست عملية سهلة في ظروف التخلف السياسي والعقدي.

ومن المؤكد أن الفكر المرابطي كان يجاهد تحت هاجس الجهاد، وليس تحت هاجس الملك وتوسيع مكانة الدولة.

ومن المؤكد أن قضاءه على بقايا بني خرز الزناتيين، وإضعاف دولة الحماديين الذين اشرفت دولتهم على نهايتها، ثم استيلاء المرابطين على معظم

أنحاء الأندلس، والقضاء على المؤامرات والمنازعات التي كانت بين ملوك الطوائف. لم يكن كل ذلك إلا بدافع إسلامي.

لا نستبعد دافع السلطة وبناء الإمبراطورية الكبرى. فقد كانت زعامة يوسف في البداية واستبداده بالسلطة دون أبي بكر بن عمر بدافع السلطة. بينما عمل في البداية مع عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر بدافع تصحيح العقيدة الإسلامية ونشر الدين والقضاء على الانحراف إتباعاً للدروس التي تلقاها من عبد الله بن ياسين. كذلك كانت مغامراته الكبرى في الأندلس لإجلاء النصارى عن المناطق التي احتلوها ـ رغم خذلان ملوك الطوائف له ـ دفاعاً عن الإسلام.

بالطبع كان تكوين الإمبراطورية العظمى نتيجة الهدفين معاً السياسي والديني.

وربما كانت الإمبراطورية التي كونها يوسف بن تاشفين من أعظم الإمبراطوريات التي نشأت في العهد الإسلامي على أساس من الدين أولاً، وتحت حكم متحد.

وكانت النتيجة المهمة الأولى أن الحكم المرابطي في الأندلس أضاف إلى عمر الإسلام بهذه الديار أربعة قرون أخرى.

ولو سقطت الأندلس في القرن الخامس لكان من المحتمل أن يسقط المغرب لولا العمل الذي واصله الموحدون بعد ذلك. المغرب الكبير كان مرشحاً للسقوط في يد النصرانية. المرابطون أنقذوا الموقف وأكمل الدور الموحدون. يدل على ذلك أن كثيراً من موانىء المغرب الكبير على البحر الأبيض والمحيط سقطت في يد البرتغال والإسبان بعد نهاية الإمبراطورية المغربية كما سنرى فيما بعد.

قد يؤخذ على المرابطين أن بعض قوادهم إستعملوا العنف العسكري، كما كان يحدث كلما انتصر الجيش الإسلامي على القشتاليين فكان الجيش

المغربي يدمر وينسف ضواحي بعض المدن، وأحياناً التصفية الجسدية كما حدث مع بعض ملوك الطوائف أو اعتقال بعضهم ونفيه إلى المغرب. هذا واقع عسكري ما يزال سنة الحرب حتى الآن. وقد كان القشتاليون يدمرون ويحرقون كلما عجزوا عن احتلال مركز أو مدينة. فكانت المعاملة بالمثل. وكان ملوك الطوائف ـ أكثرهم ـ يخونون الأمانة الإسلامية ويتآمرون ضد الدولة التي ناضلت لتحمي الأندلس وتحميهم من سلطان القشتاليين. فكان من الطبيعي في المنطق العسكري أن يصفى بعضهم وينفى آخرون.

هكذا بدأ مغرب الإمبراطورية: دولة قوية موحِّدة يمكن أن يكون التاريخ منصفاً عندما سلم الإمبراطورية إلى دولة أخرى لها شباب الموحدين بعد أن بدأت الدولة المرابطية في الهرم بنهاية علي بن يوسف. وقد يكون ذلك من حسن تصرف الأحداث. فالمغرب الكبير لم يكن ليبقى لولا التوحيد في ظل الإسلام والإمبراطورية قام بذلك المرابطون وسلموا ـ أو في الواقع ـ إستلم الأمانة بعدهم الموحدون.

لم يكن أمام المغرب العربي إلا أن يخرج من الاضطراب السياسي الذي وقع فيه منذ دخول الإسلام. دول ضعيفة أو قوية نشأت. صراع بين هذه الدولة وتلك، إنقسامات في هذه الدول، التبعية للأمويين أو للفاطميين، خلل في هذه الجهة أو تلك في مفهوم الإسلام والممارسة الإسلامية، إضطرابات قبلية. إضطرابات في الأندلس نتيجة انهيار الحكم المركزي. تنمر القشتاليين وتسلط النصراني يستهدف الأندلس والمغرب للخروج من هذا الوضع، ولبناء مستقبل لهذه البلاد. حتى تلعب دورها في الغرب الإسلامي، الدور الذي يفرضه وضعها الجغرافي والستراتيجي والإسلامي. كان لا بد من تكوين دولة قوية في شكل إمبراطورية واسعة فكانت هي دولة المرابطين.

دولة التحرير والتوحيد

النزاع القبلي المدمر

أولاً: الدولة المرابطية كانت المؤسسة للمغرب الموحد، المستقيم إسلامياً وفكرياً، المنضبط سياسياً. ويسجل التاريخ لهذه الدولة أنها أنقذت المغرب من نزاع قبلي مدمر، خاصة بين الصنهاجيين والزناتيين، وأنقذت المغرب من صراع مذهبي مدمر، خاصة بين الأمويين والعبيديين، وأنقذت المغرب من تبعيات مختلفة: جزء منه يتأرجح بين التبعية للأمويين وبين الاستقلال حسب المصلحة وَتَبَعاً لميزان القوة.

نفس الشيء كان يحدث بالنسبة للجيران في الشرق: الصنهاجيون في تونس ـ وقد كانوا ولاة للعبيديين ـ كانوا لا يلبثون أن يطمعوا في المغرب خدمة للعبيديين. وقد رأينا أن المعز لدين الله الفاطمي حينما قرر الرحيل إلى مصر أسند الولاية ـ نيابة عنه ـ على تونس وعموم المغرب ـ إلى بلكين بن زيري زعيم قبيلة صنهاجة. وقد قامت دولة هذا الأمير بالدعوة الفاطمية وحكمت نيابة عن العبيديين في المنطقة وخاصة في تونس والجزائر، ولو أنها كانت تصطدم بالحماديين في الجزائر. وقد كان الفاطميون كما عرفنا يحرضون ولاتهم على تونس لإحداث اضطرابات في المغرب في وجه المغاربة والأندلسيين.

النزاع داخل القبيلة

ثانياً: الاضطرابات الداخلية في نفس القبيلة. فقد كان بنو يفرن (فرع من زناتة) ينافسون بني عطية. وتزعم بني يفرن يدُّو بن يعلى، واستولى على

كثير من مناطق المغرب. وكان بذلك منافساً قوياً لبني عطية حتى إنه انتهز فرصة رحيل ابن عطية إلى الأندلس استجابة لدعوة المنصور فهجم على مدينة فاس واحتلها. وقامت بين الرجلين حرب طاحنة عند عودة زيري بن عطية انتصر فيها ابن عطية على يدو وقتله.

كان ذلك سنة 383 هـ ـ 993 م.

هذه المعارك الدائرة بين فرقتي (بني يفرن ومغراوة) القبيلة الواحدة (زناتة) جعلت المنطقة في حرب مستمرة، وخاصة مدينة فاس (العاصمة) التي عانت المحنة من الطرفين: كلما دخلها أحدهما انتقم من السكان ودمر جزء من المدينة. وطالت أيام الفتنة بينهما حتى تخلص أحدهما (زيري بن عطية) من الآخر (يدو بن يعلى) فقتله وبعث برأسه إلى المنصور بن أبي عامر ليؤكد بذلك شيئين: أولهما قوته وقدرته على تصفية خصم عنيد ذي سطوة في قبيلته التي لا تقل مكانة ورفعة داخل القبيلة الكبرى (زناتة) عن رفعة ومكانة قبيلة ابن عطية. ثانيهما: الإعراب للمنصور بن أبي عامر عن أنه خلصه من خصم عنيد ترفع عليه وأبى أن يستجيب دعوته. ثم إخلاصه للمنصور ليؤكد حظوته لديه.

طمع الزيريين في المغرب

هذه الظروف المضطربة التي عاشتها مدينة فاس ومنطقتها، والتي طال أمدها هي التي دفعت بلكين بن زيري والي المعز لدين الله الفاطمي أن يطمع في المغرب، بعد أن استولى على الجزائر، وبنى المدينة (الجزائر) التي ستصبح عاصمة، كما بنى مدينة «مليانة»، فقصد المغرب في جيش قوي واحتل مدينة فاس، وأنزل بجيوش زناتة هزيمة نكراء.

كان ذلك سنة 368 هـ 969 م.

بلكين إستهدف بذلك ثلاثة أهداف:

أولها: أنه حقق لنفسه مجداً عسكرياً وسياسياً، فامتد نفوذه فيما حسب من القيروان حتى فاس.

ثانيهما: إنتصار قبيلة صنهاجة على زنانة وبينهما ترات قديمة ومنافسة أبدية على السلطة. وقد واتتة الفرصة ليحقق هذا النصر القبلي الكبير.

ثالثها: إنه حقق رغبة كبرى لسادته العبيديين الذين كان يحكم باسمهم في تونس فقد كانوا يطمحون أن يستولوا على المغرب لأنه المغرب، ولأنهم يريدون أن يصلوا عن طريقه إلى الأندلس فيحولوا الدولة السنية إلى شيعية، وليكونوا لهم ملكاً في اقصى الغرب الإسلامي.

لم تتحقق هذه الرغبة لأن هجمة بلكين على فاس كانت عارضة، فعادت المنطقة إلى سابق عهدها من الصراع بين بني عطية والأمويين (العامريين) يهاجمون المدينة فيخرجون منها قوات زيري بن عطية، وتعود السلطة لابنه المعز باتفاق مع المنصور بعد أن أوغل في قتال والده زيري.

تطلع الحماديين إلى المغرب

الاضطراب الثاني الذي وفد على المغرب من الشرق جاء من الحماديين، أصحاب القلعة، وهي الدولة القوية التي حكمت الجزائر بقوة، كفرع للدولة الصنهاجية في تونس. فاستقلت بالأمر كما قدمنا، وكانت دولة قوية يحسب لها ألف حساب، رغم الحروب التي قامت بين حماد وابن أخيه باديس والي تونس. وبذلك تكونت دولتان صنهاجيتان: بني بلكين في تونس وبني حماد في الجزائر.

كان طمع بني حماد في المغرب لا يقل عن طمع المغرب في الجزائر، ولا يقل عن طمع بني بلكين (التونسيين) في المغرب. والفرص دائماً ممكنة من جراء الصراع الدائم بين القبائل من جهة، ومن جراء الاضطراب الذي يخلقه الأمويون والعبيديون في المغرب كله. وقد كان الدور هذه المرة على بني حماد ليهاجموا المغرب. وكان من أمراء بني حماد بلكين ابن محمد بن حماد. كان حاكماً جباراً وسفاكاً للدماء وجريئاً طموحاً، فهجم على المغرب عدة مرات. وكان آخر هجماته في بداية نظام يوسف بن تاشفين، وقبل أن

يتمكن من المغرب شماله كجنوبه، واستولى في هجومه هذا على فاس، ـ وهي الهدف من كل هجوم على المغرب منذ تأسيسها في عهد الأدارسة حتى عهد ليوطي ـ ويقول التاريخ إن بلكين هذا أخرج يوسف بن تاشفين من فاس سنة 454 هـ ـ 1062 م وأوغل في بلاد المغرب. ولكن لم يكد يعود هذا الأمير الصنهاجي من المغرب حتى اغتاله الناصر بن عناس انتقاماً من قتل أخته «ناضميرت».

مشروع ابن تاشفين في الجزائر

وسيكون على يوسف بن تاشفين أن يهاجم الجزائر في مشروعه الشرقي بعد عشرين عاماً وقد تقوى فاستولى على كل أراضي المغرب والجزائر حتى أسوار «الجزائر» المدينة. وحاصر دولة بني حماد في الجزائر

السؤال الذي يطرحه التاريخ هو:

لماذا لم يكمل يوسف بن تاشفين مشروعه الشرقي فيضم بقية المغرب العربي: الجزائر وتونس كما سيفعل الموحدون؟

ليس هذا السؤال نظرياً فقد توقف شرقاً لأنه اتجه شمالاً، وللأسباب التي تحدثنا عنها في فصل سابق.

مشروعه الأندلسي صرفه عن الجزائر

يبدو لي أن السبب الرئيسي هو مشروعه في الأندلس. والأندلس كانت معرضة للغزو القشتالي بعد تخاذل ملوكها (الطوائف) عن الدفاع عن مملكاتهم. ويوسف كقائد كبير فكر في ألا يوزع قواته في جهتين، كلاهما قوية منيعة.

ولعل من الأسباب أن الحماديين وبني عمهم الزيريين صنهاجيون. فهم ينتمون إلى نفس القبيلة الكبرى التي تنتمي إليها لمتونة. ولعله لم يرغب في أن ينازل أبناء عمومته. ويبدو أن هذا السبب قد يكون واهياً، فقد نازل بني حماد في الجزائر، لأنهم تطاولوا ونازلوه، والزيريون في المغرب، عُمْقِ مملكته.

ولعله لو أمد الله في عمره وصحته، بعد المائة التي عاشها لتلفت لتوسيع امبراطوريته شرقاً، بعد أن حقق النصر الكبير في الزلاقة بالأندلس.

ثم إن الأندلس لم تسلم للمسلمين. فقد ظل الصراع بين قوات المرابطين وقوات النصارى. وَكَانَتْ بعض المناطق ما تزال تقاوم. وفي عهد علي بن يوسف شهدت الأندلس معارك أخرى كما عرفنا.

هكذا نجد أن الدفاع عن الإسلام في الأندلس لم يترك مجالاً للتفكير في توسيع النفوذ المرابطي نحو المشرق.

الأمر يختلف عنه في عهد الموحدين. فقد وجدوا الدولة كاملة شبه مستقرة ولم يكن عليهم ـ كما سنرى ـ إلا أن يقوموا بانقلاب ضد رأس الدولة وتصفية الحاكمين المرابطين مركزياً وجهوياً لتكون بقية الدولة من الأندلس شمالاً حتى السوس الأقصى (أي حتى حدود المغرب مع السودان جنوباً حتى الجزائر شرقاً). ولذلك كان من السهل على الموحدين أن يكملوا المشروع الشرقي.

دفاع عن المغرب من خلال الأندلس

سؤال آخر يطرح نفسه:

هل عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس دفاعاً عن الإسلام الأندلسي فحسب، أم إنه كان يتحسب الدفاع عن المغرب أيضاً؟

أشرنا إلى هذا الموضوع سابقاً ونضيف لاكمال الفكرة:

أما أنه كان متأثراً إسلامياً وسياسياً بالوضعية التي آلت إليها الأندلس بناء على تقارير ملوك الطوائف، وعزمه على إنقاذ وضعية الإسلام فذلك ما لا يرقى إليه الشك. وأما أنه فكر في اتقاء هجوم النصارى على المغرب فذلك ما يجب أن يضعه المؤرخ في حسابه، وهو يقرأ جيداً هذه الفترة الحرجة من التاريخ في الغرب الإسلامي.

النصرانية في إسبانيا لم تغفر للمسلمين أنهم هاجموا الأندلس وأقاموا فيها دولة إسلامية عربية وعربوها، وأسلم على أيديهم معظم سكانها وبنوا فيها حضارة جديدة. ولذلك كانوا يفكرون في الانتقام من البلاد التي انطلق منها الفتح الإسلامي إلى بلاد الأندلس، وهي المغرب.

والقوات التي وصلت إلى طريفة من شمال الأندلس إلى جنوبها والتي استولت على سرقسطة وعلى طليطلة يمكن أن يفكر من جديد في سبتة وطنجة وهما البوابتان لفتح المغرب.

ما أشك في أن يوسف بن تاشفين فكر في كل ذلك وهو يعد العدة لمهاجمة العدو في عقر داره ولا يتركه يصل إليه.

لو لم يفعل؟

ولو لم يفعل يوسف بن تاشفين. وكان هذا الاحتمال وارداً لانهزم ملوك الطوائف جميعهم كما حدث بالفعل، واحتل ألفونسو وملوك النصارى كل الأندلس ليتخلصوا للمغرب. ألم يكن لهم المثل مما كان يفعله الأمويون في عهد المنصور بن أبي عامر ـ على الأخص - من الهجوم على المغرب رغبة في ضمه إلى الأندلس. قد لا يحققون من أحلامهم ما حققوه بعد ذلك عندما احتلوا معظم الشواطىء المغربية الأبيضية والأطلسية بعد أن ضعفت إمبراطورية المغرب، ولكن المصير كان مظلماً. خاصة إذا اتحدت القوات النصرانية مع الكنيسة الكبرى، وتضافر هجوم روجز من صقلية على تونس وشواطئها مع هجوم إسبانيا على شواطىء المغرب والجزائر. كانت الكارثة ستكون عظيمة. ولكن يوسف بن تاشفين أنقذ الموقف فأطال بعمله في عمر الوجود الإسلامي في الأندلس أربعمائة سنة أخرى. لم يمنع حذر من قدر. ولكن المغرب الكبير نجا في هذه المدة من الاحتلال الصليبي الذي تعرض لمثيله المشرق الإسلامي في هذا التاريخ وقريب منه.

وبذلك أنقذ يوسف بن تاشفين الإسلام في المشرق والمغرب بالإبقاء

على الأندلس إسلامية قروناً متعددة.

جيوب الاحتلال النصراني.

مثل مهم نجده في شرق الأندلس وغربها ويتمثل في الجيوب التي حررها من النصرانية علي بن يوسف، ويتمثل كذلك في مملكة بني هود، هذه المملكة الصغيرة التي كانت من أهم مماليك الطوائف، وانتهى الملك منهم إلى المستعين بالله، ولكن بني هود لم يستطيعوا الدفاع عن مملكتهم إزاء الزحف النصراني الذي كان يقوده سانشو راميرز ملك أراكون. استعان المستعين عندئذ بيوسف فأنجده بقوات مقاتلة، ولكنه في نفس الوقت استعان بألفونسو تحسباً من أن ينتصر المرابطون فتصبح المنطقة في أيديهم. هذا التلاعب والاستعانة بعدو لمواجهة عدو أنهى المعركة لحساب ملك أراكون، وسقطت سرقسطة. وسقط معها المستعين شهيداً.

نفس الشيء حدث مع «لاردة» قريبة من سرقسطة، وقد هاجمها ألفونسو، ولكن حاكمها استنجد بيوسف بن تاشفين فبعث إليه جيوشه من غرب الأندلس، وقاوموا الهجوم النصراني حتى خلصوا الارادة من الاحتلال.

المهم من كل هذا أن كل المناطق الأندلسية كانت معرضة للاحتلال وطرد المسلمين منها لولا يوسف بن تاشفين وجيوشه القوية المدافعة عن الإسلام.

والذي يتتبع أقوال المؤرخين يعرف كم من المجاهدين المغاربة استشهدوا. وكم من القواد الكبار الذين تركهم المغرب في معارك الأندلس. ولكن ذلك كان في سبيل الإسلام. فلم يكن هناك فارق بين المغرب والأندلس. كلها بلاد الإسلام.

لماذا كان المغرب مستهدفاً؟

واضح من تصرف التاريخ أن المرابطين جاءوا في وقتهم من تاريخ هذه

البلاد. فالذي يستعرض تاريخ المغرب ما قبل الإسلام يدرك أن المغرب كان مستهدفاً للقوات الأجنبية التي تحكمت في البحر الأبيض المتوسط. وقد عانى للدفاع عن نفسه، واستسلم أحياناً لحكم توازن القوى، ولكنه كان دائماً يناضل لإثبات الذات. غير أن نضاله لم يكن في مستوى مركزه الستراتيجي وموقعه الجغرافي وقوته البشرية. ولذلك كان نضاله متقطعاً، بمعنى أنه لم يكن يناضل جماعياً كبلاد موحدة.

أسباب ذلك واضحة من الفترة التاريخية. فمفهوم الدولة كان غائباً لصالح مفهوم القبيلة. وحتى مفهوم القبيلة، والمغرب كان يتوفر على قبائل كبرى، لم يكن واضحاً. فكل فرع من قبيلة كان يحسب نفسه قبيلة متفردة. ولذلك كانت هناك عدة ظواهر: والمغرب قد عانى من هذه الظواهر فهي عامة في البلاد العربية والإسلامية والأوروبية وفي كل القارات.

أولها: الصراع القبلي.

ثانيها: غياب مفهوم الوطن لصالح مفهوم أرض القبيلة.

ثالثها: زعماء قبليون يتغلبون فيحكمون، ما داموا يتوفرون على قوة الغلبة، وإلى أن تتقوى شخصية أخرى، أو تتقوى قبيلة، أو فرع من قبيلة، على قبيلة أخرى أو على فرع من قبيلة.

رابعها: غياب مفهوم الدولة ومفهوم الوطن يغيب المفهوم الاقتصادي المتكامل. فالصراع بين القبائل لم يكن دائماً سياسياً أو من أجل الحكم، ولكن كان أحياناً من أجل الأرض أو الزرع أو الماشية. وكثيراً ما يكون ذلك في أوقات الجفاف. فالجهة التي تضررت أكثر تغير على الجهة التي تحسب أن الجفاف أبقى على بعض محصولها.

خامسها: الأحلاف كانت تلعب دورها، فكل مجموعة قبلية قد تتحالف لتدافع عن نفسها ضد قبيلة أكبر أو حلف آخر.

الفوضى الإدارية لم تكرس وحدة المغرب

هذه الظاهرات لم تختف بوجود الدعوة الإسلامية، كما لم تختف النزعة القبلية بعد قيام الدعوة الإسلامية، اختفت في عهد النبي على استحياء، ثم انبعثت بعد وفاته، وكانت سبب الفتنة الكبرى وقيام الخلافتين الكبريين الأموية والعباسية. يمكن أن يكون عصر الفتح والولاة في المغرب وغيره من البلاد التي فتحها العرب قد استغل سلبياتها. وبالطبع لم يتمكن الفتح الإسلامي من أن يذيبها.

اتجه الفاتحون والولاة إلى تنظيم بعض الولايات والأقاليم، التي دخلت في الحكم الإسلامي، بولاة وعمال يمارسون سلطة الحكم نيابة عن الدولة. أما عن المغرب الأقصى فلا يذكر المؤرخون من تقسيماته بعد الفتح إلا القسم الطنجي، أي الشمال، وقسم سوس أي الجنوب حتى سجلماسة. ولذلك لم تكن ـ فيما يبدو ـ السيطرة الإدارية كاملة للولاة على المغرب جميعه.

إذا تذكرنا هذه الأقسام الكبرى التي ولي عليها ولاة أو عمال وهي تونس والجزائر وطنجة وسوس لأرشدنا ذلك إلى حقيقة مهمة نريد أن نشير إليها، وهي أن التنظيم الإداري الفضفاض (رغم بعض التقسيمات الصغرى التي كان عليها شبه عمال) لم يساعد على ضبط وحدة المغرب الكبير، بل ساعد ـ بعكس ذلك ـ على إقامة دول متعددة من الأغالبة وبني زيري بن مناد وبني حماد ثم بني زيرى بن عطية في منطقة فاس، وقبل هذه دولتا الخوارج: الرستميون والمدراريون. وبقاء كثير من المناطق لا تخضع لحكم مركزي، ويقوم فيها حكم محلي يستولي أحد الزعماء على المنطقة ويحكمها باسمه أو اسم الإمارة التي يدعيها. ولا بد أن نشير إلى الحكم الفاطمي الذي ظل عائماً في المنطقة جميعها من القيروان حيث قضى على الأغالبة وفي فاس ومنطقتها لمحاولة القضاء على الأدارسة وفي سلجماسة ليساهم في القضاء على بني مدرار. ولا بد أن نشير إلى أن هذه الفوضى الإدارية التي أدت إلى فوضى في تنظيم الحكم هي التي مهدت الطريق لتدخل الأمويين الأندلسيين في المغرب

حتى تلمسان كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وخاصة على عهد المنصور بن أبي عامر.

ويؤكد التاريخ أن كثيراً من القبائل انفردت بحكم نفسها لأن التنظيم الإداري كان فضفاضاً، ولم يكن الولاة قادرين على السيطرة إدارياً على هذه المنطقة الواسعة من حدود مصر حتى المحيط، وحتى الصحراء الموالية لإفريقيا السوداء.

الفتح لم يؤصل الحكم المنظم

ورغم المحاولة التي قام بها موسى بن نصير فلم يستطع أن يؤصل في المغرب الكبير حكماً منظماً واحداً. ولعل الدول التي نشأت هنا وهناك والقبائل التي حكمت نفسها هو ما كانت تفرضه الأوضاع في بلاد شاسعة تقسمها الجبال والصحارى والمناطق البعيد بعضها عن بعض، بعد القيروان وطرابلس عن فاس وطنجة وسجلماسة.

ولم يكن مستطاعاً في ذلك الوقت غير ما استطاعه العرب من تقسيمات في تونس وطرابلس والزاب من جهة الشرق، وغير ما استطاعه موسى بن نصير من تقسيمات في المغرب إلى إقليمي طنجة وسوس.

هذا التنظيم وما أدى إليه من فوضى الحكم ونشأة عديد من الدول هو الذي يؤكد أهمية العمل الكبير التوحيدي الذي قام به المرابطون تحت زعامة يوسف بن تاشفين. وهو الذي يؤكد الأهمية التاريخية للفترة التي حكم فيها المرابطون بلاد المغرب. ومهدوا الطريق لإمبراطورية أوسع أقامها الموحدون كما سنرى.

المغرب العربي والأندلس
قبل قيام الدولة الموحدية

من المؤكد أن عيني ابن تومرت كانتا على الامبراطورية، وقد تعرف عملياً على معظم أجزائها، على الأخص بلاد المغرب العربي الذي جرب فيها أداء رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الأندلس التي يحتمل أنه زارها وتعلم فيها، كما يؤكد بعض المؤرخين. والامبراطورية التي كونها يوسف بن تاشفين من الجزائر حتى إفريقيا السوداء كانت تداعب خياله، فقد كان رجل سلطة يستغل الدين للدنيا، لا داعية دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فحسب. ولذلك من المؤكد أن نشاطه في تونس والجزائر وتحديه للسلطة إنما كان جزء من مخططه لزعزعة الامبراطورية ولوضع قدمه في مناطق من هذه البلاد التي هيأها له يوسف بن تاشفين.

الظروف السياسة التي كانت تعيشها هذه البلاد في المغرب العربي والأندلس خدمت إمبراطورية المرابطين، ولكن الاضطرابات الداخلية والخارجية التي سادتها قبل المرابطين وأثناء الحكم المرابطي ـ في المناطق التي وصلها حكمهم من المغرب والأندلس ـ كانت في خدمة الانقلاب الموحدي.

انقلاب . . . وإرث امبراطورية:

هناك إذن ظاهرتان خدمتا الموحدين:

أُوْلاَهما: الإمبراطورية الواسعة التي كونها المرابطون بحيث كان حكم الموحدين إنقلاباً، وليس تكوين دولة جديدة كما كان الأمر بالنسبة للمرابطين.

ثانيهما: هذه الاضطرابات السياسية التي سنشير إليها. والتي لم تكن في مصلحة الدول التي كانت قائمة في تونس وفي الجزء غير المنتمي لإمبراطورية المرابطين من الجزائر ثم في المغرب. وهي الاضطرابات التي اصطنعها ابن تومرت بالدعوة الخطيرة ضد الدولة وبالحروب. ثم الاضطرابات التي عرفتها الأندلس بعد وفاة يوسف ين تاشفين.

ويشير بعض المؤرخين إلى الوضعية الاجتماعية المتفسخة التي عرفها المغرب بعد يوسف بن تاشفين. وما من شك في أن الصورة المشوهة عن هذه الوضعية من تبرج النساء والغِلمان وبيع الخمر في الشوارع جهاراً، إنما هي من صنع ابن تومرت، وكل الموحدين بعده، ومؤرخيهم الذين كانوا بمثابة وسائل إعلام رسمية تعلي من قدر ابن تومرت وخلفائه من بعده بمقدار ما تحط من قيمة المجتمع الذي حاربوه.

من المستبعد أن يكون المجتمع الذي أخذه يوسف بالشدة التي نعرفها عنه، والفقهاء الذين كانوا يراقبون هذا المجتمع علمياً واجتماعياً، وكانوا في خدمة الدولة حتى بعد وفاته، من المستبعد أن يكون هذا المجتمع قد تفسخ في العقد الذي تلا وفاة يوسف. ومن المعروف عن الأمير علي الذي خلفه أنه كان رجلاً متديناً صالحاً لا يمكن أن يسمح للفساد أن يخرب المجتمع، وهو الرجل الصحراوي المنبت الذي تربى في أحضان ملك صارم كيوسف بن تاشفين، وقام بمهمات سلطوية وعسكرية على عهد والده.

في تونس والجزائر

هناك ظروف سياسية أشرنا إليها في الفصول السابقة خدمت الانقلاب الموحدي، بالإضافة إلى الوضع السياسي الذي كانت عليه تونس والجزائر قبل قيام الدولة الموحدية. ففي تونس كان صراع قائماً في أواخر المائة الثالثة وبداية المائة الرابعة بين الصنهاجين تحت وصاية الفاطميين، وبين الزناتين الذين كانوا يخدمون الحكم الأقوى في الأندلس، وهو صراع بين الدولتين

الكبيرين (الفاطمية والأموية) انعكس على الدول الصغرى التي كانت تحكم منطقة المغرب العربي. وتدخل عنصر اضطراب خطير وهو الانسياح الأعرابي الهلالي الذي خرب تونس، وتدخل كذلك للصراع مع النورمانديين انتقاما للهجوم الإسلامي على صقلية. والصراع القبلي بين الزناتين والصنهاجيين كان له خط في إضعاف تونس ومنه كذلك الصراع بين الصنهاجين والمصمودين الذي كان له أثر في انهيار الدولة. كل ذلك مكن الحكم الموحدي من احتلال تونس.

ولم يكن حظ الجزائر في هذه الفترة بأحسن من حظ تونس، سواء في الاضطرابات الداخلية القبلية، أو في طموح الدولة الحمادية في التوسع نحو تونس، أو في الاضطرابات التي قام بها الهلاليون الذين استغلوا فرصة محاولة الدولة الحمادية للزحف على تونس حتى استولى الهلاليون على مناطق شاسعة من الجزائر، وتخريب كل المناطق التي زحفوا عليها. نفس الشيء بالنسبة للنورمان فقد هاجموا المدن الداخلية إلى جانب الشواطىء مما شغل الدولة بصد هجومهم فاضعفها.

طائفة من الحروب الصليبية

الهجوم الشمالي الذي عرفته تونس ثم الجزائر من النورمانديين وحلفائهم الذين احتلوا صقلية والشواطىء الإيطالية (جنوة) يدخل في إطار الحملة الصليبية التي عرفتها البلاد الإسلامية في الأندلس. وقد كان قدر شعوب ودول المغرب العربي أن تواجه هذه الحروب، سواء كانت زحفا من الدول النصرانية في شمال الأندلس (قشتالة واراكون) أو عن طريق الأساطيل الحربية (النورماتية في صقلية المحتلة وشمال المتوسط) هذه الهجمات أضعفت دول المغرب العربي جميعها، ودفعت بها إلى توزيع طاقاتها بين تهدئة الثورات والتمردات وهجمات الهلاليين، وبين تكوين أساطيل لمدافعة الغزو النورماندي. وذلك في صالح دولة الانقلاب من حيث لا تقصد إلى ذلك.

في المغرب والأندلس

لو هاجم ابن تومرت ثم عبد المؤمن المرابطين على عهد يوسف بن تاشفين لتغير وجه التاريخ. فقد كان يوسف قوي الشكيمة شديد البأس، ما كان يستطيع أن يسمح لداعية، ولو باسم الدين، أن ينال منه ومن دولته.

و«لو» هذه لا تجوز في حساب التاريخ. وإنما يصح منه أن المهدي كان ما يزال في بداية الطلب على عهد يوسف بن تاشفين إلى السنة التي توفي فيها يوسف 500 هـ (1106 م) ويرجح المؤرخون أنه بدأ رحلته قبل وفاة يوسف بسنة أي 499 هـ (1105 م).

معنى هذا أنه كان من حظ ابن تومرت أنه بدأ رحلته في سبيل الدولة على عهد علي بن يوسف، وقد ولي سبعاً وثلاثين سنة وفي عهد تاشفين الذي أنهى عهده الموحدون بعد سنتين من حكمه سنة 539 هـ (1145 م).

وكان علي رجلاً دينياً طيباً تدمع عيناه كلما سمع وعظاً أو اطلع على مكروه يجري في مملكته. ولطيبته، وهي في السياسة غفلة ـ أبى أن يأخذ بنصيحة ابن وهب بعد أن ناظر ابن تومرت بأن يصفي الرجل، أو على الأقل يبعده. لأن الرجل يدعو إلى طريق الله. ولم يدرك خطورته رغم ما نبّه إليه ذوو الرأي من الفقهاء الذين ناظروه.

كان القدر إذن يهيىء حكماً ضعيفاً في المغرب ليقضي عليه ابن تومرت وعبد المومن.

ومع ذلك كان المغرب في وضعية جيدة من حيث سيادة سلطة الحكم المرابطي وسيادة العدل. كان الحكم مستقراً من بجاية حتى إفريقيا السوداء، وكانت أغلب مناطق الأندلس قد تحررت على عهد يوسف وابنه من العدوان الصليبي، ومن حكم ملوك الطوائف المتفسخ. وما كان يزعمه ابن تومرت ثم مؤرخو الدولة الذين تلقفوا الأخبار من فمه من أن البلاد كانت متفسخة أخلاقياً لا يسنده سند من التاريخ كما قدمنا.

إذا استثنينا الحدث العارض الذي عرفته البلاد وهو تمرد يحيى بن أبي

بكر بن يوسف بن تاشفين في فاس، وقد كان ولياً عليها على ابن عمه علي، وانتهاء هذا الحدث سريعاً، إذا استثنينا هذا الحدث العادي لا نكاد نجد اضطراباً سياسياً طيلة 37 سنة التي حكم فيها علي ابن يوسف إلا الاضطرابات التي أخذ يحدثها ابن تومرت.

ثم إن عهد علي بن يوسف كان عهد جهاد في الأندلس. أتم الرسالة التي بدأها والده، والتي كان يفرضها مركزه كأمير المسلمين في منطقة شاسعة من المغرب العربي وإسبانيا المسلمة. ويذكر التاريخ أنه رحل إلى الأندلس مرتين مجاهداً وعين كثيراً من القواد العسكريين ذكرهم التاريخ بالنضال والشجاعة والإقدام في المعارك الضارية التي خاضوها مع الزاحفين في بلاد عرفت بكثير من المراكز التسراتيجية والحصون القوية.

لم نقصد إلى تسجيل التاريخ الجهادي الحافل لعلي بن يوسف وابنه تاشفين، وإنما قصدنا إلى التأكيد بأن ظروف المغرب والأندلس لم تكن تبرر الحملة الموحدية التي شنها ابن تومرت ثم عبد المومن من بعده على المرابطين. وقوة الدولة ما كانت تسمح بالانهيار السريع بعد أن بدأ عبد المؤمن معركته الفاصلة لقيام الدولة، الشيء الذي لم يستطع أن يقوم به ابن تومرت حين مهد له بجمع الأنصار والمقاتلين وإثارة الرأي العام دينياً وسياسياً بوسائل «إعلامية» غير شريفة.

ونشير إلى أن الحملات التي قام بها علي بن يوسف وقواده الكبار لإتمام رسالة المغرب الإسلامية في الأندلس، كانت تؤكد أن الوضعية في المغرب كانت مستقرة سياسياً وعسكرياً، بحيث كان يصعب استغلالها لولا الأسلوب الجديد الذي ابتدعه ابن تومرت.

ويختلف الأمر عنه في الجزائر وتونس. ولعل هذا ما سيفسر أن عبد المؤمن بدأ المعركة العسكرية متجها نحو الشرق (تلمسان) وفيها هزم قوات تاشفين وطارده حتى هوى بفرسه من شاهق في ليلة مظلمة ممطرة.

قمة الإمبراطورية المغربية

بين ابن ياسين والمهدي

التاريخ بالمغرب سريع الحركة. إذا كانت دولة المرابطين قامت بأعظم إنجاز في تاريخ المغرب بتوحيد البلاد وانتظامها والدفاع عنها من حدود إفريقيا السوداء حتى تخوم الأندلس، ومن المحيط حتى الجزائر، فإن هذه الدولة القوية المستقيمة لم تعترها عوامل الشيخوخة والتفسخ، ولا كان رجالها مستهترين بالسلطة وبالناس، كما عرفت ذلك كثير من الدول التي سقطت بما عاشته من بطر السلطة، وإنما سقطت الدولة - التي لم تعمر رغم عظمتها وإنجازاتها الكبرى ونفوذها الواسع غير مئة وأربعين سنة - بسبب خارجي لا ينتمي لسلطانها أو عملها أو تقصيرها في صيانة الدولة، والسبب الخارجي فريد في التاريخ ينتمي - في العقلية والتنظيم - إلى العصر الحديث الذي تعتمد فيه بعض الأنظمة - الشيوعية أو الدكتاتورية النازية الحديثة) على التنظيم الأيديولوجي، وتنظيم المؤمنين بالايديولوجية في جماعات سرية تقوم بما يأمر به الدكتاتور (الإمام) وما يخطط له، ولو كان قتلاً جماعياً لغير المخلصين للسلطة المطلقة التي يمثلها.

المنافسة القبلية

ومن الأسباب الرئيسية لقيام دولة جديدة على أنقاض دولة ما تزال في عنفوان سلطتها المنافسة القبلية: المرابطون كانوا من صنهاجة، ومن أقوى فرع فيها وهو لمتونة: قبيلة صحراوية، عاشوا في الصحراء الجنوبية للمغرب. وقد

عرفوا بسلطاتهم وممالكهم قبل الإسلام وبعده، وكافحوا لنشر الإسلام وتصحيح دعوته على نحو ما أسلفنا. ويذكر ابن أبي زرع عدداً من ملوكهم الذين سيطروا على الصحراء قبل أن يبدأ عبد الله بن ياسين دعوته التي أسلمته إلى قيام الدولة المرابطية.

فهذه القبيلة الصحراوية التي بنت لها مكانة كبرى في الغرب الإسلامي لا يمكن أن تسلم من منافسة قبلية تأتي هذه المرة من قبيلة كبرى تسيطر بفروعها وبطونها على جزء مهم من المغرب الذي سيطرت عليه غريمتها الصنهاجية. قبيلة مصمودة من القبائل البرانسية التي سكنت فروعها في معظم أنحاء المغرب «النافع» أي الجبال والسهول الخصبة، على خلاف ما عرف عن صنهاجة القبيلة التي سكنت الصحراء الكبرى ثم سيطرت على الشمال.

من استقراء الأوضاع القبلية بالمغرب يمكن أن نستنتج أن المصامدة كانوا بديلاً في خصومتهم للصنهاجيين عن خصومة زناتة (البترية) التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ ما قبل المرابطين. الصراع القبلي إذن كان له دور في قيام الدول الكبرى. ولا شك أن الموحدين (المصموديين) لم يستسيغوا ـ قبلياً ـ أن يكون الملك الكبير من حظ الملثمين المرابطين الصنهاجيين، وهم لا يقلون عنهم مكانة. بل لعلهم كانوا يعتبرون أنفسهم من أهم القبائل المتحضرة.

ومن وجهة النظر هذه لهم الحق في ذلك، فمساكنهم تمتد من شمال المغرب حتى جنوبه السهلي على المحيط، ثم تشرق حتى سهول مراكش وسوس. ولنتصور أن القبيلة الخصم (صنهاجة) بنت عاصمتها في مراكش، قريباً من منطقة انتشار المصموديين. ولنتصور أن المرابطين يسيطرون على كل المناطق التي يسكنها المصموديون. مناطق خصبة كانت تجتذب إليها المتعاملين إقتصادياً من مختلف المناطق القاحلة.

ثم كان للمصامدة تشبث بالإسلام ودفاع عنه. ومن أجل تشبثهم هذا قاموا ضد البرغواطيين (فرع مهم من مصمودة) وهي نِحلة إتبعتها كثير من قبائل

مصمودة الذين انحرفوا عن الإسلام، واتخذوا لهم ديانة كانت تنحرف بالعقيدة في مناطق هائلة من المغرب، وشغلت بهم الدولة حتى قضت عليهم.

القبلية لعبت مرة أخرى دوراً في هدم المرابطين، وهم في قلب المعركة الإسلامية بالأندلس وقيام الموحدين الذين أكد تاريخهم أنهم قاموا بدور كبير في تاريخ الإسلام.

البعد المصمودي

البعد القبلي داخل المجموعة المصمودية كان له أيضاً أثر كبير في فكر ابن تومر. ذلك الداعية الموحدي من قبيلة صغيرة في جبال درن هي «هرغة». وقد عرفت قبائل أخرى من المصامدة الحكم والسلطة، وقبيلة هرغة كان لها مجد. ولكن فرعاً من المصامدة سبق أن كون دولة سيطرت على منطقة كبيرة من المغرب هم البرغواطيون. وسواء كان هذا الإسم يسمى به فرع قبيلتهم من مصمودية، أو هو اسم النزعة التي انتحلوها، فإن النفوذ الذي حصلوا عليه كان له تأثير قبلي ـ فيما أعتقد ـ على الزعيم الموحدي ابن تومرت. إستولى البرغواطيون على السلطة. وهم أيضاً تمسحوا بالدين، فانتمى بعضهم للخوارج الصفرية، ولكنهم رغبة في السيطرة والنفوذ إدعى زعيم منهم (صالح بن طريف) النبوة وشرع ديانة دعا أتباعه إلى اتباعها، وابتدع قرآناً، ولقب نفسه صالح المؤمنين. وسمى نفسه، هو الآخر، المهدي الأكبر. واستمر الملك في آل صالح، عقوداً من السنين بنفس العقلية الانحرافية من ادعاء الكهانة إلى ادعاء النبوة. ورغم الحروب الطاحنة التي شنتها عليهم الدول التي توالت على المغرب استمر نفوذهم (حوالي 250 سنة) حتى قضى عليهم المرابطون.

المهدوية بديل لإدعاء النبوة

ورغم أن المهدي كان يدين هذه النزعة، التي نبعت من فرع قبيلته لانه كان مخلصاً لجوهر الإسلام، فإنه كان يَنْفِس على هذا الفرع ـ أو هذه الفروع ـ من مصمودة تكوين الدولة، ولو فشلت. كما لعله كان ينفس على غمارة ـ

مجموعة شعوب مصمودية ـ كانوا يسكنون منطقة شاسعة من الشمال (الريف) وقد نشأت في هذه المنطقة الشاسعة إمارات بعد أن أسلموا وساهموا في فتح الأندلس. وتنبأ فيهم أيضاً حاميم بن عبد الله بن جرير سنة 313، ووضع قرآنا بالأمازيغية كما تنبأ منهم عاصم بن جميل.

هذا النفوذ الذي بلغه المصموديون في الشمال وفي وسط المغرب لعب دوره في فكر ابن تومرت: لماذا منطقة هرغة السوسية لا يكون لها أيضاً نفوذ تضاهي به نفوذ المصموديين السابقين، وتقضي به على نفوذ الصنهاجيين الملثمين؟

تزكية النفوذ والسيطرة على القبائل فعلت فعلها في نفس ابن تومرت؟. لعل زمن ادعاء النبوة قد مضى، ولعله لن ينجح ـ لو فعل ـ بعد الدعم القوي الذي منحه المرابطون للإسلام وفكرة الجهاد من أجل الإسلام الذي مارسوه في المغرب والأندلس. ولذلك كانت فكرة المهدوية بديلاً للنبوة. وفيها قبس من النبوة كما سبق القول. أخلص من ذلك إلى القول بأن القبلية الداخلية (داخل المصمودية) كانت هي الأخرى دافعاً لابن تومرت إلى جانب القبلية الخارجية (منافسة الصنهاجية).

الموحدون قاموا بعقلية جديدةٍ ـ قديمة، تنتمي في جزء منها لما قامت عليه سلطة المرابطين، وغيرها من الدول المغربية. الدولة الإدريسية قامت على دعوة رجل دين وتقوى، وتعليم الناس أمور دينهم. حتى البرغواطيون كان لهم مرشد هو ميسرة المدغري. أما المرابطون فقد تميزوا بأن داعيتهم: عبد الله بن ياسين قصد ـ فيما يدل عليه تطور الفكر المرابطي ـ إلى الحكم، ولكنه مهد لذلك بالدعوة والإرشاد، وتوجيه الناس إلى الاستقامة الدينية والأخلاقية. وككل الدعاة، الذين يوجدون في بيئة منحرفة، استعملوا العنف أحياناً فكانوا يجلدون تاركي الصلاة مثلاً.

وعبد الله بن ياسين كان في سلوكه استاذاً لمحمد بن تومرت: فقد جمع

حوله من سماهم بعد ذلك المرابطين، واختارهم من المخلصين الأوفياء، واعتزلوا في جزيرة يعبدون الله. وما من شك في أنه كان يقرن العبادة بالتكوين السياسي وإعدادهم دينياً ونفسياً للجهاد الذي سينتهي إلى حرب كل ذي سلطة قبلية أو سياسية، وكل من يتمرد على الطاعة إلى أن انتهى الأمر إلى الدولة التي لم تتح له حياته أن يكون على رأسها، فقد قتل في إحدى المعارك التوسعية لنشر الإسلام والدعوة المرابطية، لم تسلم السلطة لقائدة أبي بكر بن عمر، وإنما تنازل عنها هذا الأخير وكانت ليوسف بن تاشفين.

البعد الديني للدول المغربية

التاريخ يعيد نفسه، أو هو يمنح درس الحاضر للمستقبل، ولكن ابن تومرت اقتبس الفكرة من الدعوة، فجمع الناس حوله ونظمهم على أساس ديني، ولكنه طور الفكرة. فقد استفاد من التاريخ، واستفاد من الفترة التي ساد فيها حكم المرابطين، وعرف أن الانتصار على المرابطين كدولة تحكم ما بين جنوب الصحراء وشمال الأندلس حتى الجزائر، ليس هو كانتصار المرابطين على مجموعات من القبائل وبقايا الدول، وعلى نصارى الأندلس. قد يكون الأمر أصعب، والدعوة في حالة إلى تجديد للفكر والأسلوب والتنظيم.

نتساءل:

أليست المذهبية التي تفضي إلى الدولة مبدأ إسلامي سلكه الإسلام منذ بداية الدعوة الإسلامية على يد النبيّ محمد ﷺ وصحبه، فقد كانت دعوته إلى الإسلام دعوة إرشاد وتوجيه وأمر بالمعروف ونهي على المنكر وتعليم الناس أمور دينهم، كما وردت فيما نزل به القرآن آنذاك. ثم تطورت الفكرة من الدعوة المجردة إلى إقامة الدولة ولتدعيمها وتنظيم المجتمع تنظيماً جديداً بعد الهجرة إلى المدينة. فقد تطور الإسلام من دعوة قوامها القرآن إلى دعوة قوامها القرآن والسلطة والتنظيم المجتمعي والسياسي. ألا يمكن أن تكون هذه الخطة هي التي سلكها كثير من الدعاة في المشرق والمغرب سواء في العصور التي

نؤرخ لها أو حتى عصرنا الحاضر؟؟

لهذا لا نشك في أن ابن تومرت استفاد من تحولات تاريخية ومذهبية أخرى قد تكون بعيدة عن المنطقة، ومن عقلية أخرى لم يعرفها المغرب إلا على صورة محدودة عند الفاطميين.

من هنا نتابع حركة ابن تومرت الوعظية ورسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل أن يتجه إلى الدولة.

البعد المشرقي

أين تكون هذا الرجل علمياً ومذهبياً؟

إذا كان عبد الله بن ياسين قد زار الأندلس واستفاد من علمائها، كما يقول الرواة، فإن محمد تومرت كان أكثر منه معرفة وعلماً، انتقل من قريته «هرغة» من قبيلة مصمودة السوسية التي درس فيها، ولا يزيد ما درسه عن حفظ القرآن وتعلم مبادىء الدين، إذا كان قد وجد في القرية من يعلمه الدين، ويشرق في طلب العلم فيقيم بمصر، وبالإسكندرية خاصة لِطلب العلم على يد علمائها، وهو يتابع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى طرده حاكم الإسكندرية.

هل وصل في رحلته العلمية إلى بغداد؟ هل تقابل مع الغزالي في الشام؟ تتداخل الرواية مع الأسطورة فتقول هذه: إن الغزالي دعا له، ودعا على المرابطين، الذين أمروا بإحراق كتبه كما أخبره ابن تومرت في مصر أو في بغداد أو الشام أو المهدية، وهو عائد في طريقه إلى المغرب. يمكن أن يكون قد علم وسمع بأساليب العبيدديين في تكوين الدعاة، رغم أن الدولة الفاطمية كانت آنذاك في آخر أيامها، حتى إن بعض الوزراء الذين كانوا قد أخذوا يستولون على السلطة بدأو يتخلون عن المذهب الإسماعيلي (الأفضل الذي كان وزيراً للآمر بأحكام الله 495 ـ 525 هـ قد مال لأهل السنة، وبدأ يتخلى عن المذهب ولكنه قتل في ذلك) من الجائز أن يكون ابن تومرت قد تتبع في

المشرق أخبار الدعوات السرية التي أقامت دولاً مكان دول، وليس بعيداً أنه قد تعرف على أساليب وأساطير الفاطميين والمرابطين في تكوين المدارس لتلقين المذهب، وفي تقسيم الأتباع إلى مجموعات بحسب إخلاصهم للمذهب وقدرتهم على الاهتداء به والدعوة له. ورغم أنه كان من غلاة الأشعرية في تأويل الصفات فقد كان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة.

من المؤكد أنه لم يكن شيعياً، وقد عرف إخفاق التشيع في المغرب، ولكنه كان، فيما يبدو، يستفيد من أساليب الدعوة السرية التي اتبعها في تكوين الأتباع العشرة ثم الخمسين على أساس الثقة والقدرة على إيصال الدعوة. وتنفيذ بكل ما يأمر به، ولو كان قتل الآباء والأبناء على نحو ما يؤكد بعض المؤرخين. وذلك لا يمنع من أنه كان يدعو جهاراً إلى آرائه، ولو مع أمير المسلمين علي بن يوسف، ويمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باستعمال العنف وتكسير الآلات واضطهاد الممارسين.

يؤكد المؤخرون أنه تقابل مع عبد المؤمن بن علي في هلالة. ولقاء الرجلين اللذين صنعا تاريخ الموحدين يؤكد الوجهة الموحدة. ولكنهما لم يتقابلا منفردين، فقد كان ابن تومرت قد جمع من أصحابه وأنصاره الكثيرين. وبدأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما بدأ عبد الله بن ياسين، وكما يبدأ كل من يبتدىء بالدين من أجل السلطة. وينتهي بالحكم. والأمثلة كثيرة في الدول التي نشأت عن الطائفة في الإسلام: الخوارج والشيعة مثلاً. وبدأ المخطط الذي سنشير إليه وهو تكوين الجماعات (الضاربة) غير أنها فيما يبدو، لم تكن قد أصبحت ضاربة بعد.

متى زار هلالة ـ قرية ـ ليلتقي بعبد المؤمن؟ من المؤكد أن ذلك قد حدث بعد رجوع ابن تومرت من المشرق. هل توقف عند الإسكندرية في طريقه لطلب العلم كما تؤكد بعض الروايات؟ أو وصل إلى بغداد؟ مهما تكن الرواية صحيحة فقد استفاد من علماء الإسكندرية ومنهم الفقيه أبو بكر الطرطوشي.

ونفي من الإسكندرية لأنه صار على نهجه الذي اختطه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء من العنف وعاد إلى المهدية أو بجاية.

هل استفاد من الدعوة الفاطمية

أهم من كل هذه الروايات أنه في نظري قد يكون استفاد من أفكار الفاطميين وأساليب الدعوة الفاطمية المهدية. فقد لقب نفسه بالمهدي. وأقنع أصحابه بأنه المهدي المنتظر، وروى كثيراً من الأحاديث الموضوعة حتى صدقوه. وقد زعم في كثير من أقواله أنه مهدي آخر الزمان.

وكلام المهدي كما يقول عبد المؤمن ـ نور وضياء ورحمة وشفاء لما في الصدور (يشبهه بالقرآن: ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾ وينزل من القرآن ما هو شفاء). والمهدي المنتظر عند الشيعة عموماً هو الإمام المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً. ولقب بالإمام المعصوم، وكلها من ألقاب الشيعة لأئمتهم المنتظرين. وحينما كان يكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين رسائل التهديد كان يلقب نفسه بالقائم بدين الله العامل بسنة رسول الله. وافتتح إحدى رسائله إلى «الفئة الباغية» ـ يقصد المرابطين ـ هكذا: من محمد بن عبد الله العربي القريشي الهاشمي الحسني الفاطمي. . . تأكيداً لسلطته بادعاء النسب الشريف، وكلمة «الفاطمي» لها أكثر من دلالة.

هذا أسلوب في تضخيم الشخصية والالتصاق بالدين وبكل ما يمت إلى الدين بصلة لغزو نفوس الأتباع بالقوة الغازية وارتباطها بالنبيّ عن طريق النسب وكثيراً ما ينتحل الدعاة هذه الصفة، رغم أن بعضهم ليسوا عرباً. وإذا كان عبد الله بن ياسين ثم يوسف بن تاشفين لم يلتجآ إلى هذا الانتحال فلأنهما كانا أكثر صدقاً في الدعوة إلى الدين بين قوم منحرفين، بينما ابن تومرت كان يقصد منذ البداية إلى هدم الدولة وبناء أخرى. وكان الإسلام سبيله الأول إلى الوصول إلى الهدف.

ويمكن تلخيص المخطط للوصول إلى الهدف في الصورة الآتية:

الطائفة السرية والغزو النفسي.

1 ـ تكوين الطائفة «السرية» العلنية من الأتباع في الطبقة العشرة، ثم طبقة الخمسين، ثم بقية الاتباع والمجاهدين الذين نظمهم للحرب، حتى إذا انهزموا في المعركة الأولى التي قام بها بقيادة عبد المؤمن بن علي فأكد لهم الاستشهاد وأن الذين ماتوا في المعركة ذهبوا إلى الجنة، حتى إذا انهزمت قواته لجأ إلى الحروب الصغيرة حول العاصمة «مراكش»، بنشر الإرهاب وتجويع المدينة بتخريب ما حولها من مزارع.

ويسمي المؤرخون الطبقات مرقمين بهذا الترتيب: العشرة (الجماعة) وأهل الخمسين وأهل السبعين (؟) والطلبة والحفاظ (صغار الطلبة) وهرغة (نسبة للقرية التي نشأ فيها) وجدميوه، وجنفية، وهنتاتة، وأهل القبائل، والغرات (ج. غر) وينتمي «الخمسون» إلى قبائل مختلفة: كهرغة، القبائل النافذة. وذلك ما يؤكد الاعتماد على القبلية في تأسيسه للدولة.

2 ـ تكوين الطائفة أو الطبقة لم يقتصر عنده على الغزو النفسي والعاطفي بالإسلام وتعاليمه، خاصة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنهم كذلك يبرهم ويطمعهم بأن الله سيفتح على يدهم بلاد فارس والروم، ومنهم سيكون الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم حينما ينزل من السماء إلى الأرض.

3 ـ كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأخذ طابع العنف أحياناً، فيكسر في الشارع الأواني التي يتهم اصحابها بأن فيها خمراً، ويصادر حريات الناس، ويفرض سلطته عليهم.

تحدي السلطة والفقهاء بالعلم

1 ـ يعرض نفسه وأصحابه لاضطهاد السلطة عن طريق التحدي، فما دخل مدينة أو قرية إلا ونصب نفسه مكان السلطة تحت ستار: الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، حتى تضيق السلطة به فتخرجه، ليجرب عمله ـ وهو يحمل صورة من تضطهده السلطة ـ في مدينة أو قرية أخرى. هكذا طرده عامل الإسكندرية من المدينة بعد أن بالغ في استقطاب الناس واستفزاز السلطة. فانتقل إلى المهدية في تونس، وكان يحكمها علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي. فقد رأى سوقاً تباع فيه الخمر فكسر دِنانها وآراقها، وقد همّ به الوالي علي. ولكنه ترفق به فبعث إليه أستاذه الفقيه المازري (هل درس ابن تومرت على المازري؟) وحذره من عادية الوالي وأقنعه وحبذ إليه الخروج إلى المُنستير. ثم انتقل إلى بجاية بالجزائر. في بجاية كانت له تجربة أخرى. فقد وجد الصبيان يتزينون كالنساء ـ فيما يروي مؤرخوه ـ ورأى اختلاط الرجال بالنساء في حفلات العيد، فحاول أن يغير المنكر بالعنف، وحدثت مشادة زادت في إيغار صدر الوالي عليه. ولنفس السبب طرده واليها لينتقل إلى قرية قريبة منها «ملالة»، ثم إلى تلمسان فمدينة فاس وأخيراً مراكش. . . في هذه الرحلة (العودة) من المشرق إلى المغرب جرب نفسه وقدرته على الدعوة والتحدي كما جرب سكان المدن والقرى التي كان يقوم بينهم بدعوته (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) التي تتسم أحياناً بالعنف. ومواجهة التحدي من الولاة الذين كانوا يطردونه وذلك كل ما كانوا يستطيعون أن يواجهوا به رجل علم يجاهر بقول الحق وبتغيير المنكر الذي لم يكن يخلو منه مجتمع من المجتمعات فينتقل من مدينة إلى أخرى. استفاد من كل هذه التجارب التي كانت دروساً عملية ليطبقها عند عودته إلى المغرب في مراكش وما حَوَلَيْهَا.

2 ـ سبيله للوصول إلى عامة الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسبيله إلى تكوين الخلايا المناضلة تدريس العلم، وخاصة منه ما يتصل بعلم التوحيد والعقائد على مذهب الأشعري، كما كان يدرس أصول الفقه والحديث. وهذه علوم لم تكن من بضاعة فقهاء المرابطين. وفي هذا الاتجاه العلمي يتحدى الفقهاء الذين كانوا سند الدولة. كانوا يرفضون التأويل كلما

تعلق الأمر ـ بصفات الله ـ ويقبلون ما ورد في القرآن والسنة على ظاهرة، ولذلك كان يكفرهم ويعتبرهم مجسمة.

الثقافة المغربية عموماً، والرسمية خصوصاً، كانت قائمة على الفقه انطلاقاً من عبد الله بن ياسين المرشد الأول للمرابطين. فقد كان فقيهاً يعلم الناس أمور دينهم، ولم تتجاوز ثقافته فقه الفروع. ولذلك غلب الفكر الفقهي على الدولة. والجهاد الذي عرف به يستمده من أصول الفقه. ويوسف بن تاشفين ـ ولم يكن من رجال العلم بقدر ما كان من رجال السياسة والعسكرية ـ كان يجد ضالته في الفقهاء. ولأنه كان صحراوياً بسيطاً ـ يختلف عن خلفه (ابن تومرت) «السوسي» الحاذق الواسع الأفق ـ كان يستميل إليه الفقهاء. ولعله لم يتأثر بعلماء الأندلس، الذين كانوا يمثلون المعرفة المتنوعة، لأن فكرته عن الأندلس كانت مرتبطة بالانحلال الخلقي الإسلامي والسياسي والدفاعي والتخلي عن الوطن. وقد أصبح الفقهاء متمكنين من الدولة. وهذا ما زاد في إثارة خصم الدولة ابن تومرت الذي كان التوحيد بكل تشعباته الفلسفية والمنطقية ـ لا الفقه ـ هو جوهر ثقافته، نضال ابن تومرت الثقافي كمهنة، يأخذ طريقه إلى نضاله السياسي. كتب الكثير عن تمكن الفقهاء من الدولة المرابطية، وبالنسبة لخصمها الأساسي كان ذلك إحدى مقاتلها.

3 ـ هذا الاصطدام مع الفقهاء كان وسيلته ليبلغ بالتحدي مداه باعتبار الفقهاء سند الدولة. ولذلك كان يضيفهم إلى من يثورون ضده في المهدية حينما أعي الوالي بمهاجمته لما يراه منكراً واتخاذه الدين وسيلة للقيام برسالته. وأمام تشنيع خصومه من الفقهاء عليه انتدب الوالي مجموعة من العلماء لمناظرته فانتصر عليهم. وكانت التجربة المهمة في مراكش حيث ضاق رجال الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بهذا التحدي، ومع ذلك لم يكن يرغب في التعامل معه بالسلطة فجمع له مجموعة من الفقهاء ليحاوروه. وهذه سنة كانت متبعة في البلاطات المغربية والأندلسية والإسلامية عموماً، يحاول رجل السلطة أن يفحم خصمه عن طريق المناظرة العلمية.

تتدخل الأسطورة لتعطي للحادث طعم القصص النادرة، فتذكر أن ابن تومرت رأى في مراكش أول ما دخلها أخت الأمير في موكب من الجواري الجميلات السافرات، فرأى أن يغير المنكر فأخذ يضرب دوابهن حتى سقطت الأميرة عن دابتها. وقد زاد ذلك في إغضاب علي بن يوسف، بالإضافة إلى ما نقل عن الرجل من أنه يقول كلاماً سيئاً في الأمير وحكمه فاستشار الأمير مستشاريه فاشاروا عليه بجمع الفقهاء لمناظرته. ولم يكونوا في مستوى علمه باستثناء مالك بن وهيب الذي كانت له مشاركة في علوم الفلسفة والدين. وقد ناظره فتأكد خطورة أفكاره على الدولة ولذلك أشار على الأمير بقتله أو سجنه، فلم يستجب لأنه نفسه تأثر ببعض ما يقول ابن تومرت عن أوضاع المجتمع واكتفى بإخراجه من مراكش.

بخروجه من مراكش إلى سوس (تينمل) تبدأ الرحلة نحو الدولة.

4 ـ وفرة علمه وتأكده من جهل خصومه كانت تدفعه إلى الاستشهاد بكثير من الأحاديث الضعيفة أو المختلقة، وتأويل بعض الأحاديث الصحيحة والآيات القرآنية لهدم صورة الحكم في نظر الخاصة والعامة، وتصويره في صورة من يرعى المنكر ويضطهد المعروف كلما وجد حجة من ذلك كبيع خمر أو سفور نساء أو تبرج صبيان. بالإضافة إلى تتبع الفقهاء الذين ترعاهم الدولة في فتاواهم وما يتحدثون به من أحكام فقهية. ومبادىء عقدية تخالف ما يذهب إليه من تأويلات الأشاعرة.

البيعـــة

المبايعة اتخذها كثير من رؤساء الدول والملوك لربط المبايعين بالولاء والإخلاص للملك، اتباعاً لصنيع النبيّ (ﷺ) حينما كان يبايعه أصحابه على الإيمان بالله وبرسوله، وورد النص عليها في القرآن: **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن أوفى**

بما عاهد عليه الله فسنوفيه أجراً عظيماً﴾ البيعة للنبي ﷺ لعبت دوراً مهماً في ربط المسلمين بالدعوة النبوية، واعتبرها القرآن معاهدة لله. ولذلك فالارتقاء بالمبايعة لغير النبيّ إلى هذه المرتبة ليس مما نصت عليه الآية. ومع ذلك إستعملها ابن تومرت في ربط أصحابه بما يشبه بيعه الصحابة للنبيّ، فقد عاهده ـ كما يقول أحد المؤرخين ـ أهل التحقيق من العارفين به وبايعوه بيعة سرية.

إدعاء الانتساب لبيت النبيّ

استعمل إدعاء الشرف والانتساب إلى سلالة النبيّ ﷺ في التأثير على الجماهير. ومعروف في التاريخ أنه ولد في سوس في قرية «إيجلي أن وأرغن» من قبيلة هرغة إحدى القبائل الصغيرة من مصمودة. وينص بعض المؤرخين على أن قبيلته تعرف بسارغينت والكلمة تعني الشرفاء. فهل تعني شرف النسب أم المجد القبلي؟ ومع ذلك فهو يدعي ـ وكتب ذلك بخطه ـ أنه ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. وهذه نسبة كانت تدعى لفتح الطريق أمام أهداف سياسية أو مصالح اجتماعية أو اقتصادية. وأظن أن هذا الادعاء مشكوك في صحته.

بدأت البيعة إذن سرية، لأن عمله كان في بدايته سنة 501 هـ سرياً. وطبعاً أصبحت علنية بعد أن أصبح يتحدى الدولة ويقدح في رجالها وفي مقدمتهم علي بن يوسف.

وبيعة النبيّ كانت على عبادة الله واتباع نبيه. ولكن بيعة ابن تومرت كانت على الطاعة المطلقة، ولو طلب إلى المبايعين أن يقتلوا آباءهم وأولادهم لفعلوا كما يؤكد ذلك المؤرخون. وكما طلب لأصحابه أن يبايعوه خلع مبايعة علي بن يوسف، وطلب لأصحابه أن يخلعوها عن أعناقهم. وكان بعضهم يعلن ذلك في المساجد. وكما ادعى الشرف والأمامة ادعى العصمة، والعصمة في الإسلام من صفات النبيّ ﷺ.

يدخرها الله ـ وهي بيده ـ لنبيّ يعصمه من أخطاء البشر. ومع ذلك فكثير من الدعاة ـ منهم بعض الفاطميين ـ كانوا يدعون العصمة. وقد ادعاها ابن تومرت ليؤكد أنه لا يخطىء في تعاليمه وأن طاعته كأنما هي طاعة لنبي عصمه الله عن كل خطأ.

والإمام، وهو يشير إلى المدى طبعاً، لا يكون إلا معصوماً من الباطل ومن الضلال ومن الفساد ومن الجور ومن البدع ومن الكذب ومن العمل بالجهل، ومن الظلم والفتن كلها.

وواضح إنه يعرض بهذه الصفات، التي يثبتها لنفسه، يعرض بخصومه الملتمين الذين يصفهم بكل هذه الصفات، بل يخصص بابا خاصاً في «اعز ما يطلب» لهجوهم.

المشكل بالنسبة لمدعي العصمة أنهم: ليسوا جهالاً بجوهر الإسلام الذي يسوي بين البشر فيما يخص تعرضهم للخطأ وارتكاب الذنوب، ثم إنهم يعرفون أن ادعاء العصمة افتيات على مقام النبيّ، مع أن دعوتهم قائمة على الإسلام وتطبيق أحكامه واحترام خصوصيات نبيه. ومع ذلك لا يعتبرون هذا الافتيات مما يقدح في الدعوة التي يقومون بها.

ويزيد بعض مترجميه في تأصيل ادعاء العصمة فيقولون: خصه الله بها. ولكنهم (ابن القطان مثلاً) يفسرون العصمة بمفهوم غير مفهوم عصمة الأنبياء أو بعضهم، فيقولون: عصمه الله من أهل الإسكندرية من غوغاء الإسكندرية حينما أرادوا أن يبطشوا به، لما قام به من أمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فحاولوا قطع طريقه إلى مجلس الطرطوشي. وكذلك عصمه من الغرق حيما أراد أهل المركب التي ركبها في طريقه من الإسكندرية إلى المهدية أن يغرقوه. فقد حاول أن يحارب الخمر التي وجدها وكذلك حاول أن يأمر الركاب بالصلاة وهموا بإلقائه في البحر، أوهم ألقوا به فعلاً. ولكن الرياح كادت

تعصف بالسفينة فنجاهم بدعواته على ما تقول الأسطورة في كثير من الظروف التي عصمه الله فيها من شر خصومه.

الإمـامـة

لقب نفسه بالإمام، وكان أصحابه ومؤرخوه المتعصبون له يلقبونه بالإمام المعصوم، وتأخذ الإمامة مفهومها من المذهب الشيعي. فقد كانت طوائف الشيعة تلقب الأمير بالإمام. ولما بايع أهلالكوفة جعفر الصادق لقبوه بالإمام. وسمى أنصاره بالطائفة الإمامية. ومنهم الإمامية الموسموية الأثنا عشرية الذين نصبوا موسى الكاظم بن جعفر الصادق على أنه الإمام السابع. والإمامية الإسماعيلية الذين اعتبروا الأمام هو إسماعيل بن جعفر الصادق.

والإمام عند الإمامية يكتسب الإمامة بالوراثة عن علي بن أبي طالب. ثم إن الإمام وريث النبيّ عن طريق فاطمة. ويعتقد العلويون أن «الإمامة» تسير في خط الحسين بن علي، والإمامة تعني إلى جانب مفهومها السياسي مفهوم العلم، ويأتي مفهومها السياسي من أن علياً كان أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر، وإذا كانت الإمامة أخت الخلافة (كما يقول ابن خلدون) لأنها تعني إمامة المسلمين في الصلاة والحكم فقد أخذت مفهوماً يضيف إلى مفهوم الخلافة مفهوم إمامة الصلاة ليجمعوا بذلك للإمامة مفهومين: ديني وسياسي. ولذلك اعتبرها فقهاء الشيعة ـ حتى الآن ـ واجباً دينياً كما أن النبوة واجبة. والإمامية الشيعية ـ وخاصة أتباع جعفر الصادق يعتبرون من المبادىء الدينية «التقية» (أي إظهار ما يتسترون عليه من أفكارهم السياسية حذراً من البطش السلطوي) ولذلك يستتر ثم يظهر في زمن ما.

الذين استفادوا من بعد عصر الصراع بين العباسيين والعلويين وكونوا لهم دولة أو دولاً قائمة على المذهب الشيعي وفي مقدمتهم الفاطميون، إتخذوا من «الإمامة» مبدأ دينياً وسياسياً، فصار الأمير عندهم يدعي بالإمام.

هذه الفكرة الشيعية اقتبسها عن الفاطميين آخرون، ومنهم ابن تومرت

الذي لقب نفسه بالإمام بالإضافة إلى صفة المعصوم. والإمامية في معنييها الديني والسياسي كانت مما مهد له الطريق التي سلكها الفاطميون من قبله ليسلكها لتكوين الدولة.

ويؤكد ابن تومرت وجوب (اعتقاد) الإمامة على الكافة، وهي ركن من أركان الدين وعهدة من عهد الشريعة. ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان إلى أن تقوم الساعة. ويزعم أن الأنبياء ـ منذ آدم ثم نوح ـ كلهم كانوا أئمة، ويستدل بآيات قرنت اسمهم بالإمامة. وتستمر الإمامة إلى النبيّ محمد ثم علي وعمر. ثم قامت الفتن إلى جاء زمن المؤيد المنصور... فجاء المهدي في زمان الغربة، ويوصف المهدي بما يجعله المنقذ الأكبر. فهذا ما وعد الله للمهدي وعد الحق الذي لا يخلفه، وطاعته صافية نقية، ولم ير مثل طاعته لا قبل ولا بعد ولا ند له في الورى... ولا تصدر الأشياء إلا عن أمره... فالعلم به واجب والسمع والطاعة له واجب. والسمع له والاقتداء بأفعاله واجب، والرضى بحكمه واجب، والإنقياد لكل ما قضى واجب... وأمره أمر الله ورسوله هو أعلمهم بالله وأقربهم إلى الله، به قامت السماوات والأرض، وبه كشفت الظلمات... ولا يكذب بهذا إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق أو رذل أو نذل لا يؤمن بالله. وأمر المهدي (حتم)، من خالفه يقتل... ثبت بثبوت نصوص الكتاب وقواطع الشرع... إلى آخر هذه الخرافات التي كان يبثها في نفوس «الموحدين» باسم «التوحيد» بالله. رتب كل ذلك في كتاب «أعز ما يطلب».

فهذا هو إمام آخر الزمان. وذلك معنى الإمامة التي فاقت في مفاهيمها كل مفهوم أعتقده الإسماعيلية أو أي مدع من المدعين في تاريخ الإسلام.

ولا ننسى وقع الكلمة «الإمام» في نفوس الجماهير التي تمنح إمام الصلاة منزلة الاحترام والتقدير. وتلجأ إلى في حل مشاكلهم الدينية وحتى الخاصة منها.

وابن تومرت أول من استعمل كلمة الإمام من بين الحكام بالمغرب أو الراغبين في الحكم وحملها هو وأصحابه كل مفاهيمها ومخرقاتها الدينية والسياسية. فكان من السهل أن يحارب خصومه باسم الإمام ولقب المعصوم والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

وفكرة الإمامة عنده فصلها على قياسه، ورغم أن المسلمين منذ الفتنة الكبرى اهتموا بالإمامة كضرورة الحكم بين المسلمين، إلا أنه شرحها بما يفيد اعتبارها أصلا من أصول الإسلام، فألف فيها كتاباً. وعرف معناها بالإتباع والإقتداء والسمع والطاعة والتسليم وامتثال الأمر واجتناب النهي والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير، وهي عمدة الدين وعموده، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة، واعتقادها دين، والعمل بها دين، وإلزامها دين. ولا يكذب بهذا الأمر إلا كافر.

الشيء الذين لم يعالجه ابن تومرت في الإمامة: من ينصب الإمام ومن يعترف به. وهل يجوز لمسلم مهما كان من دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن ينصب نفسه إماماً ثم يصبح الإيمان به واجباً وطاعته واجبة، ولا يكذب به إلا كافر.

واضح البعد السياسي في هذا الإدعاء.

القرآن والحديث

اعتمد أسلوبه في الدعوة قولاً وكتابة على الإسلام. ولذلك لا يكاد يقول مقولة أو يكتب فكرة إلا أيدها بآيات قرآنية وأحاديث ينسبها إلى الرسول. وكثيراً ما تشير الآيات حسب تأويله إلى المقولة والفكرة التي يأتي بها. والأحاديث تكون أحياناً صريحة أو مشيرة إلى ما يقصد إليه، وكان النبيّ قالها وهو يقصده. روى كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة التي يؤيد بها أقواله أو أفعاله، أو يشير بها إلى خصومه بأنهم «بالحديث» «سيأتي أمراء بعده «فمن غشي أبوابهم وصدقهم على كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست

منه، ولا يرد الحوض علي. ومن لم يغش أبوابهم ومن لم يصدقهم على كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد على الحوض». وقد أورد كثير من أصحابه ومؤرخيه عدداً هائلاً من الأحاديث الظاهرة الوضع. ولكنهم لم يكونوا يتحرجون من الاستدلال بأحاديث موضوعه في تأييد الإمام المعصوم، أو هدم من اتخذهم خصومه من المرابطين «المجسمين».

التهديد والوعيد

استعمل التهديد والوعيد مع من عدهم خصومه، سواء منهم سلطات الدولة أو القبائل، والهجو القاذع بكلمات نابية: «إلى الفئة الباغية والشرذمة الطاغية... الذين استذلهم الشيطان وغضب عليهم الرحمن... وجدت أكثركم فاسقين... إن الموحدين إليكم قادمون... بأيديهم سيوف قاطعة، ورماح نافذة، قد تقلد بها الموحدون ليقطعوا بها صولتكم...» وكان يتوجه بالخطاب لعلي بن يوسف في كلمات قاسية متحدية. عندما واجهه لأول مرة في مراكش بالمسجد قال له الوزراء: سلم بالخلافة على الأمير فقال لهم: وأين الأمير؟ إنما أرى جواري منقبات...

ويهجوهم هجواً مقذعاً فيما أملى في «أعز ما يطلب» فيصفهم بالحفاة العراه رعاء الشاء والبهم والجمل، وأنهم جاءوا في آخر الزمان، وأنهم «ملوك» يتطاولون في البنيان ويلدون مع الإماء ويستكثرون من الجواري، صم بكم عن الحق. وليسوا أهلا للأمانة والقيام بأمر الله، يعذبون الناس ويضربونهم بالسياط. ولا يتروع عن وصف نسائهم بأنهن يجمعن شعرهن فوق رؤوسهن (؟) وأنهن كاسيات عاريات ومائلات عن الحق... ويدعي أن الرسول أخبر بصفات الملثمين. ويورد أحاديث يؤولها بما يفيد أن النبيّ كان يعنيهم، وتخلص إلى اتهامهم بالتجسيم والكفر.

فهذه هي سبيله إلى تدعيم دعوته بهدم الدولة ونشر العداوة والبغضاء ضدها.

الغيبيات والأسطورة

كان يستعين بالأساطير والاطلاع على الغيب وتنبيء بموته يوم وفاته والرؤي المنامية وكتابة الرقى «الحرز» كما يفعل الدجالون، يخبر أصحابه بما سيكون فيصمدون ويزدادون إيماناً. تُحكي قصص له في ذلك حدثت في تونس وبجاية وكل المناطق المغربية التي قام فيها بالدعوة. ويغلب على الظن أن بعضها مما انتحله مؤرخوه (البيذق مثلاً) ومن ذلك تنبؤه لعبد المؤمن بن علي بأنه سيكون رجلاً عظيماً والأسلوب الغيبي الذي تعرف عليه به، وثناه عن رحلته في طلب العلم إلى المشرق، وما قرأ عليه من كتاب كان يوجد في الوعاء الأحمر جاء فيه: لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين. . . » قرأ عليه ذلك من كتاب في أولى ليلة تعرف فيها عليه. بهذه الأسطورة تمكن من اقتناص خليفة، وأعظم رجل قامت على جهوده إمبراطورية الموحدين.

ثورة إنقلابية سياسية

من كل هذه الأبعاد التي شرحتها أكاد أجزم بأن المهدي بن تومرت لم يكن مصلحاً دينياً بقدر ما كان ثائراً سياسياً. فحالة الإسلام والمسلمين في المغرب ـ كما في المشرق ـ لم تكن مستعصية على الهداية، ولم تكن من الفساد بحيث يستحيل إصلاحها إلا بتغيير النظام وهدم دولة وإقامة أخرى. فرغم أن يوسف بن تاشفين شغل نفسه بالسياسة والحرب، فلم يكن ينسى الأساس الإصلاحي الذي قامت عليه دولة المرابطين، ابتداء من دعوة عبد الله بن ياسين الإصلاحية التي قامت على أساس تقويم الانحراف العقدي والأخلاقي.

ورغم ما يزعمه المؤرخون الذين اعتمدوا على أقوال ابن تومرت نفسه ومؤرخي الموحدين ـ وبعضهم من الأتباع المقربين لابن تومرت وعبد المؤمن بن علي ـ فإن المجتمع المغربي لم يكن من الفساد مما يتطلب الثورة الإنقلابية التي قام بها المهدي.

ثم إن الدعوة المهدوية جاءت بكثير من الأساطير والخرافات والادعاءات التي كانت تناقض جوهر الدين، وتقدس الشخصية، وترقى بشخصه خاصة إلى مقام النبيين. ويكفي أن نقرأ في أول خطبة له التي عقدت له البيعة من أصحابه ـ كما عقدت للنبي ﷺ ـ من أصحابه، قوله: وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً. يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل، وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى، وزمنه آخر الزمان، واسمه اسم للنبيّ عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبيّ صل الله تعالى وملائكته عليه وسلم. وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان...».

أمثل هذا الادعاء أقرب إلى الإسلام من الوضعية الإسلامية والاجتماعية التي كان عليها المجتمع؟

ومن المؤكد أن المؤرخين يبالغون في تصوير «الفساد الاجتماعي. فقصة ابنة يوسف بن تاشفين وهي تسير في موكب بشوارع مراكش متبرجة في منظر يثير الشعور الديني، من الأساطير المختلقة، في عصر كانت البداوة الصحراوية ما تزال متمكنة منه. فيوسف بن تاشفين وابنه علي ما كانا ليسمحا بتبرج بنات العائلة في شوارع العاصمة. وموكب الغلمان في الحفلات الدينية والتظاهر ببيع الخمور في الشوارع، وغير ذلك مما يشير إلى فساد اجتماعي خطير بعيد عن الطبيعة البدوية الصحراوية، كل تلك أقاصيص أعتقد أن المؤرخين المنتمين للدولة الموحدية ابتكروها لتدعيم مقولة المهدي المنتظر.

فهذه الدعوة كانت إنقلابية أسندت نفسها بمذهب إسلامي (الأشعري) ضد الفقه المالكي. من هذا المنطلق يجب أن نقيم التحول الانقلابي الذي حدث في منتصف المائة الخامسة الهجرية.

وسياسياً يمكن أن نقول إن الدولة المرابطية قد أدت مهمتها واستنفدت الهدف منها. كان يجب أن تتخلى. ولعلها كانت ستتخلى لو لم يستعجلها ابن تومرت.

هذا ناتج عن شخصية البطل المؤسس «يوسف». شخصيته وأعماله وفتوحاته كانت أقوى من أن ترثها شخصية أخرى، ولو كانت في مثل مقام علي بن يوسف وصلاحه وتقواه. الدولة أدت مهمتها في الأندلس. ولو استمرت، وهي تنحدر في مسيرة الضعف السياسي والعسكري والإداري لما استطاعت أن تصمد في وجه الحملات الصليبية من شمال الأندلس، ولما تكونت الوحدة الكبرى التي حققها الموحدون.

وتلك طبيعة الدول في العصر الذي نؤرخه. قليلة هي الدول التي بقيت على عمر دولة المرابطين. الحكم كان يعتمد على قوة الشخصية وشخصية قوية كشخصية يوسف وشخصية عبد المؤمن لا تتكرر. ولذلك تبدأ الدولة في الانهيار إذا لم تنهر بضعف فقد تنهار بثورة أو انقلاب.

إنتقادنا للأساليب والغيبيات والأساطير التي استخدمها ابن تومرت في هدم دولة وإقامة دولة، لا ينعكس على الجهود التي بذلها، وخاصة خليفته عبد المؤمن ـ كما سنرى ـ في تجديد نظام الحكم بالغرب الإسلامي.

دولة المرابطين جاءت في وقتها وذهبت في وقتها، ولو باستعجال. ودولة الموحدين جاءت في الوقت المناسب لتتسلم الراية من دولة رائدة لا يقدح في ريادتها هجو ابن تومرت والقائمون على دولته.

طريق ابن تومرت إلى الدولة

إذا كان عبد الله بن ياسين لم يفكر في الدولة منذ البداية، فإن ابن تومرت فكر ـ قطعاً ـ في تكوين دولة على أنقاض الدولة المرابطية، وهي في أوج مجدها. والإيحاء السياسي أتى بعضه من تكوينه أمبراطورية المرابطين وكل الظروف التي شرحناها في النقط السابقة ـ من ادعاء المهدي النسب الفاطمي النبوي، حتى مهاجمة الدولة ورئيسها علي بن يوسف بالكلام المقذع، وادعاء كفر المرابطين المجسمين وغير ذلك مما يتمثل في مسيرته أثناء هجرته إلى المشرق، وأثناء تجوله في أقطار المغرب العربي من الإسكندرية حتى فاس ومراكش، كل ذلك يؤكد أن الرجل كان يعد نفسه ليكون رئيس دولة. ثم ادعاؤه المهدوية والعصمة والإمامة، وتكوين خلايا المناصرين (العشرة والخمسين... الخ (بعضها سرية وبعضها علنية)، كل ذلك كان استعداداً لتكوين دولة الموحدين لتخلف المرابطين.

كان الأمر بالنسبة لابن تومرت انقلاباً يستولي فيه على العاصمة (مراكش) ويهزم الامبراطور (علي بن يوسف) وعند ذلك تصبح الامبراطورية كلها بين يديه (بحروب جزئية لا ترقى إلى قوة الحروب التي خاضها يوسف بن تاشفين ومن قبله من المرابطين).

كل الذين أقاموا الدول من عدم لا يكاد التاريخ يعرف الكثير عن بداياتهم الأولى، إلا ما استنتج من مسيرتهم، أو ما قد تشير إليه نباهة ذكرهم. ولذلك

لا نكاد نعرف الكثير عن نشأته ـ وليس ذلك مهماً إلا في تحديد بداية فكرة الانقلاب ـ إلا ما رشح للمؤرخين (ابن خلدون مثلاً) من أن أهل بيت ابن تومرت أهل نسك ورباط، وقد شب قارئاً محباً للعلم، ويبدأ حديث التاريخ عن رحلته المبكرة في طلب العلم وهو في سن الثامنة عشرة (ولد في أوائل السبعينيات من المائة الرابعة للهجرة) لم يفكر إذن في تكوين دولة قبل الهجرة لصغر سنه أولاً، ولأنه كان ما يزال بعيداً عن الأفكار العلمية «الانقلابية» (أفكار التوحيد بكل مفاهيمها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلها ذات أبعاد انقلابية).

فكرة الدولة إذن بدأت تراوده وهو في الإسكندرية، وظلت تراودة في رحلته الطويلة وتوقفه في العواصم حتى مدينة فاس. وقد كان يطرد من كل هذه العواصم التي ينصب نفسه فيها آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر كما قدمنا. لماذا لم يفكر في الاكتفاء بسلطة تضمن له الهدف المحدود الذي رسمه لنفسه وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

من المؤكد أنه كان يضع عينه على المغرب. على الامبراطورية الواسعة التي أسسها يوسف بن تاشفين. فهو لا يكتفي بالنشاط الإسلامي في التعليم والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما يؤهل نفسه ـ بالتدريب على المواجهات التي خاضها ضد الحكم وإثارة المجتمع، ثم اقتناص المساعدين (وقصة تعرفه على عبد المؤمن بن علي وإقناعه باصطحابه بدلاً من مواصلة مسيرته لطلب العلم، وكذلك أصطحابه لعبد الواحد من «صلالة» تؤكد أنه يضمر شيئاً آخر غير التعليم والتوجيه).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الخطوة الأولى كانت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قد يكون هذا السلوك من صفات علماء الدين المتشددين، فلا يوحي بسلطة ولا يدفع إلى رغبة في انقلاب. وقد قام به سابقوه: عبد الله بن ياسين

مثلاً، ورغم أن هذا الداعية كان يعاقب المنحرفين في الدين إلى درجة العنف، غير أن الأمر لم يبلغ مبلغ ابن تومرت الذي كان يشتد إلى درجة إثارة الاضطرابات في الشارع، بمقدار ما يدعو إلى تعلق بعض الناس به، لأنه يعبر بذلك عن مكنون أسرارهم. ولهذا اتخذ ابن تومرت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لإثارة المجتمع والسلطة. ويكون سعيداً بأن تطرده السلطة في كل مدينة أو قرية أقام بها، بذلك يلفت أنظار السلطة من جهة وأنظار أتباعه باعتباره مضطهداً. من المؤكد أن الاستمرار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهذه الطريقة المثيرة، إنما كان يريد منه إحراج الدولة ـ بالأخص في مراكز نفوذها: فاس، مراكش. . . ومواجهتها بالتحدي، ثم بإظهارها في مظهر حامي المنكر ومعارض المعروف.

مناظرة الفقهاء

الخطوة الثانية كانت مناظرة الفقهاء وقد قدمنا نتائجها عندما ناظره علماء فاس ثم علماء مراكش فانتصر عليهم جميعاً.

ولكن سذاجة علي بن يوسف السياسية أودت بالدولة وتركت لابن تومرت السلطة ليطور مشروعه.

ما أظن أن بعد نظر يوسف وحزمه وشجاعته في اتخاذ القرار كانت ستسمح لابن تومرت بأن يهاجمه، أو يهاجم الحكم على عهده، أو يثير المجتمع على نحو ما فعل في عهد علي بن يوسف. ولكن من حسن حظ ابن تومرت أن دعوته جاءت متأخرة بعد عقد من الزمان.

كانت الخطوة الثانية أكثر جرأة. فقد انتقل ابن تومرت من مواجهة الشارع إلى مواجهة الملك مباشرة، وقد أدرك مناظروه، ومنهم ابن وهيب، أن الرجل يستهدف السلطة والانقلاب على الدولة.

الخطوة الثالثة كانت الحملة الكلامية لإحداث شرخ في المجتمع المدني والسياسي، وغزو الجماهير نفسياً ودينياً. ومنذ عاد ابن تومرت إلى المغرب وهو يهاجم الأمير والدولة والنظام. وتنامي هذا الهجوم المقذع بعد المناظرة التي برز فيها مع العلماء في فاس أولاً ثم في مراكش ثم في أغمات التي اعتصم بها. من هنا كان منطلقه. كفرهم ونعتهم بالافتراء على الله، وأنهم يحاولون تبديل الكلام وتحريف القول بالزور والبهتان ونعتهم بالفتانين في الدين «وفتنة الدين أكبر، إذ لا فتنة أعظم من الارتداد والتبديل والتغيير. وسماهم أهل الباطل في رأيهم وأفعالهم وسماهم المجسمين. وقال: وطاعتهم حرام لأنهم كفار ومنافقون ومتبعون الهوى ومعتدون ومفسون وجاهلون. ولم يتورع عن رواية أحاديث أغلبها موضوع ويعلن ـ بافتراء على النبيّ ﷺ ـ أنه يلعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال. فقد شملتهم اللعنة جميعاً، ومن كثر سواد قوم فهو منهم. ولم يتورع عن الاستدلال بآيات قرآنية توحي بأنها نزلت في المرابطين: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار «ولا تطع الكافرين والمنافقين»

هكذا يوظف الدين والقرآن والحديث فيحرب سياسية أراد منها أن ينتصر علي دولة نشرت الإسلام ووقفت في وجه الغزو النصراني للأندلس والمغرب وحدت البلاد بعد أن كانت ممزقة، في كل ركن منها دولة.

وكان يعرف أن الجماهير المغمورة في محيط من الجهل تنخدع لكلامه، كانوا ينخدعون بأن قتال هؤلاء من صميم الإسلام، والمقتولون شهداء عند ربهم يرزقون. وهو نوع من التدليس إذا جاز في السياسة فلا يجوز استعمال القرآن والحديث ـ في عرف رجل دين وداعية إصلاح ديني ـ في استغفال الناس وتجنيدهم. أغرب من استغفال المغفلين أن بعض المتعلمين والمثقفين كانوا يسايرونه يذكر منهم: البشيرالو نشريسي العالم الذي مثل معه تمثيلية الجاهل

المغفل فتحول بدعواته حافظاً للقرآن ومن أكبر العلماء. ومنهم العشرة كلهم مختارون من العلماء وفي مقدمتهم عبد المؤمن بن علي الذي فهم أسرار الدعوة وأسبابها. ومنهم ابن القطان وإسماعيل ايكيك وأبو بكر الصنهاجي (البيذق) وابن صاحب الصلاة مؤلف المن بالإمامة، وغيرهم كثير ممن أصبحوا رجال الدولة والمبشرين بأفكارها ومؤرخي أخبارها.

من المؤكد أن هؤلاء وغيرهم كثير لم يكونوا من الغفلة بحيث يقعون تحت نفوذه ودجله. ولكنهم [illegible] متآمرون مع رجل يدركون أنه رجل المستقبل. وقضية استغلال مثل هؤلاء تضع إشكالاً يحله ابن تومرت نفسه، ولم يكن يترك وسيلة إلا استغلها حتى وسيلة الإرهاب والتهديد بالقتل، ومن يجرؤ على مخالفته، ولو كان من أهل العلم والفطنة والذكاء.

وتلك إحدى الوسائل التي انتصر بها على خصومه.

خلع البيعة وبداية الحرب

الخطوة الرابعة كانت تجميع القوة وبداية الحروب مع المرابطين. بدأ هذه المرحلة بإعلان خلع بيعة الأمير علي بن يوسف ودعا أصحابه إلى التحلل من بيعته. وكان قد سبقت لهم مبايعته. ولذلك لم يكن هنالك إمام للمسلمين إلا ابن تومرت.

كان من خططه العسكرية ألا يبدأ خصومه بالحرب وهو في ديارهم، فارتحل عن مراكش وأغمات حتى حل بهرغة وهي من القبائل التي نشأ منها ثم قرية تينمل. وكان سكانها من أكثر القبائل تعصباً له ودفاعاً عن أفكاره. وقد بدأ يجمع حوله المناضلين الجدد من الطلبة يتابعون دروسه في التوحيد. ثُمَّ يجند بعضهم للقتال. كان يغزو القبائل القريبة فانتصر على أغلبها ودانت له بالطاعة حتى كون في المنطقة حشداً كبيراً من القبائل المقاتلة، جندها لقتال المجسمين. وانتصر في معارك ضد جيش المرابطين في سوس؛ وانهزم في بعضها. ورغم الخسائر البشرية التي مني بها في غَزَوَاتِه فقد كان يعوضها

بالقبائل التي يغزوها ويجندها في صفه. حينما شعر بقوته بدأ يهاجم مراكش، ولكن جيوشه انهزمت في معركة البحيرة. وبذلك ظلت الحروب خارج العاصمة في الجنوب.

كانت حرب استنزاف شغلت المرابطين وانهكت قوتهم في الجنوب. ولم يتمكن ابن تومرت من تحقيق هدفه الأكبر في حياته، فقد مات في 25 رمضان سنة 524 غشت 1130 م.

أهدف ثلاثة للدولة:

وإذا كان قد توفي بعد عقد من السنين قضاها في الكفاح المستمر دون أن يحقق هدف الدولة، فقد حقق ثلاثة أهداف أساسية في طريق الدولة:

أولها: أنه شل حركة الدولة المرابطية التي شغل أمرها علي بن يوسف بالجهاد للحفاظ على المناطق التي استرجعها والده يوسف بالأندلس. وإذا كان سوء الحظ قد وضع في طريق علي كثيراً من المشاكل العسكرية منها: استيلاء النصارى على سرقسطة في سنة 512 وقلعة أيوب سنة 513، فإن ثورة ابن تومرت كانت في بدايتها. فانشغال علي بالحرب الداخلية، بعد ذلك جعل من الصعب استراجاع هذين المركزين المهمين من شرق الأندلس. ومع ذلك فقد رحل علي ابن يوسف إلى الأندلس في جوازه الثاني فحقق انتصارات مهمة في غرب الأندلس.

ومن هذه الحروب الداخلية التي أزعجت حكم علي بن يوسف تمرد ابن أخيه يحي بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين.

وحينما جاءت النكبة الثالثة، ثورة ابن تومرت، زعزعت أركان الدولة وأصابت علي بن يوسف بإحباط كبير.

ثانيها: لم يمت ابن تومرت حتى كون مجموعة من أطر الدولة عسكرياً وأيديولوجيا وسياسياً. وفي مقدمتهم عبد المؤمن بن علي الذي اختاره بنفسه، وهو في طريقه لطلب العلم. منذ ذلك وهو يكافح كقائد عسكري، خاض كثيراً

من المعارك التي انتصر في بعضها، وانهزم في أخرى، ولكنه كان اليد اليمنى لابن تومرت، كان يقدمه ويشعر أصحابه بأنه خليفته.

موت ابن تومرت لم تحدث خللاً في النظام فكان الخليفة حاضراً لخلافة القائد.

ثالثها: أنه ترك أساس الدولة قائماً، ليس فقط بالأرض التي احتلها، والقبائل التي ضمها والانتصارات العسكرية التي حققها، ولكن كذلك بالمبادىء الصارمة التي اعتنقها الأنصار الموحدون، والذين كانوا على استعداد ليحاربوا في سبيلها ويموتوا دونها. ثم بفكرة القضاء على الكفرة المجسمين (المرابطين) الذين خلع الموحدون إمامتهم، وعقدوا الإمامة لابن تومرت. وكان من الطبيعي أن تنتقل إلى خليفته من بعده.

إذا كان عبد المؤمن بن علي هو مؤسس الدولة، فإن المؤسس الحقيقي هو ابن تومرت، الذي قاد نضالاً مريراً طيلة عشر سنوات. وكانت هي الفترة الصعبة التي قطعها الموحدون في طريقهم إلى بناء الدولة الموحدية على أنقاض الدولة المرابطية.

بين مُؤَسِسَيْنِ للامبراطورية

- ربما كان تاريخ المغرب «العربي» أكثر تواريخ العالم الذي صنعه الأشخاص. ولذلك لا تكاد تجد في كتب التاريخ إلا صراع الأشخاص. والأمر لا يختص بتاريخ المغرب العربي، ولكن معظم الدول الكبرى في العصور الوسطى حتى العصر الحديث لعبت الشخصية دوراً كبيراً في بناء الدولة.

قلما تجد صراع الأفكار، إلا حينما يتدخل الدين إلى حدما أو تتدخل السياسة «السياسوية» وليس سياسة التغيير والبناء، أو تتدخل الإيديولوجية.

ومع بعض هؤلاء الأشخاص الذين صنعوا التاريخ نعيش في تناقضات ناتجة عن تناقض الشخصية، بما يَعْتمل في نفسها، وما يدفع بها من طموح.

وأكثر الذين صنعوا التاريخ كان يدفع بهم الطموح ليجعل شخصيتهم سوية أو مهزوزة. وأكثرهم من ذوي الشخصيات المهزوزة. ولو كانت شخصيتهم سوية لما صنعوا شيئاً من التاريخ.

هذا الاستواء أو الاهتزاز في الشخصية هو الذي يجب أن نعنى به في دراسة التاريخ، لأن الاستواء والاهتزاز كان لهما دور كبير في سير الأحداث وفي صناعة التاريخ. وتاريخ الشخصيات تعرض هو الآخر للتزيف من الذين نصبوا أنفسهم أو نصبوا لكتابته، مع أو ضد، حتى اختفت الحقيقة وربما ماتت هي الأخرى كما مات التاريخ.

وأذكر بما قلته عن دور الشخصية في بناء هذه الامبراطورية أو الدول والدويلات. ولذلك نجد هذه الشخصيات كمعالم في الطريق تؤهل واقعاً أو تسير بالبلاد نحو واقع آخر قد يكون غير ذلك الذي أصلته. دعاني إلى المقارنة بين المؤسسين: ـ يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي ـ ما يسجله التاريخ من تشابه في النشأة شكلياً، ومقاربات ومفارقات في المسيرة، واختلاف في طبيعة الشخصيتين رغم بعض التشابه.

وتاريخ المغرب السياسي في العهد الإسلامي يقدم نماذج من مراحل الصعود والنزول: فدول تتفوق إلى درجة المثالية في قيام الدولة وسيادتها وإدارتها، حتى ليصبح المغرب أكبر امبراطورية ناجحة بين الامبراطوريات و«الخلافات». ودول تتنازل حتى لا تكاد تحكم غير منطقة منعزلة، تتنازعها دول أو دويلات صغيرة مماثلة حتى تقضي أحداهما، أو احداها، على الأخرى أو الأخريات.

وهذا ما يدفع إلى تقسيم هذا التاريخ إلى عصر الدويلات وعصر الدول، وعصر الإمبراطورية. نفس الشيء بالنسبة للحاكمين الملوك، بعضهم لا يكاد يحكم إلا المدينة التي أعلن نفسه ملكاً فيها، وأحياناً لا يكاد يحكم غير أيام أو شهور. وبعضهم يعزلون أو يقتلون واحداً إثر آخر، وبعضهم يحكم أكثر من

نصف قرون أو ثلثه. ينظم فيه الدولة ويسيطر على مقدراتها، ويقضي على خصومه، ولو كانوا من أقرب المقربين إليه، بعضهم يسيطر بالسلطة وبعضهم يسيطر بالدين أو بكليهما، وبعضهم يسيطر بالقمع والعنف والصرامة، وبعضهم يسيطر باستغلال الجماهير باسم الدين أو تحت تأثير الأسطورة. وسنرى في هذه المقارنة نموذجين من الرجال الذين بنوا التاريخ يتفقان، ويختلفان في محاسنه ومباذله، وكل منهما حكم على طريقته فأنتجا الدولة الإمبراطورية.

كل منهما كان منشيء إمبراطورية واسعة لم تكن ظروف المغرب السياسية تبشر بها، ولم تكن لتساعد عليها لولا شخصية المؤسسين، أو بالأخرى لولا شخصية المؤسس الأول يوسف بن تاشفين الذي حكم امبراطورية من جنوب الصحراء حتى شمال الأندلس، وحتى الجزائر.

يتفق الرجلان ويختلفان في كثير من عوامل النشأة. ويجتمع التاريخ والأسطورة في تقديم صورة كل منهما وخاصة في البداية.

أثر ابن ياسين في يوسف

التاريخ يقدم لنا شخصية اسمها عبد الله بن ياسين: فقيهاً مشتدداً في الدين يبدأ في تعليم الناس أمر دينهم بمنطقة من الصحراء، ولتشدده يطردونه فيميل إلى العزلة والعبادة في جزيرة وسط نهر، قد يكون نهر السينغال مع مُرِيدِيهِ. ولم يكن اعتزال راهب متبتل، ولكنه اعتزال داعية ينضم إليه الذين يتأثرون بدعوته.

كعادة الدعاة لا يأتون من فراغ يقول التاريخ:

1 ـ إن عبد الله بن ياسين كان قد زار المغرب كله والأندلس وتعلم فيها وتعرف على المغرب من شماله إلى جنوبه.

2 ـ أن الزناتيين كانوا يسيطرون على معظم أنحاء المغرب وهو ـ الصنهاجي ـ لا الجزولي ـ لم يقبل أن يعيش الصنهاجيون تحت سيطرتهم.

وإذا اجتمع له الفقه والفكر والذكاء والفكر السياسي واليأس من أن يهدي قوماً لا يقبلون أن يتزوجوا أربعاً فقط، وهم يدعون الإسلام، إذا اجتمع له كل ذلك لا بد أن يفكر في التغيير بالسلطة ما لم يستطع أن يغيره بالقرآن، هكذا يتوق فكر رجل على هذا المستوى إلى محاربة سيطرة الزناتيين، فيَنْتَدِب لذلك رجلين من أتباعه هما يحيى وأبو بكر ابني عمر ويجد في يحيى - والأمر ليس صدفة - الرجل الذي يفكر سياسياً وليس دينياً فحسب، الرجل الذي كان يفكر قبلياً يرغب في أن يرد السلطة للصنهاجيين بديلاً للزناتيين.

القضية إذن تبدأ بتعليم مبادىء الدين، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنتهي بمعارك عسكرية لاحتلال جنوب المغرب، درعة وسجلماسة وسوس. أبو بكر بن عمر بدأ المعركة بعد وفاة أخيه يحيى. ويظهر على الساحة مساعده وابن عمه يوسف بن تاشفين.

ونبدأ مسيرة المرابطين بعد أن استبد يوسف بالأمر في قصة رومانسية وسياسية يمكن أن تكون الأسطورة قد مازجت فيها التاريخ.

أثر المهدي في عبد المؤمن.

يسير بنا التاريخ نحو سبعين سنة ميلادية ليجد المغرب نفسه أمام مؤسس آخر هو عبد المؤمن بن علي. قد يكون بدأ حياته العملية قبل السنة التي يذكرها التاريخ وهي 1139 م أي يوم مات المهدي بن تومرت سنة 524 هـ ولم تعلن وفاته إلا بعد خمس سنوات أي سنة 529. في بعض الروايات أو 3 سنوات فقط في بعضها.

المهم أن هذا المؤسس الجديد تربى سياسياً تحت سيطرة فكر المهدي ابن تومرت مثل ما تربى يوسف تحت سيطرة فكرة عبد الله بن ياسين. المقابلة بين الأستاذين تحتاج إلى عرض آخر. فبينهما من الاتصال فكرياً قدر ما بينهما من الانفصال. وهذا الاتصال والانفصال ينطبع على تلميذيهما يوسف وعبد المؤمن. وعلى مفهومهما للدين وللسلطة.

عبد المؤمن لم يصل إلى الحكم عن طريق متدرج على نحو ما وصل يوسف. بل إن الأسطورة تحدثنا أن المهدي بن تومرت إلتقطه ـ وهو بعد فتى ـ خرج من مدينته «أجراً» قرب تلمسان ليذهب إلى الشرق فيطلب العلم أو الحج (وهذه مزية لم يعرفها يوسف) وتوقف عند قرية ملالة فالتقى بالمهدى فصرفه عن علم المشرق إلى علم المغرب.

وتبدأ حياة عبد المؤمن تلميذاً على يد الشيخ حتى رشحه لخلافته، فكان بين بضعة رجال من جماعة العشرة (على غرار الجماعة المبشرين بالجنة) وحياته تبدأ بالتربية والتوجيه والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ذلك يختلف إلى حد ما عن يوسف بن تاشفين الذي ما نظن أن الظروف مكنته ليحظى بهذه التربية على يد عبد الله بن ياسين، كما حظي بها يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر. ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المهدي وتلميذه عبد المؤمن كان ينصب في الغالب على «منكر» للمرابطين وتاشفين بن علي بن يوسف بالذات. وكان رجلاً سياسياً أكثر منه دينياً فقيهاً سياسياً وقد جمع المهدي جميع صفات الكفر والفسق والتجسيم وكل المنكرات ليلصقها بالمرابطين، حتى جسم المنكر فيهم. وجعل قِتَالهم واجباً على كل مسلم. وانتقل هذا البغض الخطير نفسياً وأخلاقياً لعبد المؤمن. ولذلك عندما بدأ حركته في المغرب حصر المنكر في الحكم الزائل، وبالتالي «المعروف» في الوصول إلى الحكم المؤكد. من هنا نرى أن فكر عبد المؤمن قد اتجه منذ البداية إلى السلطة بترشيح شيخه أولاً، وبحصر المعروف في القضاء على دولة لإقامة دولة مكانها.

بداية فكرة الدولة عند يوسف

يوسف كان واضحاً. كان قائداً عسكرياً. عمل تحت إمرة يحيى وأبي بكر لنشر الإسلام والقضاء على الوثنية في إفريقيا والصحراء وجنوب المغرب. ولم يكن هدفه يومئذ القضاء على دولة لصالح دولة يقيمها. فهو يفكر في إقامة

دولة على فضاء قبلي واسع، دان لعبد الله بن ياسين بالطاعة بعد حروب، وطوعهم (القبائل) يحيى وأبو بكر بمساعدة يوسف. وكان عليه أن يقطف الثمرة. وبدأت فكرة الدولة تختمر في ذهنه عندما بدأ التفكير في إنشاء مدينة مراكش باجتهاد من أبي بكر بن عمر. العاصمة توحي بالدولة.

يقوم يوسف بن تاشفين بانقلاب أبيض لصالحه، ضد ابن عمه أبي بكر بن عمر. فقد تركه ليعنى بالمغرب شمال مراكش، وعاد هو إلى الجنوب ليقمع تمرداً قبلياً، وتخلى له عن زوجته الجميلة، بعد أن طلقها، السيدة زينب النفزاوية. وكانت صاحبة الرأي في هذا الانقلاب، فيما تقول الأسطورة، وصاحبة السعد ليوسف. ويوسف كان قائداً عسكرياً منتصراً في المعارك التي خاضها مع ابن عمه. ومن السهل عليه أن يفكر في الدولة، وهو لا يجد أمامه دولة يعتد بها على الأقل في المغرب الأقصى بعد أن انتهت دولة الأدارسة ودولة زيري بن عطية، وبقي المغرب الأقصى نهبا للفوضى. عبقرية خلاقة في الفكر السياسي، وبالأخص في التفكير في دولة موحِّدة للمغرب من شماله حتى نهر السينغال. ولم يكن التفكير خيالياً بمقدار ما كان واقعياً.

ومن هنا نجد أن يوسف خطط لعبد المؤمن. ربما لم تكن الفكرة بعيدة عن خيال ابن تومرت، وقد تجول في المغرب قادماً من تونس حتى الجزائر ثم المغرب شماله وجنوبه. ولكن فكرة دولة ـ إمبراطورية هي بنت يوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن إنما سار على الدرب ليرث دولة بدأت تنهار، وأجهز عليها ابن تومرت بحمالته له المتكررة، ثم نفذ الإجهاز عبد المؤمن بن علي.

يوسف بن تاشفين هيأت له الأقدار إنقاذ الأندلس، حينما دعاه إلى ذلك ملوك الطوائف رغم أنه تردد. ورغم أنه فكر وتفكير رجل عسكري يجعله يغامر دون أن يطمئن إلى خلفية الجيش في بوابة المغرب إلى الأندلس، وهي سبتة. ولذلك لم يغادر المغرب رغم الإلحاح حتى احتل سبتة واطمأن على نفوذ المرابطين فيها، شأن القائد العسكري الذي يخطط إستراتيجية الحرب،

رغم ذلك فقد كان مجازه إلى الأندلس فريداً في تاريخ المغرب بعد الفتح على يد طارق. والفكرة الثانية الفريدة هي أنه ضم الأندلس إلى الإمبراطورية المغربية. وأنهى عهد كثير من ملوك الطوائف ودخلت الأندلس في نضال جديد وجدي ضد للقشتاليين وحلفائهم.

هذه مبادرة لم يكن مثيلها من نصيب عبد المؤمن بن علي.

غير أن الظروف المضطربة إلى سببها هجوم الموحدين على المرابطين واشتغال علي بن يوسف بمقاومتهم أضعف وضعهم في الأندلس وعادت إلى شبيه بما كانت عليه أيام ملوك الطوائف. وبدأ الأندلسيون يطردون ولاة المرابطين.

ظروف سياسة لصالح عبد المؤمن

ظروف داخلية هذه المرة ـ وليس هجوم النصرانية ـ هيأت لعبد المؤمن أن يوسع إمبراطوريته. ووجد أحد قواده الطريق سهلاً فعبر إلى الأندلس ليستولي على الشواطىء الجنوبية، ولينتقل عبد المؤمن إلى جبل طارق يكتفي به عن الجهاد، كما فعل يوسف. وبنى القصور وجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء.

بطولة يوسف وعمله المثالي في سبيل الإسلام لا يوازيه بناء القصور في جبل طارق وتملق الشعراء بمدح الخليفة والإنعام على بعضهم على نحو ما كان يفعل الملوك المترفهون.

ومع ذلك فقد أبلى عبد المؤمن أبلى بلاء حسناً في الجهاد. إذا كان يوسف قد خاض معركة الزلاقة فأنقذ بها الأندلس، فإن عبد المؤمن قد خاض معركة تونس والمهدية وأنقذ إفريقيا (تونس) من سلطان نصارى صقلية، وأعاد إليها سلطة المسلمين. ثم إن فتوحات جيشه في الأندلس بعد ذلك، وتطهير مدنها الكبرى لبلة وإشبيلية وبطليوس، وتخليصها من حكام متخاذلين، وبعضهم كان يحكم باسم المرابطين. كل ذلك أكمل عناصر الإمبراطورية

الكبرى من حدود طرابلس الشرقية حتى السوس الأقصى، ومن شمال الأندلس حتى غرب المغرب.

كل من الرجلين يوسف وعبد المؤمن أسهم في تكوين هذه الإمبراطورية الكبرى. ولم يكن هناك من سبيل إلى تأكيد الإسلام الصحيح من جهة العقيدة وحماية بلاد الإسلام من النصرانية في الأندلس وصقلية، إلا تكوين الإمبراطورية، بالرغم مما استعمل القائدان في سبيل ذلك من قمع وعنف وقتل.

ظروف بلاد المغرب الجغرافية والسياسية كانت تجعلها بين أمرين لا ثالث لهما: إما إمبراطورية قوية تقف في وجه الزحف النصراني، كما تقف في وجه التمزق الداخلي بين الإمارات والثورات والفوضى، وإما نهاية هذه البلاد التي كانت تنخرها القبلية والطموح الشخصي، كما تنخرها المجاعة أحياناً والسلب والنهب.

هذه الظاهرة تكاد تكون حتمية في تاريخ المغرب الكبير الذي يحتاج إلى حكم قوي منظم، وفي هذا العصر يجب أن يكون قوياً ومنظماً ديمقراطياً وعادلاً مستقيماً، وإما أن تكون الفوضى التي عرفتها الجزائر رغم حكم القوة والجيش، عرفتها بعض فترات التاريخ، التاريخ لم يكن يخطىء. فلم ينقذ المغرب الكبير إلا المرابطون على يد يوسف بن تاشفين مدعماً بتعاليم الدين التي حملها عبد الله بن ياسين، وتركها في الفقهاء الذين منحوا الإمبراطورية طابعاً علمياً رغم جموده، وإلا عبد المؤمن بن علي مسلحاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأفكار المهدي بن تومرت المتطرفة التي اعتمدت على الأصول في الشريعة ونبذ الفروع من جهة، كما اعتمدت على الخرافة والأسطورة للتحكم في عقول الجماهير. وقد أتقن المهدي دوره السياسي بالاعتماد على تكفير وتمجيس خصومه المرابطين، وكانت تلك لغة عبد المؤمن بن علي في بداية حياته السياسية، حتى خلص للسياسة وخلصت له،

فنسي تعاليم المهدي حتى قتَل أخويه، ونسى تعاليم «أعز ما يطلب» والتنظيم الجماعي إلى أهل العشرة وأهل الخمسين. . . فقد أصبح المغرب وإفريقيا والأندلس كلها تحت إمرته. نفس الشيء نجده عند يوسف بن تاشفين الذي لم يبق له من تعاليم عبد الله بن ياسين إلا الجهاد في سبيل الله. وقد كان كثير الإخلاص لهذا الجهاد. وبرهن على ذلك بقيادته لمعركة الزلاقة بنفسه. وهي المعركة التي لم يخض مثيلاً لها عبد المؤمن بن علي بنفسه.

الفروق الفكرية بين المؤسسين.

والفروق الفكرية واضحة كذلك بين الرجلين. فيوسف عسكري بالتربية والمجاهدة والجهاد المستمر، ولذلك فقد كان ـ فيما يبدو ـ بعيداً عن المناقشة العلمية، وكان يكتفي بالعلماء البسطاء الذين يعلمون الناس أمور دينهم إمتداداً من الرسالة التي حملها عبد الله بن ياسين، وهي رسالة دينية بسيطة تكتفي بالوعظ، فكانت دولته بذلك دولة الفقهاء، ولا غرابة أن يعمد هؤلاء العلماء إلى معاداة الفكر الفلسفي والصوفي وأن يأمر (أو يأمروا هم) بإحراق كتاب الإحياء للغزالي. وأن يسود الفكر المتحجر ضد علم التوحيد على عهده وعهد ابنه. ويبدو الفرق واضحاً من المنبع. فالمهدي هو غير عبد الله بن ياسين. ولذلك فعبد المؤمن هو غير يوسف. كان عبد المؤمن يجالس العلماء ويأمر بكتابة الرسائل العلمية في أوقات الفراغ من العمل السياسي. وكان يناصر الأشعرية والمعتزلة في بعض نظرياتهم، ولو أنه اعتنى «بَالمُوَطَّأ» للإمام مالك. وكان يحارب بالفكر فيسمي ـ تبعاً لشيخه ـ المرابطين ـ بالمجسمة، وكانت أدبيات المهدي تزعم أنه تتلمذ على الغزالي. ولعل هذا الزعم صادر عن بعد سياسي. فهو يستهدف به المعارضة العملية للذين أحرقوا الإحياء.

وضمن هذه الفروق الفكرية نجد يوسف يعنى برجال العلم، إلى حد ما ربما كان ذلك لأنه لم يكن متعلماً، ويشك في معرفته للعربية. ولكنه لا يعتمد كثيراً على أهل العلم والأدب في شؤون الدولة. وأما عبد المؤمن فقد كان

عالماً محباً لرجال العلم والأدب يستمع للشعر فيطرب له، وقد يقوله على ما يزعم الرواة، ويجيز الشعراء الجيدين، ويقمع شاعراً بدأ قصيدته ثقيلة فيكتفي ببيتين منها ويقعده، ويكتفي ببيت جيد من قصيدة جيدة فيجيز صاحبها، ويستعمل من الكتاب أمثال أبي جعفر بن عطية، ولو أنه نكبه أخيراً وقتله وأخاه بعد أن عذبهما لوشاية. وربما كان قتله لهما لأنه لم يحتمل أن يبقى أديب في دولته خدم الدولة بدهائه وعلمه.

كان الحكم العسكري يغلب على يوسف بن تاشفين، ولو كان يميل إلى الأدب مثل صاحبه لما فعل ـ ربما ـ ما فعله بالمعتمد بن عباد. ولكنه كان يحتكم للسياسة وأمن الإمبراطورية ولا يحتكم للأدب، ولو أنه كان يَرُدُّ الأحكام إلى القضاء.

هذا الاختلاف الواضح هو الذي طبع دولة الموحدين بالعلم والفلسفة والجدل والتفتح على الأفكار والسماح للكتب القيمة التي صدرت في عهدهم، سواء في المغرب أو الأندلس، وسواء من المغاربة أو الأندلسيين مما يمكن أن توصف بأنها الدولة العالمة. والأمر يختلف على عهد المرابطين. فالدولة التي تأمر بإحراق كتاب الإحياء لا يمكن أن تكون دولة عالمة. وذلك ما جعلها لا تصمد للهجوم المدمر من الموحدين. ولم يكن لها ـ رغم قصر عهدها ـ ما يجعل لها مكاناً بين الدول العالمة.

العنف والقمع في سياسة المؤسسين.

ربما كان القتل الظاهرة التي عمت الدول جميعها، فلم ينج منها يوسف ولا عبد المؤمن. فيوسف قتل الآلاف في المدن التي فتحها وقتل جميع سكان إحدى هذه المدن وقتل في مدينة فاس الآلاف في الأسواق والآلاف في جامع القرويين وجامع الأندلس، ولو أننا يجب أن نحذر من أخبار كتاب التاريخ وخاصة مما كتبه الموحدون عن المرابطين، وعبد المؤمن كان يحضر بنفسه عملية قتل خصومه. وأبان طوال ملكه عن قسوة لا تبررها إلا مقاصده السياسية

الكبرى، وإلا شريعة العصر التي لم يكن «القانون الجنائي» فيها يعرف من عقوبة إلا القتل حتى على وشاية أو مخالفة. وفي باب القتل لا يفضل أحد المؤسسين الآخر. إلا أن القتل عند عبد المؤمن قد يكون عقاباً للفكر أو المذهب، إتباعاً لأستاذه الذي كان يأمر بقتل المرابطين، ولو كانوا مسالمين ومسلمين، غير أنهم في رأيه ورأي عبد المؤمن غير مؤمنين. ولذلك يجب قتلهم، بل قتل أصحابه. وحكاية دفن أصحابه أحياء مشهورة في تاريخه.

عبد المؤمن كأستاذه المهدي دموي، ويكفي أن نذكر مجزرة ما يعرف بالاعتراف على يد عبد المؤمن ومجزرة ما يعرف بالتمييز على يد المهدي لنتأكد من وحشية الرجلين في تصفية الإنسان. عملية الاعتراف تمت بحمد الله وعونه والصلاة على محمد وبنيه فهدا الله البلاد للموحدين، وأعانهم على الحق ونصرهم وأقاموا الدين» كما يقول البيدق.

كيف تمت العملية؟

خرج الخليفة للموحدين وعقد لهم مجلساً ووعظهم. ثم كتب لهم جرائد (قوائم) بالوعظ والاعتراف وأمدهم بالسيف وأعطى لكل منهم قائمة وأمره بقتل كل من ورد اسمه في القائمة. ويتراوح القتلى في كل قائمة ما بين 12 ألفاً وستمائة، وقام أصحابه بالمجزرة الرهيبة كل في كل منطقة حسب القائمة، أما نساء القتلى فكن يبعن في الأسواق وقد وزعت ألف بكر على الأتباع فأصبحن محظيات.

هذه المجزرة يرويها كتاب تاريخ الموحدين من أصحابهم.

ويقول التاريخ إن عبد المؤمن حينما دخل مراكش أمر بقتل كل من وجد فيها. وأبيحت مراكش لقتل من وجد فيها من اللمتونيين ثلاثة أيام. ويذكر التاريخ أيضاً أنه حينما حاصر وهران أياماً ومنع عن سكانها الماء مات الكثير منهم عطشاً ثم خرجوا على حكم عبد المؤمن وانبطحوا يشربون. ولكنهم قتلوا جميعهم. ويذكر أيضاً أن أهل دار تاشفين بن علي ـ بعد أن مات في الليلة

الممطرة المشهورة ـ كانوا قد تحصنوا في حصن فأخرجوا وقتلوا جميعهم. ويذكر التاريخ أن عبد المؤمن حينما دخل مراكش لتتبع الناكثين من كل القبائل فأحضرهم ليعترفوا وأمر إخوانهم من كل قبيلة أن يقتلوهم بأيديهم. وكان يجلس في أعلى برج بقصر الحجر. فامتثل الموحدون لقتلهم في أيام يوماً بعد يوم.

رويت مثل هذه المجازر عن عدد من ملوك المغرب. ولكن ما حدث في عهد المهدي بن تومرت وعبد المؤمن فريد في تاريخ الجريمة.

من المفارقات ـ وقد لا تكون مهمة ـ أن يوسف بن تاشفين، ظل على صلة روحية اسمية بالخلافة في بغداد، رغم ضعف مركزها، ولم يقبل أن يحمل لقب «الخليفة» ولقب أمير المؤمنين. وقبل لقب أمير المسلمين الذي أطلقه عليه أمراء الأندلس بعد الزلاقة. أما عبد المؤمن فقد لقب نفسه من أول يوم ولايته بالخليفة أمير المؤمنين. يدل ذلك على عدم الاعتراف بالخلافة العباسية من جهة، كما يؤكد الصلة القوية التي ربطته بالمهدي، فهو خليفته، منحه هذه الصفة في أخريات أيامه، وهو على فراش الموت. ولعل المغزى المهم في لقب أمير المؤمنين أن أتباعه هم المؤمنون، الموحدون وغيرهم كفار مجوس يجب قتلهم وَسَبْي نسائهم وذراريهم وبيعهم في الأسواق، أو توزيع النساء كجواري على المقربين من الأصحاب.

الدين والسياسة في سلوك الرجلين

استغلال الدين في السياسة كان الظاهرة الأولى في عهدي يوسف وعبد المؤمن. ولكن بضاعة يوسف من علوم الدين كانت مُزْجاة، إن لم تكن منعدمة، ولم يبق له من الفكر الديني البسيط الذي تعلمه من عبد الله بن ياسين إلا الجهاد. وقد كان مبعثه في جوازه إلى الأندلس وجهاده الكبير لإنقاذها من المد الصليبي. أعتقد أنه في البداية لم يفكر في الحكم بمقدار ما فكر في جهاد الكفار. وجاءت السياسة بعد ذلك حينما رأى أن بعض أمراء الأندلس

يستعينون بألفونسو ضده، ورأى تلاعبهم بأمر المسلمين. فقرر سياسياً ودينياً تصفية حكم ملوك الطوائف.

أما عبد المؤمن بن علي، الذي تربى في أحضان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي كانت الطقوس الدينية ـ الصحيحة منها والخرافية ـ تملأ فضاء «تيمنل» والتي بررت دعوة أستاذه لمقاتلة المرابطين. هذه الطقوس الدينية والخرافية اختفت نهائياً مع العمل السياسي بعد أن أصبح خليفة، فلم نعد نسمع عنه شيئاً من تعاليم «أعز ما يطلب» ولا شيئاً من أفكار المهدي وتعاليمه. ورغم أنه استرجع بعض مدن الأندلس حينما دخلها، إلا أن الفكر السياسي كان طابع عمله في الأندلس، وليس في تاريخه ما يؤكد فكرة الجهاد إلا بالتبعية.

وعبد المؤمن يمتاز، حسب ما يقال، بأنه فصيح اللسان، نبيهاً عالماً بالجدل، فقيهاً في علم الأصول، حافظاً للحديث متقناً للرواية، مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، إماماً في النحو واللغة والأدب والقراءات، ذاكراً للتاريخ وإمامة الناس. وليس شيء من هذه الصفات العلمية تُنسَب ليوسف فقد كان عسكرياً وكفى. وإذا كان ليس متسغرباً أن يتحلى عبد المؤمن بالصفات التي يذكرها المؤرخون نقلاً عن المؤرخين المعاصرين له، لأنه صاحب المهدي، وقد كانت فيه كل أو بعض هذه المزايا العلمية، فإني مع ذلك لا استغرب المبالغة في صفات المدح بغير حساب لعبد المؤمن من مؤرخي الدولة كالبيدق وابن القطان الذي قربه يعقوب المنصور إليه، وكتب أخرى تَلِفَتْ بعد تضعضع الدولة الموحدية وربما أتلفت بعد نهايتها. ومن شعر الشعراء الذين كانوا يقولون الشعر في مدحه في كل مناسبة.

الفكرة المهمة هي أن الإعلام لعب دوره الكبير في عهد عبد المؤمن وخلفائه. كتبت الكتب وملئت بالأساطير، حتى أدخلت في تاريخ عبد المؤمن، ودولة الموحدين كتاريخ حقيقي. والأمر يختلف في عهد يوسف بن

تاشفين، فإنه لم يعن بتقريب هؤلاء الإعلاميين إليه، ولا أَوْحَى لهم بأن يكتبوا مثل ما كتب البيدق وأمثاله. مهم جداً أن نلاحظ دور الإعلام في إقامة الدولة وفي غزو الأفكار بعظائم أمجادها ـ ولو كانت من قبيل مجرزة الاعتراف ـ. مهم أن نلاحظ ذلك في مغرب القرن السادس الهجري. فالإعلام والدعاية الكاذبة لم تعرف سبيل، لأول مرة، بالشكل الحديث للسياسة الأوروبية والعمل العسكري في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين.

أود أن أختم هذا الفصل بنقطة اتفق فيها الرجلان، ولم يختلفا عن غيرهما من كبار الملوك في المغرب ابتداءً من إدريس الثاني، وهي أن كلا منهما ولى أبناءه على المناطق التي احتلوها في المغرب الكبير وفي الأندلس. فقد ولى عبد المؤمن ابنه عبد الله بجاية، وعمر تلمسان ويوسف إشبيلية وأبا سعيد غرناطة وعلياً فاساً وأبا الربيع تادلة وأبا زيد السوس. أعد بعضهم للملك بعده وامتدت في الزمن الدولة التي كان عمرها أطول من عمر دولة يوسف وإنجازها أكثر. ومثل ذلك فعل يوسف إذ ولى أبناءه في البلاد التي فتحها، ولكن عبد المؤمن قام بعمل ذكي قبيل وفاته. فقد عين ابنه محمداً ولياً للعهد. فلما شعر بقرب وفاته عند مرضه الأخير عزل ابنه هذا وأمر بإسقاط اسمه من الخُطبة، ويصف المؤرخون محمداً هذا بمالا يستحق معه أن يخلف عبد المؤمن.

تولية الأبناء والأقارب في كل العصور وفي كل البلاد خاصة في الحكم المطلق.

هذه بعض اللمحات في المقارنة بين مؤسسين لم أقصد بها إصدار أحكام قيمة، ولا إلى تفضيل أحد المؤسسين، وإنما هي مقارنة بين رجلين كانا نتاج عصرين ونفسيتين وعقليتين. كل منهما حكم المغرب على طريقته، وكل منهما ترك في المغرب بصمات من فكره وجهاده ومباذله كذلك. ولعله يحسن أن نلقي سؤالاً ليس عليه جواب: لو لم يكن يوسف بن تاشفين في الفترة التي

وجد وحكم فيها؟ لو لم يكن بهذه الصفات التي ألمحنا إلى بعضها؟ لو لم يكن عبد المؤمن بن علي في الزمن الذي حكم فيه؟ لو لم يحكم بالشكل الذي حكم به، ماذا يكون مصير المغرب العربي؟

لعل التاريخ لا يساءل مثل هذه المساءلة إلا إذا دخلنا في عالم فلسفة التأريخ أو التفلسف في التاريخ. ولعل هذا التفلسف لا يمكن أن يتطاول على مقولة: لو لم يكن كذا... فقد كان هذا «الكذا» دون أن يستشير أحداً من فلاسفة التاريخ.

أكبر امبراطورية في التاريخ المتوسط

انتقال السلطة من عهد المهدي إلى عهد عبد المؤمن بن علي يعتبر بداية العمل التنفيذي للتفكير التنظيري.

وحينما يبتدىء التنظير للإمبراطورية بالمذهب والعقيدة ورفع شعارات الدين على عهد الموحدين يكون ذلك نوعاً من التقليد، بشكل أو بآخر، لما تم على عهد المرابطين. وإذا كانت الدعوة الدينية والمذهبية على عهد المرابطين أكثر سلامة واقتراباً من الإسلام، كما كان يفهمه عبد الله بن ياسين وانصاره، فإن الالتصاق بالدين في بداية عهد الموحدين كان أكثر ديماغوجية وادعاء وافتراء على عهد الموحدين كما قام بذلك المهدي ابن تومرت.

تتبعنا صورة مصغرة عن تفكير كل من الرجلين في القضايا الإسلامية، وفي توظيف الدين للسلطة. ويمكن أن نستخلص مما عرفنا: أن عهد المهدي كان عهد أسطورة، بمقدار ما كان عهد إدعاء ومحاولة السيطرة على عقول الناس بما يدعيه عقيدة أو جزء من الإسلام والدين. ولقد استطاع المهدي بكل دهائه وذكائه وقدرته على اصطناع الشخصية المتميزة بالصلاح والتقوى والقرب من الله، إلى درجة إدعاء النبوة على رأي بعض المؤرخين والمهْدَوِيَة كما تَحْمِلُهَا الألقاب التي لقب بها نفسه أو لقبه بها أصحابه. وكان الأسلوب الذي اتبعه في تنظيم الجماعة المهدوية أسلوباً فريداً في تاريخ ذلك العصر. يذكرنا بالأساليب التي اتبعتها الايديولوجيات الحديثة (الشيوعية) في تنظيم الخلايا والجماعات لنشر المذهب والسيطرة على المجتمع، وهو يشبه الأسلوب الاسماعيلي عند الفاطميين وقد عرفنا أنه أسس جماعته على درجات

أقربها إليه مجموعة العشرة ثم الخمسين، ثم عموم الموحدين. هذا التنظيم الذي وجد نظيراً له على شكل مبسط على عهد المرابطين، كان على عهد المهدي أكثر دقة وصرامة وقد استغل هذا التنظيم عهد تكوين الدولة على عهد عبد المؤمن، فكانت قائمة على أساس تنظيمي تدريجي فالذين قاموا على تأسيس الدولة هم الأكثر قرباً من المهدي، ثم تليهم في الدرجة جماعة «الخمسون». . . وهكذا.

ذلك من حيث التنظيم، أما من حيث الفكرة الأساسية فتلخصها كلمة الموحدين. وهي كلمة خطيرة في التأثير والإيحاء. استعملت ليس فقط بمعناها الديني، ولكن كذلك بمعناها السياسي. وهي تعني أن غيرهم ليسوا بموحدين بل يسمون المرابطين ـ خصومهم الأولين ـ مجسمة. ويؤكدون أن حربهم أهم من حرب الكفار، سبيلهم إلى ذلك فلسفي ينتمي إلى علم الكلام. فالمرابطون كانوا يعتمدون على رجال الدين من الفقهاء وعلماء التوحيد الذين كانوا يتحدثون عن صفات الله مثلاً على طريقة الأشعرية التي تصف الله بصفات تقترب في اللفظ من صفات الإنسان، ولو أنهم ينزهون الله عن كل تشبيه. وهذا ما يجعلهم في نظر الموحدين مجسمين أي يجسمون الله في الإنسان. فهم إذن غير مسلمين وأقرب إلى المجوس منهم إلى المتدينين.

وكلمة «الموحدين» لم تكن تعني المفهوم السياسي الذي يقترب من المضمون في العصر الحديث أي توحيد البلاد وتوحيد المسلمين، بقدر ما كانت تعني انهم وحدهم الذين يوحدون الله، وغيرهم خارج عن الدين لأنه ليس بموحد. وهكذا استخدموا فكرتي (الإختصاص) و(الاقصاء) في عملهم السياسي. أي اختصاصهم بمعرفة الله وتوحيده، واقصاء غيرهم ممن ليسوا على مذهبهم، إلى درجة قتلهم جميعاً، ولو دون جريمة لأنهم ينتمون إلى المرابطين وهذا كانت تصفية خصومهم في السياسة شريعة من شرائع الله عندهم. وساد القتل الجماعي في كل الجهات التي احتلوها بالحرب للقضاء على المرابطين واتباعهم وسيادة الموحدين سياسياً وعسكرياً.

استغلال الدين في السياسة وخاصة في أقامة الدولة ليس جديداً، يظهر لأول مرة عند المرابطين، ولو أنه عندهم كان استغلالاً قاهراً وصل بهم إلى حد التصفية الجماعية كما ذكرنا، فقد اعتمد كثير من الملوك ورؤساء الدول في العالم الإسلامي وفي أوروبا على الدين، رأينا نموذجاً منه عنه المسلمين ـ الخوارج مثلاً ـ والشيعة، وخاصة عند العبيديين في تونس ثم في مصر، وقبل ذلك عند الأمويين والعباسين ـ ومجزرة «فخ» إحدى النماذج. ورأينا في العصر الحديث عند تكوين المملكة السعودية على المذهب الوهابي الذي تطور إلى دولة كاسحة للجزيرة العربية بالسيف والمذهب معا. ورأينا نماذج منه في أوروبا مثلاً في العصور الوسطى. فما من ملك أقام دولته إلا على أساس الكنيسة، وما من دولة قامت في أوروبا الغربية والشرقية إلا وكان وراءها الدين والكنيسة في البداية ثم تخلصت من الكنيسة وسيطرتها لصالح الفكر الديمقراطي. ورأينا كذلك في العصر الحديث أكبر مظهر لقيام دولة على أساس المذهب (الاتحاد السوفيتي) وأكبر دولة على أساس الدين والعرقية، وهي دولة إسرائيل التي وجدت تأييداً مطلقاً من الدول التي ناهضت الدين لصالح الديمقراطية ناهضت العرقية لصالح مجموع الشعب مهما تكن انتماءاته.

إذا عدنا إلى الموحدين نجد أن فكرة استغلال الدين وتوظيفه لصالح الدولة كانت من أقوى الوسائل التي استخدمت لتكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، على أن فكرة توظيف الدين في تكوين الدولة تستمر طويلاً بعد المهدي ابن تومرت فقد استعملها في البداية عبد المؤمن بن علي ولكنه تخلى عنها، بعد أن اكتسب شعبية كبيرة وسيطرة مطلقة على المناطق التي كان يحكمها المرابطون، سواء في المغرب والأندلس، وكذلك المناطق التي كانت تحت سيطرة بني حماد في الجزائر ثم بلاد تونس وطرابلس التي كان يحكمها زيريون من بني مناد أو المهدية التي كان قد احتلها الصقليون (الفرنج). فجلاهم عنها.

وقد كان هذه الامبراطورية الكبيرة تحت شعار الموحدين، دون أن

يشغل نفسه بمفاهيم التوحيد والموحد على غرار ما كان يفعل المهدي. ولكن توظيف الفكرة في التصفية الجسدية لشعوب كاملة من المرابطين كانت تحت اسم التوحيد كما قدمنا.

شخصية عبد المؤمن بن علي

ما من شك في أنها شخصية فريدة في التاريخ، في قوتها وذكائها وطموحها ودمويتها وتحقيق المكاسب العظمي التي لم يحققها أحد من قبله في ظرف وجيز نسبيا أقل من ربع قرن (بويع علنيا سنة 535 هـ 1140 م تضاف إليها خمس سنوات كان يحكم باسم المهدي الذي لم تعلن وفانه إلا بعد خمس سنوات كما يقول المؤرخون، كان فيها عبد المؤمن يوطد دعائم سيطرته ويضمن تأييد جماعة العشرة المقربين إلى المهدي وجماعة الخمسين وبقية الاتباع من رجال السلطة والحكم وتوفي سنة 558 هـ يونيو 1163 م.

وسواء كان أصله من كومة وهي فرع من زناتة، موقعها قرب تلمسان، من عائلة صناعية فقيرة، كما يؤكد كثير من المؤرخين. أو كان أصله عربياً كما ادعى واستعمل هذا الادعاء لتأكيد شخصيته، فإن الأمر لا يهم التاريخ في شي. وسواء كان قد اتصل بالمهدي ابن تومرت في طريق عودته من مصر في ملالة عندما كان عبد المؤمن في طريقه إلى المشرق ليستكمل دراسته، وكان المهدي في طريق عودته إلى المغرب من الإسكندرية، بعد المطاردات التي لحقته من كل بلد جاهر فيه بالدعوة إلى مذهبه، أو تقابلاً في مركز الدعوة المهدوية تينملل قرب هرغة مسقط رأس المهدي ابن تومرت. فليس المهم أين ابتدأت صلات الرجلين، ولكن المهم أن عبد المؤمن كان من أوائل العشرة الذين وثق بهم المهدي، ورأى فيه استمرار دعوته. وربما رشحه إلى خلافته كما زعم عبد المؤمن وكما اعتمد على هذا الزعم في ولاية الأمر من بعده.

يكثر مؤرخو الدولة الموحدية من الأساطير والروايات عن شخصيتي المهدي وعبد المؤمن ليجعلوا منهما شخصيتين خرافيتين تقريباً، ظناً منهم أن

التاريخ لا يصمد للأساطر والخرافات. وليس هذا الأسلوب في تعظيم الشخصيات التي أدركت مكانة في السلطة بغريب عن المؤرخين الأقدمين ولذلك فنحن ننبذ كل هذه الأساطير التي لا تزيد، بل أنها تنقص، من قيمة رجلين كبيرين كالمهدي بن تومرت وعبد المؤمن. فالرجلان كانا سياسيين كبيرين وظفا الدين وخاصة المهدي في الحكم ولاصلة لهما بجوهر الدين في سيرتهما السياسية.

يذكر المؤرخون أن عبد المؤمن كان أول من لقب نفسه بأمير المؤمنين. استولى على لقب أمير المؤمنين بسهولة ليؤكد أنه ند لخليفة المؤمنين في بغداد، رغم أن الخلافة لم يكن قد بقي لها مركز ديني أو سياسي. ادعاء إمارة المؤمنين تؤكد أن طموحه لم يكن ليقف عند حدود، فالمغرب العربي جميعه والأندلس تحت سيطرته. وما من شك في أنه لو استطاع لقفز إلى مصر، خاصة وأن الفاطمين سبقوه إلى ذلك. ثم إن ذكر زيارة أستاذه المهدي ابن تومرت إلى الإسكندرية كانت ما تزال تلعب دورها في تضخيم هذا الطموح وتغذيته. وليس المهم ادعاء إمارة المؤمنين ولكن المهم هو أن امتلاك هذا اللقب يؤهل الغرب الإسلامي لانفصال نهائي عن المشرق الإسلامي. وهذا ما أكده التاريخ بعد ذلك في عهود الدول المغاربية. وهذا ما يؤكد البعد السياسي لسلوك عبد المؤمن في الحكم طلية السنوات التي حكم فيها.

كل البلاد والأقاليم التي دخلت تحت حكم عبد المؤمن لم تكن سيطرته عليها بالدعوة فقط، رغم أنه استخدم جميع الوسائل الديماغوجية في التنقيص من المرابطين واعتبارهم مجسمين وأكثر من كفرة، وإنما استعمل العنف والقمع والقتل وسيلته الأولى إلى ذلك. فسنعرف أنه سيطر على كل أقاليم المغرب التي كانت تدين بالولاء للمرابطين، واستعمل فيها السيف والقتل الجماعي. وكمثال على ذلك حينما احتل مكناسة بعد حصار طويل، أمن سكانها إلا المرابطين منهم فقتلهم جميعاً. حينما دخل مراكش وهي عاصمة

المرابطين قتلهم جميعاً، فلم يعد للدولة المرابطية في مراكش ذكر بعد أن صفّى عبد المؤمن كل اتباع المرابطين وحينما احتل جيشه قلعة بني حماد قتل جميع سكانها فالمؤرخون يذكرون أن عدد القتلى بلغ 18 ألف إنسان، وفي ليلة قتل 8000 إنسان بعد احتلالها وقتل في ضواحيها 4000 إنسان. وإذا نحن ذكرنا بعض الأرقام، ونغض الطرف عن بعضها الآخر، لا نصدق كل ما أورده المؤرخون من أرقام القتلى. فالرقم عند كثير من المؤرخين لا مفهوم له. ولكن فقط نورد بعضها لنؤكد أن عملية التصفية الجسدية للإنسان وخاصة المرابطين كانت هي سبيله إلى الانتصار العسكري والسلطوي على الأقاليم التي احتلها.

لم يسلم من قمعه الدموي أصدقاؤه ووزراؤه فقد قتل عائلة بني عطية: أباه وأخاه، رغم أن أبا جعفر كان مخلصاً للدولة وأعظم كتابها ووزرائها. وقتل كذلك عبد السلام الكومي الذي كان وزيراً له ثم قتله وقتل أخوي المهدي ابن تومرت عبد العزيز وعيسى، رغم أنهما كانا من وجوه الجيش في إشبيلية أيام فتحها، ولم تشفع لهما قرابتهما الأخوية من استاذة ابن تومرت.

دمويته تتعدى الإنسان إلى المدن، فقد هدم كل أسوار المدن، التي كانت تمثل مجد الحضارة العمرانية قبل الموحدين، مثل مدن مراكش وسلا ومكناسة وسبتة وفاس. وحينما احتل جيشه قلعة بني حماد خربها مع أنها كانت مركزاً لدولة عظمى في غرب الجزائر.

مسيرة إرساء الإمبراطورية الموحدية:

عرفنا من قبل كيف استطاع يوسف بن تاشفين أن يركز امبراطوريته في المغرب والأندلس والجزائر، وأن ابنه علي بن يوسف حافظ على هذه الامبراطورية الضخمة، رغم أنه لم يكن في مستوى والده من حيث قوة الشخصية، غير أنه كان مندفعاً في الاتجاه الإسلامي والمحافظة على سلامة

البلاد الإسلامية من الغزو الصليبي للأندلس التي حماها والده من الانهيار على عهد ملوك الطوائف، فغزا الأندلس واستمرت الامبراطورية على عهده حتى توفى سنة 533 هـ ولم يستطع خلفاؤه تاشفين وإبرهيم وإسحاق أن يستمروا في الحكم لمحاصرة عبد المؤمن لهم. فقد قتل إسحاق في مراكش سنة 541 هـ وتابع تاشفين إلى وهران فحاصره في ليلة ممطرة حاول أن يفر من الحصار على فرسه فسقط من شاهق فمات سنة 539 هـ أو 540 هـ. أما إبراهيم فلم تدم إمارته إلا أسابيع.

وجاءت دولة الموحدين فورثت فكرة الامبراطورية عن المرابطين. ولم يكن لها فضل المبادرة، إلا من حيث توسيع مدى هذه الامبراطورية شرقاً حتى برقة وكذلك تدعيم الحكم الإسلامي في الأندلس. غير أن عبد المؤمن، مؤسس الامبراطورية الموحدية، قضى فترة من نشاطه العسكري في القضاء على سلطة المرابطين، من الصحراء حتى العاصمة مراكش، حيث قضى إسحاق بن علي آخر ملوكهم قتل على يد الموحدين.

المرحلة الأولى: تجديد الامبراطورية باسم الموحدين بالاستيلاء على المراكز الأساسية لحكم المرابطين. احتلت جيوشهم وهران وتلمسان وطنجة ومكناس وفاس وسبتة وسلا ومراكش وسجلماسة. وبذلك استطاع أن يقص اجنحة المرابطين في كل إقليم من أقاليم المغرب جنوبه وشماله وشرقه.

المرحلة الثانية: في تكوين الامبراطورية هي السيطرة على الأندلس، بعد أن اضطربت فيها الأحوال في آخر عهد علي بن يوسف، الذي كان قد عاد إلى المغرب للمحافظة على مركز امبراطوريته. وقد بدأ عبد المؤمن فتح الأندلس من جبل طارق، حيث أقام في هذه المدينة وجددها وبنى فيها بنايات مهمة. ومن هناك كان يوجه بعثاته العسكرية إلى الأقاليم الأندلسية، التي كانت تعاني اضطراب السلطة وتدخل الجيوش النصرانية واحتلال بعض مناطقها. وفي هذه المرحلة استرجع مدينة شريش وقرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة ورندة. وكانت وفود من هذه البلاد تفد عليه، وهو في جبل طارق، لتقدم البيعة وتخلع عنها

سلطة المرابطين التي كانت في شبه انهيار وولى الولاة (منهم ابناؤه) على المدن الكبرى التي دخلت في مملكته.

تتبع جيش عبد المؤمن في الأندلس حكام المرابطين في كل إقليم أو مدينة يوجدون بها. وبذلك أعطى الفرصة للمهاجمين القشتاليين، الذين كانوا ينتهزون فرصة صراع المسلمين وقتال بعضهم البعض. فاحتلوا بعض المدن الكبرى كقرطبة ومناطق كبيرة من الأندلس، واضطر الموحدون إلى قتالهم مدة طويلة صرفوا فيها طاقة كبيرة بعد أن تسببوا في هذه النكسة بسبب توجههم إلى قتال المرابطين ومنح الفرصة للعدو المشترك.

ومع ذلك كانت النهاية لصالح الموحدين حيث استولى جيش عبد المؤمن عـلى معظم جهات الأندلس. ووفدت وفود منها عليه وهو في مدينة سلا.

المرحلة الثالثة: احتلال بقية المغرب العربي بعد أن كان قد استولى على قلعة بني حماد وبجاية. فغزا تونس بقيادة ابن عبد الله، وكانت تحت سلطة صقلية. وحاصر المهدية أشهراً عديدة، حتى انهار حكم الصقليين واستسلموا ثم فتح بقية تونس وطرابلس حتى برقة.

وكان فتح تونس بين سنتين 554 هـ و555 هـ قبل الاسيتلاء على الأندلس.

هكذا نجد أن عبد المؤمن شغل حياته العملية التي ابتدأت سنة 524 هـ وانتهت بوفاته سنة 557 هـ شغل هذه الحياة بتجديد الامبراطورية لصالح الموحدين، وبالقضاء على المرابطين، وبخوض معارك دامية داخلية ربما كانت قد انهكت قواته وأطالت سنوات الحرب في غير طائل بحيث كان يمكن أن يحقق كل هذه الأهداف دون معارك دامية. ولكنه كقائد دولة جديدة ـ تخلف دولة بدأت الشيخوخة تظهر عليها في آخر عهد علي بن يوسف ـ كان مضطراً أن يسير مسيرته القتالية التي سجل فيها وصول الامبراطورية المغربية إلى قمتها. ومن حياة عبد المؤمن ونضاله في سبيل الامبراطورية ندرك الفارق

الكبير بين المؤسس، المهدي بن تومرت، وما أحاط بحياته من استغلال الدين والأساطير لتدعيم نشأة الدولة، وبين الرجل الذي ترك كل ذلك بما فيه استغلال الدين للخلوص إلى الحرب والسيطرة على دولة المرابطين، وأقامة الدولة الجديدة مكانها. لو شغل نفسه بما شغل به المهدي بن تومرت نفسه من أساطير وخرافات لما حقق المجد الذي حققه بالسيف، لا بالدعوة وبالحكم، لا بالمذهب والايديولوجية.

صمود وبداية الانحدار

لم تشذ الدولة الموحدية عن الدول الكبرى التي نشأت. في المشرق والمغرب، وخاصة الدول الإسلامية. فعندما وصلت الامبراطورية إلى قمتها على عهد عبد المؤمن بن علي، بدأت مخايل السقوط تفت في عضد الدولة ولو أنها صمدت صموداً كبيراً في عهد خلفائه الثلاثة.

ربما كان هذا النموذج والنماذج المماثلة هي التي أوحت إلى ابن خلدون فكرته المهمة في أن كل دولة تصعد إلى القمة تبدأ في التنازل إلى مصيرها النهائي. ومن الطبيعي أن نجد مثلين واضحين بالمغرب الكبير عند المرابطين ثم الموحدين. الدولة في كل منهما بناها قائد كبير ومناضل وضع الأهداف أمامه واضحة فحققها بكل الوسائل التي تمكن منها. وقد تكون هناك ظروف سياسية ساعدتهم على ذلك.

ونتساءل لماذا هذا النزوع إلى هدم امبراطورية وإقامة أخرى مكانها؟ يعود بنا التفكير إلى النزاع القبلي. فالمرابطون لمتونيون ينتمون إلى صنهاجة والموحدون مصامدة وكان بينهم صراع قديم يرجع تاريخه إلى ما قبل الإسلام حيث كان للمصامدة. نفوذ سياسي ورآسة نافذة.

كما يقودنا تذكر البدايات إلى العمل الذي قام به عبد الله بن ياسين اللمتوني، ونجح فيه حتى أفضى إلى تكوين الامبراطورية المرابطية فلم لا يقلده رجل نابه آخر من مصمودة؟. ويقوم بدعوة تزيد على دعوة عبد الله بن ياسين وتبالغ في توظيف الدين والأسطورة ليصل إلى ما وصل إليه خلفاء عبد الله بن ياسين وفي مقدمتهم يوسف بن تاشفين من تكوين الامبراطورية. وسبب ثالث يمكن أن يعتبر وسيلة هو الخلاف في المذهب. فبينما كان عبد الله بن ياسين فقيهاً سنياً داعية للعودة إلى الإسلام والقيام بأركانه بين المنحرفين، أخذ المهدي الفكرة وطورها فجعل منها ما رأيناه من الدعوة إلى التوحيد بمفهوم خاص متطرف، والتنكر للإسلام المرابطي، واعتبار المرابطين مجسمة وأكثر من كفرة. فهذا سبب ووسيلة لتجميع الناس حول هذا «الجديد في الدين» وتفرقهم عما أصبح «قديماً» وهو الإسلام المرابطي.

إذا كانت دولة المرابطين قد وصلت إلى أعلى مجدها في عهد يوسف بن تاشفين فإن الدولة المماثلة «الموحدين» قد وصلت كذلك إلى أقصى ما كان يمكن أن تصل إليه في عهد عبد المؤمن. وبدأت هي الأخرى في التنازل، بعد وفاته، على غرار ما بدأت دولة المرابطين في التنازل بعد عهد يوسف بن تاشفين.

ونلاحظ أن تنازل الدولتين معاً لم يكن مُفاجأً ولا انهياراً سريعاً. فالفارق بين وفاة الرائد يوسف بن تاشفين وبداية نشاط الموحدين لا يتعدى 15 سنة (توفي يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ وبدأ ابن تومرت ولايته سنة 515 هـ).

ولكن انهيار دولة الموحدين لم يتم سريعاً فوفاة عبد المؤمن بن علي كانت سنة 557 هـ ولكن الدولة لم تنته رغم بداية الانهيار التدريجي، وبخاصة بعد الهزيمة في معركة العقاب سنة 609 هـ إلا بقيام دولة المرينيين سنة 668 هـ والملاحظ أن المدة الفاصلة بين بداية الانهيار في الدولة المرابطية ونهاية الانهيار أقصر بكثير من بداية الانهيار للدولة الموحدية ونهايتها. ويرجع

ذلك إلى أن الدولة المرابطية لم تنجب قائداً كبيراً بعد يوسف، إلا ابنه علي بن يوسف. أما الدولة الموحدية فقد أنجبت قواداً كباراً قاموا بمنجزات عمرانية كبيرة، ومنهم أبو يوسف يعقوب المنصور وأبو عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب «الناصر» وقد حافظوا على الدولة وصانوها من الانهيار مدة طويلة.

هناك سبب آخر هو أن الموحدين لم يعانوا الهجمات الشرسة التي عاناها المرابطون من الموحدين بكل الوسائل السياسية والمذهبية العدوانية المختفية وراء الدين والعسكرة. وبذلك أجهزوا على خلفاء علي بن يوسف وقضوا عليهم واحداً بعد الآخر، بينما المرينيون كانوا أقل شراسة وقوة عسكرية من الموحدين. يضاف إلى ذلك أن المرابطين استنفدوا طاقاتهم وظل عسكرهم موزعاً بين الأندلس والمغرب العربي وشرقه وجنوبه ولم يكن لهم مثل القوة التي حشدها عبد المؤمن بن علي بالقهر والغلبة والسيف، ومثل المذابح والقتل الجماعي للمرابطين الذي كان يقوم به في كل منطقة احتلها حتى أصبح الناس يخافونه وينضمون إليه رغم ولائهم للمرابطين.

الصمود في دولة الموحدين

إذا كانت وفاة مؤسس الامبراطورية الأكبر عبد المؤمن بن علي قد زعزعت، إلى حدّ ما، الامبراطورية فإن بعض الذين أتوا بعده من أبنائه وحفدته قاموا بمجهودات مستمرة لتدعيم الدولة والامبراطورية عموماً. نخص بالذكر منهم ثلاثة لنتلمس إنجازاتهم في صيانة الدولة ومكاسبها في الداخل والخارج، حتى نتأكد أنهم صانوا الامبراطورية من الانهيار السريع والفجائي. هؤلاء الثلاثة هم:

يوسف بن عبد المؤمن ـ 557 هـ ـ 580 هـ/ 1163 م ـ 1184 م

أبو يوسف يعقوب المنصور 580 هـ 595 هـ/ 1184 م ـ 1198 م

كان من حظ هؤلاء الثلاثة أن واصلوا المعركة الصليبية الأبدية بين القشتاليين ومن والاهم من ملوك النصارى وبين المسلمين. وتعاقب في عهدهم النصر ثم الهزيمة. اجتاز يوسف بن عبد المؤمن المضيق إلى الأندلس سنة 567 هـ واتخذ من إشبيلية مقراً لقيادة الجهاد وتجهيز العساكر. وكان قد احتل قرطبة وخاض معركة مع محمد بن مردنيش، فانتصر عليه. وسلمت له كل بلاد شرق الأندلس. وبذلك أصبحت الأندلس كلها محررة، رغم المناوشات التي كان يقوم بها النصارى. ونشير إلى أن عامل تلمسان وعامل بجاية شاركا في هذه المعركة. وفيها تحققت مساهمة ا لمغرب العر بي جميعه في المعركة الفاصلة.

ومرة أخرى يجوز يوسف إلى الأندلس وذلك سنة 579 هـ لأن مناوشات النصارى لم تهدأ رغم الانتصارات التي حققها يوسف وعبد المؤمن من قبله فمرة أخرى يغزو الأندلس لاسترداد شنترين من أحد ملوك النصارى (ابن الريقي) ولكن النصر لم يتم، فلقي يوسف حتفه في هذه المعركة بعد أن اضطرب الجيش وعبر معظمه النهر وبقي مع قلة من أصحابه فهاجمه النصارى وقضوا عليه سنة 580 هـ.

نفس المسيرة سار فيها ابنه من بعده يعقوب المنصور. وكان من حظه معركة النصر «الأرك»، التي دارت رحاها بين النصارى بقيادة ألفونسو الثاني ملك قشتالة والمسلمين بقيادة يعقوب المنصور. كان كل من الفريقين المتحاربين قد استجمع قواه استعداداً لمعركة كبرى. فألفونسو استعان بحلفائه وطلب المساعدة من البابوية فتجمع له عدد كبير من المقاتلين. وكان يعقوب المنصور قد استجمع كذلك عدداً كبيراً من المتطوعين من مختلف أنحاء المغرب وضرب لهم موعداً في إشبيلية ـ وقد استرجع شلب وعدداً من الحصون تم استعد الفريقان للمعركة الفاصلة في منطقة الأرك وكان النصر فيها

للمسلمين حتى فرّ ألفونسو الثامن بنفسه مع عدد قليل من جنده.

معركة الأرك، معركة فاصلة. ولكن الصراع الإسلامي النصراني في الأندلس لم يكن يقف عند حد المعارك الفاصلة، فقد توالت انتصارات المسلمين، وكانت تدفع خصومهم إلى أن يستعدوا ليحققوا انتصارات مماثلة وبذلك كانت الحرب سجالاً. والخطر فيها أن الأندلس لم تكن تعرف استقراراً وبدلاً من أن ينصرف المسلمون إلى البناء والتشييد وإلى تنيمة الثقافة التي كانت مزدهرة في أطراف الأندلس، كانوا يبددون طاقاتهم مرغمين في المعارك العسكرية.

وقد حاول يعقوب تجنب هذا القتال المستمر، فانتهز فرصة انهزام ألفونسو الثامن وعقد معه معاهدة صلح لمدة عشر سنوات، لم يحترمها ألفونسو كالعادة. واستمرت المعارك في عهد محمد الناصر ويحيى ابنه وهو ثالث الثلاثة ليواصل صراع والده وجده في الأندلس. فهاجم ميورقة في معركة مع ابن غانية وانتقل إلى أرض الأندلس ليواجه نقض الافرنج للمعاهدة التي عقدها والده مع ألفونسو الثامن، فجهز جيشاً إلى الأندلس ونزل إشبيلية سنة 607 هـ فتح قلعة شاليطرة سنة 608 هـ ولكن الصدمة الكبرى التي محت اسم الأرك من التاريخ الأندلسي هي معركة العقاب، التي خاضها الناصر، وكانت بداية النهاية لحكم المسلمين في الأندلس. استعداد الناصر كان كبيراً فقد جمع جيوشاً كبيرة من العرب والبربر وعموم المسلمين، وعسكر في سهل العقاب. ولكن النصارى لم يكونوا أقل استعداداً منه. تضافر عدد من ملوك قشتالة وأرغون وليون ونافار وغيرهم من المتطوعين من فرسان إسبانيا النصرانية. وكانت المعركة لغير صالح المسلمين، فانهزموا. قتل منهم الآلاف وفر الباقون عن مركز قيادة محمد أبو عبد الله الناصر. وكانت الهزيمة ساحقة سببها سوء التدبير رغم الاستعداد الكامل. ويظهر أن الناصر لم يكن في ذكاء والده فلم يترض الجيش بالعطايا والمال. وكان أن غدر به فريق كبير منهم. ومن سوء

تدبيره أنه قتل أبا الحجاج يوسف بن قادس «الأندلسي» لأن هذا انهزم في معركة صغيرة قادها للحفاظ على أحد الحصون. وترك قتله أثراً في فريق من الأندلسيين المنضمين للجيش. ومات الناصر بعد عودته إلى مراكش بشهور بسبب وقع الكارثة في نفسه سنة 610 هـ.

أندلس المجد وأندلس الهزيمة

منذ طموح يوسف بن تاشفين لنصرة الإسلام في الأندلس والمغاربة يعانون عقدة اسمها الأندلس. فقد أصبحت المحافظة على الإسلام في وجه الصليبية المتنمرة في شمال الأندلس تتملك السلطة في المغرب وأصبحت المواجهة واجباً دينياً ووطنياً، بعد أن خلت الأندلس من أي من أمرائها الكثر ليدافع عن هذا الأقليم أو ذلك، وبعد أن أصبح بعض الأندلسيين المتزعمين يتحالفون مع النصارى ضد بعضهم من جهة وضد الإسلام من جهة أخرى ولهذا كان الحفاظ على إسلامية الأندلس ضرورة مؤكدة لدى كل الذين جاؤوا بعد الفاتح الأول يوسف بن تاشفين، سواء على عهد المرابطين أو على عهد الموحدين. غير أن الحفاظ على الأندلس وتوقف المعارك فيها كان عملاً صعباً وخطيراً في نفس الوقت. فقد قام ملوك الموحدين ومنهم الثلاثة الذين تحدثنا عنهم بتجييش الجيوش الضخمة للحفاظ على ما حققه عبد المؤمن والزيادة عليه باحتلال بعض المناطق التي كان يحلتها النصارى. وقاموا بمعارك ضارية وناجحة حتى إن الأندلس كلها ذانت ليعقوب المنصور ولكن ما حققه عبد المؤمن وأبناؤه من بعده لم يستقر له قرار لسببين اثنين:

أولهما: أن النصارى لم ييأسوا قط من استرجاع الأندلس. ولم يقتصر الأمر على القشتاليين الذين كانوا يحكمون الشمال بل ناصرهم عدد من ملوك النصارى وقوة البابا كما قدمنا. فالوقوف في وجه هذه القوة المتحركة التي لم تيأس قط ولو أنها انهزمت في كثير من المواقع، كان من أصعب القضايا

العسكرية والسياسية التي تحملها المرابطون بعد يوسف والموحدون بعد عبد المؤمن.

وثانيهما: أن الامبراطورية اتسعت أتساعاً كبيراً حتى وصلت إلى حدود برقة على عهد عبد المؤمن. والمحافظة على المغرب من جنوب الصحراء حتى الشمال حتى طرابلس، كان من الصعوبة بمكان لأسباب منها الثورات الداخلية التي سنشير إلى بعضها. ومنها الغزو الأجنبي لتونس من صقلية.

هذه الأسباب الداخلية والخارجية هي التي كانت تدفع بملوك المرابطين والموحدين ألا يجعلوا من الأندلس محل استقرار. فقد كانوا يحققون الانتصارات ثم يعودون إلى مراكش. ونفس الشيء كانوا يقومون به فيما يخص تونس وطرابلس.

لماذا لم يكونوا يستقرون؟ لأن المغرب العربي عموماً والمغرب خصوصاً كانت تقوم فيه بعض الاضطرابات التي كانت تجلعهم يعودون لضبط الوضعية السياسية والعسكرية في مركز الدولة، قبل أن يستعدوا مرة أخرى إلى جوانب الامبراطورية. فالمرابطون ومنهم علي ابن يوسف وتاشفين - الذين قاتلا قتالاً مريراً في الأندلس - كانوا يطاردون من الموحدين، ولذلك كان من الضروري أن يستقروا بعد كل غزواتهم في عاصمة الدولة ليدافعوا عنها.

والموحدون كانوا أيضاً يغزون ويعودون إلى مركز الدولة ليدافعوا عنها ضد التمردات الداخلية، ومن هذه التمردات الخطيرة التي حصلت في عهد الموحدين نذكر نماذج ثلاثة دون أن نتتبع كل النماذج ومنها ثورة الهلالين في الجزائر. وقضاء عبد المؤمن عليهم وبعض من التمردات الثانوية الأخرى في سوس وغمارة... الخ ومنها ثورة ابن هود - ثورة ابن غانية - احتلال الصقليين لتونس وبخاصة المهدية.

وقد يكون من الغريب ـ أو ليس من الغريب ـ أن تشهد قيادة عبد المؤمن بن علي عثرات سياسية وعسكرية لم تؤثر في استمرار الحكم وسيطرته على المناطق التي كون منها الامبراطورية، ولكنها رغم ذلك شغلته سياسياً وعسكرياً في ظروف كانت الدولة فيها تعاني زحف النصرانية في الأندلس واضطراب الحكم في إفريقيا. وقد يكون من أسباب ذلك الأساسية شكل نظام الحكم، الذي اتبعه الموحدون عموماً وعبد المؤمن على الأخص، وفرض السيطرة بالقوة وبعمليات دموية ـيرة فلم تكن في عبد المؤمن بالأخص المرونة الكافية لاستقطاب خصوم الدولة والمتشوقين للحكم ولذلك عانى بعض المشاكل التي سنتحدث عنها كما أن من الأسباب التي من الممكن أن نشير إليها القبلية وطبيعة العصر. فكثير من المتمرددين كانت لهم رغبة في أن يصلوا إلى تكوين دولة، والمثل أمامهم من الموحدين. أو على الأقل أن يقتسموا الحكم على هذه البلاد الشاسعة مع الموحدين.

نجد نموذجاً من هؤلاء في ابن هود، وهو رجل غير ذي كفاءة أو استعداد لتولي السلطة. شعبي من المغمورين في مدينة سلا. ولكنه استطاع بوسائل الدعوة والادعاء أن يلقب نفسه بالهادي، وأن يثير الفتنة في مناطق مهمة جداً من المغرب وبين القبائل التي وجد فيها استعداداً للتمرد على الحكم الموحدي. استولى على منطقة شاسعة من قبائل ماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تمسنا وبايعته كثير من القبائل ويقول المؤرخون إن عبد المؤمن لم يبق له إلا مراكش.

اضطر عبد المؤمن أن يبعث إليه جيشاً قوياً إلى اقليم ماسة. ولكن ابن هود انتصر في هذه المعركة مما دفع بعبد المؤمن إلى تكوين جيش أقوى بقيادة أبي حفص، وهو من كبار قواده للزحف على هذا الثائر. فانتصر الموحدون في المعركة الثانية واستعاد عبد المؤمن الثقة بنفسه وجيشه. وتابع هذا الجيش بعض أتباع بن هود في الجنوب وفي مسكورة وسجلماسة وجبال درنة حتى

أنهى دعوة ابن هود سنة 542 هـ ويمكن أن نلاحظ أن ثورة ابن هود هذا صادفت انشغال الموحدين بمعركة ألميرية وانضمام ابن مردنيش إلى ألفونسو السابع مما جعل ثورة داخلية مثل ثورة ابن هود تؤثر نسبياً على معنويات عبد المؤمن، إن لم تصرفه، ولو في وقت قصير، عن الاهتمام بمشروعه الكبير وهو السيطرة على غربي الأندلس.

يقظة مرابطية

النموذج الثاني الذي نتحدث عنه هو بنو غانية. وتعتبر ثورتهم يقظة للمرابطين لأن أباهم الأول علي المسوفي كان قائداً كيراً ليوسف بن تاشفين وتولى بعد هذا القائد عدد من أبنائه في أنحاء من الأندلس، حتى انتهى أمرهم إلى الجزر الأندلسية الشرقية «ميورقة ومنورقة ويابسة». صادف ذلك انهيار الدولة المرابطية وانضمام بقايا المرابطين الذين كان الموحدون يطاردونهم إلى سلطة بني غانية. ورغم أنهم حاولوا أن يسترضوا الموحدين إلا أن أحدهم وهو علي ابن إسحاق تمكن من إقامة أسس دولة منفصلة عن الموحدين. وقام بعملية مهمة جداً ساعده عليها حركة البحر التي توحي بها الجزر المحاطة بالبحر، فنقل المعركة إلى بجاية. وسيطر عليها ثم على قلعة بني حماد. خطر هذه النقلة من الجزر الشرقية إلى المغرب الأوسط هو توزيع قوات الموحدين بين منطقتين بعيدتين: الأندلس والجزر الشرقية من جهة، والمغرب الأوسط من جهة أخرى لمحاولة السيطرة على الموقف مما كلفهم الكثير من الطاقة البشرية والمالية. واستمرت المطاردة سنوات إلى أن قضى يعقوب المنصور على علي بن إسحاق من بني غانية في تونس في (الحامة) ولكن ميورقة ظلت في يد بني غانية، حتى استولى عليها الموحدون سنة 599 هـ ولكن الذي قضى على بني غانية سواء في ما يورقة أو في تونس هو محمد بن يعقوب الناصر على يد القائد الكبير عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الهنتيتي.

هل كان من الطبيعي للموحدين الذين يعانون في الأندلس بعض الاضطرابات ويعانون في جنوب المغرب اضطرابات أخرى وتمردات من العرب الهلاليين في تونس أن يفتحوا جبهة جديدة ضد بني غانية؟ تساؤل قد لا يقيم له التاريخ وزناً، ولكن أخطاء الدول أحياناً تودي بها، وقد يكون من أخطاء الموحدين أنهم فتحوا جبهة مع ابن غانية. ولكنهم لو أهملوا الموضوع وتركوا بني غانية في الجزر الشرقية الأندلسية لواجهوا كليهما، وذلك في غير صالح الموحدين الذين كان خلفاء عبد المؤمن منهم يطمحون إلى الإبقاء على الامبراطورية كما بناها قائدهم، الاحتمال الأول أن يبقى بنوعانية محاصرين في جزرهم يقيمون لهم دولة لا مستقبل لها، لأنها لا يمكن أن تعيش في جزر معزولة بسلطة محدودة. والاحتمال الثاني أن بني غانية لم يكونوا ثائرين كابن هود مثلاً، وإنما كانوا يمثلون الشرعية المرابطية لأن آباءهم من قواد ومهندسي الدولة المرابطية. وقد تداعي إليهم بقايا المرابطين المطاردين من الموحدين. كان من الممكن جداً أن يحاولوا ـ إذا ما قويت شوكتهم ـ استرجاع ملك المرابطين على غربي الأندلس على الأقل، وهو مركز سلطة الموحدين، وأن تتسع دولهم لتعاصر الموحدين في المغرب.

والاحتمال الثالث وقد حدث بالفعل، هو قفز بني غانية عن طريق البحر إلى الجزائر وتونس وفي ذلك هدم لسلطة الموحدين في المغرب العربي.

ما نشك في أن كل هذه الاحتمالات قد راودت المنصور ثم الناصر ولذلك كان الاختيار هو مناجزة بني غانية الحرب في عقر دارهم (الجزر الشرقية) ثم في بجاية وقلعة بني حماد ثم في تونس.

ومهما يكن فإن الموحدين أضاعوا في هذه المعركة (اليقظة المرابطية) قوتهم وأموالهم. وكذلك انصرفوا بها عن اكمال مشروعهم الأندلسي ولو أنهم حققوا هذا المشروع بكثير من اليقظة والحزم والشجاعة والدهاء.

الصراع الأوربي الموحدي في تونس

الظاهرة المهمة التي رأيناها، ابتداء من عهد المرابطين وفي عهد الموحدين كذلك، هي نقل الصراع المسيحي الإسلامي إلى أرض أوروبا «الأندلس». فقد كافحت الدولتان للحفاظ على إسلام الأندلس ضد الهجمة المسيحية حتى استمرت إسلامية نحواً من ثمانية قرون بعد أن كان مقدراً لها أن تسقط في يد النصارى على عهد ملوك الطوائف.

الظاهرة المقابلة لها هي نقل الصراع بين الإسلام والمسيحية إلى أرض الإسلام في الطرف الشرقي من المغرب العربي. وذلك بزحف النورماند وحكـام صقيلية على تونس من حين لآخر، والسيطرة على شواطئها وبخاصة سوسة والمهدية.

والذي أثار هذا الصراع هم حكام تونس أنفسهم. فقد كان أمراء صنهاجة الذين حكموا تونس نحواً من قرنين، العاشر والحادي عشر الميلادي، يتأرجحون بين الإخلاص للعبيديين في مصر، الذين ساعدوا الصنهاجيين وأقاموا دولتهم في تونس، والانتفاض على حكمهم. وكان ذلك سبباً في إرسال العبيديين للقبائل العربية الهلاليين والسليميين لاقتحام تونس وتدمير معالهما. ثم كان خطأ الصنهاجيين الآخر هو محاولة غزو بعض الجزر المتوسطية كسردينية وصقيلية، وهذه المحاولة جلبت عليهم انتقام المسيحيين، والأوروبيين عموماً، بتأييد من «الباب»، وإرسال أساطيل تحمل محاربين كثر رست على السواحل التونسية واحتلت المهدية في عهد تميم بن المعز (1063 م ـ 1108 م). ثم عقد بين الجانبين صلح دفع ثمنه تميم غالباً. ولم

تلبث الحملة الأوربية أن تجددت فهاجم النورماند صقلية ـ التي كان المسلمون يحكمونها ثلاثة قرون ـ واتخذوها معبراً للهجوم على تونس، فاحتلوا سوسة والمهدية وفرضوا سلطانهم على تونس. وقد طرد التونسيون النورماند من تونس ولكن احتلالهم ظل قائماً للمهدية وسوسة.

هذه هي البداية التي أربكت حكم الموحدين لتونس بعد نهاية حكم الدولة الصنهاجية. وأنهى هذا الارتباك عبد المؤمن بن علي الذي انتقل إلى تونس بجيش مهم وأسطول قوي سنة 553 هـ ـ 1158 م وحاصر المهدية براً وبحراً حتى استرجعها من يد النورماند سنة 555 هـ ـ 1160 م.

نهاية الامبراطورية ونهاية الدولة.

من المؤكد أن وقعة العقاب التي انهزم فيها الناصر في الأندلس كانت نهاية للامبراطورية والدولة الموحدية معاً. فقد مات الناصر على إثر الهزيمة وتحت تأثير الكارثة التي أصابته وأصابت الدولة معه، وبدأت الفوضى تجتاح الموحدين وسلطانهم سواء في المغرب أو في الأندلس. وقد تولى عدد منهم، إخوة وأبناء عمومة، أحدهم يثور على الآخر وينصب نفسه أميراً للمؤمنين، فأسهموا بذلك في تقوية نفوذ القشتاليين وإمارة أرغون لاحتلال مناطق من الأندلس، حتى لم يبق منها أخيراً إلا الظلال وإلا بعض المناطق التي كان سكانها يدافعون عنها. وبلغ الأمر ببعض هؤلاء الأمراء الذين كان منهم أطفال لم يتجاوز أحدهم الرابعة عشرة من عمره أن استعانوا بالنصارى على الموحدين وأن جلبوا معهم فرقة من جيش النصارى ليستعينوا بها على السيطرة واعتلاء عرش (الخلافة).

امتازت هذه الفترة ابتداء من موت الناصر سنة 610 هـ 1213 م إلى سقوط الدولة الموحدية 668 هـ وقيام بني مرين، امتازت بظاهرة الفوضى في الحكم والتصفية الجسدية لبعض أشياخ الموحدين ورجالهم والتنكر لتعاليم المهدي ابن تومرت والثورات المتعاقبة التي كانت تستهدف كيان الدولة،

وتقضي على رجالها وتنفر الشعب في المغرب وفي الأندلس معاً من سلطة الموحدين، ثم النهايـة البشعة التي تتلخص في اختفاء الأثر الفعال للدولة الموحدية في الأندلس.

هكذا كانت نهاية دولة الموحدين في الأندلس أبشع نهاية ولا تتفق مطلقاً مع الذي بناه ـ الدولة ومؤسساتها ـ المهدي وعبدالمؤمن وواصله أبو يعقوب المنصور.

مفهوم الدولة والانهيار السريع

واضح أن الدولة في العصور الوسطى في البلاد العربية والإسلامية لم يكن لها مفهوم واضح على غرار ما تحدد هذا المفهوم في العصور الحديثة وخاصة بعد نشأة الدساتير، ولكن الدولة أخذت مفهومها بعد الإسلام في بلاد المشرق متحلية بالخلافة كمؤسسة وراثية، هكذا نشأت الدولة على عهد الأمويين بعد أن تحولت من الخلافة الإسلامية بمفهوم الخلفاء الأربعة إلى المُلك العَضُود بمفهوم الدولة الأموية ولو أنها تشبثت بلقبي الخلافة والخليفة. في ظل هذا المبدأ نشأت الدول التي تداولت الحكم في الدول، الدولة العباسية أو الدول التي تفرعت عنها أو نشأت على هامشها.

والفكرة في الغرب الإسلامي لم تختلف عنها في المشرق، ولو أن معظم الدول التي نشأت لم تدع الخلافة الإسلامية ولم يدع رؤساؤها خلافة المسلمين إلا بعد النشأة بزمن طويل، كما هو الأمر في الخلافة الأموية بالأندلس، وكما هو الأمر لدولة الموحدين في المغرب.

هذا الطابع الشكلي لم يمنح الدولة في المشرق والمغرب جميعاً مفهوماً واضحاً، سواء على مستوى الرئاسة أو على مستوى الإدارة، هكذا نجد أن الدولة المرابطية استندت إلى أصول إسلامية وناضلت في المغرب والأندلس تحت راية الإسلام. والرئيس المؤسس يوسف بن تاشفين لم يدع الخلافة.

نفس الشيء بالنسبة للموحدين. في بداية الأمر انطلقوا من دعوة إسلامية لتصحيح الإسلام في الشعب والدولة. ولكن محمد بن تومرت مؤسس المذهب ثم عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة لم يدعيا الخلافة في البداية حتى إذا ما تَقَوّت الدولة على عهد عبد المؤمن بن علي لقب نفسه بأمير المؤمنين، وبالطبع لم تكن هناك صلات بين رائدي الدولتين والخلافة الإسلامية في المشرق والمغرب. من جهة أخرى التنظيم السياسي والإداري الذي اتبعه رؤساء الدولتين كان غير مضبوط ولا محكم، غير أن المهدي ابن تومرت أنشأ طبقات للقيام بنشر الدعوة منها العشرة المقربون والخمسون... إلخ، وهدف إلى تنظيم الدعوة المذهبية على أساس ـ طبقي ـ وهؤلاء الذين تكونت منهم الجماعات الأولى هم الذين ساندوا الدولة على عهد عبد المؤمن، وظهر بعضهم كقواد عسكرين في الفتوحات التي قام بها الموحدون وفي الولايات التي أنشؤوها سواء في الأندلس أو أفريقية. وكانوا جميعهم يرجعون إلى رأس السلطة فهو الذي يعينهم ومنه يأخذون سلطتهم وتعاليم تسيير ولاياتهم. من هنا نرى أن الدولة في عهدي المرابطين والموحدين كانت رآسية تستند في كل التدابير الكبرى التي تتخذها إلى رئيس الدولة، وهذا أدى إلى أن الدولة كانت معرضة لكثير من الأخطار إذ أن كثيراً من الولاة ثاروا ونصبوا أنفسهم خلفاء كما حدث في آخر عهد الدولة الموحدية. وكما سيحدث عند نشأة الدولة الحفصية في تونس.

غير أن رأس الدولة في العهدين معاً كان يحافظ على استمرار الدولة من بعده، فيعهد إلى ابنه بالولاية كما فعل يوسف بن تاشفين عندما عهد إلى ابنه علي، وكما حدث لعلي الذي عهد لتاشفين، ونفس الشيء في العهد الموحدي عندما عهد المهدي بن تومرت إلى عبد المؤمن بن علي فيما تقول الرواية، وحينما عهد عبد المؤمن إلى ابنه محمد، ولم يكن صالحاً لرئاسة الدولة فعزل بعد أسابيع من ولايته بتأييد من أخويه يوسف وعمر وتولى يوسف الخلافة بتأييد من شيوخ الموحدين.

ولم تخل الدولة من الاعتقاد على تأييد القبائل المتحالفة، يستندون فيها إلى الأشياخ كمستشارين وكسند عسكري وإداري للدولة. وفي بداية الدولة اعتمدت على التنظيم المذهبي لما يشبه ـ الزاوية ـ الدول والدويلات الصغيرة التي مرت بالمغرب جميعها. لم يكن مفهوم الدولة واضحاً عندها وإنما هي شخصية القائد وفكره والمساعدون له. وكثيراً ما كان بعض هؤلاء المساعدين يثور على الدولة ليصبح خصماً أو ليقوم بانقلاب. ولم تنجح الانقلابات في كثير من الأحيان ولو أنها أصابت هذه الدويلات بالخلل وانعدام الاستقرار.

وقد بينا سابقاً الأسباب العميقة لإنهيار الدويلات والدولتين الكبيرتين. كما أشرنا إلى دور المؤسسين الكبار في الحفاظ على الدولة، وبداية السقوط بعد رحيلهم .

ولم يهتد رؤساء المرابطين والموحدين إلى بناء الدولة على أساس اللامركزية، أو إلى منح الاستقلال الداخلي لبعض البلاد الواقعة تحت سيطرتهم والاكتفاء بالولاء، ودفع الخَراج كما حدث بالنسبة للأغالبة مع الخلافة الإسلامية وبالنسبة الزيرية الصنهابيّة في تونس مع العبيديين في مصر.

ما حدث بعد المؤسسين الكبار سبب الانهيار السريع للدولة حتى إن المرابطين لم تستمر دولتهم أكثر من تسعين سنة (451 هـ ـ 541 هـ) ابتداء من النشأة على يد عبد الله بن ياسين إلى النهاية على يد إسحاق بن علي. فهل من المعقول ألا تدوم دولة كدولة المرابطين التي أقام صرحها يوسف بن تاشفين أقل من قرن من الزمان، ودولة الموحدين ولو أنها استمرت قرناً ونصف قرن (515 هـ ـ 668 هـ) إلا أنها انتهت عملياً بعد موقعة العقاب في عهد الناصر وظلت الأطماع والخلافات والاضطرابات والهزائم في الأندلس وإفريقيا تتجاذب الدولة حتى انتهت نهائياً بقيام المرينيين في المغرب، وانفصال الحفصيين في تونس. وبذلك يمكن أن نؤكد أن شخصية المنشئين كانت هي العامل القوي في قيام الدولة وفي استمرارها في الزمان الذي كانت الدولة

تحت قيادتهما، وفي الزمن القصير الذي أدارها فيه خلفاؤهما من بعدهما.

يبدو أن الانهيار الذي هو أسرع مما يمكن أن يتصوره ـ مؤرخ ـ معاصر ـ كا ن طبيعياً لأن الدولة كانت هي الرجل، فإذا مات الرجل بدأت الدولة في الذبول والانهيار. ولأن القائمين على الدولة من القواد العسكرين والولاة الإداريين كانوا فيما يبدو أقل إخلاصاً للدولة رغم المناصب المهمة التي كانوا يحتلونها. ولأن المطامع كانت تنخر الدولة من خارج، على نحو ما فعل ـ الموحدون بالمرابطين ـ أكثر مما ينخرها الخلل الداخلي.

ويبدو من كل ذلك أن الدول في العصر الذي نتحدث عنه وبالظروف والمشاكل التي كانت تعترضها، لم تكن لتعيش أكثر مما عاشت الدويلات المغاربية والدول الكبرى على السواء.

إشراقات في عهد الموحدين.

حاول المرابطون وحقق الموحدون فكرة مهمة وأساسية وهي توحيد المغرب الكبير، أي توحيد المغرب والجزائر وتونس وليبيا في كيان واحد أو متحد. ذلك أن هذا الكيان تفرضه الجغرافية، فجبال الأطلس التي تنطلق من المغرب حتى الجزائر حتى الحدود التونسية. لتوحد المغرب لا لتفرقه. وقد منحت هذه المنطقة وحدة في السكان ووحدة في التاريخ المشترك الذي جمع هذه البلاد مثلاً في مقاومة الغزو الذي يأتي من الشمال أو من الشرق.

قرطاجة ولو أن مركزها في المنطقة (تونس) إلا أنها احتلت شواطىء هذه البلاد وواجهتها مقاومة من السكان الأصليين. ربما لم تكن مقاومة شرسة وإنما كانت تتسم بالتعاون أحياناً وبإيقاف المد العسكري والسياسي مع السماح بالتوسع التجاري، وربما التأثير الحضاري أيضاً. وقاومت هذه المنطقة كما سبق في الجزء الأول من هذه الدراسة الغزو الروماني والوندالي، وساهمت في توسيع دائرة الفتح الإسلامي، ابتداء من القيروان حتى الشواطىء الأطلسية. ثم نجد هذا العامل الأساسي في التوحيد يظهر كذلك في الاستعمار الغربي

الفرنسي ثم الإيطالي. وابتداء من وحدة السكان واللغتين الأمازيغية والعربية والدين وما يخلفه الاستعمار المشترك، توحدت مفاهيم هذه الشعوب واقتربت لهجاتها وتقاليدها الاجتماعية والحضارية وإرثها الثقافي والحضاري المشترك. فهذه العوامل جميعها هي التي ساعدت على تبني فكرة اتحاد المغرب العربي في العصر الحديث.

وكانت هذه العوامل ـ باستثناء المحدث منها ـ هي المنطلق لتأسيس بعض الدويلات المشتركة أحياناً بين الجزائر والمغرب الحاليين أو بين تونس والجزائر الحاليين. والمستقلة أحياناً بطرف من الجزائر أو طرف من تونس أو القطر التونسي كله أو الجزائري كله. وكانت هي العامل أيضاً في محاولة امتداد نفوذ العبيديين من تونس حتى المغرب والصراع الذي بينهم وبين الأمويين في الأندلس.

دولة المرابطين فَكَّرَت في توحيد هذه المنطقة وساعدها التوحيد الجزئي (حتى الجزائر) على دفاعها عن الإسلام في الأندلس. كان هذا التوحيد يطمئنها، وهي تقاوم النصرانية الزاحفة في الأندلس. على مصير المغرب في أكبر حدوده الممكنة من نهر السينغال حتى شمال الأندلس.

ساعدت هذه العوامل جميعها أيضاً عبد المؤمن بن علي للقيام بنفس العمل مضيفاً إليه تونس، التي طالما كانت مرتبطة بالعبيديين على عهد بني زيري وقبلهم كانت مرتبطة بالخلافة الإسلامية على عهد الأغالبة. عبد المؤمن وحد هذه المنطقة جميعها بنضال مرير ضد الغزو النصراني للشواطىء التونسية، وكذلك ضدَّ الدولة المنفصلة التي كانت تحكم تونس على عهده وضد العبيديين ومن جاء بعدهم والأيوبيين.

لماذا لم تستمر وحدة المغرب الكبير بعد وفاة عبد المؤمن على نحو ما أرادها؟. الجواب نجده في الأسباب التي شرحناها في فقرة سابقة والتي مزقت الإمبراطورية والدولة معاً. ونجده في انعدام مفهوم صالح (للدولة

الإمبراطورية) في عصرهم ذاك.

ولكن هذا لا يمنع من أن فكرة الوحدة أو الاتحاد التي فرضتها الظروف والعوامل التي أشرنا إليها في مقدمة هذه الفقرة، تَحَقَّقَ وجودها في العصر الحديث. وليس عبثاً أن الاستعمار الفرنسي وضعها في مقدمة امبراطوريه لما وراء البحار. فلم يكتف بالجزائر، بل وضع عينه على تونس منذ احتلالها حتى حقق الجزء الثاني من الهدف، ثم وضع عينه على المغرب وناور في ظروف دولية وداخلية خطيرة جداً حتى فرض معاهدة الحماية على المغرب سنة 1912. وقبل ذلك احتله من أطرافه الصحراوية وضايقه في حدوده الشرقية، فحقق بكل ذلك وحدة المغرب الكبير تحت الاستعمار الفرنسي إلا المنطقة الشمالية التي ألت إلى إسبانيا بالسماح باحتلالها تحت معطف الحماية لسنة 1912.

وسنتحدث عن هذه الفترة ابتداء من احتلال الجزائر في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

بعد استقلال أقطار المغرب الكبير ماذا يمنع من توحيده، وقد وحده السكان والنضال المشترك ضد الاستعمار القديم والجديد، بل هناك ظروف جديدة، انضافت إلى الظروف القديمة وهي التحديات الاقتصادية وتحديات النمو الديموغرافي وتحديات الحاجة إلى تنمية اقتصادية مشتركة وتحديات الشمال الذي توحد تحت راية الاتحاد الأوروبي، ثم تحديات العولمة التي ستصبح مع مرور الزمان إكراهاً خطيراً للدول الصغيرة يقزم نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. فلا وجود لدول صغيرة بعد كل هذه التحديات ولا مفر إذن من استعادة وحدة المغرب العربي في شكل الاتحاد الذي وضعت أسسه سنة 1989.

إنجازات عمرانية:

لم تشغل السياسة والحرب الموحدين وبالأخص كبار أمرائهم رغم الصراعات القوية الشديدة البأس التي قاموا بها ضد الزحف النصراني في

الأندلس، لم تشغلهم عن البناء والإعمار. وقد كان الأمراء الأولون منهم ذوي ثقافة ومعرفة واتصال بالعلماء والأدباء والمثقفين عموماً. ويذكر المؤرخون كثيراً من الصفات الذاتية والفكرية لعبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب، ما يؤكد أنهم استفادوا من الفضاء الثقافي الذي كان ما يزال يشع في الأندلس والمغرب. وقاموا بتنظيم جيد للدولة بحيث كانوا يولون كثيراً من المناطق التي يحتلونها رؤساء لإدارتها. وكثير من أبناء عبد المؤمن كانوا ولاة على مناطق من الأندلس وتونس والجزائر، وواضح أن جهادهم العسكري كان يقوم به ضباط كبار كانوا يختارون من بناة الدولة الموحدية. وكثير من الرجال (جماعة العشرة والخمسين) الذين نظمهم المهدي أصبحوا ضباطاً عسكريين أو ولاة وكانوا أيضاً يختارون مجموعة من القضاة الأندلسيين والمغاربة للحكم في القضايا من مختلف الولايات.

عرفت دولة الموحدين إنجازات عمرانية على غرار ما عرفت دولة المرابطين ودولة الأدارسة. فقد أنشأ عبد المؤمن الأساطيل البحرية التي وصلت 400 قطعة في مختلف سواحل مملكته من المغرب حتى وهران وتونس والأندلس. وبنى في جبل طارق الذي سماه جبل الفتح الكثير من القصور وبنى مدينة خاصة للدولة الموحدية. وإذا كان عبد المؤمن قد هدم أسوار بعض المدن عندما فتحها كما فعل بأسوار مدينة فاس، فإن حفيده يعقوب المنصور سيعيد بناء هذا السور ويكمله ابنه الناصر.

ومن الإنجازات الكبرى التي سجلت في عهد يعقوب المنصور بناء مدينة الرباط وإكمال سورها وتركيب أبوابها، وكذلك بنى المسجد الأعظم بسلا وجامع حسان ومنارته العظمى، وفي مراكش بنى قصبة مراكش والجامع الأعظم ومنار جامع الكتبيين. وكذلك فعل في إشبيلية حيث بنى الجامع الأعظم ومنارته الكبرى (الخيرالدة) وخص البرج على وادي إشبيلية.

ويتحدث المؤرخون بإعجاب وإسهاب عن الدقة التقنية والهندسية التي

بنيت بها المنارات الثلاث في مراكش والرباط وإشبيلية وعن الدقة الهندسية التي بنيت بها مقصورة مسجد مراكش.

أما الناصر فقد حفظ له التاريخ بناء أسوار باديس والمدية ومليلية وجدد سور مدينة وجدة وأصلحه.

أمراء الموحدين هم الذين امتازوا بين أمراء الدول بنشاطهم العلمي. فقد كان لكل من عبد المؤمن ويوسف والمنصور والناصر نشاط علمي ذاتي واطلاع في عقول المعرفة المعروفة آنذاك، وخاصة العلوم الإسلامية والفقهية والأدبية. واجتمع ليوسف عدد من العلماء والفلاسفة منهم ابن طفيل وابن ماجة وابن رشد والكرواني. كما كان يفد عليهم كثير من الشعراء يستمعون لشعرهم ويتذوقونه.

الحفصيون يستقلون بتونس
ضِمنَ استمرارية الموحدين

لعله لم يسبق لدولة أو دويلة في المغرب الكبير أن انفصل عنها جزء من الدولة واستمر في نفس الوقت ينتمي للدولة نفسها، دون أن يحافظ على اسمها كما حدث في انفصال الحفصيين واستقلالهم بتونس، مع المحافظة على الانتماء الشكلي للموحدين. الدولة الحفصية جزء من الدولة الموحدية، ولكنها منفصلة عنها تحمل اسماً آخر مؤخوذاً من أحد زعماء الموحدين وهو أبو حفص عمر الهنتاتي رفيق المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي.

وقد مرت الدولة الموحدية بفترة الاحتضار بوفاة الناصر سنة 610 هـ إلى دخول المرينيين مراكش سنة 668 هـ، أي أكثر نصف قرن بقليل توارد على الخلافة فيه المستنصر توفي سنة 620 هـ، وعبد الواحد المخلوع سنة 621 هـ، وعبد الله العادل سنة 624 هـ، والمعتضد بالله سنة 646 هـ، والمرتضى سنة 665 هـ، والواثق سنة 668 هـ وهو آخر خلفاء الموحدين.

في هذه الفترة كانت الدولة تَحتضر، ولم يكن في استطاعة أي منهم أن يقوم بأي عمل، لا في الأندلس التي كان فيها التمرد مستمراً، ولا في الشرق الذي كان التمرد فيها أكثر فذاحة بسبب بني غانية. ولكن بعض هؤلاء الخلفاء كانوا يُعَيِّنُونَ ولاة من أقاربهم، وأحياناً نواباً عنهم من أبناء عبد الواحد الحفصي الذين كانوا يقومون في نفس الوقت بمهمات عسكرية لمقاومة المتمردين وخصوصاً ابن غانية الميورقي.

هذه الفترة التي امتازت بالاضطراب والعجز عن الحكم في المركز

مراكش، انعكست على الولايات وخاصة في تونس، حتى ولي أبو زكرياء يحيى ابن عبد الواحد وهو الذي أقام أركان الدولة الحفصية في تونس بعد اضطرابات ناتجة عن تولية هذا، وعزل ذاك من الخلفاء المتفسخين في مراكش أو من ثورات حدثت في تونس، قام بها المتمردون أو الولاة ضد آخرين.

لعب الحفصيون دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة حتى إنهم ظفروا بولاء المرينيين الذين خطبوا باسمهم في أول أمرهم في المغرب بعد أن بايعتهم تلمسان وسجلماسة وسبتة وطنجة ومكناسة. وعظم شأن الحفصيين خاصة بعد سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة 567 هـ، فبعث أمير مكة وأهل الحجاز بيعتهم إلى المستنصر الذي أتى بعد أبي زكرياء يحيى لضرورة أن العالم الإسلامي انتهت فيه الخلافة ولم تعد سلطة قوية تحكم جزء من هذا العالم إلا سلطة الحفصيين.

بدأ عهد الدولة الحفصية بولاية أبي زكرياء يحيى الذي سيطر على الملك وأعلن نفسه خليفة سنة 626 هـ وانتهت الدولة بتخلي اللحياني، الذي بويع على كبر سنه، ثم عجز عن ممارسة الحكم واعتزل سنة 717 هـ. إذن سلطة الحفصيين استمرت عملياً 91 سنة ولم يزد عمر هذه الدولة القوية العظيمة عن عمر الدويلات التي تحدثنا عنها سابقاً، ولكنها كانت استمراراً لعهد الموحدين بشكل أو بآخر وسنعرف مدى استمراريتها بالجواب عن السؤال الآتي:

من هم الحفصيون؟

يرتبط أصل الحفصيين بالموحدين منذ البداية. وكان في مقدمة العشرة أبو حفص عمر الهنتاتي. ويذكر التاريخ أن الاسم والكنية منحهما إياه المهدي ابن تومرت باعتباره بمنزلة الرسول محمد (ﷺ). وعمر هذا بمنزلة عمر ابن الخطاب. وقد قام أبو حفص هذا بدور كبير في تركيز الدعوة الموحدية ثم في اختيار عبد المؤمن بن علي كخليفة للمهدي بعد وفاته، وكان مستشاراً وزعيماً ومحارباً في دولة عبد المؤمن بن علي إلى أن توفي سنة 571 في مدينة سلا وهو في طريقه إلى مراكش عائداً من الأندلس. وتستمر السلسلة الحفصية

بتولية أبو محمد عبد الواحد ابن عمر الحفصي على تونس. وقد كان إلى جانب مصاهرته للمنصور يتمتع باحترام كبير وثقة كبرى لذى المنصور والناصر من بعده، وكان لولايته في تونس التي استمرت من (603 هـ إلى 618 هـ) أثر كبير في استمرار سلطة الدولة الموحدية في تونس رغم ما أصابها من وهن بعد هزيمة العقاب. ذلك أنه قاوم كل المتمردين والطامعين في السلطة سواء منهم ابن غانية الذي كان على ولاء للمرابطين أو الآخرين الذين سولت لهم أنفسهم أن يثوروا في تونس بعد أن أدركوا أن الدولة الموحدية بدأت في الانهيار.

جاءت البداية على يد أبي زكرياء يحيى ابن عبد الواحد. ومن بعده جاء ابنه المستنصر ابو عبد الله محمد بن أبي زكرياء، وهاتان الشخصيتان هما اللتان أقامتا الدولة المستقلة وبنتا لتونس الحفصية مركزاً مهما في الغرب الإسلامي، ولذلك سنقتصر على تحديد معالم كل منهما والانجازات السياسية والعمرانية التي تمت في عهدهما.

يحيى بن عبد الواحد

أما أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد فقد مارس الحكم والقيادة للموحدين في الأندلس ثم في تونس بعد ذلك على صغر سنه بعد نزاع مع أخيه عبدالله عبو. واستولى على العاصمة ونصب نفسه ملكاً عليها. وانتهز فرصة الانهيار الذي أصاب الدولة الموحدية وخاصة في عهد المأمون، فأعلن نفسه أميراً مستقلاً وخطب لنفسه في المساجد، وضرب النقود باسمه وباسم الخليفة عبد المؤمن، وبدأ يمارس الحكم باستقلال كامل عن الموحدين وإن كان يعتبر أن الدولة الحفصية استمرار للدولة الموحدية. وبإعلان استقلاله عن الدولة الموحدية بدأ يسعى إلى توسيع دائرة ملكه فاستولى على بجاية وقسنطينة وبذلك انفتح ملكه على الجزائر. واستمر يحارب خصومه من المتمردين (منهم بنوغانية) حتى استولى على الجزائر ثم تلمسان التي افتكها من بني عبد الواد سنة 640 هـ، وأصبح عبد الواد مبايعاً للحفصيين وضم إليه الدولة الحمودية في القلعة، وقد أحسن صنعاً حينما صالح بعض القبائل واعترف بولاية

زعمائهم فأسس بذلك حكماً لا مركزياً في بعض المناطق ليضمن الأمن ويحد من الثورات التي كانت تقوم هنا وهناك. ونفوذ أبي زكرياء داخل تونس والجزائر جعل منه أكبر أمير في دولة اسلامية، وجعل من دولته أكبر قوة في المنطقة. لهذا استنجد به بعض ملوك الطوائف (كابن مردنيش) لمواجهة الزحف النصراني الذي كان يستولي على المناطق والمدن المهمه في الأندلس حتى سقطت قرطبة بيد ملك قشتالة فرندناندو سنة 1236 م وبايعته إشبيلية وشريش، ودان له أمير غرناطة ابن نصر. وكانت إشبيلية سقطت من جديد في يد ملك قشتالة السابق ذكره سنة 646 هـ.

نستنتج من كل هذا أن أبا زكرياء لم يكن يستطيع، رغم نفوذه الواسع وقوة مملكته وكثرة أمواله، أن يغامر بالدفاع عن الأندلس كما غامر من قبله المرابطون والموحدون. وذلك لأنه كان محتاجاً إلى قاعدة كبيرة في المغرب من جهة، ولأنه من جهة أخرى كان حذراً من زحف النصرانية على شمال تونس، وهو يعرف أن المهدية كانت قد سقطت في يد الصقليين على عهد عبد المؤمن وخلصها من الاحتلال النصراني.

صرف النظر عن الأندلس ولكنه لم يصرفه عن المغرب، فقد كان نفوذه المعنوي وسمعته الدولية تنوب عن عمله العسكري فبايعه الجزء الشمالي من المغرب طنجة وسبتة والقصر الكبير. وبايعه المرينيون الذين كانوا في بداية عهدهم، فخطبوا له في فاس ومكناس وفي كثير من المدن المغربية الأخرى.

هكذا استطاع نفوذه العملي أن يمتد من طرابلس إلى بجاية ونفوذه المعنوي أن يمتد إلى شمال المغرب ووسطه.

رغم أن هذا النفوذ والاستقلال كان يمكنه من إنشاء الدولة والاستقلال بها إلا أن تعلقه بالدولة الموحدية ظل قائماً، حتى إنه كان يركز الصيغة الموحدية في الدولة الحفصية إلى درجة تحويله الشرعية الموحدية من المغرب إلى تونس.

المستنصر بالله

الشخصية الثانية التي برزت في عهد الحفصيين وأقامت صرح الدولة

وقضت على خصومها وغزاتها هي شخصية المستنصر بالله (أبو عبد الله محمد ابن أبي زكرياء يحيى) وكان ولياً للعهد في حكم أبيه، ورغم أن هذا الأمير بويع وسنه عشرون سنة، فقد قام بأعمال مهمة وجليلة في تركيز الدولة الحفصية ونشر إشعاعها في المشرق والمغرب، تولى الخلافة دون منازع. ثم بدأت الاضطرابات تحاصره لانتزاع السلطة منه سواء من بعض الحفصيين أنفسهم كابن عمه اللحياني أو من بعض الموحدين، الذين طمعوا في استرجاع سلطة دولتهم الغاربة عن طريق تونس والحفصيين، أو من بعض القبائل العربية والبربرية التي احتفظ بعضها بالسلطة والنفوذ في بعض الجهات كقبيلة النواودة، أو من جانب الذين أغاروا على تونس عدة مرات فواجه حملتهم الصليبية كما سنتحدث عن ذلك في فقرة قادمة.

لم يكن غريباً على أمير تولى العرش في بلاد كتونس وسط المغرب الكبير ـ الذي كان في عهد الموحدين يضم ما بين برقة وتخوم الأندلس إلى جنوب الصحراء الكبرى ـ أن يواجه هذه الصعوبات وغيرها كثير في العصر الذي نتحدث عنه. ولكن المستنصر استطاع بذهائه وحنكته وطول المدة التي قضاها في الحكم (27 سنة) والدائرة التي أحاط نفسه بها أن يحافظ على الدولة الحفصية وأن يبلغ نفوذه فيها واشعاعه مدا بعيداً.

بسلطته الواسعة والحازمة أعلن نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين. وبهذه الصفة التي صادفت انهزام الخلافة العباسية على يد المغول في المشرق وانهيار الخلافة الموحدية في المغرب، لم يبق خليفة للمسلمين إلا المستنصر. وبهذه الصفة تلقى بيعة من أمير مكة ابن نمى (جد الهاشميين الذين يحكمون الأردن حتى الآن) وبايعه في رسالة يقال إن الذي كتبها هو الفيلسوف الأندلسي «ابن سبعين» سنة 657 هـ. وكان هذا الاعتراف بالنسبة للمستنصر بمثابة إقرار بخلافته على المسلمين كافة. وعزز هذا الاعتراف المشرقي أيضاً رسالة بعث بها إليه السلطان قُطُزْ من دولة المماليك في مصر سنة 658، هـ تلقبه بأمير المؤمنين وتخبره بالانتصار الذي حققه على المغول في فلسطين. وعزز هذا الاعتراف أيضاً الجانب المغربي بيعة بني مرين وهم في بداية نشأتهم للخليفة المستنصر

(وسنعرف فيما بعد أن بني مرين كانوا يتقون بذلك غضب ونقمة الحفصيين الذين اعتبروا أنفسهم استمراراً للدولة الموحدية وقد لا يكون من حق جماعة أخرى (المرينيين) أن يخلفوا الدولة الغاربة والحفصيون في الحكم).

هذا المزكز الهام الذي حصل عليه المستنصر من الخارج على الأخص لم يكن يمنع عنه الاضطرابات التي حدثت في الداخل ومن أهمها:

محاولات انقلابية قام بها بعض الحفصيين كابن عمه اللحياني، كذلك أبو إسحاق إبراهيم أخوه الذي حاول أن يستعين بقبيلة الذواودة القوية على تنصيب نفسه ملكاً في شرق تونس، أما في غرب تونس فقد تزعم أبو علي بن أبي العباس ثورة في مليانة، واستقل بالحكم فيها وقمع المستنصر هذه الثورة كما قمع الانقلابات من قبلها وانتهى الأمر بتسليم مليانة إلى زعيم مغراوة من أولاد منديل مقابل الولاء للحفصيين. وكان المستنصر بهذا يتعمد أن يترك الحكم المحلي لبعض زعماء القبائل مع الولاء للدولة حتى لا يواجههم بالحرب التي لا يطمئن إلى نتائجها.

ومن المشاكل التي عاناها المستنصر في حكمه انفصال مدينة الجزائر عن الدولة سنة 664 هـ، وقد استطاع استعادة المدينة إلى سلطة الحفصيين بعد ثلاث مراحل من الحرب والمحاصرة، فشل في اثنتين منها ونجح في الثالثة سنة 673 هـ.

وفي بداية عهده بالحكم خرجت سبتة وطنجة عن طاعة الحفصيين وتبعهما في ذلك ابن نصر صاحب غرناطة بأن ألغى الخطبة للحفصيين.

كل هذه المشاكل قد تبدو خطيرة حينما يستعرضها المؤرخ، ولكنها طبيعية في العصر الذي نتحدث عنه، فقد كانت الدولة غير مقننة بدستور أو بنظام محكم إلا نظام (البيعة) وهو نظام هش عرف الحكم في البلاد الإسلامية مشرقاً ومغرباً هشاشته من النماذج التي كان كثير من الحكام والأمراء والسلاطين والملوك والخلفاء يبايعون، ثم تنقض بيعتهم كما كان كثير من الأدعياء يعلنون أنفسهم ملوكاً أو أمراء بمجرد (بيعة) يأخذونها أحياناً بالقوة من قبيلة أو طائفة تسندهم.

اضطرابات في العهد الحفصي

ولكـن المستنصر رغم كل هـذه المشاكل، التـي صاحبتها انتصارات مهمة واعترافات مهمة من المشرق والمغرب، استطاع أن يقيم حكماً قوياً وينجز إنجازات مهمة على غرار ما فعل والده أبو زكرياء يحيى .وستكون هذه الإنجازات موضوع الفقرة التالية:

رغم أن الدولة الحفصية حكمت تونس ما يقرب من 350 سنة، وهي أطول مدة حكمت فيها عائلة من العائلات التي أسست دويلات وامبراطوريات في المغرب الكبير، فإن الدولة لم تكن قوية الجانب متسمة بالاستقرار والإنجاز إلا في عهد أبي زكرياء والمستنصر بالله، وهي فترة قصيرة بالنسبة لما سجلته العائلة الحفصية في تاريخها الطويل من السيطرة على تونس ومن الاضطرابات والإنقلابات والثورات التي كان يقوم بها زعيم أو متزعم أو قريب للسيطرة على الدول. ويذكر التاريخ نحواً من 27 أميراً من بداية الدولة الحفصية على عهد عبد الواحد إلى نهايتها على عهد محمد بن الحسن، الذي انساق مع الغزاة الإسبانيين وحارب معهم ضد المنقذين العثمانيين فأسره هؤلاء بعد انهزام الغزو الإسباني ونقلوه منفياً إلى الأستانة سنة 981 هـ وهناك توفي. وانتهى بوفاته عهد سلالة الحفصيين والدولة الحفصية. في هذه المسيرة الطويلة بين موت المستنصر بالله ونهاية الدولة عرفت تونس تقلبات خطيرة في عمق الدولة حتى إنها انقسمت إلى دولتين شرقية، وكانت عاصمتها تونس، وكان يتولى أمرها عمر بن أبي زكرياء، والغربية وتضم قسنطينة وبجاية. وكان يتولى أمرها يحيى بن أبراهيم.

هذا الانقسام لم يكن لصالح الدولة الحفصية. ورغم أنه حافظ على اسم الدولة، ووقاها في فترة محدودة من الانقلابات والثورات ورغم أن الدولتين حققتا بروتوكول اتفاق لتوحيد الدولة في عهد أبي عصيدة ويحيى ابن إبراهيم فإن هذا الاتفاق اصطدم بكثير من الانقلابات والثورات.

ويميز هذه المرحلة المضطربة من عهد دولة الحفصيين سيطرة بعض الوزراء والحجاب على أمور الدولة، وتولية بعض الأطفال على العرش مثل

أبي إسحاق إبراهيم الذي ولى وهو غلام سنة 791 هـ ومثل خالد الثاني الذي جلس على العرش ولم يتجاوز الصبا سنة 770 هـ. وظاهرة أخرى سياسية مهمة محاولة المرينيين على عهد أبي الحسن السيطرة على تونس وضمها إلى المغرب، اقتداءاً بعبد المؤمن بن علي. وانتهزوا فرصة الصراع الداخلي بين أخوين هما أبو حفص عمر وأبو العباس أحمد. واستولى أبو الحسن المريني على تونس. ولكن الحلم الذي راوده لم يستمر طويلاً فانهزم في معركة مع الأعراب وعاد أدراجه إلى المغرب بعد أن حكم تونس نحو سنتين ونصف السنة.

من نتائج هذه الاضطرابات ومن مظاهر انهيار الدولة أن بعض الذين تولوا الملك لم يستطيعوا الصمود في وجه هذه الاضطرابات، وربما خوفاً من المصير الذي لقيه كثير من الأمراء فخلعوا أنفسهم. ومنهم يحيى الواثق ابن المستنصر الذي خلع نفسه لصالح عمه الذي ثار عليه سنه 678 هـ ومنهم أبو البقاء خالد الملقب (بالناصر لدين الله) الذي اضطر لخلع نفسه لصالح أبي يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني سنة 711 هـ وهذا نفسه لم يستطع أن يصمد أمام الملك الذي استولى عليه، وأمام استفحال قوة قريبه السلطان أبي بكر وخلع نفسه لصالحه متخلياً عن الولاية.

هل نستطيع بعد هذا أن نقول إن الحفصيين حكموا ثلاثة قرون ونصف قرن؟ المؤرخون يعدون هذه الفترة الطويلة من حسنات الحفصيين. ولكن نرى أنهم لم يستطيعوا تجديد عهد الموحدين بالحفاظ على وحدة المغرب وعلى القيام بواجب الدولة الإسلامية في مقاومة الزحف النصراني على الأندلس. وبذلك يكون عهد الحفصيين، رغم ما قام به بعضهم من إنجازات ـ في تونس ـ مثالاً لعهود الدويلات الأخرى التي نشأت في المغرب وتونس والجزائر قبل عهد الامبراطورية. وقد سبق أن قلنا أن انهيار الدولة العباسية أحدث فراغاً في مؤسسة الخلافة، وكان مرشحاً لملء هذا الفراغ الحفصيون وحدهم الذين كونوا قوة وسط العالم الإسلامي وبايعهم أمير مكة ومصر والمرينيون في بداية عهدهم، وصاحب غرناطة آخر مماليك الأندلس. ولو جاء بعد المستنصر أمراء من حجمه وحجم والده أبي زكرياء لقامت الدولة الحفصية بدور الخلافة،

ربما، بدلاً من العثمانيين الذين آل إليهم أمر الخلافة بعد انهيارها في المشرق.

إنجازات مهمة في العهد الحفصي

يصر المؤرخون للعهد الحفصي على الإشادة ببعض المنجزات المهمة ويذكرون منها: ما بناه أبو زكرياء يحيى من مساجد ومدارس وأسواق وإدارات الدولة ومكتبات مهمة ضمت آلاف المجلدات. كما يذكرون نظاماً للري استفادوه من عهد الرومان يعتمد على جلب المياه في حنايا مرتفعة توصل المياه إلى البساتين والمزارع والمساجد.

كما يذكرون للشيخ عبد الواحد الجد الثاني للحفصيين تنظيمه للجيش على أساس الاعتماد على الموحدين ثم العرب والبربر ثم المشارقة والأندلسيين والإفرنج من النصارى الذين أسلموا. والوضع الجغرافي لتونس فرض أن تتكون فيها موانىء تستغل عسكرياً بتكوين أساطيل للدفاع وللهجوم تارة واستغلها بعض المجازفين للقرصنة. ولإنشاء هذه السفن بنوا دوراً للصناعة وقد كان لهذا الأسطول دور يسجله التاريخ وهو مساعدة المرينيين بست عشرة سفينة في دفاعهم عن الأندلس ضد النصارى. من الظواهر المهمة التي تعتبر نوعاً ما إنجازاً إدارياً منح الحرية لبعض المدن وخاصة الجنوبية مما يمكن أن يسمى نظاماً لا مركزياً، في الحكم كما قدمنا. ولكن هذا النظام أدى إلى تنامي سلطة بعض المتولين وقيامهم بمحاولات انقلابية أو بدعوة المتولى لنفسه في المنطقة مما ضاعف من أسباب الاضطرابات السياسية الداخلية.

الصراع العسكري مع الغرب

صراع المغرب مع الغرب كان بالنسبة للقرون الوسطى طبيعياً وربما حتمياً. تعود طبيعته وحتميته إلى أسباب منها:

أولها: طبيعة العصر التي كانت تفرض على كل الحكام والمتطلعين إلى الحكم أن يصلوا إلى أهدافهم عن طريق الحرب والصراع. وقد كانت أوروبا في العصر الوسيط ضحية هذه الحروب والصرعات بين الأمم. وبين الإمارات

المخلفة في الأمة الواحدة. ذلك أن مفهوم الدولة حديث بالنسبة لبعض البلاد الإسلامية، إلا في عهد الخلافة الأموية ثم العباسية والأموية في الأندلس. ولذلك كان كل وال في منطقة ما من «القطر» الواحد يعمل على توسيع سلطته والدفاع عن إمارته. وسبيلهم هي الحرب، ولا شيء غير الحرب. ورغم أن هذه الحروب كانت تنتهي أحياناً بصلح أو اتفاق، فإن الصلح والاتفاق كثيراً ما ينقضان ليعود الأمر إلى الحرب من جديد.

ثانيها: أن الصراعات الطائفية والقبلية كانت تدمر الأمم والشعوب، وتثير بينها حروباً متواصلة، سواء في أوروبا أو في إفريقيا أو آسيا.

ثالثها: زادت هذه الصراعات حدة لتدخل عامل الدين بين الشمال والجنوب أو بين العالم الإسلامي والعالم الغربي. كانت الصراعات بين المسيحيين أنفسهم وبينهم وبين اليهود، ثم ظهر هذا الصراع بين طوائف النصرانية وخاصة الكاثوليك والبروتسانت منذ القرن السادس عشر عندما تزعم مارتين لوثر المذهب الجديد. وحينما انتشر الإسلام في أقطار شاسعة من الشرق ابتداء من شبه الجزيرة ثم دمشق وبغداد على عهد الخلفاء والخلافة الأموية والعباسية بدأ يطرق أبواب الغرب. فأسلمت الأمم التركمانية، ومنها تركيا الحالية. واستمر الإسلام ينتشر في المشرق حتى طرق أبواب فيينا. وفي المغرب حتى وصل «بواتيي» في فرنسا الحالية مروراً بالأندلس.

هذا الانتشار الإسلامي دفع بالمسيحية إلى ردود فعل قوية، فكانت الحروب الصليبية في المشرق لاحتلال القدس مهد المسيح، وبناء دولة مسيحية في المنطقة الكبرى التي احتلها الزحف المسيحي المتحالف من مختلف أمم النصرانية، واندفعت إلى جانبه حملة أخرى صليبية للدفاع عن إسبانيا المسيحية بعد أن أسلم وتعرب جزء منها هو الأندلس. وكان يراد من هذا الزحف المتحالف كما سنشير في فقرة أخرى هو استرداد الأندلس وتركيز النصرانية فيها.

جزء من هذا الزحف الشرقي والغربي تمثل في القضاء على الإسلام في

صقلية، التي كان قد احتلها بنو الأغلب ونشروا فيها الإسلام. عدة عقود من السنين ثم احتلها القوة بعد ذلك وقضوا على الإسلام فيها وفي الجزر القريبة، وفي إيطاليا نفسها التي تعرضت في فترة من تاريخها إلى احتلال جيوش إسلامية لأطرافها، وصلت في بعض الفترات إلى روما.

وهذا التكتيك النصراني في وسط البحر الأبيض وجد ضالته في الهجوم على الشواطىء التونسية واحتلال بعضها كالمهدية وتونس نفسها وشواطىء أخرى. حدث هذا في عهد الامبراطورية الموحدية. وقد صد الهجوم عبد المؤمن بن علي نفسه، وحرر المهدية. وتوالي الهجوم في عهد الدولة الحفصية كما سنشير إلى ذلك في هذه الفقرة.

رابعها: التماس الجغرافي، وخاصة في الأندلس بين الممالك والحكومات الإسلامية، وبالأخص في عهد ملوك الطوائف، والتماس بين وسط البحر الأبيض شماله وجنوبه بين الجزر المحيطة بإيطاليا والبلاد التونسية، والبحر لم يكن فاصلاً بل يقرب بين الشمال والجنوب. وهذا التماس الجغرافي سنجده أيضاً في الصراع بين إسبانيا والبرتغال من جهة والمغرب الأقصى من جهة أخرى، مما أدى إلى صراع مرير حول الشواطىء الأطلسية المغربية، التي احتلها البرتغال والإسبان معاً في حروب مريرة. وكذلك حول سبتة ومليلية التي قامت من أجلهما بين الدولتين الغربيتين وبين المغرب حروب خطيرة. ونفس الصراع حدث مع انجلترا التي احتلت طنجة ردحاً من الزمان.

خامسها: عامل القرصنة التي انتشرت في جنوب أوروبا، وهددت أمن البحر الأبيض لمدة طويلة، وكان لها أثر في احتلال بعض الشواطىء المغاربية: الجزائر وتونس وليبيا، بل كانت القرصنة سبب الصراع بين الشمال والجنوب، وتسربت إلى المسلمين في هذه المناطق دفاعاً عن أنفسهم. حتى إن بعض القراصنة المسلمين كالإخوة خير الدين وعروج دافعاً عن الجزائر ضد القراصنة الغربيين في القرن السادس عشر. بهذا التقديم يمكن أن نفهم جيداً قصة الصراع بين الغرب وبلاد المغرب سواء في الأندلس أو في تونس على

مختلف عهود الامبراطورية بما فيها عهد الدولة الحفصية.

تعود جذور الصراع الأساسية إذن إلى الجبهة النصرانية التي تكونت في الأندلس ضد المسلمين والإسلام وتكونت من ثلاث ممالك كبرى تسندها قوات وإمارات صغرى، هي: مملكة أرغون ومملكة ليون ومملكة قشتالة. وقد ساد فيها ملوك أشداء وأقوياء تحالفوا مرات كثيرة ضد المسلمين وتنازعوا في بعض الأحيان وضعفت قوتهم. ولكن التاريخ الطويل لهذا الصراع جعل من تحالفهم ـ أكثر من تنازعهم ـ قوة كان لها أثر قوي في ضعف الإسلام في الأندلس ثم انهياره أخيراً. وقد استطاعت هذه الدول النصرانية أن تستولي على كثير من المناطق في شرق الأندلس وغربها حتى سقطت قرطبة عاصمة الدولة الأموية الأندلسية في يد النصرانية. فكانت بذلك مؤشراً كبيراً لسقوط مناطق أخرى متوالية وكذلك شجعت القوى النصرانية على الاستمرار بقوة في الهجوم على شرق الأندلس وغربها. ثم سقطت طليطلة بعد ذلك فزادت طمع النصرانية للقضاء على الإسلام في الأندلس.

أما الجبهة الإسلامية فقد كانت ممزقة مشتتة بعد انتهاء حكم الدولة الأموية والعامرية في الأندلس وقام ملوك الطوائف بحكم بعض المناطق كما سبق لنا القول. ولكنهم كانوا متصارعين متعادين يطمع بعضهم في مملكة الآخر ويحاربه ليبتز قطعة من أرضه وفي سبيل ذلك كان أغلبهم يستعين بالدولة النصرانية ويمنح لها الجزية أو العطاء مقابل هذه المساعدة. وكان من أخطر هذا العطاء التخلي عن جزء من أراضي هذه الإمارات أو تلك لصالح هذه الدولة أو تلك من الدول النصرانية الثلاث.

ومما يذكر أن هذه الحرب التي شنتها النصرانية على الأندلس المسلمة كانت حرباً صليبية بكل ما يطبع الصليبية من تحالف دولي تحت راية الصليب. وكمثال على ذلك دعوة البابا اسكندر الثاني إلى احتلال «بريسترو» وشارك في هذا الاحتلال فرق وفرسان من فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

غير أن الحملة المغربية التي قام فيها يوسف بأشهر معاركه (الزلاقة)

وتبعه ابنه علي انتكست بسبب الهجوم القوي الذي شنه الموحدون على المرابطين للقضاء على دولتهم، رغم ما قدمه المرابطون من تضحيات كبرى في الراع مع الغرب النصراني.

استمرت الحملة في عهد الموحدين فقام عبد المؤمن بعد أن استقر له الأمر في المغرب بنجدة المسلمين والدفاع عن الإسلام في الأندلس كما سبق القول، وكان صراعاً طويلاً بين النصرانية والإسلام توجته معركة الأرك وانتهى بمعركة العقاب التي انهزم فيها المغرب على عهد الناصر كما سبق القول.

أما في وسط أوروبا وأعني بذلك الجزر المحيطة بإيطاليا وجنوب فرنسا فقد كان صراعاً من نوع آخر تجلى في عهد عبد المؤمن حينما احتل الأوربيون الشماليون المهدية وأخرجهم منها عبد المؤمن بالأسطول الذي كونه.

في عهد الحفصيين تجلى الصراع أكثر مما عرفه في وسط البحر الأبيض المتوسط وحول الشواطىء التونسية أكثر مما عرفته العهود السابقة. فقد كانت المهدية هدفاً من أهدافهم الكبرى كما كانت كثير من الشواطىء التونسية، بل تعدي الأمر إلى المدن الداخلية التي احتلها الأوروبيون بعد أن قويت أساطيلهم ورجحت كفتها على أساطيل المسلمين في البحر الأبيض.

نأخذ معركة المهدية كمثال للصراع بين الأساطيل الأوربية والبلاد التونسية. فقد بدأ احتلال المهدية في عهد بني زيري، بعد أن ضعف ملكهم، من النورمان حاكمي صقلية وهي المعركة التي خاضها عبد المؤمن وأخرج النورمان من المهدية سنة 554 هـ.

في الوقت الذي انقسمت فيه الدولة الحفصية إلى دولتين، شرقية وغربية، وجد الأوربيون الفرصة للزحف على تونس فنزلوا في كثيير من السواحل والجزر، ومنها جربة، ثم حاصروا المهدية.

استمرار الهجوم الشمالي على الشواطىء التونسية وبخاصة المهدية دفع بعديد من المجاهدين التونسيين إلى تكوين أساطيل بحرية لمواجهة أساطيل الصقليين والجنوبيين والقطلونيين.

وبدأت أعمال القرصنة المتبادلة بين الأسطولين، وإذا كان أسطول المجاهدين التونسيين يغير على كثير من الشواطىء الإيطالية والصقلية ويغنم ويأسر عدداً كبيراً من الأسرى ويعود بهم إلى تونس، فإن الشواطىء التونسية أدت الثمن فكانت الغارات الأوربية عليها وعلى المهدية بالذات خطيرة إلى درجة الاحتلال الذي يطول أمده والحرب التي تدور رحاها بين المحتلين والمنقذين. فقامت الأساطيل الغربية بحمله على المهدية سنة 792 هـ لم توفق، وكان الصراع أقوى ما يكون في عهدي أبي العباس وابنه أبي فارس وهما من سلاطين الحفصيين الكبار. ففي عهد أبي العباس هاجم قراصنة جنوة المهدية في ثمانين قطعة واحتلوها نحواً من شهرين. طردهم منها بعد ذلك أبو العباس بعد معركة طاحنة بين المتطوعين والجيش النظامي من جهة وجيش النصارى من جهة ثانية سنة 792 هـ هكذا نجد أن الحفصيين قاموا بدورهم في الدفاع عن الإسلام في جزء من بلاد المغرب هو تونس وطرابلس ضد الهجمات الصليبية. وهو نضال ينتمي إلى النضال الذي قام به المغاربة في الدفاع عن الأندلس وإن لم يوازه. ولكن هو الصراع بين الشمال والجنوب أو بين الإسلام والنصرانية أو بين القراصنة الغزاة وبلاد المسلمين. قامت كل بلاد الإسلام وملوكها ومتطوعوها بدورهم الكبير في الاحتفاظ بالإسلام في الشاطىء الواسع من حدود مصر إلى مدينة طنجة ثم الشاطىء الأطلسي إلى الصحراء. ولولا هذا الصراع الذي بدأ مبكراً كما رأينا لكان من السهل على الدول النصرنية أن تجتاح، إلى جانب الأندلس، بلاد المغرب من غربه إلى شرقه.

ذلك قدر المغاربة في الدفاع عن بلادهم وعن الإسلام في هذه المنطقة الحساسة من العالم الإسلامي، والقريبة من الشواطىء الأوربية التي تنامي فيها بعد ذلك الطمع في احتلال بلاد الإسلام على الشواطىء الأفريقية وتطور شيئاً فشيئاً إلى احتلال واستعمار سافر كما حدث في احتلال سبتة في القرن 15 ثم مليلية بعد ذلك بأقل من مائة سنة.

نهاية عهد الامبرطورية المغربية:

بنهاية دولة الموحدين تكون الامبراطورية المغربية المتسعة قد ودعت التاريخ. وقد كان يمكن للحفصيين الذين ورثوا دولة الموحدين أن يرثوا أيضاً عهد الامبراطورية. كان يمكن للحفصيين أن يستمروا على عهد عبد المؤمن وسنته لأن رجالهم الكبار وخاصة عبد الواحد وأبو زكرياء والمستنصر بالله كانت لهم إمكانيات (نسبية) ليحتفظوا بالامبراطورية. كان بقايا الموحدين في انقراض، وكان الحكم في الجزائر مضطرباً، وكانت الأندلس تعاني من الخلافات الداخلية وزحف النصرانية وكانت الدولة العباسية تنهار. وإذن فقد كان في إمكان الحفصيين أن يستغلوا كل هذه الظروف ويعدوا قوة عسكرية ونظاماً محكماً ـ رغم المنازعات والإضطرابات التي كانت تواجههم في تونس ـ ليحكموا المغرب، ربما بواسطة بعض بقايا الموحدين وبعض الحفصيين الذين كان منهم قواد عسكريون، خاصة وأن المرينيين لم يكونوا قد استعدوا بعد ليخلفوا دولة الموحدين في الحكم. وكان في استطاعة الحفصيين أن يغامروا في الأندلس لمساعدة بعض حكام المناطق فيها من المسلمين وليواجهوا المعركة الصليبية هناك، قبل أن تواجههم على الشواطىء التونسية في المهدية وفي قرطاجة كما سنرى.

غير أن الحفصيين فيما يبدو تخوفوا من المغامرة وأخذوا الدرس من الموحدين والانهيار الذي أصاب دولتهم، ولم يكن لهم طموح لتكوين الامبراطورية فاكتفوا بتونس. وبعد المائة الأولى من عهدهم عانوا اضطرابات كبرى وانقلابات متعددة حتى ولي منهم سبع وعشرون أميراً بعضهم لم يزد في ولايته عن 17 يوماً.

مهما يكن فإن الظروف الجغرافية في المغرب، وكانت تفتح آفاقه على الشمال والشرق، والظروف القبلية التي اعتمدها يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن من بعده. وكذلك الفكرة الإسلامية التي استندت عليها الامبراطورية في بداية عهدها، وكذلك قوة الشخصيات المرابطية والموحدية التي بنت عهد الامبراطورية الموحدية، كل هذه الظروف لم تتوفر للحفصين الذين اكتفوا

بتونس وصرفوا نظرهم على التطلع إلى المغرب إلا في بعض الفترات التي احتلوا فيها الجزائر والشرق، وإلا في بعض الفترات التي وصل نفوذهم إلى برقة ثم التطلعات إلى صقلية. وكان ذلك خطأ قاتلاً كما ستعرف في فقرة قادم.

ـ سؤالان مطروحان، الأجابة عنهما تفسر كثيراً من ظروف انهيار عهد الامبراطورية؟

سلبيات وإيجابيات تفسخ الامبراطورية:

السؤال الأول هل كان في استطاعة المغرب أن يحتمل استمرار الامبراطورية كما صنعها الرائدات ابن تاشفين وعبد المؤمن،؟ هناك ظروف سياسية، أهمها الأندلس والزحف النصراني عليها. أي إن وجود هذا الظروف يعني ضرورة وجود قوة عظمى تواجه الزحف النصراني على الأندلس وبالتالي صده عن المغرب. وهذه القوة إذا استطاع القائدان الرائدان أن يوفراها للإمبراطورية، الظروف السياسية والظروف الجغرافية، فالامبراطورية الواسعة التي تجمع بين شمال الأندلس وجنوب الصحراء وبرقة تجعل من الصعب على حكم «فردي» غير قائم على نظام الدولة اللامركزي (كما سبق أن أشرنا إلى ذلك) أن يستمر طويلاً في هذا المخطط. هناك كذلك الظروف العسكرية التي تفرض على حاكم امبراطورية بهذا الاتساع أن تكون له قوات نظامية متعددة ومكونة تكوينا عسكرياً. ونحن نعرف أن القوات المرابطية والموحدية كانت تعتمد على بعض الجنود النظاميين، ولكنها في الأغلب كانت تعتمد على المتطوعين من القبائل. وكان القائد يجمع جنوده في الغالب من القبائل التي يمر بها كمتطوعين. هم جنود مأجورون يأخذون نصيبهم مما يدفعه القائد لكل منهم. وحينما لا تسعفه الميزانية ليدفع الأجو ويجزي العطاء فقد يتخلون عنه.

السؤال التالي:

هل تراجع الامبراطورية كان ضدا على مصلحة المغرب؟ إذا كانت المحافظة على الامبراطورية أمراً مستحيلاً للظروف التي شرحناها، فإن تراجع الامبراطورية كان حتمياً وخسائرها تلك كانت على قدر ما كان انحسار

الامبراطورية مفروضاً. فالخسارة الأولى هي تخلي المغرب تدريجياً عن الأندلس، وهذه كانت بداية النهاية لأسلمة الأندلس وعروبتها. والخسارة الثانية هي تفسخ دولة كبرى هي دولة الموحدين، في المركز الأساسي لها هو المغرب، وانهيار دولة كبرى خسارة تاريخية لم تعوض بنشأة المرينيين من بعدهم.

الخسارة الثالثة هي تفكك وحدة المغرب العربي. وكان مما عوض هذه الخسارة قيام دولة الحفصيين في تونس ثم المرينيين في المغرب.

ولهذا من الممكن القول بأن الطبيعة التي فرضت تفسخ الامبراطورية وحتمية نهايتها إلى جانب الأسباب التي ذكرنا وخسر المغرب فيها كثيراً.

ولكن المغرب الكبير كان في حاجة إلى دويلات محدودة الموقع الجغرافي والبشري، حتى تستطيع كل منها أن تنجز إنجازات داخلية تهم الشعب. فمن المؤكد أن دولتي الامبراطورية كانتا عسكريتين أكثر منهما مدنيتين. وكانتا تهتمان بإصلاح الأوضاع الداخلية محدوداً. وكان من الضروري أن تنشأ دولة الحفصيين في تونس لتقوم بمهمة المنجزات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية. ولكنها مع الأسف لم تقم بالكثير نظراً للظروف السياسية والاضطرابات الدخلية مما اضطرها إلى أن تكون دولة عسكرية هي الأخرى، لتقوم بنفس الدور الاجتماعي والاقتصادي الذي قامت به، ولكنها كذلك كانت في حاجة إلى نظام يحكم. ولذلك لم تتجه هذه الدول الأخرى، على غرار الامبراطوريتين الكبريين ـ لما يفرضه نظام الدولة المنظمة.

ومما يمكن أن يؤخذ على هذه الدول طبيعة العصر والممكنات العسكرية، وكذلك الظروف البشرية القبلية وعدم الاستقرار. ولعبت الظروف الجغرافية دوراً مهماً في هذا التخلف. مهما يكن فإن الدول المغاربية ـ سواء منها الامبراطوريات أو الدول قد أدت مهمتها بتفوق في العصر الوسيط. ويمكن لتاريخ المغرب أن يفتخر بها إذا ما هو وضعها في موقعها التاريخي.

مغربية الامبراطورية

تحليل المرحلة

يلاحظ أن الامبراطورية الممثلة في المرابطين والموحدين كانت مغربية صرفاً، لم يشارك فيها عنصر من خارج المغرب، سواء في بداية الفكرة أو ممارسة العمل السياسي والعسكري. فقد عرفنا أن دولاً وشبه دول قامت في المغرب بتدخلات سياسية وعسكرية من خارج المغرب قبل المرابطين. كانت هناك دولتان خارجيتان هما بنو مدرار في سجلماسة، والرسميون في تاهرت بالجزائر. فأغلب الذين كونوا هذه الدويلات وجاؤا بالفكرة الخارجية هم عرب من المشرق. هاجروا بفكرهم الخارجي إلى المغرب وكونوا دولتين صغيرتين اختلط فيها الأمازيغ بالعرب، وهما الدولتان الخارجيتان اللتان ناضلتا لنشر الإسلام على المذهب الخارجي، وقاومتا مقاومة شديدة حتى قضي عليهما.

ثم كانت الدولة الإدريسية ويمكن أن نقول ـ خلافاً لما يدعيه الكثيرون ـ أنها دولة مغربية.

وفد على ادريس كثير من عرب المشرق المناصرون للعلويين، فاستخدمهم في إدارة الدولة. ولكن إدريس الثاني كان من أم مغربية أمازيغية وتربى في أحضان قبيلة كبيرة ومهمة هي قبيلة أوربة، وكان مغربياً صرفا، واستخدامه لبعض العرب الذين وفدوا من المشرق سواء في التنظيم الإداري أو الدعوة الإسلامية، لا يمكن أن يتيح للمؤرخ القول بأن الدولة عربية وليست مغربية. وهو خلاف شكلي في هذا الباب يتبناه بعض الذين يحاولون أن يفرقوا بين سكان المغرب كأمازيغ وعرب. فالواقع أن العرب الذين وفدوا على عهد

إدريس أصبحوا أمازيغيين. اندمجوا في المجتمع الامازيغي معظمهم تزوجوا من أمازيغيات وتوالدوا في حضن المجتمع المغربي الامازيغي المندمج. الأغالبة كانوا عرباً من تميم. جدهم الأول جاء من مصر إلى تونس وكان والياً للدولة العباسية، ثم أصبحت ولايته شبه مستقلة. فكان يحكم باسم الدولة الأغلبية المستقلة ويدفع الخراج للعباسيين، وهي دولة عربية صرفاً، تعتبر جزءاً من الخلافة الإسلامية في بغداد كبقية الدول التي كان القائمون عليها ولاة ثم أصبحوا حكاماً مستقلين. وكان جيشهم في أغلبيته من تميم، فالدولة الأغلبية لم تكن مغربية الأصل كما هو الشأن بالنسبة للدول الصنهاجية أو المصمودية أو الزناتية.

حاول العبيديون وهم مشرقيون أن ينشئوا لهم دولة في المغرب، ولم ينجحوا لأسباب تحدثنا عنها في فصل سابق، لأنهم أرادوا إقامة امبراطورية تعاكس دولتين كبيرتين في الأندلس والمشرق. ولذلك انتقلوا إلى تونس وكونوا دولة لم ترض كل طموحاتهم. فتونس دون ـ الجزائر والمغرب ـ محدودة الأفق لا تستجيب لتكوين دولة كبرى أو خلافةٍ تعوض الخلافة العباسية في المشرق، ولهذا انتقلوا إلى مصر كأقرب مكان في شمال إفريقيا لنشر الدعوة والاقتراب من مركز الحكم الإسلامي في بغداد. لا نريد أن نتتبع مصيرهم في هذه الخاتمة، ولكننا فقط نريد أن نخلص من ذلك إلى أنهم لم يقيموا وهم عرب دولة عربية إسلامية في المغرب.

بظهور المرابطين ثم الموحدين كانت الدولة التي ـ اتسع سلطانها حتى امتد إلى شمال الأندلس وبرقة ـ وكان السلطان فيها للمغاربة. وقد حاول العرب الهلاليون وبنو سليم أن يقيموا لهم سلطاناً في تونس على الأخص وجزء من الجزائر وجزء من طرابلس، ولكنهم لم يكونوا رجال حكم أو دولة بمقدار ما كانوا مخربين ومهددين للدول التي قامت في تونس بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، كالدولة الصنهاجية التي قامت لتخلف العبيدين في تونس وباتفاق مع المعز لدين الله منذ بعث بهم الفاطميون من مصر لينتقموا من تونس التي انفصلت عن حكم الفاطميين. هذه الدول العربية أو القريبة من العربية

كالفاطميين والأدارسة والسلطة التي أنشأها المنصور بن ابن أبي عامر الأموي في المغرب قامت على أكتاف المغاربة الأمازيغ كجند محارب وحام للدولة، ولذلك فعروبتها مختلطة بأمازيغية الأمازيغ. والدولة فيها لم تكن دولة عربية كما لاحظنا في الدول الخارجية والأدارسة والفاطميين، باستثناء الأغالبة الذين حكموا تونس نحو قرن من الزمن. وكانوا يعتمدون على جيش عربي أغلبه من تميم.

ورغم الأسماء العربية التي سمي بها كثير من القائمين على الدول المغربية على عهد الإمبراطورية وبعدها، كاسم يوسف وعلي بن يوسف والمهدي وعبد المؤمن بن علي ويعقوب والحفصيون ومنهم أبو حفص يحيى وأبـو محمد عبد الواحد وأبو زكرياء يحيى، فإن هذه التسميات آتية من الامتزاج العربي الإسلامي الأمازيغي بالإضافة إلى أن بعضهم كان يدعي الانتماء إلى سلالة النبي كالمهدي بن تومرت وعبد المؤمن وغيرهم كثير ممن كانوا يتخذون من هذه النسبة وسيلة سياسية لإعطاء الشرعية الإسلامية لدولتهم وشخصيتهم. هناك فكرة أساسية وهي أن الامبراطورية المغربية تعاملت في الأندلس مثلاً مع العرب وبقايا الدويلات الأندلسية، ولكنها كانت تستند في الغالب إلى جيوش من الأمازيغ. كما فعل الأمويون وقد استطاع المغاربة الأمازيغ أن يقيموا لهم دولاً أمازيغية صغيرة في بعض المناطق للدفاع عن الإسلام.

والفكرة الثانية أن الدولة الأمازيغية في المغرب كانت تنتقل في المنطقة المغربية الواسعة بأمازيغيتها، حتى إن الحفصيين ـ ويمثلون الدولة القوية والأكثر إشعاعاً في الطرف الأدنى من المغرب، تونس ـ كانوا دولة أمازيغية يعود أصلها إلى صحبة أبي حفص عمر للمهدي ابن تومرت، واعتباره عمدة في الدعوة الموحدية، واعتبار عَقِبِهِ من كبار قواد الدولة الذين حاربوا وحكموا في الأندلس وفي تونس أيضاً، حتى انتهى الأمر إليهم بعد تضعضع حكم الموحدين وبداية النهاية لدولتهم على إثر معركة العقاب الخاسرة.

الدولة المرينية والوطاسية

دولة من الدول الكبرى التي حكمت المغرب وجاهدت في الأندلس، ووصل نفوذها في بعض الأحيان إلى المغرب الأوسط. وتَوَازَى تكوينها وصعودها مع تنازل دولة الموحدين فكانت هي البديل للامبراطورية التي لم يعد لها نفوذ بعد أن استقل الحفصيون بتونس، وانهزم الموحدون في معركة العقاب بالأندلس، وسقطت بعض معاقلهم في المغرب.

والمرينيون هي «الدولة الكبرى» الثالثة التي تأسست من شعب أمازيغي مهم بعد المرابطين والموحدين: المرابطون من لمثونة وهي فرع من صنهاجة، والموحدون ابتدأوا بالمهدي وهو من قبيلة هرغة المصمودية، وعبد المؤمن من قبيلة كومة الزناتية.

ويأتي المرينيون كفرع من قبيلة زناتة الكبرى التي كان لها قدم في الحكم بالمغرب، فحكم منها دولة بني عطية وبنو عبد الواد والموحدون ثم بنو مرين.

ورغم أن الزناتيين ساروا قدماً في الحكم فإن صراعاً مهماً وخطيراً قام بينهم وبين الصنهاجيين.

مجموعة بني مرين كبقية المجموعات التي حكمت المغرب، لم تكن ذات استعداد لبناء دولة رغم أن المؤرخين يقولون إن بعض رؤساء قبيلتهم حكموا القبائل وتحكموا فيها. غير أنها كانت قبيلة متفرقة تنتقل بين أطراف المغرب والجزائر حسب الفصول الشتوية والصيفية والحاجة إلى الكسب، وكذلك للاغارة على بعض القبائل الضعيفة التي تسلبها إمكاناتها.

طبيعتهم في الإغارة والتنقل بين أطراف المغرب والجزائر وعدم خضوعهم للدولة أطمعهم في الدولة التي كانت على وشك الانهيار، فتجمعوا

برياسة عبد الحق ـ وهو أول شخصية قيادية ظهرت في الدولة المرينية حتى انها تُنسب إليه ـ فبدؤوا يناوشون الحكم الموحدي على عهد يوسف المنتصر. وجهز لهم الموحدون جيشاً طمعاً في القضاء عليهم. ونشبت بين الفريقين معركة انتصرت فيها قبائل المرينيين على جيش الموحدين. ثم أطمعهم هذا الانتصار في جمع الأنصار ومناوشة سلطان الموحدين في عموم أنحاء المغرب، حتى ضاق بهم يوسف المنتصر الذي جهز لهم جيشاً مستعيناً بقبيلة بني رياح، وكانت من أشد القبائل العربية التي تقيم في المغرب، وتسند الدولة الموحدية. ورغم أن بني رياح والجيش الموحدي انتصر في بداية المعركة وقتل عبد الحق وأكبر أبنائه، إلا أن بني مرين راجعت أمرها وأجهزت على جيش الموحدين في معركة خطيرة بوادي سبو وبذلك زاد أمر الموحدين ضعفاً بعد أن انتقصت من سلطاتهم ونفوذهم العسكري قبائل لم يكن لها بعد ذكر في السلطة.

الشخصية التي خلفت عبد الحق في إمارة مجموعة المرينيين هو عثمان ابن عبد الحق.

ملاحظات أولية.

أولى الملاحظات أن معظم الدول المغربية قامت دون أصول في الحكم والسلطة. كل الدويلات الصغيرة مثلاً وكذلك الامبراطوريتان الكبيرتان قامت جميعها، من مغامرة وتطلع قبلي أو دعوة دينية. ولعل هذه الملاحظة هي القاسم المشترك بين المرينيين وغيرهم من الدول التي سبقتهم إلى السلطة في المغرب، باستثناء الحفصيين في تونس الذين نبعوا من الموحدين وباسم الموحدين حكموا، ورجالهم الأولون كانوا رجال حكم وقوادا عسكريين حكموا للموحدين في بداية الأمر ثم استقلوا بالسلطة، وباستثناء الأغالبة (الذين سبقوهم إلى الحكم إلى تونس)، وباستثناء الزيريين الذين حكموا (ولاة) للفاطميين. ثم استقلوا بحكم تونس. تتفق هذه الملاحظة بالنسبة للدول التي قامت في تونس، ولكنها لا تكاد تجد مثيلاً لها في المغرب أو الجزائر إلا بنوغانية الذين ظلوا مخلصين للمرابطين، وقاوموا حكم الموحدين

مدة طويلة شغلوا فيها الدولة بحروب طاحنة.

وثانية الملاحظات أن الامبراطوريتين المرابطية والموحدية قامتا على أسس دينية ودعوة إصلاحية ومذهبية على اختلاف فيما بين المرابطين والموحدين في هذه الموضوع. ولكن الأمر يختلف بالنسبة لبني مرين، فلم تقم دولتهم على دعوة دينية أو مذهبية، وإنما هي مغامرات قبلية دفعت بهم إلى محاربة الموحدين في الشمال والجنوب والسيطرة على الدولة بوسائل الحرب ولا شيء غير الحرب.

ثالث الملاحظات، أن الامبراطوريتين قامتا على أساس من التنظيم الذي اعتمد أولاً على الدعوة الدينية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة للمرابطين، وفكرة المهدوية والتأثير على المواطنين بتقديس الشخصية (المهدي ابن تومرت). وكان التنظيم السياسي المذهبي عند الموحدين أكثر منه عند المرابطين وكلاهما اتفق في التنظيم العسكري الذي أفضى بالحكم في النهاية إلى يوسف بن تاشفين بالنسبة للمرابطين، وعبد المؤمن بالنسبة للموحدين.

وكان هذا التنظيم ينقص المرينيين عند بداية ثورتهم، وإنما اعتمداوا على الثورات في مناطق من المغرب، وجدوا حكم الموحدين فيها ضعيفاً ثم الاشتباك في حروب طاحنة مع الموحدين هنا وهناك حتى وصلوا أخيراً إلى السلطة واعتمدوا عاصمة لهم فاس بدلاً من مراكش، ربما بسبب ضعف الوجود الموحدي في إقليم فاس وقوته في عاصمتهم مراكش.

رابع الملاحظات، هي أن كلا من المرابطين والموحدين والمرينيين اشتبكوا في حروب جهادية في الأندلس، وقاموا بواجب الدفاع عن الإسلام في ظروف صعبة. وواضح أن الفترة التاريخية والوضعية الجغرافية والواجب الإسلامي الذي قامت عليه الدولة في المغرب كل ذلك كان يفرض مساعدة الأندلس، وتقويم وضع الحكم فيها أحياناً كما فعل المرابطون مع ملوك الطوائف، والدفاع عن المراكز الإسلامية التي كانت تتعرض لغزو صليبي من

دول الشمال كما بينا ذلك من قبل.

ومن المؤكد أن هاجس الخوف من انقضاض الغزو الصليبي للأندلس على المغرب، كان يراود حكام الدول المغربية القوية الثلاث كما لاحظوا ذلك بالنسبة لمحاولات الإيطاليين والنورمان الذين غزوا سواحل تونس وتعمقوا في داخلها كما سبق الحديث عن ذلك عند الحديث عن الحفصيين.

البدايات الأولى:

يمكن أن نجمل تاريخ الدولة المرينية التي حكمت بفرعيها المريني والوطاسي نحوا من 3 قرون في محاور أساسية:

المحور الأول الفرع المريني:

نشأوا من تنقل القبائل المرينية في بلاد شرق المغرب وكرسيف وكانوا كمجموعة قبلية متكتلة ومتنقلة لا يخضعون خضوعاً رسمياً للدولة ولا يؤدون ضريبة أو خراجاً ويشعرون بنوع من الاستقلال الذاتي عن السلطة، ونظراً لتكتلهم وشعورهم بهذا التفرد بدأو يُغِيرُونَ على بعض القبائل ويشنون الغارات، ولم يكن ذلك بهدف (السلطة) بمقدار ما كان يهدف السيطرة على الوسائل المادية لعيشهم، وتأمين الحكم لجانبهم من قبائل أخرى ومن الدولة نفسها. هذه الحركة التي يمكن أن نسميها تمرداً واخلالاً بالأمن، هي التي دفعت يوسف المستنصر (611 هـ / 620 هـ) إلى محاربتهم، فبعث جيشاً في 10 آلاف من الموحدين قامت بينهم وبين المرينيين معركة في وادي النكور انتصر فيها بنو مرين سنة 613 هـ يمكن أن نلاحظ ملاحظتين.

أولاهما: أن يوسف المستنصر أخطأ ـ وهو السلطان الضعيف الذي كان يجب أن يعرف أن الدولة بدأت تغرب عنها الشمس ـ فما كان من مصلحة الدولة أن يحارب جماعة متمردة تتمتع بقوة المتمردين المهاجمين لمن عداهم من القبائل بهذا الجيش الضخم عدداً في دولة السلطة فيها تتداعى.

ثانيتهما: هي أن محاربتهم وانهزام الجيش النظامي للدولة القائمة أمامهم، منحهم فكرة الثورة على الدولة، ومنحهم المشروعية لأنهم المنتصرون عسكرياً. وفي هذا التاريخ تكتسب المشروعية بالانتصار العسكري أكثر مما تكتسب باسم الدولة والجيش النظامي. وذلك ما دفع بجماعة المرينيين إلى البحث عن معارك أخرى لتأكيد الانتصار والمشروعية في الوقت نفسه الذي كان الموحدون يبحثون عن معركة انتقامية لهزيمتهم في النكور. ولكن هذه المرة لا يقوم بها الجيش النظامي الذي سبق أن انهزم امام جماعة بني مرين، وإنما تقوم به قبيلة مساندة للموحدين هي قبيلة عرب بني رياح وهي قبيلة شديدة البأس. تحالفت مع بني عسكر منافسي جماعة المرينيين (وهم منهم) وتجمعوا للانتقام للموحدين من بني مرين، والتقى الجمعان في سهل سبو سنة 614 هـ وفي هذه المعركة قتل زعيم المرينيين عبد الحق وابنه إدريس وانهزم المرينيون.

واضح أن كلا من هذه القبائل كان يعمل لصالحه وليس لصالح الدولة. ومن الملاحظ كذلك أن هزيمة المرينيين في هذه المعركة وقتل زعيمهم عبد الحق كانت بداية طموحهم لتكوين الدولة. واستأنفت المعركة مع بني رياح، وكان قتل عبد الحق حافزاً لبني مرين على الانتقام لرئيسهم والانتصار على بني رياح. وهنا تبدأ الدولة في تنظيمها تحت رئاسة عثمان بن عبد الحق. ومن بني مرين إلى بني وطاس.

رغم أن الدولة المرينية حكمت نحواً من ثلاثة قرون فإن الفترات المضيئة في حياتها قليلة بالنسبة لهذه الفترة الطويلة من سنوات الحكم، ويرجع ذلك إلى عوامل داخلية وخارجية: أولها اشتغال الدولة في بعض فترات ملوكها الكبار بالجهاد في الأندلس مما كان يحرجها في كثير من الأحيان فتقسم جيشها بين العمل في الداخل والجهاد في الأندلس، وتصريف طاقاتها السياسية والعسكرية في الاتجاهين.

ثانيها كثرة الثورات والاضطرابات الداخلية التي أرهقت الدولة وصرفتها عن الاستقرار إلى مقاومة الثائرين والقضاء عليهم أو محاولة ذلك.

وثالثها وهذا العامل يرتبط بالعامل الثاني، هو مناجزة بني عبد الواد الحاكمين في تلمسان، فرغم أن مملكتهم صغيرة إلا أنهم كانوا يخشون على سلطانهم من الشرق والغرب، الحفصيين في تونس والمرينيين في المغرب. ولذلك كانوا يُؤَلِبُونَ بعض ذوي النفوذ من الولاة وغيرهم للتمرد على الدولة أو الثورة عليها طمعاً من هؤلاء المتمردين في الحلول محل المرينيين أو الاستيلاء على جزء من مملكتهم. وكثيراً ما كان يحدث أن يتمرد الابن على أبيه أو الأخ على أخيه من سلاطين المرينيين أنفسهم.

ثورة الآباء والأبناء:

فقد ثار بنو إدريس بن عبد الحق على عمهم يعقوب المنصور، وثارت كذلك ثلاث فرق من بني عبد الحق وهم بنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو وبنو أبي عياد لعقده ولاية العهد لابنه أبي مالك، وأعلنوا ثورتهم في غمارة واضطر يعقوب إلى ملاحقتهم بجيش قوي وحاصرهم حتى استسلموا وعادوا إلى مبايعة عمهم والصلح معه.

وثار عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي على السلطان يوسف، وكان ذلك بداية فكرة تكوين دولة الوطاسيين. كما ثار من بعده وطاسي آخر هو عبد الرحمن بن يعقوب على السلطان أبي الربيع، وثار عثمان بن أبي العلاء بجبال غمارة على السلطان يوسف وكان ثورته بداية نشاط بني أبي العلاء في المغرب والأندلس. وثار الأمير أبو علي على أبيه السلطان أبي سعيد يعقوب مرتين، وقامت فتنة بين أبي علي هذا وأخيه أبي الحسن الذي تولى الملك قتل فيها أبو علي. وثار أبو عنان فارس على أبيه أبي الحسن وافتك الملك من يده 749 هـ. وثار أبو الفضل بن السلطان أبي الحسن على أخيه أبي عنان.

وقتل الوزير عمر بن عبد الله السلطان أبازيان سنة 768 هـ. وثار موسى ابن أبي عنان على السلطان أبي العباس بتأثير من ابن الأحمر وخلعه وبعث به أسيراً إلى بني الأحمر.

هذه أمثلة من الثورات والانقلابات التي حدثت في المغرب على عهد

المرينيين، أوردناها لنؤكد أن الدولة لم تتمتع باستقرار سياسي طيلة حياتها، يضاف إلى ذلك ثورات كثيرة من الحجاب والوزراء الذين كانوا يعبثون بالدولة فيثورون على ملوكهم طمعاً في ملك أو زيادة سلطة.

وهذا التمرد كان يضعف الدولة ويعرضها للإنهيار في كثير من الأحيان، وقد عرفت انهيارات ابتداء من نشئتها مثلاً في عهد عثمان بن عبد الحق، الذي يعتبر مؤسساً إلى يعقوب بن عبد الحق المنصور، ومن يعقوب هذا إلى أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، ومن أبي عنان إلى نهاية الدولة.

ورابعها، أن كثيراً من الملوك قتلوا ولم تكن لهم الفرصة لخدمة الدولة نتيجة للثورات والانقلابات التي أشرنا إليها.

ولعل المرينيين لم يكونوا بِدْعاً بين دول المغرب والمشرق في معاناة الثورات والانقلابات مما كان يخلخل التاريخ ويضع الدولة والشعب في مواجهة الثورات والانقلابات، أكثر مما يضعهما في مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كذلك.

عهد يعقوب المنصور:

هذا السلطان حقق لبني مرين وجوداً مهما في المغرب والأندلس والمغرب الأوسط، فقد مكن للدولة، وحارب خصومها وانتصر عليهم وأنهى عهد الموحدين بتدخله في الصراع بين المرتضى وأبي دبوس الذي انتهى بمقتل أبي دبوس في مراكش، وانقراض عهد الموحدين. وكان أول من ساعد الأندلس في دفاعها ضد الصليبية المهاجمة كما سنرى في محور آخر، وحاول مصالحة بني عبد الواد (يغمراسن) ليكف شرهم عن المغرب ولكنهم ما نعوا. فأغار على تلمسان وهزمهم.

أربعة أحداث أخرى ميزت عهد يعقوب.

أولها: هي تحرير طنجة من المسيطرين الذين استقلوا بها وحالفوا العزفيين في سبتة تارة، واستقلوا بها تارات أخرى، واسترجعها يعقوب إلى

وحدة المغرب سنة 672 هـ.

وثانيها: إنهاء الخصومات مع العزفيين في سبتة (وسنتحدث عن دور العزفيين في هذه المنطقة في فقرة لاحقة) ومصالحة أبي القاسم العزفي على أن يبقى والياً عليها للمرينيين ويؤدي الخراج لهم.

ثالثها: تحرير سلا من تجار السلاح الإسبانيين الذين كانوا قد استغلوا فرصة رغبة يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ابن أخ يعقوب بن عبد الحق في الاستيلاء على المدينة، فأمده الإسبانيون بالسلاح لينتصر على عمه، وكان قد توافد عدد كبير منهم إلى المدينة فاحتلوها بعد أن قاموا بمدبحة بين سكانها لم ينقذها منهم إلا يعقوب المنصور، الذي سارع إلى محاصرة المدينة وقتالهم وقضى على الكثير من أعدادهم وأخيراً سلمت المدينة منهم وعادت إلى سلطة الدولة، وكان ذلك سنة 658 هـ.

رابعها: أنه خلص سجلماسة من سلطة بني عبد الواد الذين كانوا قد انتهزوا فرصة انهيار الدولة الموحدية، فاستولوا على المنطقة. وكانت النتيجة انهم شغلوا يعقوب المنصور بتحريرها واسترجاعها للمغرب، وبذلك استطاع أن يوحد المغرب الأقصى.

خامسها: بناء المدينة البيضاء محاذية لمدينة فاس سميت بفاس الجديد كما بنى قصبة مكناس سنة 674 هـ.

عهد أبي الحسن

أبو الحسن علي ابن عثمان ابن عبد الحق هو الدرة اللامعة في تاج بني مرين، وهو الذي استطاع أن يجعل من بني مرين امبراطورية تنافس الموحدين. هذا السلطان الذي لم يحكم إلا نحو 20 سنة (731 هـ - 752 هـ) استطاع أن ينشر نفوذ بني مرين بين سوس ومسراتة في ليبيا حتى رندة في الأندلس، وهو السلطان الذي لم يشذ عهده عن عهود سابقيه ولاحقيه في مواجهة الثورات والانقلابات. فقد ثار عليه أخوه أبو علي حتى قيل إن المغرب في عهده كان يحكمه ملكان. ولكن انتهى أمر علي بانتصار أبي

الحسن وقتله، وناجزه بنو عبد الواد على عهد تاشفين الزياني، واستطاع أن ينتصر عليهم ويحتل تلمسان سنة 737 هـ. وبذلك ضم كل قبائل زناتة تحت نفوذه فأصبح ملك زناتة دون منازع وربما كان ذلك حدثاً فريداً في تاريخ المغرب، إذ أن القبائل الكبرى قلما كانت تخضع لسلطان واحد.

واحتلال تلمسان دفع به إلى التفكير في الانتشار على أرض المغرب الأوسط، وتوحيد هذه البلاد ونشر نفوذه على بلاد الجزائر، من وهران في غرب الجزائر حتى قسنطينة شرق الجزائر.

ولعل تاريخ الموحدين السابق أغراه بأن يعيد الوحدة للمغرب الكبير، فاحتل تونس سنة 748 هـ وطرابلس وقابس ووصل إلى القيروان. وكان مما أغراه بتونس انهيار دولة الحفصيين والصراع الذي قام بين ابني أبي بكر سلطان الحفصيين وأخيه ومقتل أحدهما على يد الآخر.

ولم يكن تملكه لتونس بمنجاة من الثورات والانقلابات (وهو شيء معهود في هذه العصور) فقد ثار عليه أعراب بني سليم لأنه أنقص من الأموال التي كانوا يأخذونها من الدولة، وكفهم عن اغتصاب أموال المواطنين، وفرض الاتاوة عليهم. وطاردوه حتى لجأ إلى القيروان ونصبوا عليهم ملكاً هو ابن أبي دبوس. ولكن النهاية كانت لصالح أبي الحسن، فقد اعتقل هذا الملك الداعية ـ وكان آخر من ولي الحكم باسم الحفصيين ـ وسلم الأمر لأبي الحسن فعاد من القيروان إلى تونس وحصنها ـ غير أن هذا السلطان الذي أدركه في أواخر حياته لم يسلم كما هي العادة من ثورات خطيرة داخل مركز الدولة وبالقرب منه. وقد سبق أن لاحظنا أن ابتعاد السلاطين عن مركز الدولة في المغرب كان يعرض مملكتهم للخطر، وهذا ما حدث بالنسبة لأبي الحسن فقد كان تملكه لتونس يغريه بالسلطان الأكبر ولذلك اهتم بها وبالمشاكل الثورية التي اعترضته فيها، وهذا ما أغرى ابنا له وهو ابو عنان الذي كان قد ولاه على تلمسان بالثورة عليه في تلمسان والدعوة لنفسه، وأغرى في الوقت نفسه حفيده منصور بن أبي مالك بالثورة عليه في فاس الجديد والدعوة لنفسه. والثورتان معاً شكلتا خطورة على سلطان أبي الحسن وهو بعيد عن مركز الدولة. زاد في خطورة هذه الأحداث أن

نفوذه في تونس تضاءل بعد أن انصرف عنه كثير ممن كانوا يعتزون بالعمل تحت لوائه، ولذلك عزم على الرجوع إلى المغرب، فعاد إلى مراكش وقد شعر بأن الأمر قد استتب لإبنه أبي عنان. ومن مراكش انتقل إلى هنتاتة وبها توفي سنة 752 هـ. وأبو الحسن عانى محنتين كبيرتين: محنته في الأندلس، ويوم انهزم في طريف وكان قد قتل أحد ابنائه أبو مالك واسر الآخر تاشفين وقتلت عائلته من بينها زوجته الحفصية، والنكبة الثانية هي التي عاناها في تونس حينما انهزم تحت ضغط اعراب بني سليم. ولكن النكبة الثالثة من ابنه أبي عنان رغم أنه كان ولياً لعهده، وافتكاك الملك منه والتي تزامنت مع ثورة حفيده الفاشلة في فاس الجديد.

وقد امتاز عهد أبي الحسن بـ:

- الاصهار إلى الحفصيين.

- ربط العلاقات الخارجية.

- بعض الإنجازات المهمة.

- مصاهرة سياسية بين تونس والمغرب سبق القول بأن المرينيين كانوا قد بايعوا الحفصيين في بداية تفكيرهم في الانقلاب على الموحدين على عهد أبي بكر بن عبد الحق. ودعوا للحفصيين في خطب الجمعة في عهد الأمير أبي زكرياء يحيى الحفصي. ووفدت عليه وفود من سبتة وطنجة ومكناسة.

هذا الاقتراب من الحفصيين والتودد لهم كان (ربما) عند البعض مثل سياسة محكمة من الأمير زكرياء ليجعلهم في صفه ضد الموحدين، ولا تعتبر إمارته خارجة عن السلطة الشرعية التي كان الموحدون لا يزالون يمثلونها.

هذا الاقتراب السياسي دعمه السلطان يعقوب بن عبد الحق حينما خطب بنت الأمير الحفصي أبي بكر بن أبي زكرياء لابنه أبي الحسن، فزفها أبو بكر إلى أبي الحسن في موكب حافل، وبعث معها أخاها الذي قام مدة في المغرب زيادة في تكريم هذه المصاهرة. وهي الزوجة التي قتلت في معركة طريف التي هزم فيها أبو الحسن في الأندلس. ثم بعد ذلك تزوج أختا لها. وكانت هذه المصاهرة السياسية مهمة جداً بالنسبة للمرينيين عموماً ولأبي الحسن على

الأخص. فقد صدت عن المرينين تعاون الحفصيين مع أصلهم الموحدين للقضاء على بني مرين. وقد كان يمكنهم ذلك بالتعاون مع بني عبد الواد الذي كان همهم الأكبر هو مناجزة المغرب دفاعاً عن تلمسان أولاً، وحتى لا تنشأ دولة قوية في المغرب وتبقى دولتهم (بني عبد الواد) بين شقي الرحى، الحفصيين والمرينيين. وساعدت هذه المصاهرة السياسية أيضاً أبا الحسن حينما سمى مطمحه إلى توحيد المغرب الكبير، فهاجم تلمسان والجزائر ثم تونس دون أن يجد من بقايا الحفصيين مقاومة تذكر، فمهما تكن طبيعته السياسية والسلطوية فإن المصاهرة لها أثرها في العمل السياسي.

العلاقات الخارجية

كانت بين المغرب والمشرق بداية صلات سياسية وعسكرية. حدث ذلك في عهد يعقوب المنصور الموحدي وصلاح الدين الأيوبي، هذا الأخير الذي أدرك قوة الدولة الموحدية ونفوذ يعقوب المنصور، فبعث له برسالة حملها وزير من وزرائه يطلب فيها التعاون مع صلاح الدين في الحرب ضد الصليبيين، ولكن هذه الصلة لم تثمر، يعللها المؤرخون بسبب بسيط وهو أن كاتب رسالة صلاح الدين لم يخاطب يعقوب المنصور بلقب الخليفة واكتفى بلقب السلطان ولم يستجب يعقوب المنصور لطلب صلاح الدين، ويبدو أن السبب الحقيقي هو أن يعقوب كان مهتما بالحرب الصليبية في الأندلس، ولذلك لم يشأ أن يوزع قواته العسكرية وجهوده بين الأندلس وفلسطين على بعد الشقة بين البلدين وانعدام وسائل المواصلات التي تمكن من ذلك. ويبدو أن هناك سبباً آخر وهو أن صلاح الدين الأيوبي كان يحكم باسم الخلافة العباسية، والموحدون وكل الدول المغربية لم تكن لها صلة سياسية مع هذه الخلافة، بل كانت تعتبر المغرب الكبير امبراطورية مستقلة عن المشرق وتخشى أن يصيبها من المشرق ما أصاب الخلافة من تفتت السلطة وكثرة الدول المنشقة.

سقنا هذا المثال لنؤكد فقط أن الصلة بين المغرب والمشرق ابتدأت قبل المرينيين، ولكنها تقوت في عهد أبي الحسن علي بن أبي سعيد يعقوب بن عبد

الحق، فقد كتب إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر والحجاز والشام يخبره بامتداد سلطانه على تونس، وبعث مع كتابه هدية، يبالغ المؤرخون في تعداد قدرها وأنواعها، كما كتب بخط يده ثلاثة مصاحف بعث بها إلى مكتبات مكة والمدينة وبيت المقدس، واشترى في مكة بعض الأراضي والضياع وحبسها على الحرم الشريف، وتؤكد الرسالتان المتبادلتان بين اسماعيل بن محمد بن قلاوون (أبي الفداء) وكان يسيطر على مصر والشام والحجاز ـ وأبي الحسن الرغبة في صدق عودة حسن العلاقات بين الدولتين إخباره بجهاد المغاربة في الأندلس واحتلال جبل طارق، ورسالة إسماعيل تهنىء أبا الحسن بما حصل عليه من شرف الجهاد وتعتذر بإنه لا يملك له إلا الدعوات الصالحات.

كما عقد أبو الحسن علاقات مع ملك مالي (موسى منسا) وكان من أكبر ملوك المنطقة، وبعث له بهدية تؤكد العلاقة بين الجارين.

منجزات عمرانية ثقافية.

رغم أن ملوك الموحدين، خاصة يعقوب المنصور وبني مرين، كانت تشغلهم الحروب والمنجزات السياسية فقد كانوا يرعون كذلك منجزات عمرانية وثقافية، وإذا كان يعقوب المنصور الموحدي قد بنى المنارات الثلاث الكتبية في مراكش والخيرالدة في إشبيلية وحسان في الرباط، وهي من أهم المنجزات العمرانية والإسلامية، فإن أبا الحسن المريني قد اهتم بكثير من المنجزات العمرانية والثقافية، ومنها كثير من المدارس التي كان أنشأها بالقرب من المساجد الكبرى وتعتبر بمثابة أحياء طلابية يسكن فيها الطلبة ويدرسون بها بعض دورسهم، ومن ذلك المدرسة العظمى بمراكش، ومدرسة الطالعة بسلا، ومدرسة الصهريج بفاس، ومدرسة مصباح بالقرب من القرويين بفاس، والمدرسة الجديدة بمكناس.

ويذكر من أعماله المهمة سور الأقواس بسلا التي كانت تجلب إلى المدينة المياه من فوقه، والعديد من القناطر والساقية بمكناسة.

عهد أبي عنان.

كان هذا السلطان آخر السلاطين الذين يعتد بهم في الدولة المرينية، وقد

أنهى عهد الدولة بطموحه الكبير وعدم قدرته على تنفيذ هذا الطموح، رغم مغامراته وشجاعته، بدأ عهده بالثورة على والده أبي الحسن حينما علم بمرضه، بايعه المغرب بعد وفاة والده، ولم يسلم عهده من نضال مرير كان هو سببه حينما طمع في ملك تلمسان ليسير بذلك على سنن والده، فاصطدم بأبي تاشفين بن زيان أميرها وانتصر عليه بعد جهد جهيد، ثم ارتقى به طموحه إلى احتلال القطر الجزائري فانتقل بجنده إلى بجاية وتنازل له عنها أميرها أبو عبد الله الحفصي، وعوضه عنها بمكناسة الزيتون، فوفدت عليه وفود من أقاليم تونس الجنوبية تبايعه، فشجعته على أن يحتل تونس، وهكذا توزع سلطانه وجيشه ـ كما فعل والده من قبل ـ من المغرب حتى حدود ليبيا، ولكنه لم يكن يملك دهاء والده رغم شجاعته وذكائه وعدم مهادنة الحفصيين له، فساءت أحوال ملكه بتونس، وانتفضت عليه بجاية أولاً بأثير من الحفصيين الذين لم يعقد معهم صداقة أو مصاهرة، وبعد ذلك انتفضت قسنطينة ثم تغلب عليها. وعرف جبل طارق ثورة قام بها عامله عليه. ولكن جيشه تغلب عليه بعد جهد وتغلب على أخيه أبو الفضل في سوس وقتل هذا الثائر. وانتفض عليه عرب الصحراء في جنوب تونس ولم يستطع القضاء عليهم، وبعث بجيش ليسيطر على التمرد بالأوراس بالجزائر، وعاد أخيراً إلى فاس بعد تحقيق طموح كاذب وحاصر الحفصيون جنده فنقلت هذه الجنود بالبحر إلى المغرب. وفي مدينة فاس أدركه مرض خطير دفع بوزير من وزرائه إلى التعجيل بتولية طفل من أبنائه في الخامسة من عمره، ولما لم يكن السلطان قد فارق الحياة بعد بعث إليه بعض خدمه فخنقوه ومات قتيلاً، وكان قد ولي الإمارة سنة 749 هـ ـ 759 هـ.

من أخطائه القاتلة استخدام كثير من الوزراء والحجاب وتولية بعضهم السلطة في المناطق التي كان يستولي عليها في المغرب حتى بجاية وتونس. وكان هؤلاء الوزراء يتطلعون إلى السلطة وينافس بعضهم بعضاً ضداً على السلطان.

ورغم أن اسمه لامع في الدولة المرينية فإنه لم يستطع في السنوات العشر التي قضاها في السلطة أن يعيد المجد إلى بني مرين رغم شبابه وذكائه، بل إنه كان النقطة التي أفاضت الكأس في العهد المريني، وبقتله يمكن أن

نقول إن الدولة المرينية قد انتهت.

تنافس الوزراء والحجاب الذين كانوا يتحكمون في تولية الأمراء ليجعلوهم ذريعة لتولي السلطة، فكان من هؤلاء الأمراء الذين حسبوا على بني مرين وفيهم أطفال لم يبلغوا الحلم، السعيد بالله أبو بكر بن أبي عنان، وأبو سالم بن أبي الحسن، وتاشفين بن أبي الحسن وأبو زيان حفيد أبي الحسن، وعبد العزيز، ومن بعده أبو زيان محمد السعيد وأبو العباس أحمد بن أبي سالم، وأبو فارس موسى، وأبو زيان محمد بن أبي العباس، وعبد العزيز بن أبي العباس ابن أبي سالم.

ورغم أن جميعهم من العائلة المالكة المرينية فإن أحداً منهم لم يستطع أن يعيد للدولة المرينية نفوذها إزاء المشاكل التي تعاقبت على المغرب. ومنها احتلال البرتغاليين لسبتة وزحفهم على طنجة. وكان انحلال الدولة واضحاً منذ نهاية عهد أبي الحسن. فرغم أن عهد الدولة كان طويلاً إلا أنها كالإمبراطوريات والدول الأخرى، لم تستطع أن تصمد طويلاً للظروف السياسية والعسكرية التي كان يوجد عليها المغرب، فقد كانت هذه الدول من الطموح بحيث رغبت وعملت فعلاً في مواجهة زحف الصليبية في الأندلس. كما رغبت وعملت في توحيد المغرب الكبير. واستطاعت أن تحقق كثيراً من هذه الطموحات. ولكن العصر الذي عاشته ابتداء من المرابطين حتى نهاية المرينيين كان عصراً حافلاً بالمشاكل والأحداث.

ولعل الحفصيين في تونس كانوا أحسن حظاً من المرينيين في المغرب رغم مشاكلهم العديدة، لأن مطامحهم لم تتعد تونس وبعض أطراف الجزائر ولذلك لم يخوضوا مغامرات كبرى كالمغامرات التي خاضها يعقوب بن عبد الحق وأبو الحسن وأبو عنان.

ويبقى للدولة المرينية مركزها في تاريخ المغرب من الناحية السياسية لأنها حققت الاستمرار نحواً من ثلاثة قرون بين عهدي الموحدين والسعديين، وحققت كذلك بعض المساهمات في صد زحف الصليبيين على الأندلس،

ومطمعهم في المغرب، كما حققت بعد الإنجازات العمرانية والثقافية على نحو ما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ونشير إلى أربع ملاحظات أساسية ساهمت في نهاية بني مرين وانتقال الحكم لبني الوطاس.

الأولى، هي احتلال البرتغاليين لمدينة سبتة وإنسياحهم على الشواطىء الأطلسية حتى وصلوا جنوباً إلى أكادير، والثانية، هي قيام حركة دينية صوفية انبعثت من تخلف الدولة وعدم قيامها بالواجبات الدينية. وكرد فعل لانهيار السلطة التي هي عادة دينية خاصة في الدفاع عن أرض الإسلام ضد المحتلين النصارى. والملاحظة الثالثة، وهي مرتبطة بالملاحظة الثانية استعانة عبد الحق آخر سلاطين المرينيين بيهوديين في تدبير شؤون الدولة، وكانا يتدخلان في كل قضايا التسيير، ويعاملان المسلمين معاملة سيئة تحت راية السلطان واستعانة السلطان بفليق نفسه من جيش القشتاليين ضمهم إلى جنده. فكان هذا التقرب من اليهود والنصارى دافعاً للحركة الإسلامية في اغتيال عبد الحق والقضاء على الدولة المرينية مما مهد الطريق للدولة الوطاسية.

والملاحظة الرابعة، هي رغبة رؤساء القبائل وزعماء الجهاد في الاستقلال عن الحكم المريني حتى أصبحت الدولة منقسمة إلى شطرين جنوبي وشمالي.

المرينيون في الأندلس

لا تكتمل الصورة عن ملك المرينيين في المغرب العربي عموماً والمغرب الأقصى خصوصاً إلا بجهادهم في الأندلس.

والمعركة المغربية الأندلسية قدر مغربي، منذ الفتح بدأ المغاربة مسيرته مع طارق بن زياد، ومساهمتهم في إقامة الدولة الأموية وحمايتها وتكوين دويلات مغربية بربرية في الأندلس نفسها. ثم كانت الوثبة الكبرى لقدر المغاربة مع الأندلس في عهدي الوحدين والمرابطين كما قدمنا.

ولم يكن المرينيون ـ وهم وارثو امبراطورية المرابطين والموحدين ـ أن يتخلوا عن قدر المغرب في الأندلس لسببين اثنين، أولهما أن وضعية الأندلس أصبحت وضعية حرجة بسبب سيطرة القشتاليين على معظم المناطق الأساسية فيها. ويسجل التاريخ استغلال فرناندو الثالث القشتالي ضعف الامبراطورية الموحدية، وظهور المرينيين خلفا لها في المغرب ـ وكان القشتاليون يخشون جانب الامبراطورية الموحدية ويقيمون وزناً كبيراً لها فاستولى على قرطبة، وإشبيلية وجيان ومرسية. ولم يبق بين يدي المسلمين إلا منطقة غرناطة التي ظلت في يد عائلة بني الأحمر حتى انتهت دولة الإسلام في الأندلس على عهدهم. السبب الثاني هو أن ملوك المغرب منذ يوسف بن تاشفين حتى بني مرين كانوا يعتبرون أن (الجهاد) واجب من واجبات الولاة وهو الذي يمنح المصداقية لأي ملك من الملوك، حتى بين قبائل شعبه. ولهذا فقد كان الجهاد في الأندلس مسؤولية من مسؤوليات بعض ملوك الدولة المرينية كما كان من قبل مسؤولية من مسؤولية المرابطين والموحدين، مع الفارق الكبير بين السلطة الكبرى التي كان يتمتع بها يوسف بن تاشفين وكبار ملوك دولة الموحدين،

وإلى جانب السلطة السياسية هناك فارق في السلطة المعنوية وفي اتساع دائرة الامبراطورية على عهدي المرابطين والموحدين، الشيء الذي لم يتم على عهد المرينيين.

وإذا كان من المؤكد أن مساهمة المغرب ـ على عهد المرينيين ـ في الدفاع عما بقي من الأندلس قد أرهق عسكرياً ومالياً مختلف عهود ملوكها الكبار، فإنه سبب للدولة المرينية كثيراً من المشاكل والخلافات مع بني الأحمر ومساعديهم الذين قاموا بأدوار خطيرة، رغم مساعدة المرينيين لهم في خلخلة أسس الدولة المرينبة والمساهمة في إحداث ثورات عليها. بل تسببوا في نكبة المغرب عن طريق اضطراب الحكم في سبتة في العهد المريني والخروج على سلطتهم في بعض الأحيان، الشيء الذي شجع البرتغاليين أخيراً على احتلالها نظراً لأن عملاء بني الأحمر كانوا يحتلونها أحياناً ضدا على سلطان الدولة المركزية المرينية. وكانت نتيجة كل ذلك سقوط مدينة سبتة في يد البرتغال سنة 818 هـ وتغير الحكم فيها إلى حكم إسبانيا بعد أزيد من مائتي سنة.

هل كان في إمكان المغرب على عهد المرينيين أن يتخلى عن الأندلس ويتركها لمصيرها ـ وكانت كل المؤشرات تؤكد ذلك ـ ليهتم بتدعيم الدولة المرينية في المغرب أو في المغرب العربي على الأكثر. وكان تدعيمها في حاجة إلى قوة الدولة عسكرياً وقوتها في وحدتها التي كانت تتعرض لانتفاضات وثورات من أبناء العائلة الحاكمة نفسها أو من بعض وزرائها أو بعض زعماء القبائل الذين كان سلطان الحكم يداعبهم ويملي عليهم فكرة التمرد على السلطة المركزية للوصول إلى مركز (السلطان)، كما كانت تتعرض لمناوشات خطيرة أحياناً من بني عبد الواد ملوك تلمسان. وكانت هذه المناوشات تهدد الدولة في كيانها وتثير الفتن بتدعيم بعض الطامعين في الملك؟ التفكير في هذا السؤال والإجابة عنه كان يمكن لو كان الحكم على عهد المرينيين ـ بل وعلى عهد المرابطين والموحدين منظماً ـ ولو كان السلطان أو الملك في الدولة يركز سلطانه في المركز أي عاصمة الدولة، ثم ينظم لا مركزية السلطة في جهات أخرى من مملكته، كإفريقية (تونس) والأندلس،

ولكن الحكم لم يكن مبنياً على أسس تنظيمية وسياسية، بل كان الحاكم فيه (السلطان) يسير مملكته، اتسعت أو تقزمت حسب الإمكانيات والظروف وتأثير المستشارين والوزراء والقواد العسكريين، ولهذا كان الاضطراب أكثر انتشاراً من الاستقرار وتدعيم السيادة.

كان الملك أحياناً يغامر بنفسه (فيجاهد في الأندلس) أو يرحل إلى مقارعة بني عبد الواد أو إلى تدعيم السلطة المرينية وإقامة أحلاف مع المملكة الحفصية (الموحدية) في تونس، التي كانت تعاني هي الأخرى من الاضطرابات وانعدام التماسك. لذلك لا غرابة إذا وجدنا ملوك بني مرين ينتصرون أحياناً في الأندلس ويملكون بعض المواقع فيها وينهزمون في كثير من الأحيان، ولا غرابة إذا رأيناهم يناصرون بني الأحمر في معركتهم الأخيرة ضد القشتاليين وينتقض عليهم هؤلاء ويتحالفون مع القشتاليين ضد المرينيين، ولا غرابة إذا رأينا أن بني الأحمر في أواخر عهد المرينيين يتدخلون في السلطة المرينية ويعتقلون أحياناً السلطان وينصرون الثائر عليه، فيضاعفون بذلك الخلل الذي تعرض له بنو مرين.

سؤال آخر يفرض نفسه، هو لماذا أصبح ثقل الدفاع عن الأندلس ومصارعة القشتاليين وغيرهم من الدول والدويلات التي كانت متجهة نحو احتلال الأندلس واسترجاعها؟ لماذا أصبح هذا الثقل موضوعاً على دول المغرب الأقصى وحده ولم تشارك فيه الدول التي قامت في الجزائر وتونس بحظ باستثناء المساعدة البحرية التي كان يقدمها الحفصيون من حين لآخر في شكل أساطيل تقف مع أساطيل المرينيين؟

وآخر سؤال تفرضه الجغرافية والتاريخ وواقع المغرب العربي عموماً، ثم واقع الدول التي قامت في المغرب الأقصى باعتبارها دولاً نبعث من منطلق ديني إسلامي كما هو الأمر بالنسبة لدولتي المرابطين والموحدين على الأخص، بالنسبة للوضع الجغرافي. الجواب عن السؤال الكبير ـ وقد أشرنا إليه من قبل ـ هو أن المغرب أقرب موقع لبلاد الأندلس، ولذلك كان من الطبيعي أن يتحمل مسؤولية هذا الجزء من بلاد الإسلام الذي لا يفصله عنه إلا

مضيق جبل طارق، والجغرافية تفرض كذلك على المغرب أن يقوم بواجبه الإسلامي في الجهاد دفاعاً عن نفسه وعن دينه، فقد أدركت الدولتان الكبريان أن الاحتلال الصليبي إذا ما شمل الأندلس التي أصبحت إسلامية، فمن السهل أن يقفز إلى المغرب الذي هو أقرب إليها بنفس البعد الجغرافي الذي يفصل المغرب عن الأندلس، وهذا ما وقع بالفعل بعد أن ضعفت الدولة الإسلامية في المغرب عن القيام بواجبها في الدفاع عن الإسلام في الأندلس في العهد الأخير للدولة المرينية، فكانت سبتة هي الضحية الأولى. وباحتلال سبتة تعاظم طموح النصرانية في الأندلس ـ وكان هجوم القشتاليين ومملكة أرغون والبرتغاليون وغيرهم متسماً بطابع مسيحي صليبي وكثيراً ما كانوا يتحالفون تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية ـ وانساحت الدول الغربية وخاصة البرتغال ثم إسبانيا على شواطىء المغرب ابتداء من طنجة ومليلية ثم الشواطىء الغربية على الساحل الأطلسي، حتى كانت معارك المغرب معهم ممتدة على كل الشواطىء إلى الصحراء. والتاريخ كذلك يؤكد مسؤولية «دفاع المغرب عن الأندلس». فإن دخول الإسلام والعربية إلى الأندلس كان عن طريق المغرب وتكوين الدولة الأموية كان أيضاً عن طريق المغرب، ثم بعض الدويلات البربرية التي كانت من جملة دويلات الطوائف والتي لعبت دور ليس بالهين ابتداء من تحمل مسؤولية الجيش والدفاع عن الدولة الأموية، حتى الدفاع عن المملكات الصغيرة التي ورثت السلطة الإسلامية في الأندلس.

هذا السؤال لا يفرض نفسه بالنسبة للدول التي قامت في تونس، سواء قبل ارتباطها بالمغرب أو بعده، للعامل الجغرافي من جهة وهذا البعد هو الذي كان يدفع الدويلات المهددة في الأندلس كملوك الطوائف مثلاً، لأن تطلب المساعدة من المغرب ولم تطلبها من تونس مثلاً.

هناك عامل آخر هو أن الدويلات والدول التي نشأت في تونس والجزائر مثلاً كان عليها واجب إسلامي آخر هو مدافعة هجوم النصرانية على شواطئها، وقد تقدم لنا تفصيل موجز عن هذا الصراع المسيحي/الإسلامي على شواطىء تونس والجزائر وبخاصة المهدية وتونس وجربة وغيرها من الشواطىء التي

احتلت، وساهمت دول المغرب العربي في رد الهجمة الصليبية من وسط جنوب أوروبا على بلاد المغرب العربي الشرقية.

الصراع مع الصليبية في عهد المرينيين:

1 ـ في عهد يعقوب بن عبد الحق:

وترجع بداية مساهمة المرينيين في الدفاع عن الأندلس إلى عهد يعقوب بن عبد الحق، وهو أول سلطان فاعل في الدولة، وكانت الأندلس على عهده قد وصلت إلى مرحلة من الإنهيار حتى لم يبق بين يدي المسلمين إلا منطقة غرناطة وقد استولى عليها محمد بن يوسف بن نصر الذي عرفت دولته بعد ذلك بدولة ابن الأحمر، ولكن الصلة بدأت مع يعقوب المريني على عهد خلفه محمد المعروف بالفقيه الذي استنجد بيعقوب بن عبد الحق سنة 673 هـ، فبادر يعقوب بالإستجابة لداعي الجهاد وبعث جيشاً بقيادة ابنه أبي زيان إلى طريف ثم عبر مرة أخرى إلى الأندلس سنة 674 هـ، ونزل طريف وحارب في الوادي الكبير، حتى انتهى إلىحصن بياسة وابدة واقتحم حصن بالما وحاصر إشبيلية ولم يفتحها وعاد بعد ذلك إلى فاس.

كانت له معارك أخرى اجتاز فيها البحر إلى الأندلس، حاول فيها محاصرة قرطبة بعد أن احتل بعض الحصون، (الزهراء واركونة ثم جيان) ووقعت معركة هائلة هي معركة استجة قرب قرطبة سنة 674 هـ، انتصر فيها المرينيون وقتل قائد القيشتاليين (الدون نونيوديلارا) ويعتبر المؤرخون هذه المعركة شبيهة بمعركة الزلاقة والأرك، وقد عقد صلح بين القشتاليين وبني الأحمر بموافقة يعقوب، ولكن ابن الأحمر كعادة ملوك الطوائف، نقض الصلح الذي كان لصالح المسلمين واتفق مع القشتاليين على مهاجمة الجزيرة التي كان يتحصن بها جيش يعقوب وعلى منع يعقوب من الجواز مرة أخرى إلى الأندلس. رغم كل ذلك ورغم المشاكل الداخلية التي كان يعانيها حكم يعقوب فقد جهز جيشاً لفك الحصار عن الجزيرة واستعان بأسطولي العزفي في سبتة ودارت معركة بحرية بين الأسطولين انتصر فيها أسطول المسلمين على أساطيل العدو، وفك

المرينيون الحصار عن الجزيرة الخضراء التي كانت مركزاً لهم في جهادهم الأندلسي سنة 678 هـ.

كان ليعقوب بن عبد الحق جواز ثالث للأندلس لم يختلف عن جوازه الأول والثاني في مصارعة الصليبية، واستطاع أن يجعل من مالقا قاعدة لحربه مع الصليبية، إلا أن الوضع في هذه الجولة يختلف عن سابقتها سواء من جهة الصليبية أو من جهة المسلمين. الصليبيون عانوا مشاكل داخلية بثورة الابن سانشو على والده ألفونسو العاشر فكان من الضروري لهذا أن يتملق ليعقوب لإستعادة ملكه وكان في ذلك نوع من الهدنة التي كان فيها انتصار نسبي للمرينيين على الصليبيين. أما من جهة المسلمين فقد كان هناك خلاف داخلي أيضاً بين عائلتي ابن الأحمر وابن اشقيلولة، ورغم أن ابن الأحمر كان يمكنه أن يستند إلى يعقوب ابن عبد الحق إلا أنه ظن أن يعقوب إنحاز إلى ابن اشقيلولة فساءت العلاقة بينهما. وكان ذلك في غير صالح تواصل جهاد المرينيين في الأندلس، وكعادة المجاهدين من الدول المغربية في الأندلس فإنهم يعودون إلى مركز المملكة تخوفاً من الإضطرابات التي كانت تحدث من حين إلى آخر، فعاد يعقوب بن عبد الحق إلى المغرب، واستمر الوضع في الأندلس مضطرباً بين بني الأحمر وملك قشتالة.

يستمر الصراع بين المرينيين والصليبيين في جواز آخر ليعقوب بن عبد الحق (المنصور) الذي اتخذ قاعدته العسكرية في الجزيرة، وبعث بعثات عسكرية إلى منطقة إشبيلية فحاصروها وهدموا كثيراً من الحصون ثم عادوا. غير أن الصراع لم يقف عند هذا الحد بل استمر على يد قائد من بني العلاء وهو عبد الله بن أبي العلاء، والعائلة فرع من بني مرين (بني عسكر) كانت تنافس الفرع الحاكم (بني حمامة) وقد استمر هذا الجهاد الذي قام به أبو العلاء على عهد ملوك المرينيين حتى عهد أبي سعيد المريني. وقام قائد منهم وهو عثمان بن أبي العلاء بمعركة ضارية مع الصليبيين وهزمهم هزيمة منكرة وتخلصت غرناطة إلى حين من الضغط الصليبي عليها.

بعد وفاة أبي يعقوب سنة 685 هـ تضاءلت مساهمة المغرب في قتال

الصليبيين في الأندلس لما بدا من وهن دولة المرينيين، نتيجة للصراعات الداخلية والصراع مع بني عبد الواد في تلمسان حتى كان عهد أبي الحسن الذي ولي سنة 732 هـ فأعاد للدولة المرينية المجد الذي عرفته في عهد يعقوب بن عبد الحق.

2 ـ في عهد أبي الحسن

إلتزام السلاطين المرينيون بالدفاع عن الأندلس في وجه الهجوم الصليبي كان إلتزاماً دينياً وسياسياً، ولذلك لم تكد الدولة تسترجع مكانتها عندما تولى أمرها أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق سنة 732 هـ حتى تطلعت الدولة مرة أخرى إلى الجهاد في الأندلس وقد بينا أنه كان في الوقت نفسه دفاعاً عن الإسلام في المغرب جميعه. وعند توليته كان الدفاع عن الأندلس مطمح العُدوتين معاً، فتطلع أبي الحسن إلى الجهاد وآزرته قيادة ابن الأحمر (السلطان محمد بن اسماعيل)، فبعث بعثة إلى فاس يطلب منه النجدة للدفاع عن ما بقي من مملكة الأندلس، ووجد في أبي الحسن الاستعداد الكامل للقيام بهذا الواجب وكانت الجولة الأولى حينما أمد ابن الأحمر بالجند وفتح جبل طارق سنة 733 هـ

وكانت الجولة الثانية سنة 740 هـ حيث بعث جيش المجاهدين بقيادة ابنه أبي مالك، وفي معركة ضارية استشهد القائد أبو مالك، وكانت لها آثار عميقة في نفس أبي الحسن. والجولة الثالثة حاول فيها أبو الحسن أن ينتقم لقتل ابنه، فقاد الجيش بنفسه ولكن قوة الصليبيين تمكنت من حشد أسطول بحري في مياه سبتة فجمع أبو الحسن أسطوله واستعان بالحفصيين فأمدوه بأسطول آخر يتكون من 16 قطعة، واصطدم الأسطولان فكانت الغلبة لأسطول المرينيين تحت قيادة العزفي والي سبتة. والجولة الرابعة كانت قاصمة الظهر بالنسبة للمرينيين وبني الأحمر على السواء، فقد انتقل إلى طريف يقود جيشاً مغربياً مهما تضافر معه جيش ابن الأحمر ابو الحجاج يوسف وتجمعت جيوش الصليبية من قشتاليين وأرغون وبرتغاليين حول طريف، ودارت معركة طاحنة

سنة 741 هـ تغلب فيها الجيش الإسلامي في أول الأمر. ثم وقعت الهزيمة التي لا يكاد التاريخ يعللها فانكسر جيش أبي الحسن وقتل معظم أبطاله كما قتلت عائلته وَبَيْنَهَا زوجته الحفصية. ونجا بنفسه فعاد إلى المغرب. وفي هذه المعركة أيضاً أسر تاشفين ابن السلطان وهي النكبة الثانية التي ابتلي بها في أولاده أبي مالك وتاشفين.

لم تؤثر الهزيمة في عزيمة أبي الحسن فاستعد لجولة خامسة جمع فيها جيشاً كبيراً، ودارت فيها معركة بحرية انهزم فيها أسطول المسلمين. ولم يستطع أبو الحسن أن يعبر إلى الجزيرة التي حاصرتها جيوش الصليبيين، كما لم يستطع ابن الأحمر أن يرد هجومهم فسقطت الجزيرة بعد طريف في يد الصليبيين، وكانت تلك آخر الجولات الجهادية لأبي الحسن في الأندلس حيث توفي سنة 752 هـ

3 ـ في عهد أبي فارس:

وآخر جولة للمسلمين في الأندلس كانت على عهد أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن ولم تكن هذه المرة بقوة الجيش أو انتقال السلطان إلى الأندلس ولكن اكتفى فيها بتحفيز ابن الأحمر صاحب الأندلس لاحتلال الجزيرة أمده بالمال والعتاد، وكان استرجاع الجزيرة في وقت اضطرب فيه الحلف الصليبي ولم يستطع الدفاع عنها وعادت إلى الحكم الإسلامي.

سبتة وطنجة تؤديان الثمن

انتهى أمر النضال الذي قام به المرينيون في الأندلس إلى ما كان متوقعاً ويخشاه المغاربة منذ عهد يوسف بين تاشفين، وهو انقضاض الصليبية على المغرب من الأندلس. كانت الفكرة واضحة في أذهانهم وهي أن الصليبية لن يستقر لها قرار في الأندلس إلا بالإنتقام من المغرب واحتلال الشواطىء التي كان الجيش الإسلامي يستعملها للعبور إلى الأندلس، هكذا استغل البرتغاليون مرحلة الإنهيار في عهد المرينيين فانقضوا على مدينة سبتة سنة 818 هـ بقيادة خوان الأول ملك البرتغال، وكان ذلك أولى الضربات الانتقامية التي وجهتها

الصليبية إلى المغرب بعد أن عانت من نضاله في الأندلس منذ فتحها طارق بن زياد، واستمر احتلالها من طرف البرتغاليين 250 سنة ثم سلموها للإسبان في معاهدة عقدت بينهما سنة 1080 هـ وما تزال حتى الآن البوابة الكبرى التي يحتلها الغربيون.

بداية الاستعمار في شمال المغرب.

كان ثمن جهاد المغاربة في الأندلس غالباً بعد هذه السنين الطويلة التي احتلت فيها سبتة واتخذت منطلقاً لاحتلال كثير من الشواطىء الأطلسية للمغرب حتى صحرائه، وتلك معركة أخرى سنتحدث عنها فيما يلي من فصول هذا الكتاب.

ومن سبتة إلى طنجة، فقد زحف البرتغاليون على طنجة التي تمثل الرأس الثاني للجانب المغربي من الزقاق، ولم يجدوا مقاومة تذكر من الدولة المرينية بسبب الإنهيار الكامل الذي لحق سلطانها. واستمر احتلالها من طرف البرتغال 250 سنة، ثم تطلع الإنجليز إلى السيطرة البحرية على زقاق (مضيق) جبل طرق، وكانت عيونهم متجهة إلى شماله وجنوبه فاستولوا على طنجة سنة 1074 هـ ليمهدوا بذلك الطريق إلى الاستيلاء على جبل طارق الذي احتلته انجلترا سنة 1704 م لتضمن باحتلال الموقعين الاستراتيجيين طنجة وجبل طارق السيطرة على المضيق، وتمكين أسطولها الكبير عابر البحار من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط.

ولم يتم استرجاع المغرب لمدينته الاستراتيجية الكبرى (طنجة) إلا على عهد السلطان مولاي اسماعيل الملك القوي في الدولة العلوية سنة 1095 هـ/ 1684 م.

النهايات

من بني مرين إلى الوطاسيين

الوطاسيون يتلقون مع المرينيين في جدهم الأكبر مرين، وكانت صلاتهم مع الفرع الحاكم قوية ومتينة، بحيث سمح لهم المرينيون بالاستقرار في الريف غربي ملوية وتركوا لهم نوعاً من السلطة الذاتية دون أن يدفعهم الحذر والخوف من تمردهم أو التنكر لهم كما كان يحدث عادة عند الدول الحاكمة، بل اختاروا منهم عمالاً ومساعدين في تسيير الدولة، وفي مقابل هذا (الإكرام)، إذا صح التعبير، لم يطمح الوطاسيون وهم سادة المنطقة إلى الانتفاض على الحكم المريني، أو القيام بانقلاب ومغامرة. غير أن اقتراب نهاية بني مرين كنهاية الدول جميعها عندما تصل إلى ذروتها كما رأينا في المحور الثاني، دفعت برجل من أهم رجال بني وطاس ووالي أساسي من ولاة بني مرين في سلا، وهو أبو زكرياء يحيى إلى القيام بدور في تحول الدولة من بني مرين إلى بني وطاس. ذلك أن أحد السلاطين المتأخرين من بني مرين وهو أبو سعيد عثمان (800 هـ ـ 823 هـ) اغتيل وترك ابنا صغيراً ولاه حجاب الملك ضدا على إخوان أبي سعيد عثمان، الذين كانوا يطمحون إلى الإستيلاء على السلطة، وجاء أبو زكرياء يحيى الذي كان والياً على سلا فتولى الحجابة واستولى على السلطة، ولم يترك للسلطان الصغير أي نفوذ أو عمل.

ولكن هذا الحاجب الذي استولى على السلطة قتل في معركة للدفاع عن الدولة فتولى الحجابة من بعده مساعده علي ابن الحجاج، وقام بنفس الدور الذي قام به سابقه في تولي السلطة الكاملة. غير أنه توفي سنة 863 هـ تولى بعده يحيى بن يحيى الوطاسي الذي يحاول أن يستلب الملك لصالح بني

وطاس. وكان السلطان قد أدرك أن بني وطاس يدبرون مؤامرة لسلب الحكم مما دفع بالسلطان إلى قتله وتصفية بني وطاس، الذين كانوا يجتمعون حوله. ولم ينج من القتل إلا أخوان هما محمد الشيخ ومحمد الحلو. وسيكون من حظ محمد الشيخ هذا أن يتولي أمراً ـ أصيلاً، ومن هناك سيدفع به الطموح إلى أن يندفع إلى فاس في وقت كان أهل فاس يثورون على السلطان عبد الحق ويقتلونه في موقعة رهيبة سنة 869 هـ بفاس. مما جعل مركز الإمارة يخلو لأول مغامر وكان هذا المغامر هو محمد الشيخ أول سلطان من بني وطاس.
ومن الصعب أن نسمي العهد الوطاسي بدولة الوطاسيين رغم أنهم فرع من بني مرين على غرار ما كان الحفصيون في تونس فرعاً من الموحدين، لكن شتان ما قام به الحفصيون من تكوين دولة قوية تعتبر استمراراً للموحدين بأي مقياس وبين ما قام به الوطسيون الذين كانوا بمثابة قنطرة بين المرينيين والسعديين. كان منهم محمد الشيخ ومحمد «البرتغالي»، لأنه كان قد أسر وهو صغير عند البرتغاليين سبع سنوات فلقب بذلك، وكان منهم أبو حسون الذي لعب دوراً في محاولة احتلال الأتراك للمغرب، ولكنهم جميعاً لم يسطيعوا أن يقدموا للمغرب في ظروفه القاسية التي كان لهم بعض التأثير فيها إلا الفوضى والإنحلال والاحتلال الأجنبي. ويتميز عهد الوطاسيين ـ الذين ابتدأ عهدهم باستيلاء محمد الشيخ على فاس 876 هـ ـ بالمظاهر الآتية:

أولاً: انحلال الدولة، فلم يكن عهدهم عهد دولة على غرار ما كان عهد من سبقوهم من الدول بمن فيهم المرينيون، بل كان سلطانهم يقتصر أحياناً على مدينة فاس ومكناس وما حولهما، وبذلك كان المغرب جميعه خارجاً عن سلطانهم.

ثانياً: سقوط غرناطة في يد الإسبانيين والتجاء أبي عبد الله «الصغير» آخر ملوك بني الأحمر إلى فاس دون أن يكون للوطاسيين أية همة للدفاع عن آخر معاقل الإسلام في الأندلس كما فعل المرينيون من قبلهم.

ثالثاً: استيلاء البرتغاليين على أصيلا وطنجة وإقليم الهبط، ثم انسياحهم على الشواطىء الأطلسية من المغرب، فاحتلوا العرائش وأنفا والمعمورة ثم

البريجة (الجديدة)، التي بنوا بها مدينة محصنة لمطاردة المغاربة الذين أخرجوهم منها أولاً، ثم حاربوهم ولم يستطيعوا لهم صدا. ثم احتلوا أسفي ونزلوا جنوباً حتى فونتي قرب أكادير واستمروا في زحفهم على الشواطىء الصحراوية حتى وصلوا الرأس الأخضر بإفريقيا.

واستيلاء البرتغاليين على هذه الشواطىء المهمة لم يكن بهدف جعلها مراسي لتنقلهم حول إفريقيا، ولكنهم كانوا يجتازون الشاطىء إلى داخل البلاد فيستولون على أراضي زراعية ومراكز سكنية، يوازي ذلك استيلاء الإسبان على مليلية، وكان ذلك على عهد المرينيين سنة 803 هـ، وبذلك طوق الأجانب المغرب من شماله إلى جنوبه الغربي.

ولعله من حسن الحظ أن الزحف الصليبي على المغرب لم يجد مساعدة مهمة من شبه الجزيرة الإيبيرية، لأن البرتغاليين والقشتاليين كانوا في تنافس خطير، وكان القشتاليون قد اتجهوا إلى السيطرة نهائياً على الأندلس بينما اتجه البرتغاليون إلى السيطرة على شواطىء المغرب، ولو اتفق القشتاليون والبرتغاليون لكان الزحف على المغرب أقوى وأشد وخاصة في عهد انحلال وعدم قدرة الوطاسيين على صد هجماتهم.

رابعاً: محاولة خطيرة ويائسة في نفس الوقت، قام بها أبو حسون آخر سلاطينهم، والذي بويع سلطاناً لأول مرة في فاس سنة 932 هـ وخلعه ابن أخيه ليعود مرة أخرى وقد فر من وجه السعديين إلى الجزائر، وشجعه الأتراك هناك على احتلال المغرب فناصروه وأعادوه إلى السلطة، وكان ذلك سنة 961 هـ. ولكن المواطنين في فاس طاردوا الأتراك الذين جاؤا معه وانتهى أمر أبي حسون وانتهت الدولة معه بقضاء السعديين عليه ودخولهم فاس في نفس السنة.

خامساً: رغم انهيار الدولة وعدم قدرتها على الدفاع عن الشواطىء المغربية، فقد قام المواطنون بالدفاع عن شواطئهم قدر مستطاعهم لأن الدولة لم تكن في عَضُدِهم وكان كثير من المواطنيين والعلماء يعادون سلطة الوطاسيين لأن أغلب سلاطينهم كانوا يقفون سلباً مع الاحتلال الأجنبي، بل

ويعقدون الصلح مع المحتلين ليتركوا الوطن نهباً لهم.

سادساً: لم يخل عهد الوطاسيين ـ وقد جَبنووا عن منازلة البرتغايين ـ من حروب طاحنة قامت بينهم وبن طلائع السعديين. ومنها وقعة أنماي بالقرب من مراكش سنة 925 هـ، ووقعة أبي عقبة سنة 942 هـ بتادلة ووقعة وادي درنة بتادلة كذلك.

يمكن إعادة القول ـ بعد هذه الملاحظات ـ أن عهد الوطاسيين إنما كان قنطرة سيئة بين عهد المرينيين والسعديين، فلم يسطيعوا أن يخلفوا المرينيين وأخروا عهد السعديين بعض الوقت الذي يقدر بنحو من 85 سنة، وأعتقد أنه لو كان السعديون قد نضج تطلعهم إلى السلطة في آخر عهد المرينيين، لما كان للوساطيين وجود. ومهما يكن فإن عهدهم ـ السيء الذكر ـ كان بداية الصراع بين الغرب والمغرب الذي سيتخذ أدواراً خطيرة سنتاولها فيما بعد، وسيستمر إلى فرض الحماية على المغرب سنة 1912 م، كما فرض الإحتلال على الجزائر سنة 1830 م، وعلى تونس سنة 1880 م.

انتعاش أوربا ونهاية الدول المغربية.

امتازت المائة التاسعة الهجرية (ما يقابل القرن الخامس عشر الميلادي وبداية السادس عشر) بعدد كبير من الأحداث المهمة في تاريخ المغرب العربي، يمكن أن تجعل هذه الأحداث في نهاية عهد الامبراطورية الذي ابتدأ بالمرابطين والموحدين، ثم أصبح ضعيفاً في عهد المرينيين، وانتهى بنهايتهم وبالأخص بعد سيطرة الوطاسيين على حكم المرينيين. في هذا العهد كانت أوروبا تنتعش، والنهضة الأوروبية تبحث عن مكان جديد لها في التاريخ، سواء منها النهضة العلمية أو الاقتصادية أو التجارية بالأخص، وتتبعها النهضة الاستعمارية. وصحب كل ذلك البحث عن مجال واسع في العالم، كان هو اكتشاف كريستوف كلومبوس لأمريكا سنة 1492 م، واقترن كل هذا بنهضة اقتصادية مهمة تحرك فيها المال والصناعة ونتج عن الصناعة التجارية والبحث عن أسواق داخلية وخارجية. والبحث عن الأسواق كان يتطلب تطوير وسائل

النقل الطرقية والبحرية منها بصفة خاصة، وقد عملت كل من إسبانيا والبرتغال - بعد تحقيق وحدة كل منهما - على إستغلال هذا الاتجاه المهم لعملين عظيمين مهمين، أولهما: الإنتشار في البحار، ومعنى ذلك السيطرة على هذه البحار، فتكونت القرصنة الخطيرة التي قام بها الإسبانيون والمغامرون منهم بصفة خاصة على شواطىء الجزير وتونس وعلى المياه الإقليمية لهذه البلاد، وبذلك خنقوا دولها من جهة ثم مهدوا للسيطرة على الشواطىء وعلى كثير من المناطق الداخلية، أما البرتغاليون فقد انتهزوا فرصة قوتهم البحرية والصناعية والتجارية ورغبتهم في البحث عن الأسواق، وكذلك البحث عن المواد الخام التي تنعش الصناعات الناشئة، فكانت بداية عملهم الاستيلاء على سبتة ثم طنجة ثم الإنسياح في الشواطىء الأطلسية المغربية حتى بلاد سوس والصحراء.

يقابل هذه النهضة (العدوانية) تدهور كبير للإمبراطورية المغربية والدول التي أنهت عهد هذه الامبراطورية، وكان صراعاً غير متكافىء بين مجموعة دول ناهضة وقوية مالياً وعسكرياً وبأدوات حديثة وسفن مهاجمة قوية وكبيرة، ودول بدأت تغرب عنها الشمس ولم تعد تستطيع أن يتماسك حكمها الداخلي ولا أن تدافع عن نفسها أمام الغزو الخارجي، وهكذا سنتحدث عن نهايات وعن ظهور عامل جديد في المغرب العربي وهو العهد التركي والزحف الغربي.

بنو عبد الواد من البداية إلى النهاية

فريق من القبائل الزناتية لجأ إلى المنطقة التي تمتد من وهران إلى تلمسان، وقد تجمعت من قبل قبائل مختلفة كلها زناتية تمردت على سلطة العرب الهلاليين في إقليم الجزائر، ولجأت إلى هذه المنطقة. وهي منطقة مهمة نشأت فيها دولة بني رستم، الدولة الإباضية، وقبلها دولة بني حماد. ولذلك كان من السهل على مجموعة قبائل مغامرة أن تلجأ إلى هذه المنطقة وتفرض نفوذها ضدا على العرب الهلاليين من جهة، وعلى الحفصيين الذين كان نفوذهم يمتد إلى شرق الجزائر وأحياناً يتطاول إلى جزء من غربها.

غير أن الذي مهد الطريق إلى إنشاء دولة بني عبد الواد هُمْ الموحدون في آواخر عهدهم، فقد كانوا في حاجة إلى من يحفظ لهم السلطة والأمن في مناطق بدأت تبدو بعيدة عن مركز السلطة في مراكش، وكذلك اشتغال الجيش بالجهاد في الأندلس وقد استعانوا بهم، وهم زناتيون، رغبة في أن يصدوا عنهم، وهم مصامدة، تطاول القبائل الزناتية، ولذلك عين أحد الخلفاء المتآخرين من الموحدين سنة 624 هـ يغمراسن بن زيان عاملاً على تلمسان.

إذا كانت دولة بني عبد الواد تبتدأ بمؤسسها يغمراسن بن زيان الذي حَكَمَ نَيِّفاً وخمسين سنة فإن الدولة مع ذلك تتميز بخاصيتين:

أولاهما: أنها وجدت في وقت تلتهب فيه المنطقة بالصراع والخلاف وكثرة المشاكل، ذلك أنهم وجدوا في آخر أنفاس الموحدين، وأبو دبوس آخر ملوكهم يقوم بصراع للبقاء حتى موته ونهاية الدولة، وفي وقت استند فيه الضغط القشتالي الأرغوني على مسلمي الأندلس، وبدأت النهاية تبدو واضحة للعيان، رغم تفتت النضال والجهاد الذي قام به المرينيون وخاصة في عهد (يعقوب المنصور بن عبد الحق)، ووجدوا في وقت يطمع فيه الحفصيون في تونس، وقد كانوا يؤهلون أنفسهم، لإرث الموحدين بالاستيلاء على مملكتهم المتهاوية، ضداً على بني مرين رغم موالاة المرينيين لهم، ووجدوا في وقت تتصاعد فيه قوة المرينيين ويشتد عزمهم على إرث الامبراطورية التي أنشأها المرابطون والموحدون والقيام بالجهاد في الأندلس لمساعدة المسلمين.

تتحكم في تأهب بني عبد الواد الجغرافية أكثر مما يتحكم فيه الواقع، فقد نشأت دولتهما في إقليمين كبيرين وبجوار دولتين عظميتين (بعد أن انهارت الدولة الموحدية وخلفتها الدولة المرينية) ووجدوا في مكان (تلمسان) غنى، طريق مهم للتجارة الداخلية والخارجية وبين أقوام يُحْسِنُونَ التجارة، ويكسبون منها الكثير خاصة بين تجارة السلاح الذي كان يورده الأجانب والإسبان وقد عرفوا طريقهم إلى هذه البلاد ويبادلون به تجارة البضائع التي تأتي من الصحراء والجزائر ومختلف الجهات التي قصد إليها التجار المتنقلون. أمام هاتين الخاصيتين المهمتين وستنتج عنهما خاصيات مفيدة جداً في امتداد عمر الدولة

الذي امتد نحوا من ثلاثة قرون ـ وجد رجل ذكي ونشيط استطاع أن يستفيد من كل هذه المعطيات وأن يوظف دهاءه لبناء دولة ما نظن أنه كان يريدها قوية، ولكن كان يريد لها دوراً مهما بين الدول القوية (الحفصيين، والمرينيين) هو «أبو يحيى يغمراسن بن زيان»، هذا الرجل الذي بدأ عاملاً لآخر ملوك الموحدين. وكان يراد منه أن يقاوم خصومهم، ويساعد على بقاء الدولة، استغل هذه الثقة لنفسه فانتقل من مجرد وال إلى أمير، ورغم أن المنطقة التي كان يسيطر عليها (في حدود تلم ' وما إليها) كان يعاني أحياناً من بعض المتمردين العرب الذين يضايفونه، كما كان يعاني من رغبته وطموحه الكبير ليصبح ملكاً قوياً يضاهي مَلكاً مرينياً كيعقوب بن عبد الحق المريني وملكاً حفصياً كأبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكرياء يحيى. وقد حاول أن يستغل ذهاءه في مناجزة يعقوب المنصور حينما عرف أنه عازم على احتلال مراكش للقضاء على الموحدين. مما دفع يعقوب إلى الاستعداد له محاولة وطمعاً في القضاء عليه والظفر بتلمسان. وقد اجتمع الجيشان القويان في ممر تازة ودارت بينهما معركة خطيرة (تلاغ سنة 666 هـ)، انهزم فيها يغمراسن. ولو انهزم يعقوب في هذه المعركة لتحول مجرى التاريخ، فإن دولة المرينيين كانت ما تزال فتية في بداية عهدها، وكان أمامها من المشاكل ما لا تحتمل معه هزيمة مثل ما كان يريد لها يغمراسن، كان يمكن أن يسقط الدولة في بداية عهدها لولا أن يعقوب كان يتمتع بشخصية قوية، وكانت وراءه أرض واسعة يستطيع أن يجمع منها جيوشاً جرارة، ومع ذلك فمثل هذه المعارك في بداية عهد الدولة تضعفها أو تَحُدُّ من نشاطها.

الشيء الخطير بالنسبة ليغمراسن وبالنسبة للعلاقات مع المرينيين كلها، أنه فقد ابنه عمر في المعركة. وذلك ما سيجعل الحرب الطاحنة التي دارت بينهما ستتجدد في ايسلي 670 هـ، بعد أربع سنوات، حيث استعد الطرفان مرة أخرى للحرب، ودارت المعركة لينهزم فيها مرة أخرى يغمراسن ويَفقد فيها ابنا آخر ـ وذلك ما سيزيد في حقده على المرينيين ـ وقد حاول يعقوب بن عبد الحق أن يحتل تلمسان ويقضي على القائد الذي سيبقى في السلطة إلى

سنة 681 هـ، ولم يحتل تلمسان ولم يقض على الدولة التي ظلت في الميدان إلى ما بعد المرينيين بنحو 90 سنة أي إلى سنة 962 هـ.

المدة التي بقي فيها يغمراسن في السلطة بعد معركة ايسلي لم تختلف عن سابقتها، فقد ظل يناجز المرينيين كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. لم تهدأ ثورة بني عبدالواد ضد المرينيين وضد الحفصيين بعد يغمراسن بن أبي زيان. فقد حاول الإستيلاء على بجاية وهي عاصمة فرع الحفصيين الذين انقسموا إلى شبه دولتين، كما قام عثمان بن يغمراسن بعمل غير ديبلوماسي ضدا على يوسف بن يعقوب المريني، حينما تمرد أحد أبنائه بمساعدة وزير له، فلما انتصر عليه يوسف في معركة غير ضارية فر هذا الابن المتمرد إلى عثمان بني يغمراسن في تلمسان فَاسْتَجاره ووزيره ـ وقد حز ذلك في نفس يوسف، وبعد أن صالح ابنه وعاد الابن إلى فاس، ولكن عثمان لم يسلم الوزير المتمرد، فاعتبر يوسف ذلك استمراراً في العراك، فجيش جيوشه لمواجهة بني عبد الواد في تلمسان وكان أن حاصر المدينة حصاراً طويلاً، قال المؤرخون أنه استمر أكثر من ثماني سنوات. واستولى أثناء الحصار على معظم انحاء ومدن دولة بني عبد الواد كوهران وندرومة ومليانة وتمزدكان وشرشال وغيرها من المدن والقرى، وبذلك سقطت الدولة في يد بني مرين إلا العاصمة، وفي أثناء ذلك بايعه صاحب الجزائر ابن علان وصاحب بجاية الحفصي وصاحب تونس. ولكن تلمسان وحدها لم تسقط وبقيت صامدة لتستمر إلى عهد أبي الحسن المريني، وهو الذي احتلها وبنى حولها مدينة أخرى وأعاد بناء المنصورة، ومكن لأنصاره من بناء الدور والقصور والمساجد والحمامات. وأصبحت بذلك دولة بني عبد الواد تحت سلطة المرينيين، لا لتنتهي ولكن لتستيقظ مرة أخرى بعد 25 سنة عاشتها في ظل المرينيين.

إذا كانت دولة بني عبد الواد قد استمرت نحواً من ثلاثة قرون، فإنها في الحقيقة لم تدم إلا نحو 70 سنة هي الفترة التي حكم فيها القائد ومؤسس الدولة أبو يحيى يغمراسن بن زيان 633 هـ ـ 681 هـ، والفترة التي حكم فيها

ابنه أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن 681 هـ ـ 703 هـ، الحكام الذين جاؤوا بعد هذين الرجلين لم يكونوا في مستواهما، ولم تكن الظروف لتتسم باستمرار الدولة كما أراد لها منشؤها الأول، نقصد بالظروف الاستراتيجية والجغرافية وجود هذه الدولة الصغيرة بين دولتين كبيرتين ولكل منهما طموح التوسع والقضاء على المتاجرة أدى إلى اضعاف الدولة، وكان لبني عبد الواد أنفسهم (أمرائهم) ضلع كبير في تخريب الدولة.

المرينيون طمعوا في دولة بني عبد الواد استصغاراً لها من جهة، وتركيزاً لنفوذهم وطموحهم لاحتلال المغرب الأوسط من جهة أخرى. وقد تأتى لهم ذلك في بعض فتراتهم ـ كما عرفنا ـ قبل أن يستعيدها أمراء بني عبد الواد بمساعدة العرب الهلاليين، وكان لبني مرين دور أساسي في تحجيم دولة بني عبد الواد، وبمقدار ما كان دافع الطمع في تلمسان وخصب منطقتها ومركزها الستراتيجي كبوابة المغرب الأوسط، كان تخوفهم من مناجزة بني عبد الواد لهم، وتحفيز الثائرين والطامعين في دولة بني مرين، وهذا هو الدور الثاني الذي سبب انهيار دولة بني عبد الواد وهم بأنفسهم كانوا القائمين بهذا الدور والساعين له. التاريخ يلتمس لهم العذر في أنهم هم أنفسهم كانوا يدافعون عن دولتهم ويخافون على مصيرها من سلطة بني مرين، فالخصومة المزدوجة بين بني مرين وبني عبد الواد كانت السبب في ضعف دولة بني عبد الواد وانهيارها، رغم استمرار امرائها المتعاقبين على الحكم حتى سنة 962 هـ.

الدور الثالث كان يقوم به الحفصيون رغم أن دولتهم كانت تميل إلى الغروب، ومع ذلك كانوا يطمعون في استمرار احتلال مناطق مهمة من المغرب الأوسط كبجاية وتسمو مطامحهم نحو تلمسان، وكان بنو عبد الواد يخشونهم على غرار ما كانوا يخشون المرينيين.

والدور الرابع الذي سبب انهيار الدولة كما أرادها أبو يحيى يغمراسن، قامت به القبائل العربية التي كانت تطمح إلى السلطة دون أن تؤسس لها دولة معروفة، لأنها مجموعة قبائل هاجرت إلى أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط على عهد العبيديين كما سبق. هؤلاء هم بقايا القبائل العربية كانت تستطيع أن

تؤثر على الدول وتناصبها العداء خاصة الحفصيين وبني عبد الواد. وإذا كانت القبائل الهلالية قد ساندت حكم بني عبد الواد ضد المرينيين ـ لأنهم فيما يبدو يسدون الطريق في وجوههم حتى لا يرتحلوا بجموعهم إلى المغرب الأقصى ـ فإن بني عبد الواد قد عانوا من خصومة هؤلاء العرب وأعمالهم السلبية، ولكن وجودهم في منطقة تلمسان لم يكن يخلو من عمل إيجابي لمناصرة الدولة ضد خصومها، وتقوية الدولة الزناتية بشرياً. وكان لهذا العمل الإيجابي أثر في تعريب المنطقة بالاختلاط الأمازيغي العربي.

هل كانت دولة بني عبد الواد نشازاً في المنطقة؟

يمكن أن يكون الجواب إيجابياً لأن الدولة لم تقم بشيء يذكر إلا بعض الجهود التي بدلها أبو يحيى يغمراسن في تحضير عاصمته تلمسان، وبناء المساجد وبعض المعالم العمرانية، ويمكن أن يكون الجوب سلبياً لأن هذه الدولة حالت دون تقوية سُلطان الحفصيين من جهة والمرينيين من جهة أخرى.

ومنذ بداية عهد الامبراطورية، لم يعد المغرب العربي الكبير يحتمل عدداً من الدول الصغيرة لأنها في الحقيقة كانت ضداً على الاستقرار واستمرار عمل الدولة.

نهاية بني عبد الواد كنهاية الحفصيين تختلف عن نهاية بني مرين، فقد آل أمر الدولتين إلى الاحتلال الأجنبي الإسباني على الخصوص، وخضوعهما لاعتداءات القراصنة الإسبانيين بالأخص الذين انطلقوا في البحر الأبيض يعيثون فساداً في شواطئه الجنوبية، وكانت تونس والجزائر مطمحهما الأكبر بعد احتلال سبتة وطنجة وبعض الشواطىء المغربية التي أشرنا إليها من قبل من المغامرين البرتغاليين، وكان ذلك سبباً مباشراً في بداية العهد التركي في تونس والجزائر وهو ما سنشير إليه في فقرة قادمة.

نهاية المرينيين والوطاسيين

لم تكن نهاية هاتين الدولتين ـ اللتين أخذت إحداهما برقاب الأخرى ـ بِبِدْعٍ عن نهاية الدول الأخرى المغربية كبراها وصغراها، بل الدول جميعها. فإن الطغيان الذي يصيب بعض الدول عند نضجها ينحدر بها إلى (قابلية) الانهيار. والمجد الذي تدركه بعض الدول عندما يتوسع نفوذها ولا تستطيع

المحافظة عليه لأنه أكبر من طاقتها، يفضي بها إلى بداية النهاية. هذا ما حصل للمرينيين وخاصة على عهد أبي الحسن، ثم أبي عنان الذي كان عهده نذيراً بالشؤم على الدولة، وهكذا سقطت سريعاً عندما انتهز الوطاسيون من بني عمومة بني مرين الفرصة للاستيلاء على السلطة. ومما قدمناه من إشارات سريعة إلى تاريخهم ندرك أنهم لم يكونوا قادرين على خلافة المرينين والحلول محلهم مثل ما كان المرينيون قادرين على خلافة الموحدين، ومثل ما كان الموحدون قادرين على خلافة المرابطين. ويأتي النذير بنهاية الدولتين مبكراً بسقوط سبتة والدولة المرينية ثم بسقوط طنجة في يد البرتغال سنة 869 هـ. والدولة المرينية تحتضر، وتوالت حبات المسبحة بسقوط كثير من موانىء المغرب على الشاطىء الأطلسي، على عهد أبي سعيد عثمان، ثم بسقوط باقي موانىء المغرب على الشاطىء الأطلسي، على عهد الوطاسيين، دون أن تستطيع الدولتان الدفاع عن أراضي الإسلام، وهذا سبب جوهري في النهاية التي أدركت دولتي المرينيين والوساطيين معاً.

هي شيخوخة في وقتها لأن جيش الدولة لم يكن قوياً للدفاع عن نفسه، فكانت الشيخوخة قاتلة وكانت النهاية، ليبدأ المغرب عهداً جديداً بقيام دولة الأشراف السعديين.

تحليل المرحلة

هل التاريخ في (حالة نهاية الدولة المغربية) يعيد نفسه وقلما يفعل ذلك؟ ولكن التساؤل الكبير هو لماذا هذه الصيرورة المتشابهة؟

قد يعود ذلك إلى طبيعة العصر أي عصر التخلف الذي يسمونه العصور الوسطى وهو عهد يشبه عهود التخلف في مختلف بلاد الدنيا، ولكن ملاحظة أساسية تطبع التاريخ المصيري لدول المغرب هي أنها تنشأ من مناطق بدوية في الغالب على أساس قبلي. ويبدأ الصراع قبلياً ويتطور فكرياً إلى الصراع نحو السلطة والدولة، فلم تأت هذه الدول باستثناء الموحدين وباستثناء أقل في المرابطين من عقلية مثقفة أو متعلمة، ولم تأت من مذهب إسلامي معين

باستثناء دولتي الخوارج الرستميين وبني مدرار. ثم إن هذه الدول جميعها لم تضع في برنامج عملها فكرة التعامل مع الشعب على أساس التطوير الفكري والتعليمي بالأخص وإنما كان برنامجها، بداية ونهاية، الحرب وتجميع القبائل لتدعيم الدولة بالحرب، لا بالسلام ولا لحياة سلمية.

الحرب إذن من بداية الدولة إلى نهايتها وما وراء الحروب من أطماع هي أسباب النهايات المفجعة، والحروب كما رأينا في الدول المغربية جميعها لم تكن بمنجاة عن تطاحن بين الديانتين الإسلامية والنصرانية، ولذلك كانت الصليبية، وما تحمله هي الأخرى من عقلية الحرب لنصرة الصليب، سبباً اندفاع الدول الإسلامية لنصرة الإسلام في الأندلس. وكان ذلك إضعافاً لقوة الدولة التي لم يكن في مقوماتها الذاتية ما يجعلها تحتمل هذا الإضعاف.

والخلاصة أن نهاية الدول في المغرب لم تكن لأسباب شخصية فقط، ولها أهميتها، بل كذلك لأسباب استراتيجية ولتنوع الخصومات القبلية منها والدولية، وللخصومة بين الإسلام والنصرانية، وكل ذلك أنهك الدول رغم ما بدا عليها عندما كانت في أوجها من قوة على الصمود والانتصار.

ومن الأسباب «الشخصية» ثورات الأبناء على الآباء والأعمام وأفراد العائلة لمحاولة انتزاع السلطة أو انتزاعها بالفعل، ثم تولية بعض السلاطين أو الأمراء وهم دون الحُلُمُ كما عبر ابن الخطيب في كتابه الشيق، مما مكن للوزراء والحجاب ـ المتصارعين أصلاً ـ من رقاب الدولة ومحاولة إطاحة أحدهم بالآخر والضحية الأساس هو صاحب العرش الذي قلما يكون في مثل هذه الأوضاع على استعداد للدفاع عن نفسه أو دولته. تلك بعض أسباب النهاية التي عرفتها معظم دول المغرب ومنها دولة بني مرين والوطاسيين.

هذه الفقرة من النهاية مهمة جداً لأنها تسجل كما سنذكر فيما بعد نهاية فترة من التاريخ، وكان لها الأثر الكبير في تحول التاريخ المغربي. وقبل أن نتحدث عن نهاية الأندلس نشير إلى هذه النهاية، كانت طبيعية وكان يمكن أن تقع في عهد ملوك الطوائف قبل تاريخها بنحو أربعة قرون (. . .) أي قبل

الجواز الأول ليوسف بن تاشفين. منذ ذلك التاريخ بدت النهاية قريبة من الوضوح لأن الأندلسيين لم يستطيعوا أن يكونوا دولة واحدة تحكم الأندلس وتدافع عن الإسلام فيها على غرار ما فعلت الدولة الأموية والعامرية، ونتيجة لهذه الاختلافات والصراعات التي كانت تبدأ بالطموح نحو الملك وانتزاعه من المتربع على عرشه وتنتهي بحروب طاحنة بين هذه الدولة وتلك، وبين هذا الملك والآخر على نحو ما قدمنا نماذج منه في فصل آخر من هذا الكتاب.

ولم تنفع المساعدات المهمة التي قدمها المرابطون ثم الموحدون في إعادة الوضع إلى قيام دولة قوية تتربع عرش الأندلس كاملة، وتدافع عنها في وجه الصليبية المتربصة، ولم تنفع أخيراً المساعدات التي قدمها المرينيون في تأجيل المصير الذي كان ينتظر الأندلس. وإذا كان المغرب قد قدم ما يستطيع حسب قوة أو ضعف دولته، فإن ذلك لم يقابل بوعي قوي وسليم من الأندلسيين وحكامهم ولهذا سارت الأندلس بخطى بطيئة ولكنها ثابتة نحو النهاية. وعند اقتراب النهاية حاول بنود الأحمر النصريون أن يستنجدوا بالمغرب أو ببلاد إسلامية أخرى، وكان استنجادهم في غير طائل. والذين يلومون المغرب لأنه تخلى عن الأندلس لا يعرفون أن دولة بني مرين في آخر عهدها، وخلفها دولة الوطاسيين لم تكونا قادرتين على صيانة المغرب جميعه من الإنهيار، وبالتالي لم تكونا قادرتين على إنجاد الأندلس، وكانت النهاية هي ما سنرى في الفقرات الآتية. وإذا كان الحديث عنها اتسم ببعض الطول بالنسبة لهذا الفصل فإن نهاية الأندلس كانت مؤشراً لنهاية المغرب الكبير كله.

نهاية الأندلس

كانت نهاية الأندلس من النهايات المؤثرة في تاريخ المنطقة والدالة على أن الغرب الإسلامي، يسير إلى بداية أخرى، ليست نهاية التاريخ على كل حال، فنهاية بني مرين والوطاسيين ونهاية الحفصيين وبني عبد الواد، تكملها نهاية الأندلس التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الغرب الإسلامي ثم قدر لها أن تلعب نهاية كبيرة أخرى في تحول هذا التاريخ.

وإذا كان ليس من مهمة هذه الفقرة أن نسهب في القول في بعض الجزئيات السياسية والاجتماعية التي أفضت إلى النهاية، وقدمنا بعض تفاصيل المأساة، فإننا نوجز بعض الأحداث التي أفضت إلى النهاية وأثرت فيها، فالتاريخ ـ المضيء والسيء الحظ على السواء ـ يتأثر بفعل الأشخاص وبالملابسات التي تحكمها الصدفة في الظاهر، ولكنها تأتي من حتمية التاريخ.

وكانت غرناطة تحت امرة بني نصر هي المملكة الأخيرة البقية في حوزة المسلمين، وقد عرفنا مما تقدم أن المرينيين حاولوا منذ يعقوب المنصور المريني انقاذ ما يمكن إنقاذه، وكانوا يصطدمون مع قوة النصرانية التي أصبحت تسيطر على مناطق جنوب الأندلس كما سيطرت على شمالها. وفي نهاية غرناطة تبدو لنا ظاهرتان مهمتان: أولاهما اتحاد مملكة قشتالة مع مملكة أرغون بزواج فرناندو ملك أرغون مع إيزابيلا أخت ملك قشتالة هنري الرابع، وهذا الاتحاد كان قوة للنصرانية أنهى صراع المملكتين ووحدهما للقضاء على دولة الإسلام في الأندلس وسيلعب الزوجان دوراً مهما في إجلاء العرب المسلمين عن أعظم مملكة كانت لهم في غرب أوروبا.

الظاهرة الثانية هي أن ملك غرناطة ـ ما قبل الأخير ـ علي أبي الحسن كان سلطاناً متميزاً بشجاعته ورغبته في الدفاع عن مملكته الصغيرة، ولكن العادة تتفق ولا تختلف في عصر الانحطاط، وهي محاولة انفصال مالقة عن غرناطة بفعل بعض الانفصاليين الذين اغروا أخاه محمد أبو عبد الله الزغل، بأن يصبح سلطاناً على مالقة، واستعان الزغل بالقشتاليين على أخيه الذي كان يحاول أن يستعيد بعض المناطق العربية التي أحتلوها من قبل وبداية العمل لتحقيق الخطة.

في حياة أبي الحسن ما يضاعف من وهن الدولة. ويخربها من الداخل، ذلك أنه كان متزوجاً السيدة عائشة بنت أحد سلاطين المنطقة وهي سيدة لها مكانتها السياسية وقدرتها على التدبير وحكمتها في معالجة المشاكل التي كانت تجثم على قلب المملكة، وأنجبت لأبي الحسن ولدين (أبي عبد الله محمد وهو الذي سيتحمل وزر تسليم غرناطة وأبو الحجاج يوسف). ثم تزوج أبو

الحسن بعد ذلك فتاة اسبانية لعلها كانت أصغر سناً وأروع جمالاً من عائشة وأنجب منها ولدين أيضاً. وكان من الطبيعي أن تصارع كل من الزوجتين الأخرى لتستبد بالسلطان والسلطة، وتغلبت الشابة الجميلة النصرانية (ثريا) على السيدة العربية الحكيمة والمقتدرة والمدبرة، واستطاعت ثريا أن تؤثر على أبي الحسن حتى اعتقل عائشة وابنيها في برج من أبراج الحمراء، ولكنها لم تنهزم فدبرت خطة لفرارها وابنيها من المعتقل، واستعانت بأنصارها على استعادة نشاطها السياسي.

الفترة التي قضتها غرناطة ومالقة في الاحتضار كانت فترة صراع بين أبي الحسن السلطان الذي ثار عليه ابنه (ابن عائشة) أبو عبد الله محمد ونصب نفسه ملكاً على غرناطة، وبين عمه محمد أبو عبد الله (الزغل) الذي حاول أن يخلف أخاه أبا الحسن على ملك غرناطة واكتفى بمالقة، هذه الفترة المليئة بالصراع الداخلي انتهت بوفاة أبي الحسن الذي تنازل عن ملك غرناطة بعد أن طرده ابنه منها لصالح أخيه الزغل وقد كبر سنه، وبقي الصراع بين العم وابن أخيه على المدينتين (غرناطة ومالقة) والمناطق التابعة لهما في هذه الفترة التي كان النصارى فيها يشددون الحصار على ما بقي في يد المسلمين من أرض الأندلس. حاول محمد أبو عبد الله (ابن عائشة) أن يقوم بهجمات على بعض المناطق النصرانية. انتصر في بعضها وانهزم في أخرى. واسر عند القشتاليين وكان ورقة رابحة في يدهم بعد أن حاول أبوه في حياته أن يفتديه فلم ينجح، ولكن القشتاليين استغلوا أسره استغلالاً سياسياً فنجحوا بأساليب ديبلوماسية لبقة، أكرموه أثناء أسره ثم عرضوا عليه أن يعود إلى عرش غرناطة بشروط منها: تحرير بقية المناطق الثائرة عليه، وإقامة الحكم للقشتاليين عليها وإعطاء الجزية السنوية وتحرير الأسرى. قبل الأسير كل هذه الشروط ليعود إلى «مملكته» بشرط غير مكتوب وهو استمرار الحرب بينه وبين عمه الزغل، ولكن التصالح تم بينهما على أن تكون مالقة للزغل وغرناطة لأبي عبد الله، وفي هذا الوقت بالذات كانت جيوش قشتالة تخطط الاستيلاء على كل المواقع التي تحيط بالمدنيين وكل الحصون المحيطة بها، وكانت أهمها رندة ولوشة وبلش.

وبسقوط بلش أصبحت غرناطة معرضة للسقوط. ورغم المأساة التي كانت تعيشها فقد انقسم الحكم فيها بين الغريمين الزغل وأبي عبد الله.

نتيجة لكل هذا الانهيار شددت الصليبية بقيادة فرناندو وايزابيلا الحصار على مالقة أولاً، واستبسل في الدفاع عنها رجالها وفرسانها وسكانها عموماً إلى جانب فرقة من جيش غمارة المغاربة. ولم يستطع الزغل الذي كان في وادي آش بعيداً عنها، أن يبذل أن جهد في انقاذها، ودام الحصار نحواً من ثلاثة أشهر قاسى فيها المسلمون الجوع ومحنة الحصار والقتال. واضطروا أن يستسلموا بعد أن فر كثير منهم إلى غرناطة وإلى بعض الجيوب المتفرقة في المنطقة، وسقطت المدينة شهيدة في يد الصليبية سنة 892 هـ.

بقيت بيد المسلمين، غرناطة وبقي الأميران المتصارعان يكيد أحدهما للآخر، وبقيت جيوش النصرانية بقيادة فرناندو وايزابيلا تزحف على الجيوب المجاورة، فزحفت على «المنكب» و«بسطة» و«ألمرية»، ثم أخيراً وادي آش الذي كان يعتصم به أبو محمد الزغل. كان المسلمون في كل هذه المناطق يستبسلون في الدفاع عنها، ولكن الأمل في الانتصار كان ضعيفاً فسقطت واحدة تلو أخرى حتى جاء دور مدينة وادي آش التي يحتمي فيها الزغل، فحوصرت حصاراً شديداً اضطر معه الزغل إلى الاستسلام وتسليم المدينة سنة 895 هـ والدخول تحت طاعة الملكين النصرانيين. وبذلك انتهى دور أحد الغريمين في معركة الأندلس الأخيرة، وجاء دور غرناطة بعد أن أصبحت معزولة عن كل قرية أو مدينة إسلامية يمكن أن تُنجِدها.

سقوط غرناطة

لم يكن بد من المصير المحتوم الذي كان ينتظر المدينة التي اشتهرت بشيئين اثنين، أولهما: قصر الحمراء الذي ما تزال آثاره بادية تحدث عن الماضي المجيد والنهاية المؤسفة، واشتهرت كذلك بأنها آخر معقل للمسلمين والعرب الذين عاشوا في الأندلس وازدهرت الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية بهم نحواً من ثمانية قرون.

غرناطة المدينة التي عاشت في واقع المسلمين الذين دافعوا عنها دفاعاً مستميتاً وعاشت في ذاكرة التاريخ الذي يتحدث عن أفظع عملية استئصال وطرد عدواني عرقي ديني حدث في التاريخ.

حينما احتل القشتاليون والأراغونيون المناطق المحيطة بالمدينة الشهيدة، وجد المسلمون الغرناطيون ـ من التجأ إليها من المناطق المحتلة ـ أنفسهم أمام زحف مدمر مصمم العزم على اقتحام المدينة بأي ثمن. وقد استعمل المهاجمون كل وسائل الحرب والسياسة لطرد المسلمين بأقل ثمن عسكري يقدمونه، اخترقوا كل الاتفاقات والمعاهدات التي عقدوها مع محمد أبو عبد الله آخر سلاطينها. ثم طلبوا إليه أن يسلم اليهم الحمراء ولم يتحدثوا عن المدينة، ورفض ذلك كما رفضه كل الفرسان الفاعلين في معركة النهاية، واستعد المجاهدون على أبواب المدينة التي فتحوها للنكال بالداخلين إليها من الأعداء ثم اضطروا أمام السيل الدافع من المهاجمين إلى اقفالها والمرابطة خلف أسوارها للدفاع عنها، ولكن الحصار القوي الشديد الذي دمر كل الحقول وما يمكن أن يمد المدينة بالغذاء، كما دمرت كل البنى التحتية التي يمكن أن يفد منها الماء وأصبحت المدينة تعيش تحت ضغط حصار عنيف قوي أمام هذا الطغيان الزاحف. لم يجد أبو عبد الله بدا من عقد اجتماع مع رجال الدولة ليقرروا ـ رغم معارضة الفرسان الشجعان وعلى رأسهم موسى بن أبي الغسان الذين كانوا يفضلون الموت على أن يسلموا المدينة أو يشهدوا تسليمها للملكين الصليبيين فرناندوا وازيابيلا ـ ليقرروا طلب الاستسلام والمحافظة على أرواح المسلمين وأملاكهم ودينهم، الشيء الذي اعترفت به المعاهدات ولم يعترف به الواقع الصليبي عند احتلال المدينة، هكذا عقدت اتفاقية الاستسلام ويقول التاريخ إن بجانبها اتفاقية سرية عقدها أبو عبد الله مع فرناندو لضمان سلامته ومنحه منحاً وامتيازات تسمح له وعائلته بالانتقال إلى المغرب دون أذى.

المهم أن أبا عبد الله وقع على معاهدة التسليم التي تضمنت ـ غدراً ـ كثيراً من الحقوق والمصالح التي يمكن أن يتمتع بها المسلمون بعد التسليم، ومنها أنهم لا يؤذون في دينهم ولا في مصالحهم وأراضيهم وأملاكهم، ولا

تمس عاداتهم الإسمية ومساجدهم بأذى، وكان الأمضاء على الاتفاقية في اجتماع حضره رجال الدولة في يوم 25 نوفمبر 1492 م موافق 21 محرم 897 هـ، وقد وافقوا جميعاً إلا موسى بن أبي الغسان ودخلت جيوش الاحتلال يترأسها الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة لتعلن نهاية الحكم الإسلامي.

يلاحظ في عملية الاستسلام أمران مهمان، أولهما أن المسلمين وفي مقدمتهم أبي عبد الله يئسوا من استمرار القتال والمحافظة على المدينة الإسلامية رغم الشجاعة التي أبداها فرسانهم في القتال. ولا يهم التاريخ الآن أن يدين المستسلمين ولا أن يصف موقع المعاهدة بالخيانة، فقد كانت كل الظروف التي سبقت الاستسلام بعقود تؤكد النهاية، ولم يكن في استطاعة من بقي من المسلمين في البقية المحاصرة المرهقة بالجوع والعطش أن يستمروا في المقاومة، ثانيهما، أن الملكين الكاثوليكيين فضلا وقررا استعمال كل الوسائل السلمية والديبلوماسية والوعود الخادعة على استعمال الوسائل العسكرية، لأن جيوش النصرانية قوبلت في كل المواقع التي احتلتها بمقاومة شديدة وقدمت تضحيات بشرية هائلة في وجه البطولة الإسلامية. وكان الملكان يعرفان أن احتلال غرناطة عسكرياً سيصيب الجيش النصراني بخسائر قاتلة، وكانت خطتهما الدبلوماسية نافذة وفاعلة في استسلام غرناطة بدون حرب. ولأول مرة يخلع فيها ملك من أهم ملوك الدول الأندلسية بيد أجنبية وعن طريق المفاوضة والاستسلام وتوقيع المعاهدة.

أما أبو عبد الله فقد انتقل إلى مدينة فاس مع عائلته ونفر كبير (1130) شخص من رجال دولته كملك مخلوع، لم يخلعه شعبه ولكن خلعه احتلال نصراني كاثوليكي حاقد، وخلع معه الوجود العربي والإسلامي في بلاد الأندلس، وبقي أبو عبد الله في فاس ينعم في القصر الذي بناه على غرار ما كان له في الأندلس حتى توفي سنة 940 هـ.

هجرة أبي عبد الله إلى المغرب صحبتها وسبقتها وتلتها هجرات كثير من المسلمين، فعمروا مدنا مهمة وقبائل من المغرب كفاس وطنجة وتطوان وأزمور وآسفي وبلاد غمارة وسلا، وبعض المدن الجزائرية كتلمسان ووهران

وقسنطينة، ولم تكن هذه الهجرة طوعية ولابرغبة صادقة في مغادرة الوطن ولكنها كانت فراراً من محاكم التفتيش ومن التنصير الإجباري والاضطهاد الذي طال المسلمين من كل فئات الشعب.

وكان من الأعمال المهمة التي قام بها بعض الأندلسيين في المغرب تجديد بناء مدينة تطوان على يد الفقيه السيد المنظري التي كانت قد خربت.

النهايات اجهضت توحيد المغرب الكبير

فكرة المغرب الكبير ليست حديثة العهد، ولكنها قديمة قدم الجغرافية والتاريخ، المحاولة التي قام بها المرابطون والموحدون والمرينيون والحفصيون وبنو عبد الواد، لم تكن بعيدة عن حكم الجغرافية ومسيرة التاريخ. وإنما كانت فصلاً من كتاب كتبه المغرب تاريخا منذ عرف كتابة التاريخ واقعياً، وقد قدمنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، تأثير الجغرافية على التاريخ والمسيرة التاريخية جاء فيه:

(. . . الجغرافية ـ كابنها التاريخ ـ تتمرد على السياسة، ولذلك فهي لا تعترف بالمغرب والجزائر وتونس، ولنضف ليبيا شرقاً وموريتانيا جنوباً بغرب، وإنما تتحدث عن كتلة اسمها «المغرب» ـ والتسمية من الإنسان لا من الطبيعة ـ يوصف بالكبير أو بالعربي أو بالمغارب للتمييز، وليس للتحديد، أما الجغرافية فقد حددته بالجزء الغربي من شمال القارة الأفريقية الذي تربط بينه روابط مشتركة تحددها الطبيعة في مجموعات الجبال والوديان والسهول والصحاري والشواطىء المتوسطية والأطلسية.

. . . والأمر أمر الارتباط الوحدوي بين هذه العوامل التي كونت وجود هذا الجزء من شمال إفريقيا، ولذلك حينما نتحدث عن تاريخ المغرب أو عن مستقبله لا يمكن أن نتحدث عن المتميز بالوصف مغرب اقصى ـ أوسط ـ أدنى أو بالأسم: المغرب ـ الجزائر ـ تونس. . . إلخ، وإنما نتحدث عن الكتلة المغربية كما عرفتها الجغرافية وكما صاغت هذه الجغرافية تاريخه القديم والمتوسط، وليس الحديث الذي تدخلت فيه السياسة إلى حد كبير لتصنع المغارب لا المغرب.

. . . والبحر الأبيض ـ يفسح المجال ـ وهو مد جغرافي مشترك أمام تاريخ هذه الكتلة الأفريقية لترتبط بالشمال، وليجعل منها وحدة متحدة ومتحدية في مواجهة الصراع الإنساني التاريخي، وتتحدث الفقرة عن تأثير سلاسل الجبال التي تعطي لشعبها طبيعة الإنسان الجبلي في ارتباطه بالأرض وفي دفاعه عن نفسه وفي قوة شكيمته وصعوبة انهياره أو استسلامه، كما أن السهول منحت حياة هذه الشعب المشتركة مصدراً مهماً للعيش. . . ثم تنضاف إلى ذلك الصحراء التي كانت بحراً واسع الأفق مأمون الجانب، موصلاً إلى ما وراء الصحراء جنوباً (إفريقيا السوداء) وما وراءها شرقاً: (صحراء العرب).

هذا المغرب الكبير الذي وضعنا هذا الكتاب لنعطي لتاريخه مفهوم جغرافيته، حقق نفسه في كثير من فترات التاريخ التي تحدثنا عنها وكان «التحقيق» الأهم، هو ما قام به المرابطون والموحدون أولاً، ثم المرينيون وجعلوا هذه الوحدة تقفز إلى ما وراء البوغاز لتعطي لمفهوم المغرب الكبير. بعداً إسلامياً عربياً بضم الأندلس إلى المغرب الكبير في بعض الفترات، وللدفاع عن الإسلام والعروبة فيها في فترات أخرى.

ولم يكن المجهود الذي قامت به هذه الدول، مضافاً إليها دولة الحفصيين وبني عبد الواد في فترة من هذا التاريخ، إلا تحقيقاً للمغرب الحقيقي ما رسمته الجغرافية وتاريخ ما قبل الإسلام وما بعده.

هل كان يمكن أن يستمر هذا المغرب على نحو ما كان في القرن الخامس والسادس وبعض من القرن السابع الهجري؟ العوامل التي تصنع التاريخ أو تحافظ عليه كثيرة منها ثقافة الشعوب وحضارتها ووعيها بالمسؤولية وقوة الدولة وتجاوبها مع الشعب في الاتجاه الحضاري والتنموي. كثير من هذه العوامل تنوب عن هذه العوامل جميعها وكان الإسلام يقوم مقامها، ولكن تاريخ المغرب كتاريخ جميع الدول في القرون الوسطى، لم يكن يتميز بالاستقرار، ولم تكن تتحكم فيه العوامل التي أشرنا إليها وكانت الدولة تقوم وتنهض بالقوة العسكرية والقبلية ويعلو مكانها ومركزها ما دام هذان العاملان

ـالقوة والقبلية ـ يحميانها، ثم عندما تصل إلى قمتها تبدأ ـ على رأي ابن خلدون ـ في التنازل حتى تسقط، وعندما تسقط الدولة بعامل الضعف العسكري والقبلي، يتدخل عامل آخر هو صعود دولة أخرى بنفس العاملين ـعسكري ـ قبلي لتعيد التجربة من جديد.

ومن حسن الحظ أن عوامل القوة كانت لصالح عهد الامبراطورية، ومن حسن الحظ كذلك أن السلطة في عهد الامبراطورية لم تكن تستند إلى المركز وإنما كانت متنقلة بين ـ الأندلس ـ حتى شمالها في بعض الفترات ـ وبين الجنوب حتى نهر السينغال والشرق حتى طرابلس. ومن حسن الحظ أن ظاهرة مهمة تجلت أثناء ظهور الخلل والضعف في عهد الموحدين هي انتقال السلطة مجددة شبابها وقوتها تحت اسم الحفصيين إلى تونس، وظل ارتباط الامبراطورية قائماً في شكل نوع من اللامركزية، ولكن هذه السلطة المنتشرة عرفت أيضاً مرحلة انهيار تجلت في النهايات التي تحدثنا عنها، فنهاية الأندلس افقد الامبراطورية المغربية مشروعيتها في الدفاع عن الإسلام المغتصب في الأرض المهددة. ونهاية بني مرين افقدت الإمبراطورية العنصر المركزي القوي الذي كان لها في عهد الدولتين قبلها.

وسقوط الحفصيين نتيجة الغزو الأجنبي ودخول البلاد في عهد جديد هو العهد التركي، افقد السند الشرقي للامبراطورية، ومناوشات بني عبد الواد العسكرية افقد الدولة على عهد المرينيين قوتها وحصانتها. ووضعها على طريق النهاية ليس للدولة فحسب ولكن للامبراطورية جميعها.

نستخلص من ذلك أن الجغرافية لم تخن التاريخ ولكن الإنسان عبث بالتاريخ فلم يسعف عمل توحيد المغرب الكبير في الاستمرار. وتحقيق نجاح اكبر، وتلك عثرة تاريخ المغرب ستستمر طويلاً ابتداءا من احتلال سبتة في بداية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي ماراً بسقوط طنجة والسواحل الغربية في يد البرتغال وسقوط بجاية ووهران والمهدية في تونس. كل هذا تضاعف مع انحلال الدولة المركزية سواء في المغرب أو الجزائر أو تونس ليطوي صفحة من التاريخ ويبدء صفحة أخرى سيناضل كل قطر من هذه

الأقطار وحيداً مع الاحتلال التركي في تونس والجزائر والصراع الغربي ضد المغرب ليجعل من هذه البلاد ضحية النهضة الأوروبية، التي بدأت في نفس التاريخ وعرفت تقدما في العلم والصناعة والاقتصاد والتجارة، ليستعمل كل هذه العوامل جميعها لمواجهة المغرب الذي ظل صامداً رغم تخلي هذه العوامل عنه. ولتستعمل ضد الجزائر وتونس حتى تبدأ المرحلة الأخيرة، مرحلة الاستعمار في القرن التاسع عشر (مستغلة ضعف الامبراطورية التركية) الذي بدأ يحتل هذا المغرب الكبير (الجزائر) سنة 1830 م ويمد نفوذه نحو الشرق إلى تونس سنة 1880 م، ثم نحو الغرب المغرب سنة 1912 م.

النهايات إذن ـ التي تحدثنا عنها ـ لم تكن نهاية وضع في منطقة أو قطر، وإنما كانت نهاية عصر ليبدأ عصر آخر اتسم بما اتسمت به الفترة التاريخية من تطور تصاعدي في الشمال وتنازلي في الجنوب، وكانت نتيجة التصاعد والتنازل حتمية، ليس في نهاية الإمبراطورية فحسب، ولكن في نهاية توحيد المغرب الكبير. وهي الفكرة التي تجددت، وهذه البلاد تناضل من أجل استقلالها واستمر تجددها بعد حصولها على الاستقلال.

العصر الحديث عصر المواجهة

البدايات الصعبة

في هذا الجزء من الكتاب نجد أنفسنا أمام مغرب آخر ناتج عن عالم آخر، النهايات التي تحدثنا عنها في الفصل الماضي تؤشر على أن التاريخ سيبدأ بداية جديدة ـ يجتر فيها كل رواسب نهايات العهد السابق. فالمغرب الأقصى وجد نفسه منفرداً وبدون أفق. كانت آفاقه السابقة في المغرب الكبير والأندلس ثم ضاقت هذه الآفاق حتى أصبح مغرب فاس ومراكش وستمتد هذه الآفاق نحو الجنوب في أفريقيا السوداء لبعض الوقت. ووجد نفسه أيضاً محاصراً بقوة كبرى، انعكس فيها الأفق الكبير (الأندلس) الذي درأ للمغرب وللإسلام إلى خِنَاقٍ يضيق على المغرب حتى في عقر داره.

كان هناك عاملان أساسيان لهذا التطور.

أولهما: انتصار الإسبانيين ومن ورائهم البرتغاليون على المسلمين في الأندلس وتصفية الوجود الإسلامي والعربي والمغربي في شبه الجزيرة، وبذلك خلا الجو:

1) للصليبية المتعصبة ليس فقط للسيطرة على شبه الجزيرة الإيبيرية ولكن لمحاولة ـ ربما كانت منتمية للدفاع عن النفس عن طريق الهجوم ـ التغلب على الضفة الثانية من أرض المعركة، والمحاولة تهدف إلى تنصير هذه المنطقة الواسعة التي تشكل المغرب جميعه، مهما يكن الأمل في هذا التنصير ضعيفاً. ولكن انتصار فرديناند وإيزابلا في معركة غرناطة جعل طموح الصليبية يقوى رغبة في أن يكون مصير المغرب العربي كمصير الأندلس.

2) تركز النفوذ العسكري والسياسي والتجاري في هذه المنطقة الواسعة والقابلة للخضوع لهذا النفوذ نظراً لضعف قوة الحكم فيها، كما عرفنا وكما سنرى.

ثانيهما: التطور الذي ادركته أوروبا عموماً وإسبانيا والبرتغال خصوصاً عن طريق نمو الاقتصاد وتطور السلاح وتطور النقل البحري العسكري منه والتجاري على السواء في جانبي شبه الجزيرة، البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. هذا التطور الاقتصادي صاحب اكتشاف أمريكا واستغلال الموانىء التجارية ونمو الاستثمارات الداخلية وتوحيد السلطة في إسبانيا والبرتغال في يد قوة ملكية صارمة، تستند إلى الكنيسة وتستفيد من هذا السند قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية.

تزامن مع هذين العاملين عامل سلبي بالنسبة للمغرب يتمثل في النهايات التي تحدثنا عنها في الفصل الماضي وبخاصة منها انهيار سلطان الدولة في المغرب وتونس والجزائر، وحتى تقوم دولة أخرى تستعيد مجد الدول الغاربة سيكون من الصعب على التاريخ أن يلاحق القوة المنافسة الصاعدة بينما كانت قوة المغرب متنازلة.

التاريخ في منتصف القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر بالمغرب الكبير سيتطور تطوراً ملحوظاً، إذ سيصبح تاريخ مناجزة العدو الذي قفز إلى أرض المغرب نتيجة للأسباب التي ذكرناها، وسيصبح تاريخ عدة جزر بعيدة بعضها عن بعض في مواجهة خصم واحد أصبح عدوا يتخذ الغزو وسيلة للصراع ويهدف إلى الهدف الكبير وهو تكوين الامبراطورية الجديدة الصاعدة: امبراطورية إسبانيا التي اخذت ترنو إلى العالم الجديد من جهة، وتمارس احتلالها لبعض الموانىء والشواطىء المغربية في الجزائر وتونس، منها حجر باديس ووهران وبجاية والجزائر حتى ميناء طرابلس بين سنتي 1508 م و1510 م.

من الجانب الثاني نجد البرتغال، يتطلع إلى استكمال مشروعه الذي ابتدأ باحتلال سبتة وطنجة وباحتلال الشواطىء، أصيلا، العرائش المعمورة والجديدة، أزمور، وآسفي، وفونتي، (أكادير) واستمراراً بالشواطىء الصحراوية الجنوبية في الطريق إلى تطويق افريقيا وتحقيق الهدف الأكبر وهو الوصول إلى الشرق، بحثاً عن الذهب والتوابل والحرير.

هكذا أصبح المغرب الكبير الذي كان مشغولاً بوحدته. ولو عن طريق

الحروب والصراع الدائم والمرهق للدولة والمكلف مادياً وبشرياً ـ مشغولاً الآن بمواجهة الغزو، وأصبحت دول المغرب الكبير تواجه قوة بحرية تتعاظم إمكاناتها البحرية ببناء السفن الكبرى الغازية والمتاجرة على السواء، وتتخذ من بعض المراكز البحرية خاصة في البحر الأبيض المتوسط منطلقاً لها لتغزو الأراضي المغربية.

بالنسبة للمغرب الأقصى نجد دولة الوطاسيين تتهاوى في الوقت الذي كانت قوة البرتغال تتعاظم وتنشر نفوذها على الشواطىء المغربية، التي ذكرنا، وتصرف الدولة المغربية ما بقي من جهدها في مقاومة السعديين، الذين كانت بدايتهم كما سنرى مثل بداية معظم الدول، هادئة تقوم على الدعوة للخير ثم للجهاد. وتنتهي بالتطلع إلى السلطة، إذن لم يكن للوطاسيين قدرة ولا أمل في ان يحموا شواطىء المغرب أو يدافعوا عنها وسيتركون هذه التركة مع مخلفات دولتهم المنهارة إلى ورثتهم السعديين، وسيكون دور السعديين صعباً وخطيراً لأنهم مدعوون أن يحققوا ما لم يستطع أن يحققه من سبقهم من الوطاسيين وما انتقدوه عليهم هو تحرير الشواطىء المحتلة.

تضافر الجنوب والشمال في بناء المغرب

الملاحظة الأساسية هي أن الدول المغربية بعد عصر الدويلات باستثناء الأدارسة ودولة زيري بن عطية ابتدأت جميعها من الجنوب وتصاعدت نحو الوسط والشمال، فلا نكاد نجد دولة قوية نشأت في الشمال وامتد سلطانها إلى الوسط والجنوب.

من الصعب تحكيم الجغرافية في تحليل هذه النقطة. فالأطلس والريف مثلاً سلسلتان يمكن أن تتحكم كل منهما في صناعة التاريخ. ولكن الشمال اشد فقراً والجنوب ربما كان أكثر غنا، وهو يتمتع بسهول واسعة استطاع المجتمع الجنوبي فيها أن يركز تجمعات سكنية، ومع التجمع السكني يأتي الاقتصاد، الزراعة، والتجارة، ويأتي أيضاً التفكير الديني والتعليمي عموماً، فمعروف أن منطقة الجنوب كانت منطقة عالمة كما ينعتها مؤرخو الثقافة وخاصة الأستاذ المرحوم محمد المختار السوسي، وتأتي كذلك المساجد والزوايا،

والزاوية لم تكن مركزاً للتعبد والخلوة فحسب، ولكنها مركز للتفكير يبدأ دينيا وقد يتحول إلى السياسي. والسياسة والدين لا تبتعدان في العصور المختلفة المغربية فمن الدين التنكر للانحرافات، ومن السياسة الدعوة إلى تقويم الانحراف وإلى اصلاع الأوضاع، كان ذلك في عهد المرابطين فانتقل الدين إلى السياسة على يد عبد الله بن ياسين، ثم من خلفه من المرابطين حتى تحول الأمر إلى امبراطورية كبرى. وكان العمل السياسي لتقويض دعائم الدولة المرابطية وبناء دولة الموحدين ثم نراه في عهد السعديين، فقد بدأ الأمر بالتفكير في تقويم دعائم الدين والبحث عن رجل ليتزعم هذا التقويم، غير أن عاملاً آخر مهما يتدخل في مثال السعديين الذي نتحدث عنه وهو عامل تحرير الثغور من «النصارى» يعني من الاحتلال الأجنبي المهدد للدين والدولة وللمواطنين على السواء.

في هذا الإطار يمكن أن نفهم كيف استطاع الجنوب أن يبعث دولاً قوية أضاءت طريق المغرب في العصور الوسطى، واستطاعت كذلك أن تحافظ على الإسلام في الأندلس لمدة أربعة قرون أخرى بعد أن كان مشرفاً على الانهيار في عهد ملوك الطوائف. واستطاعت هذه الدول، من ضمنها دولة السعديين، أن تطرد الزحف الصليبي الذي كان مصمماً العزم على أن ينتقم للأندلس ـ التي ساهم المغرب في إدخال العربية والإسلام فيها ـ بإدخال المسيحية والسيطرة العسكرية الغربية في المغرب ابتداء من الشواطىء.

لم يكن إذا الوازع الديني وحده المتحكم في قدرة الجنوب على إنشاء الدولة وقيامها فإن المغاربة جميعهم سواء في قوة الوازع الديني لديهم. ولكن كانت هناك المعطيات الأخرى التي ذكرناها والتي رصدت أرضاً خصبة وقوماً يَطْلُبون من يوجههم ويدعو المنحرفين منهم إلى الاستقامة. الوازع الديني لم يكن دافعاً إلى السلطة فحسب ولكن كذلك، دافعاً إلى مقاومة الانحراف والاحتلال. وبما أن الدولة كانت منحلة وغير قادرة على تجنيد الشعب والقوات المتنورة بالأخص، كما سيفعل السعديون في معركة وادي المخازن، فإن الاتجاه في كثير من أنحاء المغرب وخاصة في الشمال كان إلى التصوف وهو اتجاه كان سلبياً (اضطراراً) بمقدار ما كان في كثير من الأحيان إيجابياً،

من إيجابياته أن الأشراف العلميين (بنو راشد) اتجهوا إلى بناء قلعة تبعد سلطة النصرانية عنها فبنوا مدينة شفشاون سنة 876 هـ، وكان الهدف من بناء هذه المدينة صد الغزو الأجنبي عن المنطقة والتخلص إلى العبادة. ومن الأمثلة كذلك تجديد مدينة تطوان على يد رجل صالح من المهاجرين الأندلسيين هو سيدي المنظري الذي استهدف تجديد المدينة قريباً من سبتة، لهدفين، أولهما: الاستعداد للجهاد ضد احتلال سبتة. وثانيهما، تجميع الأندلسيين الذين هاجروا وكانوا مايزالون يهاجرون تحت ضغط محاكم التفتيش إلى المغرب فكان أن جعل من مدينة تطوان مقراً رئيسياً لهؤلاء المهاجرين الفارين بدينهم من سيطرة الصليبيين على بقايا الأندلس وذلك سنة 897 هـ/ 1492 م.

طرد المحتلين وبداية مشروع السعديين.

هذه البيئة التي تتمثل في الرغبة أولاً والحاجة إلى تقويم الانحراف ثانياً، ثم وجود الدعاة بشكل أو بآخر، وجدت على شكل ما في الشمال وستجدد نفسها مرة أخرى في بداية السعديين، في الشمال والجنوب.

فهذا أبو عبد الله محمد الذي نبع من درعة ـ مهما يكن ما يقوله التاريخ من أن أصل عائلته من يَنْبُع ـ دعاة أهل سوس فيما يقول المؤرخون (ولا شيء يمنعنا في أن نتشكك في هذه الدعوة) إلى القيام بشؤون الدين وتحريرهم من سلطة النصارى (ماذا يمنع لو قلنا للتاريخ أن هذه «الدعوة» التي جاءته من أهل سوس، نبعث من نفسه فكون لها أنصاراً كما يفعل كل المغامرين في هذا الميدان) ألا يذكرنا ذلك بدعوة عبد الله بن ياسين ودعوة المهدي؟.

حينما يزعمون أن الشعب دعاهم إلى ذلك وأنهم استجابوا لدعوته، وحينما يربطون هذه الدعوة بالعامل الديني وهو القيام بشؤون الدين والعامل الجهادي وهو دفع النصارى عن البلاد.

لا نشك في أن العامل الجهادي كان له أثر كبير على دعوة أبي عبد الله سواء نبعث من نفسه أو من خلايا شعبية دعته إلى القيام بهذا الواجب، ولا نشك في أن الشعب وسكان هذه المناطق بالذات كان يفجعهم احتلال النصارى

للشواطيء ومحاولتهم التغلغل في المناطق الداخلية، وهو عامل مهم جداً، فإن سكان الجنوب لم يصطدموا بالنصارى إلا حينما انتقلوا إلى الأندلس ولم يصابوا بصدمة احتلال سبتة وطنجة في الشمال، كما صدم قبلهم سكان الشمال. ولكنهم وقد فجعوا بالاحتلال النصراني لبعض الشواطيء المغربية، فجعوا مرة أخرى بانهيار الدولة (الوطاسية)، وعدم قدرتها على الدفاع عن البلد وطرد الأجانب منها وهذا ما يجعل طرد الأجانب أقوى عامل في التغيير الذي حدث على عهد السعديين ابتداء من أبي عبد الله محمد الذي سيحمل اسم السعدي.

وبدأ أبو محمد هذا عمله سنة 915 هـ بجمع القبائل لمجاهدة البرتغاليين في الجنوب، ولم يكن قد أعرب عن نيته البعيدة في الاستيلاء على السلطة، وإنما كان مقتصراً على عمله الواقعي لمحاربة الاحتلال. ولذلك ساعده الوطاسيون دون أن يدخلوا في معركة مع جيوش الاحتلال، ولا أن تتضح لهم الأبعاد، أما الأب (أبو محمد) فقد انسحب من أحداث التاريخ وتوفي سنة 923 هـ تاركاً السلطة لولديه وكان حظه أنه بدأ المسيرة لإيجاد دولة جديدة.

وكمؤسس ومجاهد فكر في أن يكون لأبنائه مشاركة في هذا العمل، بعث بثلاثة منهم وهم (أحمد ومحمد وعبد الكبير إلى مكة. وحينما عادوا كانوا يحملون أفكاراً لا شك أنها زادت في قوة الرغبة في الجهاد ضد الأجانب ـ بعد أن قام بجهود مشكورة ضد الغزو الأجنبي، وجند القبائل للقيام بهذا العمل الإسلامي إلى جانب الدعوة الدينية ـ إثنان منهم وهما أحمد ومحمد، ساهما في معركة فونتي ضد الاحتلال الأجنبي، ولكنها لم تستسلم لهما فانطلقا إلى تارودانت، تافيلالت، آسفي، أزمور، وبذلك بدأ التاريخ يدرك أن هذين الشابين تجاوزا مفهوم الجهاد الذي راود أباهما إلى مفهوم السلطة وطمحت، نفوسهم إلى مراكش فاستجابت لهما بعد حرب ضارية مع سلطة الوطاسيين، واتضح الأمر وهو أن هناك دولة جديدة تنشأ على يد ولدي محمد أبو عبد الله.

دولـة جـديـدة

تاريخ هذه الدولة يرتبط كتاريخ من سبقها من الدول، بفترة تمهيد لم

تخل من أعمال إيجابية كما أنها لم تتخلص من سلبيات بدايات الدولة في المغرب. والفترة الثانية كانت فترة ارتفاع شأن الدولة والقيام بالعمل الكبير في تاريخها، وربما في تاريخ المغرب الكبير جميعه. وهي فترة معركة وادي المخازن. أما الفترة الثالثة فهي فترة استثمار نتائج الفترة الثانية وقيام الدولة ابتداءا من عهد (أحمد المنصور الذهبي) بإنجازات مهمة في الداخل وتوسع في أفريقيا، وسنتناول هذه الفترات الثلاث بشيء من الإيجاز.

المرحلة الأولى: تكوين الدولة.

هي فترة ما بين وفاة المؤسس أبو عبد الله محمد سنة 913 هـ وقيام دولة عبد المالك (المعتصم بالله)، في هذه الفترة نجد ابني المؤسس وهما أبو العباس أحمد (الأعرج) ومحمد الشيخ يتعاونان على تحمل المسؤولية التي تركها والدهما في عنقهما، وهي القيام بشأن الدولة إلى حد القضاء على الوطاسيين بمحاربة أبي حسون مرتين.

أبو العباس أحمد احتل مراكش وطرد الوطاسيين منها سنة 930 هـ، وقام بجهاد مشكور في تحرير الثغور والشواطىء من آسفي وآزمور حتى لم يبق بين يدي البرتغاليين إلا أصيلا في الشمال.

وأما أخوه محمد الشيخ فقد استقر بمنطقة سوس حيث كون له سنداً من القبائل السوسية لما كان يتصف به من ذكاء ونشاط. ولم يكن من الطبيعي أن يحكم المغرب الواسع أميران ولو كانا أخوين، غدر بأخيه واحتل حوز مراكش فانتصر على أخيه أبي العباس أحمد الأعرج الذي كان قد بويع أميراً في مراكش سنة 930 هـ، وكان قد سبق لوالده أبي عبد الله محمد أن نصبه ولياً للعهد. انتصر محمد الشيخ على أخيه فاعتقله واستولى على مراكش سنة 956 هـ، وبذلك أصبح محمد الشيخ الأمير المؤسس لدولة السعديين، وكان عليه أن يركز دولته، فهاجم مكناس وفاس واعتقل الوطاسيين وغربهم إلى مراكش، فكان ذلك آخر عهد دولتهم سنة 961 هـ وقضى على آخر ملوكهم أبي حسون.

تتلخص أعمال هذا الأمير ـ الذي تميز بالشجاعة والذكاء والمعرفة ـ في

تحرير فونتي وسميت المنطقة بأكادير سنة 957 هـ، ومحاولة احتلال تلمسان، وقد احتلها بعد نضال كبير وأخرج منها، ثم حاول مرة ثانية ولم يفلح، ويبدو أن الجغرافية تتحكم مرة أخرى، فتلمسان، ولو أنها جزء من المغرب الأوسط وقامت فيها دولة بني عبد الواد، فإنها بالنسبة للمغرب منطقة دفاعية ـ نذكر بأن بني عبد الواد كانوا انطلاقاً من تلمسان يضمرون العداء للمرينيين وأن الحرب بينهما كانت سجالاً، وكلما انتصرَ فيها المرينيون كانوا يحتلون تلمسان كمنطقة دفاعية عن سلطانهم، ربما كانت هي نفس الفكرة التي راودت محمد الشيخ فإنه وجد في السلطة التي تحكم تلمسان عداء لدولته. وكان أبو حسون آخر ملوك الوطاسيين قد عاد فاستولى على مدينة فاس بمساعدة الأتراك انطلاقاً من تلمسان ـ وكانت معركة محمد الشيخ مع أبي حسون وحماته من الأتراك الذين ساعدوه طمعاً في الاستيلاء على المغرب عن طريق الإستيلاء على فاس عاصمة الدولة. وقضاء محمد الشيخ على أبي حسون لم يكن ليجعله يغفل عن مصدر الإضطراب الآتي من أتراك الجزائر، ولذلك طمع في أن يحتل تلمسان كواجهة للدفاع عن فاس.

وامتاز عهد هذا الأمير بحذره من الزوايا والمتصوفين فأقفل كثيراً منها، وقاوم فكرة التصوف. ويأتي ابنه محمد أبو عبد الله (الغالي بالله) ولم يترك بصمة في التاريخ باستثناء الإستمرار في مقاومة الزوايا، حتى أنه استولى على شفشاون وطارد بني راشد منها سنة 969 هـ الذين التجأوا إلى الجبال ثم غادروا المغرب إلى المدينة المنورة، وانضمت شفشاون إلى بقية أنحاء المغرب. وسيكون الرجل الأخير الذي ظهر في هذه الفترة هو أبو عبد الله محمد المتوكل إلى الله (المسلوخ) الذي سيلعب دوراً خطيراً في التعاون مع البرتغاليين أثناء معركة وادي المخازن وسيكون أحد الملوك الثلاثة الذين قتلوا في هذه المعركة.

هذه الفترة تتميز بعلاقات مضطربة مع الأتراك الذين احتلوا الجزائر وكانت أعينهم ترنو إلى المغرب، فهم الذين طردوا محمد الشيخ من تلمسان، وقد بعثوا بسفارة لمحمد الشيخ لتحسين العلاقات بين البلدين، وقبل ذلك كان قد قدم مع أبي حسون ـ حينما احتل فاس قادماً من الجزائر بمساعدة الأتراك ـ جماعة من الجنود الأتراك استقروا في فاس ثم انضموا بعد نهاية أبي حسون

إلى جيش الدولة، فكون منهم فريقاً في جيشه سيكون لكبيرهم «صالح باي» المعروف بالكاهية دور في سوء العلاقات بين البلدين.

النقطة الثالثة في هذه العلاقات هي أن السلطان العثماني سليمان القانوني (1520 م - 1566 م) (وكان من أعظم سلاطين ال عثمان) وسع أقاليم المملكة وعقد علاقات ودية مع مختلف الدول الأوروبية. (وكان يعتقد أنه السلطان الأوحد في زمانه). طمع في الاستيلاء على المغرب وضمه إلى إمبراطوريته في الجزائر وتونس وكان يرغب في أن يكون هذا العمل سلماً لاحربا وبالتدريج، فبعث إلى محمد الشيخ بعثة طلب فيها من السلطان المغربي أن يخطب باسمه على المنابر، وأن يكتب اسمه على العملة كما كان يفعل بنو وطاس. فكبر ذلك على محمد الشيخ وأغلظ لسفير سليمان في القول. ورفض كل المطالب التي قدمها إليه وعاد السفير يجر أديال الخيبة، فكان أن نظم سليمان القانوني عصابة قدمت إلى المغرب في صفة تجار استطاع أفرادها أن يكسبوا ثقة محمد الشيخ وأن ينزلهم عند قائد الفرقة التركية في جيشه. فدبروا مؤامرة لقتله واحتزاز رأسه، وفر نفر منهم برأس القتيل إلى سليمان القانوني، كان ذلك في سنة 964 هـ. وفي نفس الوقت قتل أخوه الأعرج الذي كان معتقلاً في مراكش وأبناؤه وعائلته تحسبا من قاتليه أن يتخلص من معتقله بعد مقتل أخيه ويطالب بالعرش.

النقطة الرابعة في العلاقات مع الأتراك، أنهم هاجموا مدينة فاس مرة أخرى انطلاقاً من الجزائر في عهد الغالب بالله سنة 975 هـ، فانتصر عليهم وطردهم من المدينة.

تحليل المرحلة الأولى

قد تكون هذه الفترة طبيعية ليس فيها ما يميز الدولة السعدية عن باقي الدول الأخرى، فالنشأة كانت إصلاحية إسلامية ونضيف جهادية بسبب مقاومة احتلال الأوروبيين وخاصة البرتغاليين في الشواطىء المغربية، وقد تكون مماثلة لما عرفنا في دول أخرى من أن المؤسس لم يكن هو الحاكم، وهكذا

ساهم أبو عبد الله محمد في فكرة إقامة نظام ما، لسد الفراغ الذي أحدثه تغيب الدولة الوطاسية عن الدفاع عن البلاد. وساهم في الجهاد في الثغور المغربية، كما ساهم ـ وهذا مهم ـ في تجنيد كثير من القبائل لصالح هذا النظام الجديد الذي لم يتضح له تمام الاتضاح، وإن تبدت له ملامحه حينما عين ابنه أحمد الأعرج ولياً للعهد. ولعل هذه الفترة تمتاز أيضاً بأن الصراع فيها مع الدولة المنهارة (الوطاسيين) كان محدوداً، جرى حول المدن مراكش وفاس ومكناس مثلاً، ولم يكن على نطاق واسع مما يفسر أن الوطاسيين لم يكونوا من القوة بحيث يدافعون عن دولتهم وسلطانهم. ونفس المثل الذي مر بنا في الدول السابقة نجده عند السعديين مرت الدولة الناشئة بأزمة داخلية تتمثل في الخصومة بين الأخوين محمد الشيخ وأحمد الأعرج اللذين قامت الدولة على جهودهما ونشاطهما. وكانت النتيجة أن سجن أحدهما الأخر حتى قتل يوم قتل أخوه الذي انتصر في المعركة بين الأخوين.

وإذا كانت الدول السابقة قد تميزت بالصراع في الأندلس ضد الصليبية الزاحفة، فإن هذا الفضاء الجهادي قد تخلى عن الدولة السعدية بسقوط غرناطة قبل نشأتها. وبذلك لم تعتبر الدولة نفسها كما اعتبرت الدول قبلها مجاهدة جهاداً أكبر ـ وهو «الشعار» الذي كانت ترفعه الدول المغربية منذ المرابطين، وكانت تستفيد منه في تبرير بسط نفوذها وسيطرتها على المغرب الكبير كله. غير أن الدولة السعدية عوضت الجهاد الأكبر بالجهاد الأصغر، وهو تحرير الثغور المغربية من الاحتلال البرتغالي. وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير مما مهد للعمل الضخم الذي قامت به الدولة في الفترة الثانية وهو الانتصار في معركة وادي المخازن.

ولعل تحرير الثغور المغربية لا يقل ـ، جهادياً ـ عن الدفاع عن الأندلس. لأن احتلال البرتغال لهذه الثغور إنما كان بداية للسير بالمغرب في طريق الأندلس، وتنصيره كما حدث للأندلس. وتحرير الثغور كان انقاذاً للمغرب الإسلامي الكبير من مصير الأندلس.

ويميز هذه الفترة أيضاً أن الدولة لم تكن على خصومة كاملة مع شرق

المغرب الكبير. انتهت دولة بني عبد الواد التي كانت تناجز المرينيين وتثير في وجههم المشاكل والحروب.

غير أن عاملاً جديداً دخل في موضوع شرق المغرب الكبير وهو تبعية الجزائر وتونس للأمبراطورية التركية وقد تجلت مشاكل هذه التبعية في حادثين خطيرين يمكن التذكير بهما: أولهما مساعدة أبي حسون ـ آخر أمراء الوطاسيين ـ على استعادة سلطته على فاس بعد أن صفيت دولته. وكانت المساعدة من أتراك الجزائر. ورغم أنه استعاد هذه السلطة لأقل من سنة، فقد عمل محمد الشيخ على محاربته واعتقاله وقتله. هكذا فشلت محاولة الأتراك في وضع مشاكل للحكم السعدي. والثانية هي التي بعث فيها سليمان القانوني بالبعثة المعروفة التي طلبت من محمد الشيخ أن يكون تابعاً للامبراطورية التركية، وانتهت هذه المحاولة بقتل محمد الشيخ كما قدمنا. وكان مقتله ثمن حزمه وصرامته. ولو كان ضعيف الشخصية على غرار ما كان الوطاسيون، أو أكثر حذراً ودهاء ديبلوماسياً لانهزم أمام السلطة العثمانية. وهي السلطة الكبرى ربما في العالم آنذاك وهي الامبراطورية التي تجمع بين الخلافة بمفهومها الإسلامي والامبراطورية بمفهومها العسكري والسياسي. تجمع بين حكم البلاد الإسلامية جميعها وجزء من أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى. وكان الأوروبيون يخشونها ويلقبون الخليفة سليمان القانوني بالعظيم. فقد قاد بنفسه الحرب في ثلاث عشرة حملة منها في أوروبا عشر حملات، وفي آسيا ثلاث حملات، هذا هو الرجل الذي طلب من محمد الشيخ أن يعترف به سلطاناً على المغرب كما سيعترف به سلطاناً على الجزائر وتونس، ولكن محمد الشيخ أبي أن يخضع لهذا الطلب، المصحوب بالتهديد، فقدم حياته ثمناً لذلك. ولو استحاب لاخترق العثمانيون حدود المغرب، ولما قامت للدولة السعدية والعلوية بعدها قائمة، كما حدث في تونس عندما أنهى العثمانيون سلطة الحفصيين، وفي الجزائر وخاصة تلمسان عندما انهوا سلطة بني عبد الواد. وخلاصة القول أن الفترة الأولى كانت تمهيداً مهماً للفترة الثانية والتي سيقودها عبد المالك وأحمد المنصور.

المرحلة الثانية: معركة وادي المخازن.

ربما كانت هذه الفترة أهم فترة في تاريخ السعديين، وفي تاريخ المغرب السياسي على العموم، لما ارتبط بها من تقلبات مهمة في تاريخ الأسرة السعدية، وفي تاريخ المملكة السياسي والعسكري على السواء، ولأنها كانت فترة تحول بالنسبة لتاريخ المغرب الكبير، ففيها أنقذ من الاستعمار البرتغالي الإسباني المسيحي عموماً.

وتبدأ الإثارة من بداية المرحلة فقد كان لمحمد (الغالب بالله) الذي خلف والده محمد الشيخ أبناء ومنهم ثلاثة إخوة يذكرهم التاريخ، وهم أبو مروان عبد المالك وأبو العباس أحمد، وعبد المؤمن. وكعادة الأبناء والإخوة حينما يموت الملك ويستبد أحدهم بالملك، يكون للآخرين طموح لا يقل عن طموح الذي أصبح ملكاً. مات أبو محمد عبد الله الغالب مركز السلطة، فتولى الملك خلفاً لوالده محمد الغالب؟ أما إخوته الثلاثة فقد كانوا في سجلماسة. ولم يحدثنا التاريخ عن عملهم في هذا الإقليم النائي، ولا عن نشاطهم الإداري والسياسي، ولا عن قربهم أو بعدهم عن مركز الملك، ومن الملك نفسه والدهم، وإنما يذكر التاريخ أن اثنين منهم عبد الملك وأحمد فرا إلى تلمسان.

كيف وصل عبد الملك وأحمد المنصور إلى الحكم؟

لماذا فرا؟ ولماذا تلمسان بالذات؟ التاريخ المكتوب لا يجيب عن السؤالين. ولكن استقراء الأوضاع يؤكد أنهما كانا على غير وفاق مع أخيهما الذي ولي الملك. والاستقراء أيضاً يؤكد أن الذي يلي السلطة، يغدر بالذين يظن أو يتأكد أنهم قد ينافسونه هذه السلطة. أمامنا محمد الشيخ الذي غدر بأخيه أحمد الأعرج رغم أنه كان صاحب السلطة، وكان المفروض أن يغدر الأعرج بمحمد الشيخ. ولكن ذكاء هذا وشبابه جعلاه يستبق الأحداث فيلي الحكم بدل أخيه أحمد الأعرج بعد أن تعاونا على إقامة سلطان السعديين بنضالهما المشترك في مقاومة البرتغاليين. ونعود إلى الإخوة الذين فروا من سجلماسة خوفاً من أن يفتك بهم أخوهم المتوكل. واختار الأولان منهما

تلمسان بالذات، لأن تلمسان أصبحت بعيدة عن سلطة الدولة المغربية، بعد أن وقعت الجزائر جميعها في يد السلطة التركية. ولذلك وجدا الضيافة والإكرام من عامل تلمسان حسن بن خير الدين.

الجواب عن السؤال قد يكون سهلاً لأن الأتراك كانوا مستعدين لخلخلة السلطة والملك في عهد السعديين طمعاً في أن يصبح المغرب ولاية تابعة للامبراطورية. ولكن التساؤل يأخذ أبعاداً أخرى حينما نذكر أن الأتراك هم الذين قتلوا محمد الشيخ واحتزوا رأسه وذهبوا بها إلى قسطنيطنية عبد المالك وأحمد يعرفان ـ دون شك ـ سبب اغتيال الاتراك لمحمد الشيخ. ألم يكن فرار عبد الملك وأخيه أحمد وثالثهم عبد المؤمن إلى تلمسان مغامرة أخطر من المغامرة التي كانوا يقومون بها لو قاوموا أخاهم من الداخل وهم في سجلماسة؟ ولعله كان في إمكانهم أن يكونوا جيشاً من الجنوب ليقاوم المتوكل ما داموا لم يقبلوه ملكاً وخلفاً لوالدهم؟ عنصر المغامرة وارد في هذه العملية ولكن عبد الملك وأحمد كانا من الذكاء والفطنة والعمل الجاد ما يمنحهما شجاعة المغامرة. لأنهما كانا يحسبان للمنافسة التركية حسابها، ولأنهما وقد غضا الطرف عن الجريمة التي ارتكبها الأتراك بقتل محمد الشيخ ـ كان لهما بعد أكبر من مجرد الفرار من أخيهما خوفاً على حياتهما.

ومن تلمسان إلى الجزائر ومن الجزائر إلى القسطنطينية. هذه الفترة التي ابتدأت من ولاية أخيهما محمد المتوكل الذي سيكون له حساب مع عبد الملك وأحمد ـ هذه المدة قضاها الشابان المغامران بين الجزائر والقسطنطينية. كان هدفهما فيها مطالبة السلطان العثماني مراد بمساعدتهما عسكرياً على تولي السلطة، التي اغتصبها أخوهما، وعرضا في سبيل مطلبهما هذا أن يكون المغرب تابعاً للدولة العثمانية، هذا العرض الذي اختفى من التاريخ ولم يعد يذكر أحد أن السلطان العثماني طالب عبد الملك أو المنصور بعد توليهما للأمر أن يفيا بالوعد.

لم يكن السلطان العثماني ليغامر بفتح جبهة جديدة في المغرب وهو مدعو أن ينهي المعركة مع الإسبانيين في تونس. تباطأ في مد عبد املك بما

طلب. وربما تدخل سبب آخر في هذا التباطؤ وهو الخوف من هذا المغامر عبد الملك السعدي الذي يريد أن يستعيد ملك أبيه.

ولكن طموح عبد الملك لم ينهزم فانتهز فرصة تدبير السلطان العثماني لجيش يحرر تونس من الاحتلال الإسباني وانهيار دولة الحفصيين، وكان آخر ملوكهم محمد بن الحسن الذي كان يحكم تحت السلطة الإسبانية وباسمها ـ انتهز الفرصة فطلب بأن يعمل هو وأخوه تحت امرة البحرية العثمانية في الجزائر لتحرير تونس من الغزو الإسباني. كان لهما ما طلبا. وحينما انتصرت البحرية العثمانية كان عبد الملك أول مبشر لسليم العثماني بالنصر، إذ سبقت السفينة التي ركبها من تونس إلى القسطنينية السفن الأخرى وكانت هذه البشرى هي المفتاح الذي فتح الباب على مصراعيه لمساعدة السلطان العثماني لعبد الملك على الهجوم على المغرب ومحاربة أخيه المتوكل.

الاستجابة العثمانية كانت فاصله في تحول الدولة السعدية من فرع المتوكل ابن عبد الله الغالب بالله إلى فرع عبد الملك وأخيه أحمد ابني الغالب وكانت فاصلة في ولاية أمر الدولة رجل يتميز بكثير من الصفات السياسية والفكرية يفتقدها خصمه المتوكل.

وكانت فاصلة أيضاً في الغزو المتواصل للغرب عموماً وللبرتغاليين على الخصوص للمغرب وما كان يراد لهذه البلاد من تحول إلى النصرانية. ذلك أن عودة عبد الملك مؤيداً بجيش تركي إلى المغرب واحتلال فاس سنة 983 هـ وفرار المتوكل من المعركة، أكد أن المتوكل، بجبنه وعدم قدرته على المواجهة، كان غير صالح لأن يقود البلاد سواء في طريق حكم الدولة السعدية أو في طريق مواجهة الغرب في المعارك التي يدبرونها للمغرب. فاس بالنسبة لكثير من دول المغرب باستثناء المرابطين والموحدين كانت عاصمة الدولة ورمزاً لسيادتها في وجه خصومها، وما أكثرهم. ولذلك فاحتلال فاس كموقع استراتيجي يعتبر نهاية المعركة. انهزم المتوكل مرة أخرى في أحواز سلا ثم في مراكش فالتجأ إلى البرتغال لحمايته ومساعدته على استرجاع ملكه، ولكنهم استغلوه في مهاجمتهم للمغرب كما سنرى. واتخذ عبدالملك مراكش عاصمة

الدولة، بينما عين أخاه أحمد والياً على فاس ونواحيها. من حسن حظ الأخوين ـ كما سنلاحظ في تحليل المرحلة ـ أن أحدهما لم ينفس على الآخر. ومن حسن حظ عبد الملك أن أخاه أحمد ـ وكان لا يقل عنه في قوة شخصيته ودهائه واستفادته من الأحداث ـ لم ينفس عليه قيادته للدولة وعمل كمساعد (وزير وقائد ووالى على فاس) لتدعيم الدولة تحت قيادة أخيه. ورغم أن أحد المستشارين الرئيسيين لهما حاول أن يستفيد من التاريخ، فنهى عبد الملك عن اختيار أخيه لولاية فاس ونواحيها، لأنه كان يعرف ما حدث بين الأعرج ومحمد الشيخ وما حدث قبلهما بين الإخوة الكبار. ولكن أحمد قام بعمله خير قيام، ولم تزعجه نصيحة المستشار لأخيه، كما أن عبد الملك لم يشك قط في إخلاص أحمد له وللدولة. المهم أن يعملا معاً لتأهيل الدولة السعدية ليكون لها دورها المتميز في تاريخ المغرب.

معركة وادي المخازن.

لم يعد للمتوكل دور يلعبه لإستعادة ملكه الضائع، حاول أن يجمع جيشاً من سوس، وحاول أن يهاجم مراكش التي كان يتولاها عبد الملك بنفسه فإستعان عبد الملك بجيش أخيه من فاس، حتى ضاقت الأرض بالمتوكل. ففر هارباً من المغرب ليستعين بالبرتغاليين على أخويه عبد الملك وأحمد.

هنا تبدأ معركة وادي المخازن بداية غير واضحة الخطوط، هل كان البرتغاليون يفكرون ويستعدون إلى احتلال جزء من المغرب، وميناء العرائش بوابة هذا الجزء أم إن المتوكل الذي اتصل بهم، بعد أن فر إلى طنجة المحتلة آنذاك، هو الذي شجع «سيباستيان»، الملك البرتغالي الشاب المتدين، على التفكير في احتلال العرائش كطريق للقضاء على الإسلام في المغرب؟

مهما يكن فإن المخطط، الذي خطه البرتغاليون من قبل وهم يحتلون الشواطىء حتى أكادير على عهد الوطاسيين، ثم وهم يطردون من أغلبها على عهد السعديين، هذا المخطط تجدد في فكر سيباستيان، وأراد أن تحقق مملكته أكثر مما حققه سابقوه وفشلوا في إكماله وأن يجعل من شخصه كملك

متحمس قائد المعركة الصليبية ضد المسلمين. ومن المؤكد أن تحالف المتوكل معه وتحريضه على القيام بمعركة للقضاء على عبد الملك وأحمد، ووعده بأن تكون لسيباستيان سيطرة على الشواطىء المهمة في المغرب وفي مقدمتها العرائش التي كانت تعتبر أهم ميناء مغربي على المحيط؛ هذا التحريض زاد من حماس سيباستيان ولم يكن هو السبب الرئيسي في الهجوم على المغرب. ويجب أن نتذكر أن الإسبانيين والبرتغاليين مايزالون يعتبرون المغرب مسؤولاً عن أسلمة الأندلس وعروبتها، وهم بذلك لم يكتفوا بطرد المسلمين والعرب من آخر معاقلهم غرناطة، بل آخذوا يزحفون على المغرب. ونتذكر كذلك انهم احتلوا سبتة وطنجة، ولا بد لهم لكي يضمنوا عدم رجوع المغاربة إلى الأندلس، أن يكسروا شوكة المغرب باحتلال جميع شواطئه ومنها العرائش.

تحت هذه الفضاءات السياسية والتاريخية رأى سيباستيان أن يجهز جيشاً قوياً للقيام بمعركة ضد المغرب، وتذكر الروايات أن كثيرين حاولوا أن يصدوه عن المغامرة بنفسه في معركة غير مضمونة العواقب، ولكنه صد عنهم بتأثير من القساوسة الذين تربى في ظلهم، والذين حرضوه على احتلال المغرب ونشر النصرانية فيه كما فعل في البرازيل. وصد كذلك عن نصيحة عمه فيليب الثاني ملك السبانيا الذي نصحه بعدم المغامرة (وسيكون لفيليب هذا دور مهم في ضم البرتغال إلى إسبانيا).

وجمع سبستيان قوات كبيرة جعل منطلقها مدينة طنجة المحتلة وكان أكثرها من البرتغاليين وشارك معهم مرتزقة من الإيطاليين والألمان والإسبان بمباركة بابا الفاتيكان.

لم يكن عبد الملك مستعداً لمعركة من هذا الوزن الثقيل وكان ما يزال يقيم في مراكش، وعندما وصله الخبر كتب إلى سبستيان يحذره وينذره، وجمع قواته من مراكش وقوات أخيه من فاس. ووافاه كثير من المهاجرين المتطوعين من مختلف أنحاء المغرب. ومنهم علماء ومثقفون طلبة متحمسون ومدفعوعين بغيرتهم على الوطن وخوفهم من أن يقع للبلاد جميعها ما وقع لطنجة وسبتة والشواطىء التي طرد منها البرتغاليون من قبل.

عسكر سيباستيان بقواته ومعه المتوكل يقود ثلة من المتعاونين معه لا تعدو 300 محارب، على جانب من وادي المخازن وهو فرع من نهر لكوس الذي يصب في شاطىء العرائش، وعسكرت قوات المغرب في الشاطىء الآخر تحت قيادة عبد الملك وأحمد، ودعا عبد الملك سيباستيان أن يقطع إليه النهر لتقع المعركة في بساط واسع واعتبر سيباستيان دعوته تحدياً له فعبر بقواته النهر من قنطرة كانت منصوبة بين الضفتين. فأمر عبد الملك بهدم القنطرة ليقطع طريق الرجعة على القوات البرتغا" . ودارت المعركة حامية بين جيشين غير متكافئين في القوة والعتاد. ولكن الجيش المغربي كان أقوى معنوية وروحاً، وأشد حماساً للإستشهاد في المعركة. بينما كان الجيش البرتغالي غريباً عن الأرض المغربية والتعرف على المقاتلين المغاربة. جرت المعركة يوم 4 غشت سنة (986 هـ ـ 1578 م) دارت الدائرة في المعركة على سيباستيان وجيشه والمتوكل، وغرق في النهر عدد كبير من القوات الهاربة. وقتل الكثير من جيش البرتغال في بلاط المعركة، وفر كثير منهم يتقدمهم سيباستيان والمتوكل معتزمين قطع النهر فغرقوا في لجة النهر. انتشلت جثتاهما بعد ذلك وكان النصر للقوات المغربية.

الحدث المهم ـ والذي كان يمكن أن يكون خطيراً ـ هو أن عبد الملك توفي في بداية المعركة وكتم حاجبه وأخوه أحمد خبر وفاته، وأخذا يصدران الأوامر بالقتال باسم عبد الملك وجثته خلف حجاب. لم يعلم الجيش المغربي بنبأ وفاة عبد الملك ولو علم لربما حدث خلل في سير المعركة، ولكن حكمة أحمد انتصرت فكتم موت أخيه وسير المعركة باسمه حتى انتهت بالنصر.

هل كانت وفاة عبد الملك طبيعية؟ بعض المؤرخين يقولون إن المتوكل بعث من سقاه سما دون علمه وتوفي متأثراً بذلك. وكثير من المؤرخين يقولون إنه تأهب للمعركة وجيش جنوده وهو مريض فكانت نهايته يوم المعركة، ولم يعلم بنتيجتها. مهما يكن فالذي حدث أن ثلاثة من الملوك الذين قادوا معركة وادي المخازن انهوا حياتهم في قلب المعركة. مات سيباستيان والمتوكل غريقين وعبد الملك مات في محفته. هكذا انتهت معركة وادي المخازن

بالنصر للمغرب والهزيمة المطلقة للبرتغال. ويقول المؤرخون إن البرتغاليين لم يستعيدوا المجد الذي بنوه قبل سباستيان وبداية حكمه، داخل البرتغال وفي أمريكا الجنوبية، وفي الشواطىء الإفريقية. لم يستعيدوا مجد البرتغال بعد المعركة أبداً. وكانت إحدى نتائج هذه المعركة أن فيليب ضم البرتغال إلى إسبانيا ليحقق بذلك بعض أحلام المملكة الإسبانية ـ كلما تقوت ـ لتكوين مملكة شبه الجزيرة الإيبرية.

تحليل المرحلة الثانية

معركة وادي المخازن، ليست مرحلة في تاريخ الدولة السعدية ولكنها مرحلة مهمة جداً في تاريخ المغرب وتاريخ البرتغال وإسبانيا والعالم المسيحي الغربي. فقد كانت حداً فاصلاً بين بقاء المغرب أرضاً إسلامية وبين احتلاله ومحاولة تنصيره. المعركة لم يخضها البرتغاليون فحسب ولكن كانت معهم أمم وفرق نصرانية، بعضها شاركت بجنود متطوعين وبعضها كان بتأييد ديني وربما مادي وعسكري، ويتساءل التاريخ لو انتصر البرتغاليون في هذه المعركة، التي أعدوا لها أعداداً كبيراً عسكرياً ومعنوياً، هل كان المغرب سيصمد والدولة ما تزال طرية العود وقد مات ملكها في يوم المعركة؟؟ التاريخ لا يتوقع، فالأحداث هي التي تكتب التاريخ وما حدث كان مرحلة انقاذ للمغرب، ونلاحظ أن المعركة وقعت سنة 986 هـ وأن الجيش التركي الذي قدم لنصرة عبد الملك وأخيه أحمد ومساندتهما في معركة فاس لم يظهر له أثر في معركة وادي المخازن، بل لم يظهر له أثر بعد معركة فاس. هل عاد الجيش التركي إلى الجزئر بعد أن حقق عبد الملك النصر على المتوكل وتولى الملك؟ ألم يطالب السلطان مراد عبد الملك بأن يكون له ما أراد في المغرب بعد الانتصار؟ التاريخ يسكت عن هذا الموضوع ولا يجيب. لذلك فمعركة وادي المخازن كانت معركة مغربية. ويلاحظ أن الجيش النظامي فيها كان لا يزال ضعيفاً قليل العدد، وأن المتطوعين الإستشهاديين كانوا أضعاف الجيش النضالي وهم الذين خاضوا المعركة. وللمتطوعين الاستشهاديين في تاريخ المغرب دور كبير، كانت الدولة تعتمد عليهم حتى في عصور الدول القوية. وكانوا في كثير

من الأحيان يقومون بالجهاد في غيبة عن الدولة وبدون مساعدتها كما حدث في الدفاع عن سبتة عند احتلالها من البرتغاليين مثلاً، وكما حدث في تحرير كثير من الثغور التي احتلها البرتغاليون. فلذلك لا غرابة أن يكون دورهم عظيماً في معركة مصيرية مثل معركة وادي المخازن، ملاحظة أخرى هي أن استنجاد المتوكل بالبرتغاليين وتحريضهم على المعركة لقي استنكاراً كبيراً من الشعب وساعد المتطوعين على تقوية معنوياتهم، باعتبار أن الملك الذي كان بعضهم ما يزال يعتبره الملك الشرعي قد خان البلاد وتحالف مع العدو. وهذا العمل الذي قام به المتوكل ليس غريباً في بعض الدول وفي بعض العهود التي تصطدم فيها قوتان غير متكافئين. فقد رأينا في الأندلس أن كيراً من الملوك كانوا يتحالفون مع الإسبان ضد المسلمين، وأحياناً ضد فرق الانقاذ التي جاءتهم من المغرب. ورأينا أن آخر ملوك الحفصيين في تونس تحالف مع الإسبانيين وحارب معهم ضد بلاده وضد قوة الإنقاذ العثمانية. فالقضية تعود إلى نزعة التشبث بالسلطة وإلى ضعف النفسية المنهارة المنهزمة عندما تودن السلطة بالغروب.

وكان المتوكل شخصية منهارة انهزم عدة مرات في كل لقاء تم له مع منافسية عبد الملك وأحمد، ولم يصمد في معركة فاس ولا في معركة سلا ولا في معركة مراكش ولا صمد أخيراً في معركة وادي المخازن فهو ـ إلى جانب العوامل التي ذكرنا ـ شخصية منهزمة لم يكن التاريخ ليخطىء فيضعفه في صف ملوك دولة متميزة كدولة السعديين؛

وبعكس هذه الشخصية كانت شخصيتا عبد الملك وأحمد. ويحدثنا التاريخ عن شخصية عبد الملك بما يجعله في مصاف رجال الدولة ذكاء ومعرفة واستفادة رغم أنه لم يل السلطة إلا أربع سنوات (983 هـ ـ 986 هـ) ويذكر عنه أنه كان يتقن عدة لغات منها الإسبانية والبرتغالية وبعض الفرنسية وطبعاً التركية، كل ذلك جعل منه شخصية متفتحة لبناء مستقبل دولة كانت ما تزال تلعب بها رياح الحيرة، ومن حسن حظ المغرب والدولة السعدية أن الأدوار التي لعبها الأخوان نجحت وأتت ثمارها.

ولا يمكن أن يغفل التاريخ الدور التي قام به أحمد المنصور من بداية

المرحلة، وبخاصة الدور الذي قام به في معركة وادي المخازن. يعود نجاح الأخوين في المعركة سواء معركة الملك أو المعركة الكبيرة ضد الغزو الأجنبي إلى صدق الأخوة بينهما، وإلى الإدراك العميق الذي اتسم به أحمد فلم ينفس على أخيه الرياسة ولا الزعامة، رغم أنه كان في موقع خطير يمكن أن يدعوه إلى المنافسة إن لم نقل إيقاد نار الفتنة في الدولة. كان في فاس والياً مطلق السلطة وكان أخوه عبد الملك في مراكش يعاني الصراع مع المتوكل. وظروف الدولة في الجنوب لم تكن هادئة بسبب إثارة المتوكل للقبائل السوسية. ولا ننسى أنه كان الملك الشرعي والقبائل ـ في الغالب ـ لا تنقض البيعة بسهولة، ولذلك كان من السهل على المتوكل أن يجمع كثيراً من القبائل لتأييده في سوس.

هذا الدور، دور سلامة الدولة من الإضطرابات العائلية رغم أعمال المتوكل يعود الفضل فيه إلى أحمد الذي كان من العقل والرصانة ما سيتجلى مفعوله عندما سيخلف أخاه عبد الملك. ثم إن تبصره وشجاعته ظهرت عندما مات الملك ومعركة وادي المخازن في بدايتها، واستطاع المنصور أن ينهي المعركة إلى ما انتهيت إليه من نصر في ظروف حرجة وظروف إحباط، وقد ساعد المنصور قبل المعركة في تجنيد الجيوش وكثير من القبائل والمتطوعين من العلماء والطلبة، ولذلك كان دوره في وادي المخازن دور المنفد الشجاع، والمدبر المقتدر.

المرحلة الثالثة: صعود الدولة.

ـ المرحلة الثانية كانت عنوان الصعود الذي أدركته الدولة السعدية في مرحلتها الثالثة، اقترن هذا الصعود بشخصية أبي العباس عبد الملك وأخيه أحمد قائدي معركة وادي المخازن، وتتميز هذه المرحلة بثلاثة مظاهر، أولها السيطرة الكاملة على أقاليم الدولة دون أن تعرف ما عرفته الدول التي قبلها وما ستعرفه دولة السعديين بعد هذه المرحلة من اضطرابات داخلية، ولعل هذا الهدوء الكامل يعود إلى النصر الذي حققته في وادي المخازن فالنصر على أكبر خصم عدو كان يتميز بالقوة العسكرية وبالسلاح الناري المتميز كان له وقع معنوي ومادي في نفوس مختلف القبائل التي شاركت كثير منها في المعركة.

فمن النفوذ المعنوي إكبار السلطة الممثلة في الملك واحترامها وعدم المساس بوحدة البلاد وسلامتها. ومن النفوذ المادي قدرة المنصور على فرض سلطانه على جميع الأقاليم دون أن تُحدِّث أحداً نفسه بالثورة على ملك من مستوى المنصور، إلا المأمون ولي العهد الذي قاد جيش المنصور في المعركة. ولم يكن القضاء عليه سهلاً لأنه انتقل من الريف إلى مناطق تازة وامتدت ثورته إلى تادلة، وقبائلها التي ساندته، ولكن نهايته كانت بقطع رأسه وتقديمه للمنصور وكان ذلك سنة 1005 هـ.

وثورة قام بها الناصر بن السلطان الغالب بالله فقضى عليه. وتمرد قام به أحد حفدة محمد الشيخ وهو داود بن عبدالمؤمن محاولاً الدعوة إلى نفسه قضي عليه في حينه. وتمرد ثالث قام به عرب الخلط في الشمال، وتعامل معهم المنصور بسياسة لبقة انتهى فيها إلى إزاحة هذا التمرد عن طريقه، ولا ننسى تمرد الحاج قرقوش ببلاد غمارة وقضي عليه في حينه، وبذلك استطاع المنصور أن ينظم دولته في كثير من الهدوء رغم هذه التمردات التي لم يكن القضاء عليها مما يكلف الدولة الكثير من الجهد ـ وذلك على الأقل في العقود الأولى من حياته.

المظهر الثاني: هو المركز السياسي الذي حققه المغرب في عهده نتيجة النصر الذي أدركته الدولة في وادي المخازن، فقد راسل كثيراً من ملوك أوروبا والسلطان العثماني مخبراً بما حققه المغرب في معركة وادي المخازن من نصر على القوة الغازية. وسيراً مع منطق العصر، كان رؤساء الدول يمجدون كل دولة انتصرت في معركة عسكرية ويقيمون لها ألف حساب. بارك هذا النصر ملك البرتغال نفسه الذي ولي الأمر بعد سيباستيان، وباركه أيضاً فيليب الثاني ملك إسبانيا، الذي سيضم البرتغال إلى مملكته بعد ثلاث سنوات من وقعة وادي المخازن كما باركه بصفة خاصة السلطان العثماني مراد ابن سليم الذي اعتبر النصر في معركة وادي المخازن نصراً للإسلام والمسلمين. وهذا الإشعاع الدولي للمنصور زاده اعتزازاً بسلطته ومملكته، ثم وقاه من خصومات سياسية وصراعات عسكرية كثيراً ما واجهت ملوك المغرب خاصة في بداية عهدهم بالحكم، وكان المنصور يبذل كثيراً من الجهد للمحافظة على صلات

الود والصداقة مع مختلف الملوك وخاصة في الدول المجاورة والدول الكبرى، وكانت الدولة العثمانية من أكبر الدول التي يمكن أن يخشى بأسها فيحافظ على صداقتها، فلذلك عمل كل جهده لإزاحة التوتر الذي حدث بينه وبين مراد بسبب قضايا بروتوكولية اعتبر فيها مراد أن المنصور لم يهتم بوفده المهنىء له والحامل للهدايا فصالحه المنصور بإرسال وفد ترضاه وأنهى ما تركت في نفسه تلك المعاملة البروتوكولية، وقد استطاع بلباقته أن يهدىء الجو من حوله داخلياً وخارجياً.

المظهر الثالث: هو طموحه لاتساع سلطنه داخل الحدود المغربية، ولذلك بعث بجيش لإخضاع منطقتي توات وتكورارين، وقد تمردتا على الدولة بعد المرابطين، فاحتلهما وأعاد للمغرب وحدته بذلك. وفي هذا المظهر نجد ظاهرتين مهمتين تؤكدان حكمة المنصور في تنظيم الدولة: أولاهما أنه لم يكن يتجه إلى حرب القبائل التي لا تخضع بالطاعة الكاملة للمملكة، وإنما تعيش على هامش السلطة، فقد فرض نفوذ سلطة الدولة على كل القبائل لمطيعة وتعامل معها بالحسنى في موضوع الخراج، وترك بعض القبائل الهامشية التي تعيش في مناطق معزولة وفقيرة دون أن يحاول إخضاعها بالقوة. ولكن كان يترك للقبائل الغنية والخاضعة لنفوذ السلطة أن تحول بين القبائل الأخرى وبين غاراتها وعدوانها، وبذلك عم الهدوء سائر أنحاء المغرب دون أن يلتجأ في ذلك إلى الحرب، وكثيراً ما طَحَنت الحروب الدول المغربية وقضت على إمكاناتها العسكرية والمالية. وفي هذا المظهر نجد حكمته بارزة في تنظيم الولايات. وكعادة ملوك الزمان فقد قسم المغرب على أبنائه تحسباً لمطامع الخارجين على العائلة من قواد عسكريين ومدنيين، فعقد ولاية العهد لمحمد الشيخ المأمون ونصبه والياً على فاس، ونصب أبناءه الآخرين على باقي الولايات، وأبا فارس شقيق المأمون على السوس وسائر الأقاليم التابعة لها، وزيدان على مكناس، وأبا الحسن على تادلة.

المظهر الرابع: أن المنصور تمكن من قوة عسكرية وثروة مالية كبرى في وادي المخازن، نظراً لما تركه البرتغاليون وراءهم من عتاد عسكري (متطور

نسبياً)، وما تركوه من أموال وأسرى أفتدي بعضهم بأموال طائلة، وبذلك بدأت دولته عهدها بغنى لم تعرفهُ الدول الأخرى. ثم كان يفرض الخراج على القبائل الطائعة، وكان دخل الدولة من هذا الخراج مهماً جداً، غنى الدولة هذا ساعد المنصور على انصاف الجيش، وَبَذْلِ المال له، كما ساعده هو نفسه على أن يعيش حياة مُتْرَفَة وأن ينفق على بعض المعالم التي بناها كقصر البديع في مراكش.

وكثرة المال مجلبة للتفكير في زيادته وتنميته، وقد اتخذ لذلك سبيلين: أولاهما، تنشيط التجارة والمشاركة فيها، وكانت تدر على الدولة أموالاً طائلة بسبب الأمن الذي عرفه المغرب من الشمال إلى الجنوب وتَنَقّل التجارة إلى الصحراء وأفريقيا السوداء، كان ينشط الإقتصاد وتنتفع الدولة من وراء ذلك ويزداد دخلها. السبيل الثانية، هي التفكير في غزو مناطق أفريقيا بسبب ما تداعى إليه من كثرة المناجم ومنها مناجم الملح والذهب.

نعود إلى الوراء قليلاً لنلاحظ أن الدول المغربية منذ عهد الدويلات ثم الإمبراطوريات، عاشت على التوسع والغزو والحرب دفاعاً عن الإسلام، وإنقاذاً للمسلمين. الأندلس مثال لذلك ومحاربة القراصنة المهاجمين لتونس في عهد الموحدين مثال آخر. ولكن هذا المظهر العام في الدول السابقة لم يعد له وجود في عهد المنصور، حتى العدوان الغربي على الشواطىء الأطلسية بالمغرب زال بسبب حرب وادي المخازن، وكان على المنصور أن يفكر في إتمام مشروع وادي المخازن، وذلك بتحرير أصيلا وطنجة من يد البرتغاليين التي ستعود إلى سلطة البريطانيين، كمهر لزواج شارل الثاني ملك انجلترا بكاترين الأميرة البرتغالية سنة 1661 م. وكان عليه أن يتم هذا المشروع بتحرير سبتة التي كان قد احتلها البرتغاليون سنة 818 هـ/ 1415 م، وانتقلت إلى ملكية الإسبان بمقتضى معاهدة وقعت بلشبونة سنة 1080هـ/ 1669م، ولو قام المنصور بتحقيق هذا المشروع الجهادي الكبير لأنقذ المغرب من احتلال مدينتين عظيمتين في شماله، ولما بقيت سبتة حتى الآن محتلة، ولما اضطر مولاي اسماعيل في عهد العلويين لتحرير طنجة بعد حصار طويل سنة 1095 هـ، مما صرفه عن محاولة فاشلة تحرير سبتة. ولكن المنصور أغراه

المال والذهب فانصرف عن تحرير الأجزاء المحتلة من المغرب، وكان يستطيع ذلك بسهولة بعد معركة وادي المخازن، إلى إغراءات المال والذهب فغامر مغامرته الكبيرة لاحتلال أجزاء من إفريقيا الغربية، ما وراء الصحراء.

حرب الذهب الافريقي في سنغاي

وقصة ذلك: كان استرجاع توات وتيكورارين سنة 990 هـ، رغم المتاعب التي قادت جيوشه إلى المناطق الصحراوية مشجعاً له على التفكير في ما وراء الصحراء، قد يكون هذا دافعاً بسيطا، ولكن الدافع المهم والأكبر هو أن الدول لا يمكن أن تقوم بغير حرب، لأن الحرب تشغل الجيش وتشغل المواطنين، وخاصة الذين يؤدون الخراج لتمويل الجيش، وتجعل الجيش يمر بمناطق تخضع للدولة، ومعنى ذلك أن هيبة الدولة تنتشر بهذه المناطق. وقد قدمنا أن دولة السعديين، بعد معركة وادي المخازن، لم تعد في حاجة إلى الحرب، لا ثورات كبرى ولا الأندلس ولا الأجانب، ظلوا يغامرون فيعتدون على المغرب ويدفعون بالمنصور إلى مقاومتهم، هذه الوضعية تؤكد أن النظرية التي كانت تتبناها بعض الدول، وما تزال دول قليلة في العالم تؤمن بها، وهي أن السلام لا يخدم سلطة الدولة وهيبتها وقدرتها على السيطرة، وهذه الفكرة هي بعض الأسباب التي دفعت بالمنصور إلى احتلال أجزاء من إفريقيا ما وراء الصحراء، قد لا يكون قدر المتاعب التي تعترضه في هذا المشروع الكبير، فهو سيحارب بجيش نظامي، ويتوفر على أسلحة نارية (مدافع)، ونقل هذه الأسلحة في ذلك العصر في طرق غير معبدة يكلف الكثير من الجهد والمال، ولم يمنح كبير اعتبار لحاجة الجيش إلى الماء والغذاء، رغم أنه زوده بالكثيروأن المناطق التي سيمر منها الجيش مناطق قاحلة، فالجيش فيها يحتاج إلى الغذاء والماء والوقاية من تقلبات الطقس والأوباء التي كانت تمر بهذه المناطق، ولا أعطى اعتباراً لأن المناطق التي سيندفع لاحتلالها، مناطق مسلمة ومسالمة، فلا حجة له في احتلالها ومحاربتها. وقد انتصر على المشكل الذي كان يعترضه فكرياً وضميرياً باستشارة العلماء الذين لم يجيزوا له غزو بلاد مسلمة، ولكنه أبطل حجتهم حينما زعم لهم بأن احتلال هذه الجهات سيأتيه بالمال ليقوي به جيش

المسلمين. واستفتى بعض علماء مصر في هذا الموضوع فكانوا من الغفلة بحيث لم يمنعوه شرعياً عن عمل كهذا. وإنما كان تفكيره متجهاً إلى ما سمع عن هذه البلاد الغارقة في الذهب وما عرف من التجار بأنهم يَسْتَغْنُونَ بتجارتهم معها، وكانت معادن الملح إلى جانب الذهب تثير شهيته لخوض المعركة. الملح كانت تجارة رابحة في إفريقيا الغربية، وتملك دولة سنغاي معادن مهمة منها. فكتب إلى ملك سنغاي إسحاق بن داود وحكام بعض المناطق الأخرى بأن يعترفوا بدولته ويدخلوا تحت طاعته، لم يعتبر بعضهم هذا الطلب مهما، فالمغرب بعيد عنهم، وإذا ما اعترفوا بدولته وأطاعوه شكلياً فليس ذلك بغريب في النظم الإسلامية، وطلب بالأخص من ملك مملكة سنغاي أن يؤدي مثقال ذهب على كل حمل من الملح يبيعه، فأبى الرجل ذلك. ولم يكن هذا الطلب سوى وسيلة ليبرر بها مشروعه الخطير وهو احتلال هذه المناطق. بعث بجيش قوي عمل على تأهيله وتجنيده وتمويله نحو ثلاث سنوات، ووضع على رأسه قائداً من نصارى الأندلس الذين أسلموا وأقاموا في المغرب وهو جؤذر، وكان من فصائل هذا الجيش الذي غزا مملكة سنغاي فيلق من الأندلسيين الذين هاجروا من غرناطة بعد سقوطها في سنوات مختلفة إلى المغرب، فضم المنصور بعضهم إلى جيشه، وقد لقي الجيش في طريقه كل الصعوبات التي لم يقدرها المنصور حق قدرها، فلم يصل منه إلى ميدان المعركة إلا نحو ثلاثة آلاف بسلاحهم الناري الفاعل. استعد لهم إسحاق بن داود بما يملك من سلاح تقليدي قديم، ولكنه حاول أن يتجنب الكارثة فعرض صلحاً على جؤذر يمنح فيه لملك المغرب إتاوة سنوية ويمنح في الحال كمية معينة من المال والذهب، وإذا كان جؤذر قد قبل العرض وتخلى عن مدينة كاغو، فإن العرض لم يرض المنصور فغضب على قائده جؤذر وعزله وبعث بأخيه محمود باشا يخلفه. فاجتاح هذا العاصمة واحتل المملكة وطارد إسحاق بن داود حتى قتله. اعتبر المنصور هذا النصر نصراً كبيراً واحتفل به كما لم يحتفل بالانتصار بوادي المخازن، هكذا فاض الغنى على دولة المنصور (الذهبي) وأصبح أكبر إمبراطور في الغرب الإسلامي ينافس إمبراطورية العثمانيين في الشرق الإسلامي.

لم يكن المنصور في عظمته وجبروته، وكثرة أمواله وانتصاره في معركة ضارية قاسية من أجل توسيع الإمبراطورية والسيطرة على الذهب في إفريقيا، ثم في التقدير الكبير الذي لقيته أعماله وغزواته ونفوذه من ملوك الدول وسلاطينها، لم يكن ذلك ليجعله يفكر في خيبة كانت بالنسبة إليه قاسمة الظهر، فقد كانت ثقته في ابنه المأمون لا يوازيها إلا ثقته في نفسه، وكان هذا الأمير ـ ولي العهد ـ جديراً بهذه الثقة في بداية عهده، وقد فضله أبوه على جميع أبنائه فاحتفل بولاية عهده مرتين على غير العادة احتفالات باهرة وولاه إقليم فاس وهو من الأقاليم التي كان لها اعتبارها في الدولة، وانتدبه لقيادة عمليات عسكرية خطيرة ضد ابن عمه المتمرد على الدولة الناصر بن الغالب بالله، وخاض ضده معركة ضارية حتى حقق النصر.

هذه المكانة التي وضع فيها المنصور ابنه المأمون، والسلطة المطلقة التي كانت له في إقليم فاس، وهو إقليم يغري المأمون بأن يستغل غناه لمصالحه الخاصة، مما جعله يتردى في مهاوي الفساد والسكر وسيآت الأعمال، ولم تنفع في رده عن هذا الاتجاه نصيحة وزيره بل ولا رسائل والده الذي بلغه، وهو في مراكش، ما لا يحسن بولي عهد ملك كالمنصور أن يكون عليه، ولذلك استعد المنصور لمنازلته وقد علم أنه قرر اللجوء إلى تلمسان، وكان المنصور يعرف خطورة تحالف ولي عهده مع الأتراك الحاكمين في الجزائر، وكان أن دبر كل وسائل الحصار لمحاصرته واعتقاله بمكناس.

تزامنت هذه الخيبة مع نهاية حياة المنصور، فقد خرب وباء خطير المغرب لمدة ست عشرة سنة، وأصيب أثناء رحلته إلى فاس فقضى نحبه، كان ذلك سنة 1012 هـ ونعرف أنه ولد سنة 956 هـ، وبويع يوم معركة وادي المخازن سنة 986 هـ، فكانت وفاته وهو في السادسة والخمسين من عمره ولم تدم ولايته غير ست وعشرين سنة.

تحليل المرحلة

لعل أبا العباس أحمد المنصور السعدي من الملوك القلائل الذين استفادوا من الفترة التي حكموا فيها أكبر استفادة، كان محظوظاً منذ تحالف مع أخيه

عبد الملك، واستعان بالسلطان العثماني على السيطرة على الملك في المغرب وطرد أخيهما المتوكل. وكان محظوظاً وأخوه يرحل عن الحياة في عز معركة وادي المخازن وقد دبراها معاً فاستفاد المنصور من ذكاء أخيه وقدرته على تدبير المعركة وتحقيق النصر. وكان محظوظاً بأن أحداً لم ينازعه الملك إلا ابن أخيه الناصر بن الغالب، ولم تقم ضده كثير من الثورات في القبائل المختلفة.

وما من شك في أن هذا الاستقرار كان نتيجة تدبيره للسلطة، سواء عندما وزع الأقاليم على أبنائه فسن بذلك سنة الحكم اللامركزي على نحو ما يمكن أن يفهم في ذلك الزمان، ثم قسم البلاد إلى المغرب النافع والمغرب غير النافع، فكان يحكم السلطة وينظم الخراج في المناطق النافعة ولا يلح على المناطق الجبلية والفقيرة، فيهادن سكانها إلاّ أن يقوموا بتمرد كما حصل في الريف ولذلك ضمن الاستقرار في البلاد أكثر ما يمكن أن يحقق هذا الاستقرار. وإذا كان المؤرخون يشيرون إلى أنه كان شديد الحزم قوي الشكيمة مستغلاً للسلطة أكبر استغلال، فإنه لا يعرف أن هذه الطريقة في الحكم هي التي تضمن له السلطة دون منازع، والمنازعون كثيرون من أبناء إخوته والمتنسلين من ابن عبد الله محمد الشيخ، ولعل حرصه على جمع المال من المناطق الغنية في المغرب لم يكن ليحقق كل رغباته وطموحه في الملك، فقد عاش مدة في القسطنطينية مع أخيه عبد الملك، وتعلم كيف يعيش الملوك هناك من رفاهية ومظاهر الملك الواسع، لذلك اتخذ لنفسه أسلوباً يقترب من سلاطين آل عثمان في أُبَّهَةِ الملك. وكان لا يفتأ ينظم حفلات تَظْهرَ فيها هذه الأبهة، كالاحتفال بأخذ البيعة وتجديدها لابنه المأمون، وكالاحتفال بالوفود التي كانت تفد عليه من السلطان مراد وغيره، وكذلك اتخذ للجيش مظاهر لم تعرفها الدولة المغربية من قبل في التنظيم الذي شمل تقسيم الجيش إلى فرق مختلفة لكل فرقة اسمها وشارتها وقوادها وموقعها، وقد قسم الجيوش كذلك حسب مهماتها العسكرية ومهمة الحراسة الخاصة بالسلطان ودائرته، ووضع لكل منها اسماً معيناً غالباً ما اختاره من أسماء الجيش العثماني، كما كان لبعض الفرق المرتزقة الذين انتقلوا من الأندلس بعد سقوطها أو من بلاد الأتراك ألقابها الخاصة، كثير منها منقول من الألقاب التركية، ولكل من هذه الفرق أزياء

خاصة تعرف بها، وكان يغدق على الجيش من الأموال حتى يطمئن إلى إخلاصهم وطاعتهم، وسيستفيد من هذا الجيش وتنظيماته عندما عزم على غزو بلاد إفريقيا.

الدولة المغربية تعرف لأول مرة هذا التنظيم العسكري الذي استفاد من تنظيم الأتراك العثمانيين، ولا شك أنهم استفادوا كذلك من الدول التي فتحوها في أوروبا.

ولعل أهم ما قام به من المنجزات العمرانية بناء القصر البديع الذي يصفه المؤرخون بما يجعل منه تحفه من تحف الدنيا، ولكنه هدم بعد ذلك في عهد مولاي اسماعيل، فلم يبق فيه من تحف المرمر والمنقوش إلا الأطلال.

وإذا كان المنصور قد استغل المال وسيلة لتدعيم سلطان الدولة فإنه كان طموحاً إلى مزيد من الثروة، ولذلك فكر في غزو إفريقيا على نحو ما شرحنا. ويبدو أن هذا الغزو كان خطأ من أخطائه الكبرى استفاد منه المال والذهب وتوسيع سلطان الدولة، ولكنه قضى على دولة إسلامية عظمى هي مملكة سنغاي، مع أن أراضي هذه المملكة لم تكن بها معادن الذهب، وإنما كانت تبيع الملح بالذهب الذي يأتي من أقطار بعيدة. وإذا كان قائده الثاني محمود باشا الذي خلف أخاه جؤذر قد أغرق الدولة بأحمال الذهب الذي يأتي من خارج سنغاي، وكذلك بالعبيد والجواري الذي ضم الرجال منهم إلى جنده، فإن احتلال هذه الدولة وكذلك مدينة تمبوكتو، وكانت مدينة علم وعلماء، قد كان وصمة في تاريخ الرجل ولم يعطه من حطب الدنيا إلا لقب الذهبي.

الملاحظ في تاريخ المغرب أن الدول والإمبراطوريات كانت على جانب كبير من بداوة، رغم الفكر المتطور الذي عرف به عبد المومن بن علي، ولكن البداوة لزمت رجال الدولة وملوكها، غير أن السعيديين غيروا من هذا المفهوم وخاصة المنصور، فقد نظم الدولة ودواوينها وجيشها وحكامها وعمالها، فكان يراقب كل ذلك باهتمام كبير ويدرس كل التقارير التي ترد عليه من عماله، بالإضافة إلى ذلك كان يخصص يوماً يستمع فيه إلى الشكايات من المظالم التي تلحق المواطنين من عماله، وربما لم يكن ينصف المظلوم من الظالم لأنه يعرف أن الظلم سبيل للسيطرة وفرض الخوف من الدولة ورجالها، ولذلك لم يكن

يتورع من فرض الضرائب بقساوة على كل القادرين على الأداء، كما كان لا يبخل بهذا المال على من يستحق ومن لا يستحق من الذين يخدمونه أو يفدون على قصره في المناسبات. وعظمة الملك تتجلى عنده في فرض السلطة والاستقرار والأمن وتنظيم الجيش ودواوين الدولة، وهذا شيء جديد بالنسبة للدولة المغربية. ربما لم يستمر طويلاً ولكن بعض مظاهره لم تمت مع المنصور، ويمكن القول بأن الدولة السعدية كانت كدولة وطنية غير ذات امتداد خارج المغرب الأقصى ـ إلا الامتداد الذي حققه نحو ممالك إفريقيا ـ تعتبر من الدول اللامعة في عقد الدول والامبراطوريات المغربية بفضل الأخوين عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور. إن مجد الدولة الذي بناه المنصور بالحق والباطل قد أخذ في الانهيار بعد وفاته، وكان القمة التي يأتي بعدها الانحذار.

المرحلة الأخيرة: مات المنصور فماتت الدولة:

التاريخ يتفق ولا يختلف في صعود الدول وانحدارها، فبوفاة يوسف بن تاشفين بدأت دولة المرابطين في الانهيار، وبوفاة عبد المؤمن بن علي بدأت دولة الموحدين في الانهيار، وكذلك الدولة السعدية فقد انتقلت سريعاً إلى عظمتها المتميزة في عهد أحمد المنصور وانهارت بسرعة فائقة بعد وفاته. فقد ظلت تعاني سكرات الموت أزيد من نصف قرن (57 سنة) منذ وفاة المنصور حتى وفاة آخر سلاطينها أبي العباس أحمد ابن محمد الشيخ سنة 1069 هـ. في هذه المدة تولى الملك فيها أبناء أخوة وأحفاد أحمد المنصور أحد عشر سلطاناً ما منهم إلا واغتصب الملك من أبيه أو أخيه أو عمه، وما منهم إلا وقتل غدراً، وما منهم إلا وهزم في معارك عسكرية ثم انتصر ثم هزم في سبيل البقاء في الحكم والعودة إليه بعد أن ينهزم ويطرد. قليل منهم من كان مستقيما في أخلاقه، معظمهم سار سيرة المأمون بن المنصور في السكر والفساد والاغتصاب والاعتداء على أموال الناس وأرزاقهم وسلب متاعهم.

لم تقم للدولة قائمة بعد المنصور، كان أحدهم يستولي على إقليم فاس فيحاربه المستولي على إقليم مراكش، أو يحارب هو صاحب مراكش وينتهي

أحدهما بهزيمة الثاني ثم عودته بعد أن يفر إلى تلمسان أو إلى إسبانيا أو يستجير بأعداء الدولة من البرتغاليين الذين احتلوا كثيراً من شواطىء المغرب. وفي عهد هؤلاء المدعين للسلطة والملك حدثت ثورات واضطرابات سواء في القبائل أو في مدينة فاس بالأخص التي استولى عليها كثير منهم فعاثوا فيها فساداً وثار سكان فاس ضدهم. ومن ثورة إلى أخرى سقطت المدينة في حرب أهلية بين سكان العدوتين، ودخلت في سِنوات من الفوضى الخطيرة حتى قيل عنها إنها تخربت، ومر على مساجدها سنوات ظلت عاطلة عن الصلاة، وعانى سكانها من السبي والنهب في كثير من فترات هؤلاء الحكام. في هذه المرحلة التي طال أمدها قامت كثير من الثورات المهمة سنشير إلى بعضها، كثورة العياشي وثورة السملالي وثورة أبي زكرياء وثورة أبي حسون وثورة الدلائيين وثورة الشبانات، من الملاحظات الأساسية أن عهد السعديين عرف كثيراً من الزوايا الصوفية، التي كانت تؤطر كثيراً بين رجال الدين وطلبة العلم، وكثيرٌ من هذه الزوايا كان يتتبع عمل السلطة، والحكام بالنقد والتجريح، فيلتف حولهم المُريدون والناقمون على السواء، ويمتد أحياناً نفوذهم الذي يتطور من العبادة والعلم، إلى التفكير السياسي ونقد الدولة، ومقاومة الاحتلالات الأجنبية. وبمقدار ما كان بعض ملوك السعديين يحترمون هذه الزوايا وشيُوخها، ويتملقون إليهم أحياناً، بقدر ما كانونا يخشونهم، ويحدون من نفوذهم الديني ضد الدولة. وقد لعبت الزوايا في تاريخ المغرب دوراً كبيراً جداً فيه جانب إيجابي، وفيه جانب سلبي. ولكن مهما يكن فقد كان رجال الزوايا يعبرون (عن المعارضة) التي لا يستطيعها أحدٌ إلا اتّهم بأنه عدو الدولة. ومن أجل هذه المعارضة الصامتة أحياناً، الصارخة أحياناً كان الخلاف يشتد بين سلاطين الدولة، ورجال الزوايا، حتى لا يبلغ بالسلطان أن يدمر الزاوية ويصفي رجالها. وسنشير فيما بعد إلى الدور الإيجابي والسلبي على السواء الذي قامت به الزوايا في آخر العهد السعدي حتى انهت الدولة وانتهت الزوايا معها بقيام الدولة العلوية ورغم أن بعض هذه الثورات كانت تستهدف إقامة نظام جديد للحكم، أو إنشاء دولة انطلاقاً من فساد الحكام وخراب الدولة، فإن المغرب كان في حاجة إلى سلطة

جديدة تنبع من الجنوب وتستهدف إقامة دولة جديدة، فكانت هذه السلطة هي سلطة العلويين التي نهضت من سجلماسة.

يمكن أن يكون السبب الرئيسي فيما حدث للمغرب طيلة أكثر من نصف قرن هو الخطأ الذي وقع فيه المنصور عندما فكر بعقلية متفتحة، فسن نظام اللامركزية ووزع المغرب على أبنائه بنوع مطلق من السلطة، وهو نفس الخطأ يتكرر والذي وقعت فيه كنزة أم إدريس الثاني حينما وزعت المغرب على أبناء ادريس فكانت بذلك نهاية الدولة الإدريسية، ولو طال أمد الاحتضار الذي عاشته. ورغم أن المنصور كان حازماً ومدركاً لمشاكل الدولة ويقظاً بذكاء في فهم طبيعة المحكومين، فلعله لم يتوقع قصر أجله وموته المفاجىء، ولذلك لم يضبط السلطة في الأقاليم التي وزع فيها أبناءه. ولم يكن حازماً معهم على نحو ما عرفنا من تعامله مع ابنه المأمون الذي تعرف على سيرته وفساد خلقه وغضب المواطنين عليه في إقليم فاس، كان فيما يظهر قد بدأ يميل نحو الحزم مع بعض أولاده ولكن الموت عاجله فترك الدولة للفوضى والنهب والفساد والانقسام واقتتال الإخوة والأبناء والقسوة في قتل بعضهم، لجميع إخوته في مجزرة يقوم بها أحدهم ضد إخوته وأبناء عمه وكل من وصله سيفه من العائلة (الوليد قتل سنة 1045 هـ).

التاريخ المغربي يرتفع به الرجال وينهار أيضاً تحت حكم رجال. وتلك نتيجة طبيعية لحكم - صالحاً أو فاسداً - رغم بعض الانتفاضات الفاشلة (انتفاضات سكان فاس ضد الملوك الفاسدين ابتداء من المأمون) والانتفاضات الناجحة إلى حد ما، كانتفاضة الزوايا والرجال المصلحين والمجاهدين كما سنرى.

افــرازات

ما حدث للدولة السعدية سواء في بدايتها أو وسطها أو نهايتها، ما حدث في بدايتها يمكن أن يفرز عدة أحداث ينبىء بعضها بدولة قوية مناضلة من أجل تحرير شواطىء المغرب، والوقوف في وجه الغرب الزاحف استمراراً لنهاية الأندلس. ما حدث في وسطها ينبىء بدولة قوية إذا لم تستطع أن تُنْجِد الأندلس كما فعلت دولة المرابطين ودولة الموحدين وبعض المرينيين، إذا لم تستطع ذلك وإذا لم ـ تستطع أن تعيد للمغرب العربي وحدته كما كان من قبل، فلأن بلاد تونس والجزائر وليبيا قد تعرضت جميعها لغارات القراصنة التي تحولت إلى غارات احتلال عسكري، ثم كان رد الفعل من الامبراطورية الصاعدة آنذاك، الإمبراطورية الإسلامية العثمانية، فدخلت البلاد المغاربية، تونس والجزائر، في العهد العثماني. إن الدولة السعدية استطاعت أن تقوم بمعركة وادي المخازن، وتوسع الدولة جنوبا في أفريقيا السوداء. ولكن لا ننسى أن عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور لم يفتحا أبواب المغرب للامبراطورية العثمانية، رغم أن ملكهما قام بمساعدة هذه الامبراطورية بالجيش وتقويته كما استعان ببعض الأطر ـ الأجنبية منها أطر تركية. وتمتعها بقوة اقتصادية هائلة، ولكن الدولة بدأت عهدها الأخير مبكراً بعد وفاة المنصور. فأفرزت افرازات خطيرة لا تنتسب لبداية الدولة وصعودها بل إنها افرازات تسير بالدولة إلى نهايتها وتدخل بالمغرب في عهد ظلام لم يكتشف له معه طريقاً إلا بتغيير الدولة نفسها.

الزحف الأجنبي على الثغور:

الافراز الأول الخطير في العهد المتأخر للدولة ـ بعد المنصور مباشرة ـ هو احتلال بعض الثغور المغربية منها العرائش والمعمورة والجديدة.

احتلال العرائش كان نكبة في تاريخ الدولة من جهتين، أولاهما: أنه كان شبه انتقام من المغرب المنتصر في وادي المخازن، كانت العرائش كطنجة هي المنطلق لمحاولة سيبستيان الفاشلة، وكانت هي باب محاولة التوسع لغزو المغرب وها هي ذي تقع في يد البرتغاليين بوسيلة خيانية، يخجل التاريخ من تسجيلها ذلك أن محمد الشيخ (المأمون) ابن المنصور، الذي كان قد اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في تدبير جزء مهم من الدولة هو فاس ومنطقة الشمال جميعها، كان قد التجأ إلى إسبانيا بعد سقوط حكمه وعرض عروضاً خطيرة على ملك إسبانيا رغبة في مساعدته لاسترجاع ملكه، وكان أخطر هذه العروض أَنْ يُقَدِّم له العرائش ليحتلها ويرهن أولاده إن لم يف بعهده عند ملك إسبانيا، ليؤكد صدق عمله في إفراغ العرائش من سكانها المسلمين ويتيح لاسبانيا احتلالها.

هكذا كان ابن المنصور يقوم بعمل مغاير تماماً لما قام به والده وعمه لطرد البرتغاليين في المعركة الكبرى وادي المخازن.

ومن الموانيء التي احتلت ميناء الجديدة، وكان ولاة زيدان في المنطقة (أزمور) يتعاونون معهم ويقدمون لهم كل مساعدة لصد المجاهدين الذين حاولوا استردادها. ونفس الشيء حدث في المعمورة قريباً من مدينتي سلا والرباط، وكان احتلال هذه المناطق يهدد المغرب الإسلامي بالتطويق المسيحي الاستعماري.

الحركات المناوئة للاستعمار.

1 ـ حركة العياشي

ظهور حركات مناوئة للاحتلال الأجنبي تجلت أولاها في حركة محمد العياشي، فقيه ومتصوف درس العلم على شيخه عبد الله بن حسون، وكان أن بعث به الشيخ إلى مدينة آزمور بعد أن وثق في علمه وإخلاصه لبلاده، أملا في أن يقوم بحركة علمية وجهادية لتحريض المواطنين على مواجهة الاحتلال البرتغالي للجديدة، وقد اجتمع حول الشيخ العياشي في غياب الدولة ـ نفر كبير

من الناس الذين تأثروا بمقالته الدينية والجهادية ومنهم كون جماعة من المجاهدين لاسترجاع الجديدة، وكان زيدان محالفاً للمحتلين، فَاغتَرّ بتدخلهم ورغبتهم في قمع العياشي. حاول اعتقاله، بعد أن عينه قبل ذلك والياً على آزمور رغبة في أن يستمر في جهاده ضد الاحتلال البرتغالي للجديدة، غير أن الشيخ نجا بنفسه وعاد إلى سلا. وفي هذه المدينة حاول القيام بتحرير المعمورة فلم يفلح، غير أن المجاهدين في سلا شعروا بخطر الإسبانيين وخافوا من زحفهم على المدينة، فرابطوا في أسوارها دفاعاً عنها. وتنامت قوة العياشي كشيخ للمجاهدين فطمع في تحرير العرائش وحاصرها، ولكن قوة جيش الاحتلال أجهضت محاولتَهُ، وطاف في المغرب يحمل هم تحرير الشواطىء حتى طمع في تحرير طنجة، فلم يفلح أيضاً ووقعت معارك بين قوته المحدودة وجماعات أخرى، بعضها متهافت في التعاون مع المحتلين كجماعة الأندلسيين. وحاول انقاذ فاس من فوضى بعض القبائل نتيجة لانعدام سلطة الدولة. وبذلك ثارت عليه قبائل متعددة فالتجأ إلى إحداها (الخلط) فأمنوه، ثم غدروا به فقتلوه سنة 1651هكذا قضى هذا المجاهد نحو أربعين سنة (1013 هـ ـ 1051 هـ) من حياته في الجهاد ومحاولة توحيد المجاهدين ضد الاحتلال الأجنبي للشواطىء المغربية. وكانت حركته رد فعل لانقضاض الغرب على شواطىء المغرب. وكانت كذلك نتيجة طبيعية لانهيار الدولة وعدم قدرتها على الوقوف في وجه الاحتلال الأجنبي. وهي ظاهرة تكررت في تاريخ المغرب كلما ضعفت الدولة وعجزت عن القيام بدورها إزاء الأجانب. وتتجلى هذه الظاهرة في الزوايا التي نشأت في عهود التخلف.

2 ـ الزاوية العياشية:

وتقع في سفح جبل العياشي وأسسها محمد بن أبي بكر العياشي سنة 1044هـ/ 34 ـ 1635 م.

3 ـ الزاوية الفاسية

التي أسسها أبو المحاسن يوسف الفاسي نشأ في القصر الكبير، وأسس لها

فرعين في فاس وتطوان (وقد شارك في معركة وادي المخازن)، وأسس أخوه عبد الرحمن بن محمد الفاسي زاوية مماثلة في فاس. وكان ذلك في أواخر القرن العاشر الهجري.

4 ـ الزاوية الناصرية:

وتقع بتامكروت على ضفاف وادي درعة، وأسسها أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري سنة 983 هـ/ 1576 م وينتسب كثير من أتباعها إلى الطريقة الشاذلية. كان قيامها في الغالب رد فعل لشيئين اثنين، أَوَّلُهُمَا: فساد الدولة وانصرافها عن العناية بشؤون الشعب الإصلاحية التعليمية فكانت الزوايا تقوم مقام المدارس التعليمية من جهة وتطهير النفوس وإصلاحها من جهة أخرى. ثم اتجهت بعض الزوايا منها وهذا هو الهدف الثاني إلى مقاومة احتلال الشواطىء كما رأينا عند المجاهد العياشي، وكما سنرى في الحديث عن الزاوية الدلائية.

5 ـ الزاوية الدلائية:

نشأت هذه الزاوية في ناحية تادلة على يد الشيخ أبي بكر الدلائي (934 هـ وتوفي سنة 1021 هـ) وولي بعده أمر الدلاء أبنه محمد بن أبي بكر، أراد منها أن تكون مركزاً لطلب العلم والعبادة، وسرعان ما اتسعت فكرة الزاوية إلى قرية اعتبرت كلها زاوية وأحاطها الدلائي وطلبته بكثير من المنجزات الأساسية، كبناء القناطر وحفر الآبار والعيون وشراء الأراضي وتحبيسها على الطلبة، ونشأت عن القرية مدينة أخرى تقع بين خنيفرة وتادلة تقوم بنفس المهمة.

وتقوم الدعوة الدلائية انطلاقاً من الطريقة الشاذلية، التي كانت منتشرة في المغرب، وكان أبرز رجال الدلائيين محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي، ومحمد هذا تمكن من زيارة بلاد المشرق، الأراضي المقدسة ومصر واتصل بعلمائها وفد كبير اختاره من مختلف أنحاء المغرب فاكتسب بذلك مركزاً علمياً ساعده على تكوين مركز سياسي وحينما خلف والده سنة 1046 هـ بدأ بجمع الناس حوله ليجهر بهذا النفوذ السياسي. وشعر بخطره محمد الشيخ ابن السلطان زيدان فحاول استرضاءه ببعثة من القضاة ثم برسالة

ودية، ولكن محمد الحاج الذي زاده هذا الإسترضاء تأكيداً بأن عهد السعديين قد أشرف على الإندثار وأنه الوارث الشرعي. جمع جموعه وأعلن نفسه ملكاً ووافته البيعة من جميع أنحاء المغرب وبذلك لم يبق بينه وبين محمد الشيخ إلا القتال، وكان أن انتصر على محمد الشيخ في تادلة، وزاده ذلك قوة ونفوداً في مختلف أنحاء المغرب باستثناء مراكش.

غير أنه أدرك أن التمكين لنفوذه النهائي لن يتم إلا بالقضاء على كل منافسة، ولو كانت من نوع المنافسة الجهادية وليس السياسية. فصمم على القضاء على صديق والده وحليفه المجاهد محمد العياشي، الذي كان يجمع جموعه لتحرير طنجة والعرائش من الإحتلال الأجنبي، وناصبه العداء، وقامت بين الرجلين حروب في ثلاث معارك تبادلا فيها النصر والهزيمة. ولكن الغلبة كانت للدلائي على العياشي فسيطر على مدينتي فاس ومكناس، ثم مناطق الغرب والشمال من تطوان. وبذلك يكون نفوذ محمد الحاج قد امتد من تادلة حتى دكالة، ومن غرب ملوية إلى فاس وناحية الغرب انتهاء بأقصى الشمال، تطوان. وتم له ذلك سنة 1053 هـ/ 1643 م وقد عرفنا أن نهاية العياشي كانت في قبيلة «الخلط» بعد أن إلتجأ إليها ظاناً أنها تأويه فاغتالته واحتزت رأسه لتبعث به إلى خصومِه.

ربما كان استيلاء الدلائيين على اقليم فاس ونواحيه قضاء نهائياً على دولة السعديين في الشمال، ودخلت فاس والأقاليم التابعة لها تحت سيطرة الدلائيين بتولية محمد الحاج بعض انصاره على هذا الإقليم أو ذاك، ويبقى هو سلطاناً على المناطق جميعها التي وقعت تحت سلطة الدلائيين وانتزعت من سلطة السعديين. ونترك فاس لنعيش مع إقليم آخر كانت له الريادة في إدارةِ سلطة الدلائيين بعيداً عن السلطة ـ التي كانت ما تزال شرعية وهي سلطة السعديين ـ الإقليم هو منطقة سلا التي كانت شبه عاصمة لإقليم يضم عدة مدن سلا والرباط والقصبة. وقد عاش هذا الإقليم حياة عسكرية وسياسية واقتصادية باسم الدولة الجديدة، دولة الدلائيين، وكان يتولى إدارة المنطقة كنائب عن السلطان ابنه الأمير عبد الله بن محمد الحاج الدلائي حوالي 1061هـ/ 1651 م

وفي عهد الأمير نشطت العلاقات مع الخارج في ثلاثة اتجاهات.

أولها: القرصنة التي سادت في البحر الأبيض وشملت نهر أبي رقراق الذي يمر محاذياً لسلا. وكانت هذه القرصنة عامة بين المسلمين والنصارى، كان كل منهما يترصد لسفن الآخر ويأسرها ويستولي على ما فيها من بضائع ورجال وأدوات عسكرية وأموال. وقد استطاع المسلمون في هذه المرحلة أن يستولوا على كثير من النصارى من مختلف الجنسيات الأوروبية الذين تؤسر سفنهم ويباعون في الأسواق، وكانت دولهم تفتدي بعض الأسرى بالمال. وبذلك استطاع القراصنة أن يحصلوا على أموال طائلة إلى جانب البضائع والأدوات التي يسلبونها من السفن المأسورة.

ثانيهما: العلاقات التجارية، فقد كانت البلاد الأوروبية وخاصة هولندا وإنجلترا وفرنسا تحاول أن تربط علاقات تجارية فتشتري من المغرب كثيراً من المواد كالصوف والجلد والقصدير، وتبيع للمغرب التبغ والمواد الحربية كالبارود والبنادق وغيرها...

ثالثها: الإتفاقات الديبلوماسية التي حاولت كثير من الدول، وخاصة فرنسا وإنجلترا، أن تعقدها مع حكومة عبد الله بن محمد الحاج أمير سلا وترسل من أجل ذلك ولتطبيق الإتفاقات قناصل يترددون بين سلا وتطوان، لتنظيم العلاقات التجارية من جهة ولحل مشاكل التجار وافتداء الأسرى، ولمحاولة تدعيم علاقات سلمية رغم التوتر بين كل من الجانبين رغم مظاهر التوتر التي كانت تثيرها القرصنة المتبادلة بين الطرفين.

وهذا الوضع الذي أوجدته العلاقات مع الخارج مكن الدولة الجديدة ـعلى هامش الدولة السعدية الشرعية ـ من اقتصاد مزدهر وتجارة نافذة وكان لهذا الإزدهار أثر في استمرار العهد الدلائي دون اضطرابات سياسية كبرى باستثناء ما كانت تقوم به بعض القبائل في ناحية فاس، أو ما كان يحدث داخل هذه المدينة بين العدوتين القرويين والأندلس.

انهيار الدولة:

أمر الدولة الشرعية السعدية في فاس لم يعط للدلائيين نفس الحظ الذي كان لهم في سلا والمدن التابعة لها، فقد ولى محمد الحاج على التوالي ابنيه أحمد ومحمد وحفيد محمد بن عبد الله على المدينة، غير أن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يؤصل حكم الدلائيين ولا أن يحمي المدينة ويرد عنها زحف بعض القبائل كقبيلة الحياينة مثلاً. وقد انصرم عهدهم جميعاً «محمد قتل مسموماً» دون أن يَبْسُطُوا سلطان الديلاء ولا أن يحموا المدينة بالأمن، انصرف الفاسيون عنهم في فترة من هذه الفترات حتى إن محمد بن عبد الله خرج هو وأتباعه من المدينة يائساً من أن يبقى للدلائيين نفوذ في إقليم فاس، وعادوا فاتصلوا بمحمد الحاج ليعيد السلطة إلى المدينة والإقليم فلبى الرغبة، وكان لعودته إلى الإقليم ـ رغم أنه لم يدخل المدينة ـ أثر في نشر الهدوء وإيقاف عدوان القبائل. ولكن هذه المرحلة لم تدم طويلاً، فما كاد يخرج محمد الحاج من أزرو حتى عاد القواد الذين كان ولاهم على المدينة إلى الصراع ضد الدلائيين، وكان إخلاص سكان العدوتين للدلائيين قريباً، فحاولوا أن يبقوا على ولائهم لمحمد الحاج والدلائيين إلى أن انتهى أمرهم بقيام الدولة العلوية.

وكان أن استولى على المدينة وأحوازها الرشيد بن الشريف، فكانت نهاية الدلائيين فيها رغم ولاء سكانها لهم. غير أن الدلائيين لم يعودوا قادرين على الدفاع عنها ضد ما يتهددها من زحف القبائل ومن تهديد الثائر «الخضر غيلان»، وبقيت منطقة الديلاء ومنطقة سلا والرباط والقصبة. في منطقة سلا والرباط ظل عبد الله ابن محمد الحاج يحكم بمهارة ومقدرة ويتيح للمواطنين حياة كريمة بسبب التجارة النافقة وتصدير البضائع عن طريق ميناء سلا، والضرائب التي كان يفرضها على الصادرات والواردات، مما كان يساعده على الإنفاق من جهة ويخفف عبء الإثاوات عن المواطنين. وبذلك ظل سكان العدوتين مخلصين له كأمير ديلائي، غير أن ثورة القبائل المجاورة كانت تترصده بالإضافة إلى ثورة الخضر غيلان. وهكذا وقعت ثورة بالسلاح الثقيل سنة 1070 هـ وحوصرت القصبة واستطاع عبد الله أن يدافع عنها ثمانية عشر

شهراً دون أن يفلح المهاجمون في اقتحامها، وفي هذه المدة استفاد من تجارة السلاح مع الفرنسيين والإنجليز على الأخص، وبعد أن أيقن ألا قبل له بهذا الحصار الدائم فر من القصبة، وترك الدفاع عنها لبعض قواد الجيش. حاول محمد الحاج إنجاده فلم يفلح فعاد إلى الدلاء وظل الحصار قوياً حتى انهار الدفاع عن القصبة واستسلمت للخضر غيلان، وبذلك انهار حكم الدلائيين في المنطقة الغربية التي كانت حصنهم الحصين.

أكد هذا الانهيار... انهيار الدولة التي لم يبق في حوزتها إلا المدينتان الزاوية الدلائية الحديثة والزاوية الدلائية القديمة، وبعد أن تقوت سلطة الرشيد بن الشريف في فاس ونواحيها طمع في أن ينهي حكم الدلائيين لتتمكن الدولة الجديدة العلوية من بسط نفوذها على بقية أنحاء المغرب، فقرر الرشيد جمع جيوشه والزحف على الزاوية الدلائية. وتم له ما أراد حيث استسلم بعد حصار غير طويل محمد الحاج الدلائي وبايع الرشيد وأعطاه ما أراد مما كان في حوزة الدولة الدلائية، وبعد ذلك امر الرشيد الزعيم الدلائي وأبناءه بالرحيل إلى فاس ليسلبهم من كل مركز سياسي أو طمع في العودة إلى السلطة، وخرب الزاويتين الدلائيتين ليقضي بذلك على كل أثر لهذه الدولة، تم كل ذلك سنة 1079 هـ 1668 م وهكذا لم تمض هذه الدولة «الناشزة» في السلطة غير ثلث قرن تقريباً.

شيوخ علم يطمحون للملك

في نهاية الدولة السعدية، ظهر إلى جانب العياشي والدلائيين ثلاثة من شيخوخ العلم، طمحوا جميعاً إلى الملك في وقت ظهر فيه السلطان زيدان بن المنصور ضعيف الشخصية مهزوم الإرادة. وكان انهزامه أمام الدلائيين في سلا ونواحيها وفي الزاوية الدلائية في تادلة وعدم قدرته على الدفاع عن الثغور المحتلة، كان كل ذلك سبباً في طمع شخص يقال له أبو محلى، كان فقيهاً متصوفاً ثم بدا له أن يدعي المهدوية، ودعا لنفسه بالملك وحارب جيوش زيدان بسجلماسة ودرعة واستولى على مراكش في وقت ما حتى اضطر زيدان إلى الفرار، ولكنه استنجد بشخص آخر هو أبو زكرياء يحيى الماحي الذي قاتل

جيش أبي محلي حتى قضى عليه وقتله، وبذلك ظهر له أن يدعي لنفسه الملك فاستولى على تارودانت من فقيه آخر احتلها هو أبو حسون، وقامت بينهما حروب ظهر بعدها أبو حسون عندما توفي أبو زكرياء مدعياً أيضاً الملك واستولى على تارودانت وكامل درعة وسجلماسة حتى طارده محمد بن الشريف العلوي وقضى عليه. هكذا انتهت هذه الثورات الصغيرة التي كان سببها الرئيسي ضعف الدولة وانحلالها.

نهاية الدولة السعدية.

في ظل هذه الاضطرابات بقيت الدولة السعدية تتلاشى فحكم باسمها بعد زيدان محمد الأصغر ثم أبو العباس أحمد، ولم يستطيعا أن ينجدا الدولة فخرت صريعة باحتلال قبيلة الشبانات لمراكش، وقتل أبي العباس آخر سلاطين السعديين 1069 هـ. وكانت الدولة السعدية قد نشأت سنة 915 هـ ويكون حكم الدولة السعدية قد استمر نحواً من 154 سنة. ولم يستقر الأمر لهذا لقبيلة، فقد فاجأها الرشيد بن محمد الشريف الذي يعتبر مؤسس الدولة العلوية وقضى عليها ليكون لدولة العلويين الأمر بعد دولة السعديين.

تحليل المرحلة:

لم تختلف نهاية السعديين عن بقية الدول والامبراطوريات المغربية، وربما كان من حسن حظ المغرب أن انهيار كل دولة من دوله يتبعه قيام دولة جديدة قوية مستعدة للنهوض بالسلطة وتنظيم الدولة. ورغم أن فترة لانهيار في الدولة السعدية قد طالت ابتداء من وفاة أحمد المنصور سنة 1012م/ 1603 م ورغم أن الفوضى سادت الحكم وتعدد وارثو الملك والمنافسون لهم وأدعياء الملك والمنافسون لهم، فإن المغرب ظل محافظاً على مكانته.

غير أن هذه الفترة. كالفترة التي انهارت فيها دولة المرينيين والوطاسيين تميزت باستعداء الغرب على الموانىء الغربية الأطلسية بعد احتلال سبتة وطنجة ومليلية في القرن الخامس عشر، فقد احتلت العرائش والجديدة

والمعمورة وقد قدمنا أن احتلال هذه الموانىء كان رد فعل لمعركة وادي المخازن. وباحتلال الموانىء المغربية زادت الدولة ضعفاً وخضوعاً للأجانب فقد بدوا يساومون ويتدخلون في شؤون الدولة، ويأمرون الملوك باتباع سياسة معينة كما حدث بالنسبة للبرتغاليين، وهم بذلك يؤكدون سيطرتهم المعنوية على جانب السيطرة العسكرية، وحاول الإسبانيون في المعمورة السيطرة على التجارة التي كان حكام الدلائيين في سلا (عبد الله الدلائي) ينشطون التجارة الخارجية في المنطقة عن طريق المعمورة.

ملاحظة أخرى هي أن الدولة كانت عاجزة عن طرد المحتلين من الموانىء المحتلة، وسنحت الفرصة لظهور بعض المقاومين كالمجاهد العياشي، الذي نشأت حركته انطلاقاً من طرد الأجانب، ولكنه لم يفلح في تحقيق أي من هذه الأهداف لأن نضاله اتسم بالعفوية وانعدام التنظيم، فوزع عمله بين محاولة تحرير الثغور والسيطرة على بعض المواقع التي كانت سلطة السعديين قد انسحبت منها كفاس. وتدخله لمحاولة انقاذ فاس من القبائل العربية المهاجمة لها. وأخيراً انهار فكر المقاومة مع موت هذا الرجل الذي تحالف ضده إلى جانب القبائل الدلائيون مع تعاونهم معه في بداية أمره.

أما الدلائيون فإنهم لم يهتموا بتحرير الثغور المحتلة أكثر مما اتجهوا إلى تدعيم سلطة الملك تحت اسم الزواية الدلائية، وتقوية النفوذ التجاري والقضاء على خصومهم كالعياشي مثلاً. هكذا نجد أن الأجانب خاصة البرتغاليين والإسبانيين مدوا سلطانهم على شواطىء مهمة من المغرب وكان لهذا السلطان أثره في ضياع مصداقية الدولة شعبيا وانهيارها.

وملاحظة أخرى هي أن الدولة لم تبسط سلطانها بعد المنصور على المغرب جميعه، فقد كان الأخوة الملوك والأبناء يقتسمون المغرب بين فاس ومراكش، وفي أغلبية تاريخ انهيار الدولة بعد المنصور لم يجتمع المغرب تحت سيطرة ملك واحد. وذلك ما سهل لثورات واضطرابات قبلية في الشمال كما في الجنوب، هذه الظروف جميعها والتي أكدت انهيار الدولة هي نفسها التي مهدت للعلويين اغتنام الفرصة لتأسيس دولة جديدة.

تمزق المغرب العربي، مصير متباين

كل ما رصاناه في فصول هذا الكتاب من مظاهر وحدة المغرب العربي ما أفرزته منها الجغرافية وما أفرزه التاريخ المشترك وما أفرزته التغيرات الدولية وما انتهى بهذه البلاد إلى تكوين امبراطوريتين عظيمتين في تاريخ القرون الوسطى، ضمتا ما بين شمال الأندلس وشرق المغرب إلى طرابلس وجنوب المغرب إلى الصحراء، كل ذلك فككه التاريخ المتغير وجعل من هذه البلاد المتنوعة والمتكاملة في نفس الوقت دولاً ومجموعات مختلفة وربما متباينة.

أسباب التجمع واضحة فيما قدمنا من التاريخ المشترك قبل الإسلام وبعد الإسلام، عندما تعربت الأندلس وأسلمت، ثم عندما نشأت الدول الكبرى المرابطين والموحدين.

وأسباب التفكك واضحة كذلك في بعض ما أسلفنا خاصة بعد سقوط الأندلس في عهد المرينيين بالمغرب الأقصى، وبنى عبد الواد في جزء من الجزائر، والحفصيين في تونس، وما عانته هذه الدولة المهمة من اضطرابات قبلية، وغزوات أجنبية.

هل كان يمكن المحافظة على وحدة المغرب العربي في التاريخ الذي تحدثنا عنه؟ سؤال لا يمكن الجواب عنه إلا بالنفي، وذلك لأسباب:

داخلية: تتلخص في تراجع قوة الامبراطورية تراجعاً مهولاً، فكل من الدول التي نشأت في هذا المغرب كانت تبتغي السلطة والحكم المفرد دون تعاون أو تكامل مع الدول الأخرى، وكل دولة كانت تعاني داخلياً صراعات عائلية وقبلية وتتطلع للسلطة دون قدرة على التمكن منها وحمايتها. وكانت الفوضى هي المتحكمة سواء عند المرينيين أو عند بني عبد الواد أو عند الحفصيين.

ويبدو كما هو واضح من التاريخ الذي سردناه أن هذه الدول تضاف إليها دولة السعديين بعد أُفُولُ نجم أحمد المنصور، لم تكن أهلا لقيادة البلاد في هذه الفترة الطويلة التي تبتدأ بنهاية الموحدين سنة 668 هـ ـ 1269 م إلى بداية العلويين، ولا نستثني عهدهم، غير أنه يخرج عن نطاق هذا التقويم. وبالتالي لم يكن أي منها أهلا للقيام بمثل الدور الذي قام به المرابطون أو الموحدون.

ويأتي انعدام الأهلية من ضعف الشخصيات التي وليت الحكم، ومن تحكيم مبدأ وراثة العرش الذي لم يكن يحكمه دستور ولا قانون، وإنما يخضع لحكم صاحب السلطة. ولأن وراثة العرش كانت غير مضبوطة بقانون ولا بدستور فكل واحد من الإخوة أو الأبناء أو من كل أفراد العائلة. ولو تجاوزوا هذه الطبقة، يفكر في أن له الحق في وراثة عرش العائلة، طبعاً لن نتحدث عن نظام ديمقراطي بالمفهوم الحديث لولاية السلطة، ولكن هو الطموح والقبلية وإمكانية الشخص في أن يجمع حول شخصه أنصاراً ومؤيدين ودعاة ليبدأ بهم المعركة في سبيل العرش وكثيراً ما تكون فاشلة.

ولن نتحدث عن دور الشعب ـ عموم الشعب ـ في قيام دولة ذات ارتباط به وذات كفاءة لقيادة البلاد، والشعب آخر من كان يفكر فيه الحاكمون والمتطلعون للحكم، وحينما كان ينبغ شخص من أبناء الشعب ليبدأ الإصلاح أو التغيير سرعان ما تطمح نفسه للحكم حينما يجتمع حوله نفر من الناس أو القبائل.

بعض أسباب هذا الانهيار وعدم التمكن من بناء دولة للمغرب العربي يرجع إلى العامل الثاني وهو العامل الخارجي: فقد كان سقوط الأندلس في الحقيقة سقوطاً لدولة المغرب العربي. فما كادت تقترب الأندلس من نهايتها حتى ظهر عاملان اثنان، أولهما بداية النهضة الأوروبية، ورغم أنها في أعماق أوروبا كانت نهضة علمية وفكرية فإنها في الأطراف اتخذت مظهراً انتقاميا من البلاد التي ساهمت في تكوين دولة عربية إسلامية في جزء من أوروبا، وبذلك أخذت الغارات تتوالى على المغرب والجزائر وتونس وطرابلس بأشكال متباينة، وخضع المغرب لسقوط موانىء مهمة في شماله على البحر الأبيض كسبتة

وطنجة ومليلية، وعلى المحيط كالعرائش والبيضاء وآسفي وأكادير، وأخذت موانىء في الجزائر تسقط في يد المحتلين الإسبان كبجاية ووهران، وموانىء تونس المهمة كذلك تسقط في يد المحتلين الإسبان كالمهدية وجربة وتونس العامصة، وكانت هذه الغارات تستهدف هدفين، هدف تقويض دول المغرب العربي حتى لا تفكر مرة أخرى في أن يكون لها مركز في أوروبا أو في البحر الأبيض. والهدف الثاني هو التجارة واستغلال الموانىء للانسياح في البحر والاستفادة منها كمركز اقتصادي. ثم اتخذت هذه الغارات مظهراً آخر هو القرصنة خاصة في البحر الأبيض. وقد مهد الطريق لهذه القرصنة التي أخذت أبعاداً واسعة، سنشير لبعضها، تقارب بعض الموانىء من شمال البحر وجنوبه كالموانىء الإسبانية والموانىء المغربية والموانىء والجزر الفرنسية والإيطالية مع الموانىء التونسية والجزائرية، إلى جانب أسباب داخلية. وكذلك لعبت القرصنة دوراً مهماً في تقويض دولة المغرب العربي وفي إشغال الحكم عن مشاكله الداخلية وعن الدفاع عن نفسه.

انهيار المغرب العربي إذن تضافرت عليه عوامل داخلية وخارجية، اقتصادية واجتماعية واستراتيجية وسياسية، ولعله كان من الصعب جداً أن تصمد بلاد واسعة تضم ما بين أطراف إفريقيا السوداء، وشرق تونس وطرابلس لهذه العوامل المدمرة جميعها، فكان المغرب العربي الضحية الكبرى لكل هذه العوامل.

إسبانيا تسيطر على موانىء الجزائر وقلاعها

لم تكن إسبانيا بادية بالعدوان، التاريخ نصب شِرَاكاً لمسيرة العلاقات الإسلامية المسيحية في هذه الجهات بعد سقوط الأندلس، فنحن نعرف أن كثيراً من المسلمين المطرودين من الأندلس (الموريسكيين) هاجروا إلى المغرب والجزائر وتونس وقليل منهم من وصل إلى مصر، وفي مهجرهم هذا كان على بعضهم أن ينشىء حياة جديدة منفصلة ومندمجة مع المواطنين في بلاد المهجر، كما حدث في المغرب بالنسبة للمهاجرين الأندلسيين الذين

تعايشوا مع المغاربة في تطوان وسلا والرباط وفاس. وكثير من المدن الأخرى التي ساهموا فيها في تطعيم الحضارة المغربية بما نقلوه من الأندلس. وبعض الأندلسيين المطرودين كانت لهم تجمعات سياسية أحياناً كما حدث بالنسبة للموريسكيين الذين سكنوا الجزائر، فقد تكونت منهم جماعات مناضلة ترغب في الانتقام من الذين طردوهم شر طرد من بلادهم، ولهذا بدأ كثير من الموريكسيين يحرضون ويشاركون في تكوين جماعات انتقامية تقوم بالقرصنة على الشواطىء مثل مالقا، وفي المياه الإقليمية القريبة من الأندلس. وبما أن الفترة التاريخية كانت فترة قرصنة ونشر الإرهاب ضد السفن التجارية بالأخص والعسكرية كذلك. فقد نظمت حملات انتقامية من الإسبانيين للسيطرة على الموانىء التي تنطلق منها قوافل المورسكيين ومن معهم، ولم تكن هذه الحملة إرهابية للقرصنة فحسب، ولكن كانت لغزو الشواطىء المغربية والجزائرية مثل المرس الكبير ووهران وبجاية والباستنيون، وامتدت مطامعهم إلى تونس وحاولوا الوصول إلى جنوبها في جزيرة جربة ولكنهم فشلوا في احتلالها.

هذا الاحتلال اتسم بظاهرتين:

أولاهما: أنه توقف عند السواحل وأبراجها وقلاعها، ولم يتمكن من احتلال المراكز الداخلية لشدة المقاومة فيها، ويتحدث التاريخ عن نشوب مقاومة بزعامة أحمد بن القاضي، تخللتها مذابح خطيرة يذكر المؤرخون أن الضحايا في إحداها بلغوا نحو أربعة ألاف مواطن جزائري.

ثانيتهما: أنهم اتخذوا من القلاع والأبراج التي احتلوها مراكز لتقوية نفوذهم وقرصنتهم في البحار، ولصد سفن القراصنة المسلمين التي أخذ نفوذها يتسع وقوتها تعظم، عندما تصدى لهذا العمل الخطير الأخوان البطلان عروج وخير الدين.

باربا روس والصراع مع الاحتلال الإسباني للجزائر

التاريخ يقيم وزناً كبيراً لقرصنة المسلمين، التي جاءت رد فعل لقرصنة المسيحيين. وإذا كان يغض الطرف كثيراً عن القراصنة المسيحيين الذين كانوا

يتجولون في البحر الأبيض، ويقيمون مراكز لهم في الجزائر كما قدمنا، فإنهم يذكرون عروج وأخاه خير الدين «بارباروس» بكثير من الإعجاب الممزوج بالضغينة على القرصنة التي يقودها المسلمون باسم الجهاد البحري. «عروج وبارباروس» من أصل تركي أو من البلاد التي كانت تحت السيطرة التركية، اتسم عروج بالبطولة والشجاعة. وبدأ عمله بسفينة صغيرة تطورت إلى مجموعة سفن تتجول في البحر الأبيض وتتخذ من جربة وبعض الموانىء التونسية مركزاً استراتيجياً وتعبئة وتجارة بإتفاق مع الملك الحفصي أبو عبد الله محمد الأول وأخيه زكرياء، كانوا يدفعون خمس الغنائم لقاء السماح بالتجائهم إلى الموانىء التونسية.

أصبحت السيطرة كاملة لعروج وأخيه خير الدين على البحر الأبيض المتوسط، استولى في البداية على سفينتين إيطاليتين، وأسر من فِيهِمَا من البحارة، واستولى في سنة 1513 م على سفينة قمح فرنسية، وسفينة ثياب انجليزية، وأسر من فيهما، واستولى في نفس السنة على سفينة اسبانية وانتصر في المعارك التي خاضعها ضد الاساطيل التي دافعت عن نفسها بحيث انتصر على اسطول إسباني، وهاجم أخوه خير الدين «مايورقة». ووصلت بحريتهما إلى جزر الكناري. وكان اسم بارباروس يثير الرعب في البحر الأبيض، ولذلك تستسلم كل السفن من كل الجنسيات كلما ظهر علمه على سفينة ما.

كان يقود السفن التي يستولى عليها إلى شواطىء تونس ويتاجر في ما يحصل عليه من بضائع وأسرى السفن الأوروبية، وبعض الأسرى كانت تفتديهم دولتهم أو يفدون أنفسهم.

المهم من كل هذا أن فكرة القرصنة عند عروج وأخيه تحولت من الاستيلاء على السفن وما فيها، إلى الدفاع عن الموانىء المحتلة في الجزائر بالأخص ليؤكد أن عمله لم يكن قرصنة بقدر ما كان رداً للقرصنة الأجنبية، وقد أكدت أهدافها عندما احتل الإسبانيون الموانىء الجزائرية التي تحدثنا عنها.

العثمانيون يسيطرون على الجزائر وتونس

إنشاء ولاية الجزائر

لم تعد مطامح عروج وأخيه خير الدين تقتصر على القرصنة في البحر والإستيلاء على السفن التجارية، بما فيها من بضائع وسبي الأسرى، والإلتجاء إلى الموانىء التونسية والجزائرية، وإنما اتسعت مطامحهم إلى تكوين ولاية في الجزائر وتونس. وكانت الصعوبة الكبرى في تحقيق هذا المطمح هي الوجود القوي للإسبان. والمحاولات المتعددة للسيطرة على القلاع والموانىء في الجزائر أولاً، ثم تقلب السكان وزعماء القبائل بين الإخلاص للإسبانيين والاستنجاد بهم من عروج وقواته، وبين الإخلاص لعروج والإستنجاد به ضد الإسبانيين. وقد عانى عروج من هذه المحنة معاناة كبيرة ولكنه كان ينتصر في النهاية سواء على الإسبانيين أو رؤساء القبائل وزعماء الجماعات التي كانت تحتمي بالإسبانيين. فقد انتصر على زعيم قبيلة مزغن «سالم التومي» ورغم محاولة الصلح معه. فقد انقلب ضده الزعيم لتحقيق مصالحه في السلطة بالتعاون مع الإسبان مما أدى بعروج إلى تصفيته. وكان ابنه مثالاً له، فقد تمرد وصالح وكان تعاونه مع الإسبان يخلق اضطراباً للجهود التي يبذلها ـ ابن سالم ـ عروج لتخليص الجزائر من الإسبانيين.

حاصر عورج قلعة بنون التي كان يحتلها الإسبان ويطلبون لها النجدة كلما شعروا بشدة الحصار وقوة مدافع عروج، ولكنه لم يحتلها. وقام عدة متعاونين مع الإسبان من الجزائريين الذين لم يكونوا يطمئنون إلى حكمه. وقوته، ولكن استنجاد المقاومين الحقيقيين به وتعاونهم معه بقيادة أبطال منهم أحمد بن القاضي، جعله يدخل الجزائر ويحتل مناطق منها. وأعلن نفسه

حاكماً على الجزائر بعد أن قضى على المتمردين سنة 1516 م.

وأنشأ عروج في الجزائر حكومة قوية منظمة سعت إلى التقرب من العلماء وترضية الأهالي ومقاومة المحتلين، فاكتسب بذلك سمعة جيدة ورضى محمودا من السكان. انتهز فرصة احتلال السلطان سليم لمصر سنة 1517 م فبعث له برسالة الطاعة والإمتثال وبهدايا نفيسة وثمينة فأقره والياً على الجزائر.

ولم يخل عمل عروج ـ رغم هذه الجهود ـ من متاعب خطيرة فهو رجل متاعب. انتقل لتحرير تلمسان، واصطدم مع الإسبانيين وكان انهزامه في المعركة بداية النهاية. فقد فر بليل من المدينة التي انهزمت بين يديه فتابعته قوة اسبانية ولحقت به ورمي برمح كانت معه نهايته. واحتز رأسه وجمعت ملابسه وأرسلت إلى كنيسة بطليطلة، تعبيراً عن انتصار حققه الإسبانيون بعد سنوات من الهزيمة على يد البطل عروج، وتأكيداً لرغبتهم في القضاء على القرصنة الإسلامية من جهة والإبقاء على احتلالهم للجزائر من جهة أخرى.

غير أن أخاه خير الدين الذي كان قد ذهب إلى تونس للقيام بنفس الحملة ضد الاستعماريين عاد إلى الجزائر بطلب من عروج للانتصار به في المعارك الدامية التي خاضها، وكان عروج بعد أن أنشأ ولاية الجزائر قد قسمها إلى مجموعة من المناطق ووضع أخاه على رأس أربع منها.

أخوه هذا هو الذي تولى السلطة من بعده وحصل على جميع أملاكه (ومن حسن الحظ أن عروج لم يكن له أولاد بعد مقتله،) وأصبح هو حاكم ولاية الجزائر بتأييد من الدولة العثمانية، ورغم أن امتلاكه للسلطة في الجزائر لم يخل من متاعب ومن هذه المتاعب الكبرى حملة الإسبانيين الذين غضبوا وانزعجوا للانتصارات التي حققها عروج ثم خير الدين على جنود الاحتلال. وكان من المتاعب أن ملك إسبانيا شارلكان قرر أن يقوم بغزوة ساحقة للجزائر. بمباركة فرنسا، فنظم حملة بحرية ضمت عدداً كبيراً من السفن قصدت شرشال في الجزائر. وكان خير الدين يريد أن يصارعها قبل وصولها للشواطىء الجزائرية، وقد تسلح هو الآخر بقوة بحرية كبيرة. ولكنها اخطأت طريقها فوصلت القوة البحرية الإسبانية إلى شرشال وهناك اصطدمت مع المناضلين

والمقاومين ومنهم اندلسيون. ولحق بها خير الدين فدمر الحملة الإسبانية بعد معركة ضارية بين الجانبين جزء منها قام به الإسبانيون المحتلون وجزء آخر قام به الآهالي المتمردون. ورغم أنه ترك الجزائر لمصيرها تحت الاحتلال والصراعات الداخلية لمدة خمس سنوات ما بين 1520 م و1525 م قضى بعضها في البحر يأسر السفن التي تحمل المواد الغذائية ويوزع محتوياتها على الأهالي في جيجل بالجزائر وفي جربة بتونس. وكان ذلك إنقاذاً للسكان من مجاعة كانت تضرب البلاد. ورغم أ، غضب من تمرد بعض القبائل وزعمائها ضده وأعلن مغادرته للبلاد حتى ركب سفينته على ظهر جواده للمغادرة، فإن حكماء البلاد تدخلوا لمراضاته فعاد للجزائر ليكون أميراً عليها.

هكذا تكونت ولاية الجزائر تحت امرة خير الدين، وبمباركة السلطان العثماني، الذي منحه لقب الباشا وأمير البحر وأجزل له في المنح. وأخذ السلطان سليمان يراسل خير الدين باعتباره ممثلاً للدولة العثمانية بالجزائر.

ورغم أن الجزائر أصبحت ولاية تابعة للسلطة العثمانية يعين فيها الولاة والإداريون ورؤساء الجيوش من السلطان نفسه، فإن إسبانيا لم تيأس من محاولة احتلالها، باعتبارها المنطقة التي تقلق راحتها، بسبب القرصنة من جهة والأندلسيين الذين أقاموا في الجزائر ويتطلعون دائماً إلى الانتقام لبلادهم وذويهم. ولذلك حاول الملك الإسباني شارلكان تنظيم حملات بحرية جديدة ضد الجزائر، رغم المتاعب التي لقيتها الجيوش الإسبانية من القراصنة والجزائريين والأندلسيين المقيمين فيها، كان الاستعداد قوياً بقوات بحرية نظمها شرلكان في جنوة. ولكنه انهزم مرة أخرى ودارت الدائرة على جنوده.

وحاول شارلكان من جهة أخرى القيام بعمل انقلابي ضد العثمانيين في الجزائر فأجرى محادثات سرية بواسطة بعض رجاله عسكريين ومدنيين مع خير الدين، على أساس أن يصبح حاكم الجزائر وتونس تابعاً للسلطة الإسبانية ويخلع التبعية للسلطة العثمانية. وكان خير الدين من الدهاء بحيث تابع مع وفود شارلكان المحادثات واطلع السلطان عليها، نحواً من سنتين حتى أنهى السلطان العثماني هذه اللعبة الخطيرة. فاعتقل المفاوضين الإسبان باعتبارهم

يراودون حاكم الجزائر على خيانة الدولة. وهكذا انهزمت إسبانيا مرة أخرى عسكرياً وسياسياً في حربها ضد الجزائر.

توالى على الحكم الكبار من الضباط تحت لقب أمير الأمراء على الجزائر، بعد أن انتهت سلطة عائلة بارباروس بعزل حسن باشا بن خير الدين من حكم الجزائر. ولعل بعض الأمراء الذين حكموا الجزائر رغم الصعوبات التي وجدوها مع الجزائريين وبقايا الغزو الإسباني طمعوا في ضم المغرب إلى السلطة العثمانية، فاغتر صالح باشا أحد أمرائهم بمناشدة أبي حسون آخر أمراء المرينيين لصالح باشا ورغبته في مساعدته بجيش قوي يعيده إلى سلطانه ضداً على محمد المهدي الذي كان يتزعم بداية الدولة السعدية. وقد انساق صالح باشا هذا مع إغراءات أبي حسون، فهاجم المغرب بجيش قوي صادف سلطة السعديين في بدايتها فانهزموا أمامه في معركة طاحنة في تازة وواصل مسيرته حتى دخل فاس وأعاد فيها سلطان أبي حسون.

ولعل تدخل الأتراك من حكام الجزائر في المغرب توقف عند هذا الحد فقد عاد صالح باشا إلى مركز ولايته في الجزائر، وترك أبا حسون لمصيره مع السعديين. محاولة أخرى قام بها الجانب المغربي للاتصال بالأتراك هي محاولة عبد المالك وأخيه المنصور عن طريق ولايتهم في الجزائر وهي القضية التي أشرنا إليا في استعراضنا لولاية هاذين القائدين من ملوك السعديين. بهذا يمكن أن نقول إن الجزائر أصبحت ولاية تابعة للسلطة العثمانية يتراوح عليها ضباط يعينهم الباب العالي ويحكمون الجزائر في شبه استقلال، ولكن تحت إمرة الامبراطورية العثمانية الكبرى. واستمر هذا الحكم ابتداء من احتلال عروج وأخيه خير الدين للجزائر في باية القرن السادس عشر 1516 م وقضائهما على سلطة بني زيان وتهدئة الثورات والتمرد الذي يقع هنا وهناك حتى الاحتلال الفرنسي سنة 1830 م.

الاضطرابات في عهد العثمانيين

لم يكن الحكم العثماني للجزائر حكماً سليماً معبد المسالك فقد كانت

الجزائر من أبعد المناطق عن مركز الخلافة «اسطنبول». ولم يكن حكم الشعب الجزائري سهلاً بعد أن عرف كثيراً من الاضطرابات، في عهد الدويلات والحكومات، وفي عهد تبعية بعض أجزائه للمغرب وبعضها لتونس. ولذلك فالحكم العثماني مر بكثير من مراحل الاضطراب والفوضى. ويعرف تاريخ الحكم العثماين في الجزائر عهد آل باربا روس ثم عهد أمير الأمراء ثم عهد الباشوات ثم عهد الاغاوات تم عهد الدايات، كل عهد من هذه العهود يتميز بأسلوب للحكم. فعهد الأمراء كان يتميز بالسلطة التي تستمد وجودها من عاصمة الخلافة العثمانية، وكذلك عهد الباشوات كان الباشا يعين من السلطة المركزية في اسطمبول، أما عهد الأغاوات والدايات فقد كان الإنكشاريون، وهم فرقة من الجيش أصبحت لها السلطة المطلقة، هي التي تعين الأغا، ثم تقتله لتعين آخر مكانه ويكون له نفس مصير سابقه.

وتغير الوضع قليلا بعد أن تأكد لذى رجال السلطة في الجزائر أن عهد البايات في تونس كان ناجحاً، وبما أن سلطة البحرية أصبحت أقوى من سلطة الإنكشاريين فقد اقروا انتخاب الداي من بينهم. وكان الأربعة الأوائل من الدايات ينتمون للقوة البحرية وذلك حتى تضمن هذه القوة لنفسها السلطة على الجزائر.

يتأكد من هذه الانقلابات في عهود حكام الجزائر أن سلطان الدولة العثمانية أخذ يضعف شيئاً فشيئاً، نتيجة سلطة الحاكمين في الجزائر، حتى في عهد الباشوات الذين كان يعينهم الباب العالي. كان الجيش (الإنكشارية) هو الذي يحكم ويترك الباشا حاكماً اسمياً فقط.

وأحياناً كانوا يعتقلون الباشا الذي عينه الباب العالي، وقد اعتقلوا أحدهم وأرسلوه مكبلا إلى إزمير حيث لقي جزاءه من الصدر الأعظم (رئيس الحكومة العثمانية لأنه كان ضعيف الشخصية).

وقد مر الحكم في الجزائر في هذه الفترات باضطرابات عدة، بعضها آت من القبائل الجزائرية والشعب الذي كان يحكمه الإنكشاريون في الغالب،

كانت القبائل تثور على الحكم لامتناعها عن دفع الضرائب في سنوات القحط والجفاف وسنوات الوباء الذي كان يحصد أحياناً ثلث شعب الجزائر. وكان الحاكمون يصرفون جهودهم في القضاء على هذا التمرد القبلى الذي كان يعم شرق الجزائر حتى قسنطينة وغربها، وتلمسان وشمالها وجنوبها على السواء ويأتي الاضطراب أيضاً من تصرف البحارة القراصنة الذين عايشهم الحكم العثماني. فقد كانوا مصدر قوت أهالي الجزائر ودخل الدولة، وكانوا يتصرفون بمعزل عن السلطة المركزية في الإسطبول وعن السلطة في الجزائر نفسها وكانوا يسببون للسلطة العثمانية والجزائرية على السواء مشاكل دولية خطيرة.

كانت الدولة العثمانية في هذه الفترة من القرن السادس عشر تخوض حروباً مستمرة ضد هذه الدولة وتلك. وكانت بعض الدول الأوروبية تخشى بأسها، ولذلك تتعاون معها وتعقد معاهدات تعاون وصلح. وفي مقدمة هذه الدول فرنسا التي يبدو أنها كانت قد وضعت عينيها على الجزائر مبكراً، نظراً للمركز الاسترتيجي الذي تمثله الجزائر بالنسبة إليها، ولا يمثله المغرب لإن إسبانيا والبرتغال تحاصرانه خاصة بعد الاستيلاء على سبتة تم مليلية وطنجة أحياناً ثم الشواطىء الأطلسية. وقد بذلت فرنسا المستحيل للإبقاء على علاقاتها التي كانت في الغالب ودية مع السلطة العثمانية المركزية، ولكن الحكم في الجزائر كان يدمر هذه العلاقات من حين لآخر بسبب القرصنة، والقرصنة المضادة، وقد كان لشدة طمع فرنسا في الحفاظ على أمنها من الجزائريين والقوات الإنكشارية فيها أن الملك شارل التاسع اقتنع بالرسالة التي بعث إليه بها بعض الأهالي الجزائريين في عهد أحمد باشا بأن يرسل إليهم أميراً فرنسيا يكون ملكاً عليهم بسبب سوء معاملة الباشا لهم، وبسبب المجاعة والوباء الذي عم البلاد أواخر القرن العاشر الهجري وقد صادفت الفكرة هوىً في نفسه فأمر قنصله لذى السلطان العثماني أن يعرض عليه هذه الفكرة ويقنعه بها. ولكن القنصل كان أكثر ذكاء وحكمة، وعرف أن الفكرة لا يمكن تحقيقها لأن الجزائريين مسلمون ولا يمكن أن يقبلوا ملكاً مسيحياً عليهم. وظل يتردد في عرض الفكرة حتى مات شارل التاسع.

العلاقات بين فرنسا والجزائر كانت تراوح مكانها بين علاقات جيدة وسيئة، رغم المعاهدات الودية التي كانت تعقد مع السلطة المركزية، لأن هذه الأخيرة كانت ترغب في أن تجعل فرنسا إلى جانبها نظراً للحروب التي كانت تخوضها مع دول أوروبية أخرى.

وتميز كذلك عهد العثمانيين في الجزائر بالهجمات الإسبانية التي لم يكن الجزائريون بمن فيهم الجيش التركي يقضون على حملة عسكرية إسبانية حتى تأتي حملة أخرى أكبر منها لتحتل بعض الموانىء كوهران مثلاً. ويضطر الولاة العثمانيون لمقاومتها. هكذا مرت هذه الحروب الإسبانية ـ الجزائرية بكل العهود تقريباً، وكانت هذه الحملات الإسبانية ترهق الدولة والحكم في الجزائر والشعب الجزائري نفسه.

والظاهرة المهمة في العلاقات بين الجزائر والسلطة المركزية في اسطمبول هي أن هذه السلطة ضاقت ذرعا بهذه الاضطرابات التي تحدثنا عن بعضها وعدم استقرار الحكم بالجزائر كولاية عثمانية على نحو ما كان عليه في بعض الولايات الأخرى. وزاد الأمر سواء أن التمرد لم يكن يأتي من الجزائريين وحدهم، ولكن كان في الغالب يأتي من الجيش (الإنكشارية) والبحرية. فضاق السلطان العثماني بهذه الاضطرابات التي كانت تصل إلى طرد ممثلي السلطان من الحكم، فأرسل الصدر الأعظم كوبولو محمد باشا. إلى القائمين على الحكم في الجزائر رسالة غاضبة يقول فيها: «أخيراً لن نرسل إليكم والياً، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد، ومن بعد ذلك إن اقتربتم من الممالك العثمانية فلم تكونوا راضين».

وكانت هذه الرسالة هي مفتاح الحكم اللامركزي فجعلت الإنكشاريين يغيرون الحكم من نظام تبعية إلى نظام شبه استقلال هو نظام الأغوات.

بعد نظام الأغوات جاء نظام الدايات، وكان الداي بمثابة رئيس الحكومة في الجزائر وكان ينتخب من مجلس يسمى مجلس العموم في الجزائر واستمر

عهد الدايات من الداي الأول محمد حجي سة 1082 هـ ـ 1671 م إلى آخر داي احتلت فرنسا في عهده الجزائر وهو الداي حسين سنة 1830 م.

ورغم أن الداي كان منتخباً فقد كان كثير منهم يعينون من السلطان العثماني أو يبارك انتخابهم. وقد امتاز عهد الدايات كالعهود الأخرى بأن السلطة لم تكن للسلطان العثماني في اسطمبول الذي تتبعه رسمياً الإيالة (الولاية) وإنما كان الداي يتصرف باستقلال كامل عن الدولة العثمانية. ومن المؤكد أنه لم يكن هو المتصرف والحاكم وإنما كان الجيش هو صاحب السلطة المطلقة وأغلب هذا الجيش من الإنكشاريين، كانوا يخدمون مصالحهم وامتيازاتهم. ولذلك كانت الدولة في خدمتهم. وهذا الانحلال في الحكم وضع الجزائر مرة أخرى أمام أربعة أنواع من الفوضى والاضطرابات: أولها، الاضطرابات التي يثيرها الجزائريون الأصليون وتقمع حركتهم بالعنف والبطش. ولذلك لم تتكون منهم قوة توازي أو تعارض قوة الإنكشاريين والبحريين، ولا نخبة تفرض رأيها أو مساعدتها للداي.

ثانياً، تعرضت الجزائر وبالأخص منذ سقطت الدول التي كانت تحميها كالمرابطين والموحدين وبني زيان لسلسلة من الهجمات البحرية والقرصنة الإسبانية، وخاصة مدينة وهران والمرسى الكبير والجزائر. وسبق لنا أن أشرنا إلى أن الأندلسيين الذين طردوا من الأندلس واستقر بعضهم في الجزائركانوا يفكرون في الانتقام من الإسبان، وكانوا يشجعون القرصنة الإسلامية ويعملون معها ضد السفن الإسبانية في البحر الأبيض وعلى أسر بعض الإسبانيين، والاستيلاء على كل ما تحمله سفنهم. وكان الإسبانيون يفكرون في رد هذا العدوان عليهم. ولهذا اتجهوا إلى مهاجمة المناطق التي تعتبر مستقراً للقرصنة الجزائرية، فالدفاع كان عندهم منذ ذلك الوقت هو أحسن وسيلة للهجوم.

وقد حدثت عدة معارك متبادلة بين الجيش العثماني الجزائري والجيش الإسباني الذي احتل وهران عدة مرات. وكان من هذه المعارك المهمة تحرير وهران والقضاء على الإسبانيين نهائيا بعد محاصرة الأبراج والحصون التي كان يبنيها المحتلون. كان ذلك في عهد السلطان العثماني أحمد الثالث، وكان داي

الجزائر آنذاك هو محمد بكطاش سنة 1707 م/ 1119 هـ ومرت وهران بحرب أخرى مماثلة سنة 1790 م ورغم أن الجيش العثماني وأهالي الجزائر كانوا يعانون من الاحتلال والمحتلين، فإن جيش الاحتلال كان يعاني أكثر من ذلك لأنه يحاصر، حتى لا يجد القوت والماء. وأحياناً يأتيه المدد من إسبانيا. وفي كل الحروب كان جيش الاحتلال يدمر أحياناً عن أخره. هذان مثالان من العدوان الإسباني على الجزائر وهما يؤكدان أن المسيرة التي عرفها المغرب العربي عموماً مع إسبانيا متماثلة. إذا كان المغرب قد عرف احتلال سبتة من البرتغال أولا ومليلية، ثم احتلال طنجة وبعض الشواطى، فإن الجزائر أخذت نصيباً وافرا من الاعتداءات الإسبانية المتوالية عليها منذ سقوط الأندلس. والقرصنة ليست إلا سبباً من الأسباب. والسبب الرئيسي هو النزعة الاستعمارية الصليبية التي تملكت إسبانيا والبرتغال. وكانت تستهدف بلاد المغرب العربي من طرابلس إلى المغرب. وذلك يدخل في سلسلة الاعتداءات التي كانت الجزائر في عهد الأتراك والدايات بالأخص تلقاها من معظم الدول الأوروبية، التي اشتدت قوتها وسلطتها على البحر الأبيض. وبذلك يمكن أن نقول أن عهد الدايات لم يكن عهد سلام خارجي كما لم يكن عهد سلام داخلي.

ثالثها: استمرار القرصنة. وإذا كانت القرصنة ظاهرة من ظواهر الصراع بين الإسلاميين والمسيحيين في البحر، ومن ظواهر الاستيلاء على الأموال والمؤون والبضائع والأسرى، إذا كانت هذه الظاهرة مقبولة في القرن السادس عشر والسابع عشر وخاصة على عهد الأخوة بارباروس، فإن الدول الغربية، والكبرى منها على الأخص، لم تعد تتحمل الهزائم التي تلحق بها في البحر والاستيلاء على سفنها، وأخذ أهاليها أسرى وبيعهم في الأسواق. ولذلك بدأت تتحرك ضد الجزائر وأحياناً بالشكوى من الجزائر للسلطان العثماني. كان السلطان العثماني يحاول أن يصالح بعض الدول الكبرى حتى لا تواجهه في احتلال الدولة العثمانية وإدارتها لبعض الدول الصغرى في أوروبا، وكان يحاول كذلك أن يستغل فرص الصراعات بين الدول الكبرى كما كان الأمر بين

فرنسا وانجلترا ليعقد معاهدة مع هذه أو تلك لصالح الدولة العثمانية. ولكن حكم الدايات في الجزائر كان يخالف هذا الاتجاه نتيجة للقرصنة من جهة ولمصالح الحكم في الجزائر مع دول الغرب من جهة أخرى.

رابعها: رفض السلطان العثماني لتحمل تبعات المشاكل التي يخلقها حكام الجزائر، عندما اشتد غضب انجلترا والتي اشتكت للسلطان من اعتداء الفراصنة والجنود في الجزائر على مواطنيها، فأكد لها السلطان أن الدولة لن تتدخل في أية حرب تقوم بين الجزائر وإحدى دول الغرب. وإذا قارنا هذا «التأكيد» الخطير بالرسالة التي كان بعث بها الصدر الأعظم محمد باشا إلى القائمين بالحكم في الجزائر سنة 1070 هـ 1659 م والتي يقول فيها «أخيراً لن نرسل إليكم والياً بايعوا من تريدون ـ السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم. . . » إذا قارنا بين هذين الحدثين نستخلص شيئين اثنين: أولهما أن الدولة العثمانية لم تكن قادرة على بسط نفوذها وسلطانها على حكم الجزائر ولم تعد مهتمة بهذه الولاية الكبرى. ثانيهما، منح الفرصة للدول الكبرى لأن تمارس سلطانها الذي أخذ يتقوى، ومطامحها ومطامعها.

وهكذا نجد أن إنجلترا اطلقت يدها في الجزائر، فهاجمتها وبدأت تتدخل في المشاكل القائمة بين حكم الجزائر والدول الغربية. وعقدت اتفاقية مع الداي، كان في مقدمة شروطها، منع استخدام الأسرى المسيحيين. وكانت هذه الاتفاقية سبباً في قيام اضطرابات ضد الداي اعتبروها تدخلا لدول نصرانية في شؤون المسلمين حتى تعهد بأن يلغيها. ومما يدخل في هذا الباب أن نزاعا قام بين الدولة العثمانية وفرنسا وأعلن السلطان الحرب على الحكومة الفرنسية. وأمر الداي بأن يعلن الحرب، ويأمر باحتجاز البواخر الفرنسية. ولكن الداي امتنع من ذلك لعلاقته الطيبة مع فرنسا، واضطر أخيراً إلى أن يعلن الحرب شكلياً ثم يعقد صلحاً منفرداً مع الدولة الفرنسية سنة 1800.

تونس من العهد الحفصي إلى العهد العثماني

كانت نهاية الحكم الوطني الحفصي في تونس نهاية حزينة ومؤسفة، مثلها مثل نهاية المرينيين والسعديين في المغرب، ونهاية بني زِيَّان في الجزء الذي كانوا يديرونه في الجزائر. والنهاية المحتومة للدول في المغرب على الأخص جاءت دائماً من عاملين اثنين: أولهما ضعف الحاكمين وقلة تمرسهم وانصراف الشعب عنهم، مثل انصرافهم عن الشعب. ثانيهما: التدخل الأجنبي الذي رأينا نماذج منه بالجزائر، ومثل هذا الدور قامت به الدول المُحْتَلَّة في تونس، والعامل الأول هو الأساس، فقد بدأت الدولة الحفصية تنهار في عهد أبي عبد الله محمد 890 هـ ـ 932 هـ، كان هذا الأمير على غير ما عهدت تونس من أمراء الحفصيين الكبار، وصادف في وقته أن تَقَوَّتْ شوكة عروج وخير الدين أمير البحر في آنذاك، واتفق خير الدين مع أبي عبد الله على أن يستغلا جربة كمقر له وتخزين ما يحصل عليه من غنائم وأسلاب في قرصنته البحرية على أن يدفع خمس ذلك لأبي عبد الله.

قد رأى أبو عبد الله بعد مدة من التعامل مع خير الدين على هذا الأساس أن نفوذ القائد البحري أخذ يقوى ويزداد، وتخوف من سلطانه على تونس في عهد الحسن بن أبي عبد الله. كان خير الدين قد عزَم على امتلاك تونس لصالح العثمانيين، فاحتل بنزرت وتونس بعد أن فر الحسن سنة 935 هـ، وخطب بها للسلطان العثماني سليمان القانوني. وكان الحسن قد استنجد بالإسبانيين لمساعدته على التخلص من خير الدين، ولم يكن يقدر أن خير الدين كأخيه عروج كانا قادرين على دحر الإسبانيين في البحر، وفي كل بر تتقابل فيه قواتهما مع قوات الإسبان. استغل الإسبانيون هذه الفرصة في عهد ملكهم شارلكان وبعثوا بإرسالية بحرية مهمة إلى تونس، فاحتلوا حَلَق الوادي وتونس وبنزرت، وعاد خير الدين بعد أن يئس من تحرير تونس من الاحتلال الإسباني إلى الجزائر، وترك تونس إلى مصيرها. واتفق الملك الحفصي الحسن مع شرلكان على أن يعود إلى ملك أسرته والحفصيين بشروط مذلة للشعب، ومنها أن يسكن الإسبان حيث شاؤوا من المدن التونسية، فأثار قبول هذه الشروط

ثائرة السكان والتفوا حول ابنه أبي العباس أحمد «حميدة»، وطاردوا الحسن بعد أن سَمَلُوا عينيه، ففر من البلاد أعمى ومات بالقيروان أو بأوروبا.

وفي عهد أبي العباس هذا احتلت تونس قوتان عُظْمَيَان، القوة الإسبانية احتلت الشواطىء، والقوة العثمانية احتلت الداخل حتى القيروان. وقد دام عهده نحواً من 38 سنة لم يستطع فيها أن يعيد للحفصيين مجدهم. وانتهى أمره بأن رفض الشروط المذلة التي اشترطها الإسبانيون عليه لقاء مقاومتهم للأتراك الذين استولوا على جنوب البلاد وتونس، وأخذوا البيعة فيها للسلطان سليم سنة 977 هـ. وانتهى الأمر بأبي العباس إلى الفرار من تونس إلى صقيلية، وقد ربأ بكرامته ولم يقبل شروط الإسبانيين المذلة وقبلها أخوه محمد، ولكن الوقت أسرع به إلى النهاية فاعتقله الأتراك وبعثوا به إلى الأستانة حيث قضى نحبه هناك، ونصب العثمانيون مصطفى باشا حاكماً على تونس. وبالفتح العثماني سنة 981 هـ انتهى العهد الحفصي نهائياً لتدخل تونس العهد العثماني.

العهد العثماني

العهد العثماني في تونس لم يختلف عن العهد العثماني في الجزائر، من حيث تركيب السلطة وإن اختلفا من حيث قيمة الرجال الذين تولوا السلطة باسم الدولة العثمانية. ومن الملاحظ أن الجيش المكون من الإنكشارية والفرق الأخرى كان هو المتحكم وهو الذي ينصب الدايات، غير أن رجالاً مثل عثمان داي كانوا من الكفاءة والمقدرة بحيث مثلوا السلطة العثمانية خير تمثيل، وقاموا بإصلاحات مهمة في البلاد، وقد تعاقب على الحكم عدد من الدايات الذين كان الجند ينصبهم، وكانوا يستطيعون السيطرة على الحكم أكثر ما كان دايات الجزائر مع الانكشارية، كان من هؤلاء الدايات المهمين، عثمان داي 1007 هـ ويوسف داي 1019 هـ، ومراد باي وفي عهد مراد هذا تحولت الدولة إلى لقبين جديدين أولهما الأسرة المرادية لأن السلطان منح مراد حق توريث سلطته إلى عقبه من الذين تولوا الحكم من أبنائه، وكان بعضهم مثل حمودة باي من

البايات الذين شرفوا منصبهم بالإصلاحات التي قام بها وبالاستقرار الذي ساد حكمه.

ثانيهما: أن لقب داي تحول إِلَى لقب باي، وذلك بمنح رتبة الباشوية من السلطان العثماني إلى باي تونس وأول الذين حصلوا على هذا اللقب هو مراد باي.

ومن الملاحظ أن الدولة العثمانية لم يكن لها الاهتمام الكافي بالسلطة في تونس كما لاحظنا ذلك في الجزائر ولهذا كانت المشاكل التي تثور في وجه البايات الذين أتوا من بعد، وتأتي من ضعف شخصيتهم، دافعاً للدولة إلى الانهيار. فقد بدأ النزاع بين الإخوة والأعمام يشل حركة الدولة واستقرارها حتى حدثت حروب مدمرة وخطيرة بين أخوين هما محمد وعلي ابنا مراد الثاني، كان ينتصر فيها أحدهما لينهزم الآخر، ثم ينتصر المنهزم لينهزم المنتصر، وكان كل منهما يستعين تارة بالأعراب «القبائل العربية الباقية من بني سليم» أو بالجزائريين أي الجيش التركي في الجزائر. وكانت الحرب بينهما تتيح الفرصة لغيرهما بأن يحتل العاصمة وينصب نفسه بايا على البلاد ثم ينهزم. وانتهى الأمر كما كان طبيعياً بقتل علي سنة 1096 هـ، وبقي محمد يدير الأمر في اضطراب كامل حتى سنة 1108 هـ حيث توفي. ومن مظاهر الاضطراب تولي أحد أفراد الأسرة مراد ابن علي الملقب «بوبالة» وكان سفاكاً قتالاً لا يكاد يمر عليه يوم دون أن يسفك دماء ويعيث في الأرض فساداً.

يمكن أن نعتبر أن نهاية مراد الثاني هو نهاية العهد المرادي، لأن الذين أتوا من بعده من أبنائه وحفدته كانوا يسلكون بالبلاد في اضطراب خطير، انتهى بهم الأمر إلى نهاية الأسرة المرادية بتعيين رجل صالح كان بعيداً عن الانظار غير طامع في الحكم وهو الحسين بن علي وبه بدأت الأسرة الحسينية سنة 1117 هـ الموافق 1705 م.

الدولة الحسينية

لعله كان من حسن حظ تونس أن نظام الدولة أخذ يستقر من عهد المراديين، ثم استقر بولاية حسين باي الذي لم يكن تركيا ولا تونسياً، وإنما من جزيرة كندية في شرق الأبيض المتوسط. جاء إلى تونس وارتبط بالجيش في عهد المراديين، وأثناء الفوضى التي وقعت فيها البلاد في أواخر عهدهم اختاروه باياً لتونس. والظروف التي شرحناها في العلاقات بين مركز الدولة العثمانية وتونس والجزائر، كانت لا تفرض تولية الباي من قبل الدولة العثمانية، هكذا كانت تونس كالجزائر يفرض الجيش أُمَرَاءَها. وكان من حظ تونس أن حسين باي وضع الإمارة في تونس وراثية، فقضى بذلك على كثير من الخلافات والتطلعات، غير أنه احسن في المبدأ وأساء في التطبيق، ذلك أنه منح ابن أخيه علي الذي تبناه ورباه تربية حسنة ـ لقب الباشا ـ ومنح ابنه بعض الاختصاصات في الحكم، وكان ذلك سبباً في ثورة علي الذي لم يكتف بتمرده وإنما استعان بالجيش الجزائري على مقاتلة عمه فانتصر عليه، وحكم البلاد حكماً سيئا في الداخل وفي علاقاته الخارجية. وعادت سلطة البايات إلى أبناء الحسين محمد وعلي ومحمود حتى جاء حمودة ابن علي ابن الحسين وحكم البلاد حكماً صالحاً وقوياً، مستنداً إلى دعم الدولة العثمانية بمصادقتها رسيماً على ولايته، ولكنه عانى كثيراً من الاضطرابات التي لم تكن لتخلو منها الجزائر وتونس، فحارب البندقية لاعتدائها على بعض التجار التونسيين سنة 1785 م، وحارب طرابلس لاسترجاع جربة من أحد الثائرين سنة 1795 م، وحارب الجزائر مرتين لم ينتصر في الأولى 1806 م وانتصر في الثانية 1807 م. ولعل هذه الحرب كانت رداً على المساعدة التي كان يلقاها الثائرون والمطالبون بالحكم في تونس من عائلة الدايات من الجيش الجزائري، ولا ننسى أن ثورة علي ابن

أخ الحسين على عمه كانت بمساعدة الجزائريين.

جيش الإنكشاريين في الجزائر كان مستعداً لإشعال نار الفتنة في تونس والجزائر على السواء، ولذلك تعتبر مهاجمة حمودة للجزائر مشروعة لوضع حد لهذه الاضطرابات التي كان يحدثها جيش الإنكشاريين. استمرت عائلة الحسينيين في الحكم من حمودة الذي توفي سنة 1814 م إلى محمد صادق باي الذي وقع معاهدة الحماية مع فرنسا سنة 1881 م.

امتاز عهد البايات بإصلاحات مهمة عمرانية وعلمية، فقد أصلحوا كثيراً من المدن وأقاموا فيها منشآت دينية وعلمية، ورعوا كثيراً من العلماء وأسسوا عدداً من المكتبات الهامة في مختلف أنحاء البلاد والمدارس، وكذا بنوا سور تونس لِتَحْصِينِهَا.

وكان حمودة أكثرهم نشاطاً في الاتجاه السياسي، فقد استعان بمجلس أعيان اختاره من رجال الدولة الأكفاء، وكان يستعين بهم في تسيير أمور الدولة.

بكل ذلك كانت تونس على صلة بالفكر الحديث، واستفادت من بعض مبادىء الثورة الفرنسية وقيام الحكم النابليوني، ودخول فرنسا في عهد اليقظة الحقيقية. الشيء الذي لم تستطع أن تحققه الجزائر، ويرجع ذلك إلى فوضى جيش الإنكشاريين في الجزائر، وعدم ظهور شخصيات تنتمي لعائلة اتخذت لنفسها أسلوباً في الحكم وإدارة الدولة، وهي العائلة الحسينية.

وكان عهد حمودة توطئة لعهد باي آخر، هو محمد باي الذي عرف بإصلاحات كثيرة عمرانية كإيصال الماء إلى تونس وإنشاء مجلس بلدي، نظم العاصمة وآثارها ونظم الحكومة في وزراء ذوي اختصاصات مهمة كوزير البحر ووزير الخارجية ووزير العملة والمال، ونظم الجيش واصدر قانون عهد الأمان، وهو بمثابة دستور يتضمن تنظيم القضاء، ونظم المحاكم الشرعية بإحداث مجلس شرعي يبت في القضايا الشرعية، كما نقل المطبعة الحديثة لتونس بدلاً من المطبعة الحجرية.

ولكن أهم شخصية حكمت البلاد في آخر عهد استقلالها، هو محمد

خير الدين الذي كان بمثابة رئيس للحكومة، ونقل تونس نقلة نوعية إلى عهدها الحديث، فقد اهتم بتمتين العلاقات الخارجية مع أوروبا باتفاقات ثنائية، وأنشأ مجلس قضاء مختلط ليتقاض أمامه التونسيون والأجانب، وأنشأ كثيراً من المنشآت الفلاحية والصناعية، وعرفت تونس في عهد محمود باي وخير الدين أكبر اصلاحات وتطوراً هاماً ربما أجهضه عهد الحماية لسنة 1881 م حتى بدأت تونس تناضل بما كان في إمكانها أن تحققه في عهد المصلحين من ابنائها.

أكدنا أن تونس والجزائر قد ربحتا المعركة مع الاستعمار الإسباني بسبب انضمامهما إلى الدولة العثمانية، وبسبب انتقال جيوش وبعض رجال السلطة من الدولة العثمانية، بعضهم أتراك وكثير منهم من جنسيات مختلفة كانوا يخدمون الدولة، ولم يكن ضد مقاومة الاستعمار الإسباني كل ما استفادته الجزائر وتونس من ارتباطهما بالدولة العثمانية، فقد استفادت تونس على الأخص جانباً من تنظيم الدولة وسيادة رجال حكم مقتدرين ومصلحين تحت اسم البايات. وَنَعِمَت ببعض الاستقرار أكثر مما كان عليه الأمر في الجزائر، رغم بعض الثورات والانقلابات التي كانت تقوم بين أبناء العائلة الحاكمة. ولعل تونس بالأخص استفادت كذلك من نشر التعليم ورعاية العلماء وتجميع المكتبات العلمية وبناء بعض المؤسسات التعليمية، ثم إن صلتها بالدولة العثمانية نَقَلَ إليها الفكر السياسي الذي يعتبر الدستور أكبر مظاهر تنظيم الحكم، وبالمقارنة نجد أن الحركة الدستورية في المغرب تعود إلى بداية القرن العشرين 1908 حينما وضع أول مشروع دستور للبلاد، واجهضت الحماية الحركة والمشروع معاً.

تحليل المرحلة

لأول مرة في التاريخ الإسلامي تحكم جزءاً من المغرب العربي دولة أجنبية، ومن المعروف أن الخلافة العباسية ـ كما سبق القول ـ لم تحكم تونس مباشرة، بل بواسطة الأغالبة الذين حكموا باستقلال عن الخلافة إلا الخطبة باسمهم وأداء الإتاوات السنوية. والعبيديون الذين حكموا تونس ـ كما حاولوا

أن يحكموا بقية المغرب العربي ـ لم يكونوا يحكمون باسم دولة أجنبية، وإنما هي تونس تحكم نفسها بنفسها باسم الدولة العبيدية. وجاء العهد العثماني أخيراً في القرن السادس عشر ليجعل من تونس والجزائر ولايتين تحكمان باسم السلطان، وإن لم يكن الحكم فيهما مباشراً إلا من بيت السلطة التي تمنحها أحياناً الدولة المركزية لهذا الداي أو الباي.

الدولة العثمانية كانت تحكم باسم الخلافة، وتحت هذا الإسم استطاعت أن تنتزع العراق من الحكم الفارسي حيث انتصر سليم الأول على الفرس سنة 1516 م. وبدخول العراق كشعب عربي تحت سلطة الخلافة العثمانية، أخذ نفوذها يتسع فشمل الشام ومصر، غير أن حكم مصر لم يكن مباشراً بسبب المماليك في مرحلتهم الثانية الذين تولوا السلطة تحت راية الخلافة، ولكن باسمهم، ثم تحول الحكم شيئاً فشيئاً من السلطة العثمانية إلى الاستقلال الذاتي إلى الاستقلال الكامل في عهد محمد على، الذي انتزع الحكم من المماليك، وابنه ابراهيم باشا مؤسسي العائلة الخديوية الحاكمة في مصر في القرن التاسع عشر.

الحكم العثماني في الجزائر وتونس كان طموح السلاطين الكبار كسليمان القانوني وسليم الأول. ورغم بعدهما عن مركز الخلافة (تركيا) فالخليفة كان يعتقد أن سلطة الخلافة تطالهما عن بعد «باسم الاسلام». خاصة وهما متصلان براً بالمناطق التي استولى عليها العثمانيون. غير أن عنصراً مهما تدخل في الموضوع، وهو الإخوة برباروس: (خير الدين وأخيه عروج).

من الطبيعي أن يكون لهما سند من سلطة إسلامية قوية، ولم تكن هذه السلطة غير العثمانيين في القرن السادس عشر وما بعده. كانا يحتاجان إلى سندها الدولي من جهة، وكان العثمانيون في حاجة إلى سلطة بحرية إسلامية للدفاع عنها، وعن البواخر الإسلامية المتنقلة في البحر الأبيض من جهة أخرى، ولاستخدامها في غزواتها البحرية إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت هذه القوة ممثلة في الأخوين: خير الدين وعروج (برباروس).

تضافر إذن عاملان إثنان أو هما ثلاثة: بروز سلطة ثالثة قوية في تونس

والجزائر معاً: وهي السلطة العثمانية. الإخوان برباروس لم يكن من طبيعة عملهما الاستيلاء على البلدين وإقامة دولة. فهما بحاران يدافعان عن البواخر الإسلامية في البحر ضد القرصنة المسيحية. وبما أن البلدين (تونس والجزائر) لم تعد لهما سلطة وطنية قوية تحكم الدولة وتدافع عنها ضد القوات الإسبانيين، ونتيجة لأن المغرب لم يعد يستطيع أن يقوم بدوره الكامل في جمع المغرب العربي في دولة واحدة، بعد الضعف الذي أصاب دولته في آخر عهد المرينيين والوطاسيين والسعديين، على غرار ما فعل في عهد المرابطين والموحدين. وبما أن الإسبانيين يجدون في احتلال البلدين بعد سقوط الأندلس، وبعد احتلال سبتة ومليلية وطنجة أحياناً ـ في المغرب ـ فقد قرر الملوك الإسبانيون ضم البلدين إلى مملكتهم، ليس فقط للدفاع من بعيد عن إسبانيا، ولكن كذلك لبناء الإمبراطورية التي أخذت ثروتها في أمريكا غرباً وفي شمال إفريقيا حتى حدود مصر شرقاً. الإخوة برباروس خاطبا السلطان (سليم) في الاستيلاء على البلدين فأذن لهما بذلك، ومعنى هذا أنهما قدما القطرين هدية للخلافة العثمانية.

رغبة السلطان جاءت متطابقة مع طموح الأخوين برباروس: العثمانيون يحققون مفهوم الخلافة على البلاد الإسلامية جميعها. وإذا كانت سلطتها وصلت إلى مصر، فلم لا تستمر حتى طرابلس وتونس والجزائر والمغرب، (لم لا المغرب لأنه احتفظ بالسلطة الوطنية المغربية. ليست غريبة عنه كالمماليك والايوبيين في مصر أو الفرس في العراق). الصدفة لعبت في انتشار نفوذ العثمانيين حتى حدود المغرب. ولكنها صدفة واعية بمفهومي الدفاع عن الإسلام وبسط سلطة الخلافة.

هل أصاب التاريخ أم أخطأ يوم قدم البلدين إلى السلطة العثمانية؟

لا يمكن إلا أن يكون قد أصاب لأنهما كانا معرضين للاحتلال الإسباني. ولو لم يقم العثمانيون بالاستيلاء عليهما ولو بحكم مضطرب غير مستقر على نحو ما شرحنا في الفقرات السابقة، لأصبح البلدان جزء من الإمبراطورية الإسبانية، ولكان المغرب نفسه مهدداً على نحو ما حدث بعد ذلك في القرن التاسع عشر عند الاحتلال الفرنسي.

محافظة تونس والجزائر على هويتهما إذن مدين للخلافة العثمانية. ومهما يقل التاريخ في تاريخ الامبراطورية العثمانية المتأخر، فقد خدمت البلاد الإسلامية عموماً وجزء من بلاد المغرب العربي خصوصاً وحافظت على هويته وإسلامه. وأخرت الاستعمار الغربي لهما أكثر من قرنين.

لم تستطع الخلافة العثمانية القيام بمثل هذا العمل في المغرب الأقصى، لأنه احتفظ بسلطته الوطنية، وخاصة على عهد الدولتين السعدية والعلوية. سبب آخر هو أن نفوذ الأخوين بربارسو لم يصل إلى الشواطىء المغربية لضيق منطقة البحر من جهة، مما يجعل «القرصنة» فيه محفوفة بالمتاعب، ولأن قوة إسبانيا البحرية (القرصنة) قريبة من شواطئها. وإسبانيا هي الخصم الأكبر، وإن كانت القرصنة من الجانبين شملت إيطاليا وجنوة وصقلية وفرنسا وإنجلترا في كثير من الأحيان.

المغرب أنقذه حكمه الوطني من الضغط الإسباني الذي كان يقاومه مهما تكن أعين الحداثة على الشواطىء المغربية. وأنقذه حكمه الوطني، رغم المحاولات التركية من حين لآخر، حتى إن الجيش التركي كان يستولي على فاس أحياناً إما عدواناً وإما مساعدة لسلطان منهزم من السعديين.

نتيجة الانضمام إلى الخلافة العثمانية لم تقم في تونس والجزائر سلطة وطنية بعد ذلك، إلا ما بعد استقلالهما في منتصف القرن العشرين، غيرأن الأسرة المرادية ثم الأسرة الحسينية في تونس لم تكونا تركيتين. فقد أصبح الحاكمون (من الجيش الإنكشاري والبحرية) ورجال السلطة من الدايات والبايات منفصلين تقريباً عن تركيا. يسكنون وطنا آخر ويكونون أسراً مختلطة، أغلبهم توجهوا من الجزائر وتونس. هل يُعتبر الحكم في الأسرتين على الأخص حكماً وطنياً؟ قد يكون ذلك بالنسبة للأسرة الحسينية في تونس. أما الجزائر فلم تكن فيها أسرة حاكمة. بل كان الدايات يصلون إلى الحكم في وضعية اضطرابية خطيرة، استيلاء أي داي على الحكم كان نتيجة قتل سابق.

كانت تونس أكثر استقراراً وأقرب إلى أن ينشأ فيها حكم وطني على نحو ما حدث في مصر بعد تخلي محمد علي عن التبعية العثمانية.

الجزائر من العهد التركي
إلى الاحتلال الفرنسي

الإسبان يدشنون احتلال أوروبا للجزائر

عرفنا فيما سبق أن الجزائر كانت مقراً للإخوة باربارós في معاركهم البحرية ضد القرصنة الغربية، وكانت بصفتها هذه معرضة للاحتلال الغربي كمركز متقدم للقرصنة الإسلامية. ولأن الغربيين لم يكونوا يستطيعون مهاجمة السلطة الإسلامية الكبرى ـ الامبراطورية العثمانية ـ باعتبارها حامية المسلمين في كل مكان بمن فيهم الذين يقومون بالدفاع البحري ضد القرصنة المسيحية، فإن هؤلاء، الغزاة باسم المسيحية من جهة والدفاع عن النفس وعن سيطرتهم البحرية في غرب المتوسط، اتجهوا إلى الجزائر بعد أن كانوا قد احتلوا مناطق استراتيجية في المغرب هي سبتة ثم مليلية، واطمئنوا إلى أن المغرب لا يشكل خطراً عليهم في هذه المرحلة من تاريخ الصراع الغربي الإسلامي، أي القرن السادس عشر. وكان الإسبانيون قد سيطروا على وهران وناحيتها في الجزائر بقيادة «الكونت دالكودت» وأصبحت منطقة وهران موضع صراع جزائري إسباني، وكان الإسبانيون فيها يصارعون القبائل الجزائرية، التي تجاهد للتحرر من السيطرة الإسبانية، كما يصارعون بعض العملاء الجزائريين الذين كان الإسبانيون يستخدمونهم في حكم نواحي وهران وبخاصة تلمسان، وقد حدثت حروب متعددة بين الحكم الإسباني لوهران، مُعَزَزا بقوة عسكرية إسبانية تتجدد باستمرار وبدعم اسباني، وبين القبائل المجاهدة التي كان يقودها المجاهدون كمولاي أحمد. حاولت هذه القوات القبلية استرجاع تلمسان من واليها المعين من حاكم وهران الذي كان يدفع له الجزية ويطيعه في كل ما يأمر به، كما

حدثت معارك بين هذه القبائل والجيش الإسباني في وهران نفسها، وكان ذلك في النصف الثاني من الثلاثينيات من القرن السادس عشر، في هذه المعارك حاول الكونت دالكودت أن يتوسع في المنطقة التي يحتلها بالقيام بهجوم على مستغانم، وبعد استعداد قوي واقتراب من منطقة الهدف تأكد أن قوة تركية تحمي المنطقة لاقبل له بمحاربتها، فتراجع في سِيل من هجمات القبائل على قواته تكبد فيها خسائر فادحة.

وحاول أيضاً الهجوم على بسكرة فمني بنفس الخسائر التي مني بها في محاولته الهجوم على مستغانم، وبذلك اكتفى بوهران وأعاد القوات الإضافية التي كانت اسبانيا :ند ارسلتها إليه - أعادها - إلى إسبانيا مؤكداً بذلك أنه لن يستطيع السيطرة على مناطق أخرى من الجزائر.

شارلكان يرمي بتاجه في البحر

هذه المعركة خاضها الجزائريون. وليس الأتراك.. للدفاع عن بلادهم وتأتي معركة ثانية بعد بضع سنوات تكون فاصلة - في هذه الفترة - بين الغرب واحتلال الجزائر، ذلك أن امبراطور إسبانيا شارلكان الذي ولد سنة 1500 م وتوفي 1558 م - كانت امبراطوريته واسعة الأرجاء تشمل أمريكا وقشتالة وأرغون ونافارا ونابولي وصقلية وهولندا، فكان بذلك أعظم أباطرة أوروبا يدعي حماية المسيحية، ويتطلع إلى القضاء على المناطق الإسلامية وخاصة التي يظن أنها مصدر خطر له ولأساطيله البحرية التي تتردد بين أجزاء امبراطوريته الواسعة وهي الجزائر.

لم يكن ليفكر في شن حرب على الامبراطورية العثمانية أو بعض أجزائها المترامية الأطراف وخاصة في عهد أكبر أباطرتها سليمان القانوني الذي عاصره (1520 م - 1566 م)، والذي وسع دائرة امبراطوريته في بلاد أوروبا، فكانت الدولة العثمانية قوة مهابة الجانب لا تستطيع أية دولة أو امبراطورية أن تواجهها ولذلك فكر شرلكان في الجزائر التي كان يعتبرها بعيدة عن مركز السلطة العثمانية. وكان يحسب أن السيطرة عليها عملية سهلة يمكن أن يقودها بنفسه

فيحقق نصراً مبيناً، لهذا استعد لهذه الحرب التي لم يكن ليستهين بها في شواطىء امبراطوريته في جنوب أوروبا، وكون قوة بحرية عظمى وجيشاً مكونا من إسبانيين وإلمانيين وإيطاليين ومالطيين وقصد الشواطىء الجزائرية وهو يحسب أنه سيحتلها في طَرْفة عين. ولكن قوة «التحالف» كانت أعظم من قواته المتحالفة أيضاً، فقد تضافر المواطنون الجزائريون وكانوا أقوى وأشد تصميماً على الدفاع عن بلادهم، مع قوات الأتراك التي كانت تحت حكم حسن باشا الوالي التركي الذي عينه خير الدين باشا على الجزائر. تحالفت القوتان مع قوة الطبيعة الكبرى. فقد عرفت شواطىء الجزائر وأراضيها عاصفة قوية من الرياح والأمطار والبرد آخر سنة 1541 م، وكانت هذه العاصفة هي القوة الضاربة التي أطاحت بالأسطول الذي عانى من الرياح والأمطار فغرق معظمه وضربت القوات الأرضية التي نزلت على الشواطىء الجزائرية بقوة وعنف، فكانت الأمطار والوحل والبرد وانضافت إليها قلة المؤونة والغذاء هي الضربة القاضية للجيش المتحالف، ورغم أن شرلكان نزل إلى الأرض طمعاً في أن يضيف إلى تاج الامبراطورية درة أخرى، فإن انهزام قواته وغرق كثير من وحدات أسطولها دفع به إلى قرار خطير، هو الخروج من الجزائر وركوب البحر في أتعس أيام حياته ومحاولة النجاة. انتظر طويلاً متردداً بين الشواطىء واللجوء إلى بجاية لشراء الغذاء لما بقي من قواته البحرية والبرية، وأخيراً انتهى إلى قراره بالإنسحاب، ويقال إنه إزاء يأسه من النصر رمى بتاجه في البحر وانسحب إلى بلاده دون تاج.

من المؤكد أن سليمان القانوني كان يعرف نية شرلكان، وهو المنافس المسيحي الأول لامبراطوريته الإسلامية، في مهاجمة الجزائر فنبه خير الدين إلى الاستعداد لذلك، ولعل استعداد المواطنين لذلك كان أقوى من الاستعداد التركي فكان النصر حليفهم في هذه المعركة.

المعركة الخاسرة التي خاضها شرلكان في الجزائر، بالإضافة إلى معاركه في فرنسا، وكانت عدوه الدود لأنه لم يستطع أن يضمها إلى امبرطوريته رغم هزيمة ملكها فرانسو الأول هي السبب في النهاية الحزينة التي عرفها شرلكان

عندما انسحب أخيراً من الملك وانزوى في كنيسة الرهبان، ليترك الامبراطورية إلى مصيرها.

نشاط عسكري للعثمانين في الجزائر

في منتصف القرن السادس عشر، كان العثمانيون قد تمكنوا من حكم الجزائر، وقادهم في هذه الفترة أميران من أمراء الجزائر، أولهما: حسن باشا ابن خير الدين، وثانيهما صالح باشا.

بدأ حسن باشا حكمه في الجزائر سنة 1544 م ـ 950 هـ، جعل من مهماته الأساسية تنظيم الجيش وإعادة سلطة الأتراك على القبائل الجزائرية المتمردة، وقد استطاع أن يقوم بالكثير من هذه المهمات.

كان هذا الحاكم التركي مخلصاً للإمبراطورية العثمانية، وقام بواجب الدفاع عن سلطتها في الجزائر، بالإضافة إلى إخضاع القبائل (المتمردة) التي كانت تعتز بانتمائها الجزائري وكان لها تطلع للتخلص من الأتراك.

بالإضافة إلى ذلك واجه الوجود الإسباني المتركز في وهران، كان الإسبانيون يشعرون بأنهم منعزلون في هذه المدينة، وكان طمعهم كبيراً في أن يوسعوا سلطانهم غرباً حتى تلمسان، وشرقاً حتى مستغانم، ولذلك حاول حاكم وهران الكونت دالكودت الإستعانة بجنود من السلطة المركزية في إسبانيا للقيام بمشاريعه هذه، ولكن حسن باشا واجهه في محاولته الاستيلاء على مستغانم بقوة تركية جزائرية، وقضى على أحلامه فتراجع منهزماً إلى وهران.

أما تلمسان فقد حاولت السلطة المغربية في عهد محمد المهدي السعدي الاستيلاء عليها ولكن قوة الأتراك هزمته في هذه المعركة وعاد المهدي إلى فاس. ومما يذكر أن المهدي كان مدفوعاً في قيامه بهذه الحملة على تلمسان ليس فقط بالدوافع التاريخية التي كانت تجمع بين المغرب والجزائر وتونس في دولة واحدة، ولكن كذلك لأن آخر المرينيين وهو أبو حسون حاول الاستعانة بالأتراك لاستعادة السلطة على مدينة فاس، فكانت معركة تلمسان لصالح الأتراك ضد المهدي السعدي. غير أن عهد حسن باشا لم يخل من متاعب

دولية أكبر من حكمه، فقد كان الخلاف قوياً ومشتداً بين فرنسا وإسبانيا على نحو ما عرفنا في عهد الامبراطور شرلكان وفرانسوا الأول. وكانت فرنسا قد انهزمت في ذلك العهد وفكر في التقرب من أكبر امبراطورية تعادل الامبراطورية الإسبانية، فكانت هي الامبراطورية العثمانية، وقد حاول الفرنسيون بواسطة أحد سفرائهم من حسن باشا أن يقوم بغارات على إسبانيا، فامتنع عن خوض هذه المغامرة وبذلك بدأ الفرنسيون يدسون له في إسطمبول لمحاولة اقالته عن حكم الجزائر، ونجحوا في ذلك وأعيد إلى اسطنبول سنة 1551 م. الشخصية الثانية التي خلفت حسن باشا في حكم الجزائر هي صالح باشا، وبمقدار ما كان حسن باشا متوازناً يقود البلاد بحكمة، كان صالح باشا متسرعاً يثير مشاكل في وجه حكمه، ويقوم بمعارك لم تكن دائماً في صالح السلطة العثمانية، ولو أنه انتصر في بعضها انتصارات ساحقة، كان مرضياً عنه من فرنسا، وصديق سفيرها في اسطمبول، وكان لهذا السفير أثر في تعيينه في الجزائر، استلم سلطاته في الجزائر سنة 1552 م. وقام بمعارك في ثلاث اتجاهات بالإضافة إلى معاركه ضد المدن والقبائل المتمردة من الجزائريين. أولاها مع القائد العسكري عبد العزيز الذي خاض معه معارك طاحنة انظم فيها الجزائريون إلىعبد العزيز وانهزم فيها حيش صالح باشا.

ثانية المعارك كانت مع الإسبانيين ـ وما من شك في أنه كان يخوضها بتأثير من الفرنسيين الذين كان لهم فضل في تعيينه أمير أمراء الجزائر ـ خاض احدى معاركه ضد ما يوركا الإسبانية وانتصر فيها واستولى على الأسطول الإسباني وسلب الجزيرة واشتبك في معركة مع اسطول برتغالي وانتصر عليه وبقيت له المعركة الكبرى ضد الإسبانيين، الذين يحتلون وهران، وكانوا قد استولوا على بجاية وحاربهم صالح في هذه المدينة فاسترجعها من الإسبانيين ولم تبق في أيدي الإسبانيين إلا مدينة وهران والمرسى الكبير، وحاول خلفاؤه من بعده تحرير وهران.

المعركة الثالثة التي خاضعها صالح باشا كانت ضد المغرب، وقد حاول في هذه المعركة الانتقام من الدولة السعدية التي احتلت تلمسان وتراجعت عنها

واستعان بأبي حسون (المتمرد المريني على السعديين)، فهاجم مدينة فاس بقوة كبيرة واستولى عليها، فانسحب محمد المهدي السعدي منها واستطاع الأتراك أن يتخلصوا منه بواسطة الكتيبة الإنكشارية (فريق من الجيش التركي)، التي كانت تخدم الدولة السعدية، فاغتيل على يدها. وعادت فاس مرة أخرى إلى السلطة المغربية وانتهت هذه المعركة بعدم تحقيق أمل الدولة العثمانية في تمديد سلطتها إلى المغرب. صالح باشا هذا مات في وباء شمل الجزائر سنة 963 هـ/ 1556 م.

مرت الجزائر وتونس في فترة الستينات والسبعينات من القرن السادس عشر باضطرابات خطيرة، نتيجة للحروب التي دارت بين الأتراك والجزائريين من جهة، والإسبانيين من جهة أخرى، حول مستغانم ووهران. وقد تبادل الجانبان النصر والهزيمة نتيجة لعزم إسبانيا وحاكم وهران الإسباني الاحتفاظ بمركزهم في الجزائر. فكانوا يمدون حاميتهم المحتلة بالجيوش والعتاد والأساطيل البحرية كلما وقعوا في هزيمة من الأتراك والجزائريين. وأمدت اسطمبول السلطات التركية في الجزائر بإمدادات قوية كلما أدركتها الهزيمة، وكان تغيير أمير أمراء الجزائر التركي أحد مظاهر هذه الاضطرابات، ولم تسفر في هذه المرحلة المعارك الدائرة بين الإسبانيين والعثمانيين في الجزائر عن أية نتيجة نظراً لتشبث الإسبانيين في وهران بمركزهم والدفاع المستميت عنه، وانتقلت المعركة إلى تونس، فقد كانت بقايا الحكم الحفصي تعتمد على قوة أجنبية لحمايتها من الأتراك. وكان أن احتلت ـ في بعض فترات هذه المرحلة جربة وتونس، ولكن العثمانيين جهزوا قوتهم للدفاع عن تونس وطرد الإسبانيين منها. وكان من المعارك المهمة نتيجة للحلف الإسباني البرتغالي أن «دون جوان» القائد الإسباني جهز جيشاً بحرياً انطلق به من صقلية بقوة كبيرة قاصداً احتلال تونس، وانتصر في حَرْبِه لِلأتراك، غير أنه اتهم لذى ملك إسبانيا بأنه يريد أن يقيم دولة خاصة به مستقلة عن الامبراطورية فاستدعاه الملك وكان ذلك من أسباب انتصار العثمانيين على الإسبانيين، والتحقت تونس المدينة بالحكم الإداري في الجزائر، وألحقت سوسة والقيروان والمنستير والمهدية بالحكم في

طرابلس الغرب. يرجع الفضل في تحرير تونس من الإسبانيين إلى تضافر قوات العثمانيين في طرابلس، وتونس والجزائر لطرد الإسبانيين من هذا الموقع المهم.

وكانت النتيجة الثانية المهمة لهذه الحملة العثمانية هي نهاية الدولة الحفصية كما قدمنا. فقد اعتقل محمد بن الحسن آخر أمراء الحفصيين المتعاون مع الإسبانيين. وأرسل إلى إسطمبول حيث بقي هناك إلى أن توفي وكانت نهاية الدولة الحفصية بتحرير تونس من الإسبان وَتَبَعِيَّتِهَا للدولة العثمانية سنة 981 هـ ـ 1573 م.

لن نعود إلى ارتباط تونس بالدولة العثمانية، فقد تحدثنا عن هذا الموضوع عندما عرضنا للإمارة المرادية والإمارة الحسينية في تونس.

يبقى اهتمام الدولة العثمانية بالجزائر وطرابلس دون بقية أقطار المغرب العربي، وتبقى الحرب الضروس بين شبه الجزيرة الايبيرية والدولة العثمانية في هذه المنطقة عندما استعد الإسبان والبرتغال في ملف عسكري بحري وبري للسيطرة على الجزائر، في الوقت الذي كان التوتر قائماً بين الجزائريين والعثمانيين، لأن العثمانيين لم يكونوا يقيمون وزناً للشعب الجزائري إلا عندما يجندونه للدفاع عن المواقع العسكرية، كمستغانم ووهران، ولذلك كان الجزائريون لا يكنون أي ود للسلطات التركية.

عهد الفوضى وتمزق السلطة العثمانية في الجزائر

لم تكن الدولة العثمانية بمنجاة مما كان يصيب الدول والامبراطوريات من ضعف بعد قوة وتفسخ الحكم بعد رحيل الرجال الأقوياء، فمنذ نهاية سليمان القانوني (1520م ـ 1566م) وولاية سليم الثاني (1566م ـ 1574م)، بدأت الدولة في الانحدار، فانهزمت في حروب كثيرة مع إمارة البندقية، ثم مع مالطة، ثم بعد ذلك انهزمت مع النمسا على عهد سليمان الثاني أو اضطربت الأوضاع داخل عاصمة الامبراطورية اسطمبول. هذه الفترة الطويلة من عهد

الانحدار انعكست على علاقات الدولة العثمانية بالجزائر، فقد كانت السلطة العثمانية بشمال افريقيا قبل هذه الفترة قوية تحكم من طرابلس حتى الجزائر بسلطة واحدة مركزها الجزائر. ولكن ضعف الدولة جعلها تخشى من جيش الإنكشارية، الذي كان يسيطر على الدولة في الجزائر. ولهذا وزعت الأقطار الثلاثة على باشوات يحكم كل منها باشا يعين من السلطة المركزية لمدة ثلاثة سنوات، غير أن هذه (اللامركزية) لم تكن قائمة على أساس إداري أو سلطوي أو سياسي، لذلك فعهد الباشوات هذا كان عهد انحلال للسلطة العثمانية في أهم ولاية تحكمها وهي الجزائر. تجلى هذا الانحلال في أن الباشوات، وقد بلغوا في هذه المرحلة نحو أربعين باشا، لم يكن لهم سلطان ولا نفوذ أمام القوتين الكبيرتين في الجزائر وهما قوة الجيش البري الإنكشارية والجيش البحري (الطائفة)، الذي كان يسيطر على الشواطىء البحرية وينافس الجيش البري سلطانه وقوته.

الباشوات لم تكن مهمتهم حكم الجزائر وتقديم خدمات اقتصادية واجتماعية للبلاد، بمقدار ما كانت مهمتهم سلب الأموال والضغط على دافعي الضرائب، لأنهم كانوا يشترون منصبهم بالمال الذي كانوا يدفعونه للحكم في اسطمبول، ثم إن نفوذهم كان أضعف من أن يقف في وجه الإنكشارية الذين كانوا يعتقلون الباشا أحياناً ويبعثون به إلى أسطمبول بدعوى أنه أساء الحكم وأن الشعب لا يقبله. وكان من مهمة الباشا أيضاً أن يدفع رواتب الجنود من الضرائب التي يجمعها، وهذه مهمة عسيرة كانت تجلب عليه غضب الإنكشاريين.

الجانب الثاني من الفوضى والاضطراب هو الصراع الذي كان بين القوة البحرية والقوة البرية، فقد كان قادة البحر يرفضون سلطان الإنكشارية، ورغم أنهم يعيشون في الغالب داخل أعماق البحر بعيدين عن مزاولة السلطة المحلية فإنهم كانوا يحاولون التقليل من نفوذ الإنكشارية لأنهم أقوى سلاحاً وسلطة.

الجانب الثالث من الفوضى والاضطراب هو الشعب الجزائري الذي كان يتمرد على السلطة الإنكشارية وعلى سلطة الباشا نفسه وقام بعدة ثورات، خاصة وأن كثيراً من القياديين كانوا يحصلون على أسلحة يقتنونها من ممثلي

الدول الأجنبية وبالأخص الفرنسيين، من ذلك ثورة 1633 م والثورة الدامية في الجزائر العاصمة ضد الأتراك التي تزعمها القبائليون.

الجانب الرابع من الفوضى هو تمرد القوة البحرية (الطائفة) على السلطة العثمانية المركزية، فقد طلبت اسطمبول من هذه القوة أن تساهم في الحروب التي كانت تقوم بها سواء في البندقية أو مالطا ولكن البحرية الجزائرية رفضت أن تساعد في هذه الحروب وحاولت أن تقوم بدور ما في الحرب مع البندقية، ولكنها أصيبت بضربة قاضية، هذه القوة البحرية كانت شبه مستقلة تمارس القرصنة التي تدر عليها أموالاً طائلة، وتحدث للدولة المركزية مشاكل خارجية مع الدول الكبرى.

هكذا نجد أن الحكم العثماني في الجزائر في هذه الفترة بالذات كان شكلياً، ولم تكن الدولة العثمانية بقادرة على بسط نفوذها السلطوي الحقيقي على أهم الولايات التي بقيت تابعة لها اسماً لا واقعياً.

وتنطبق هذه الفوضى على عهد آخر، يسمى في التاريخ العثماني بالجزائر بعهد الأغوات وهو عهد قصير (1659 م ـ 1671 م) سيطر فيه الأغوات المعينون من الجيش على السلطة بكاملها. مالية وإدارية، ولم يتركوا للباشوات أي نفوذ، ولكن عهدهم القصير هذا امتاز بقتل كثير منهم وبالثورات المتعددة من القبائل والطائفة (الجيش البحري) والجند، وهكذا كان عهدهم أسوء من العهد الماضي في بُعد كامل عن السلطة المركزية في اسطمبول، التي يبدو أن الجزائر انفصلت عنها نهائياً، وأخذ الجيش يستقل بتدبير شؤون البلاد دون إذن ولا موافقة من السلطة المركزية.

النشاط الفوضوي

عهد الدايات في الجزائر لم يكن يختلف عن عهد الباشوات، كلاهما يعكس فوضى الدولة العثمانية، وبداية انهيارها المبكر، فقد كانت الدولة القوية في العالم التي تسيطر على امبراطورية واسعة، وخاصة أنها تسيطر على ضفتي البحر الأبيض تقرياً، وتتحكم في مياهه. ومن شأن هذا التوسع، الذي

لا يمكن أن يكون قائماً على أسس سلمية، والذي كان يتستر تحت الخلافة الاسلامية، ويسيطر على دول مسيحية في أوروبا الشرقية من جهة، ويتعامل مع دول مسيحية غربية بكثير من انعدام الثقة، واستغلال الصراع بينها ليكون لصالحه أو ليعادي إحداها بقوة ويدافع عن الباب العالي الذي يسيطر دينيا وسياسياً على بعضها كما هو الأمر بالنسبة لأسبانيا، ثم يجامل ويصادق دولاً أخرى كفرنسا ويناصرها في عدائها لانجلترا، أو هي تستغل صداقة الدولة العثمانية للانتصار عسكرياً أو سياسياً وتجارياً على خصمها الأبدي انجلترا، هذا الوضع الذي عاشت فيه الدولة العثمانية ـ خاصة بعد عهد الأزدهار ـ وضعها في مركز لا تحسد عليه، وانعكس بشكل خطير على كثير من أجزاء الامبراطورية، وبدأ بالجزائر وتونس في أوائل القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، ثم جاء دور مصر، وبقية أجزاء الامبراطورية بعد ذلك.

عصر الدايات في الجزائر كان المظهر الأكبر لهذا الانعكاس السيء. فقد كان الدايات يمثلون قوة جزائرية مستوطنة، لا تكاد تدين لانتمائها التركي العثماني وطنياً وسياسياً. وقد عرفنا ما أحدثه نظام الدايات من الفوضى السياسية سَبَّبَ للدولة كثيراً من المتاعب السياسية الخارجية، وسببت للجزائر، كجزء من الدولة العثمانية مشاكل أكثر خطورة وأشد فتنة.

الجزائر كانت تعتمد على نفسها مالياً واقتصادياً، بل إن الباشوات وبعض الدايات المعينين الذين كانوا يعتمدون على «فرنامات» عثمانية كانوا يمدون الدولة بالمال، ومركز الباشا كان يشتري بما يستطيع أن يبعث به للدولة العثمانية من مال، وبالتالي بما يحتجزه من مال لنفسه، ثم بما يدفع به من أجور للموظفين، والجنود وحراس الدولة، ولهذا كانت الجزائر مصدر موارد مالية مهمة، تعتمد عليها الدولة المركزية، وتعتمد في إدارتها على هذه الموارد. من أين تأتي هذه الموارد؟

طبيعة السيطرة التركية على الجزائر تجيب على هذا السؤال.

الجيش البري وآثاره الفوضوية

فقد كانت التبعية الجزائرية للامبراطورية تعتمد على عنصرين أساسيين: أولهما: الجيش البري المتكون من الأوجاق والإنكشارية... وقد كان لهذا الجيش دور كبير في حكم الجزائر والسيطرة عليها مع الدولة المركزية تارة، وباستقلال عنها تارات أخرى. والقوة البشرية التي يعتمد عليها هذا الجيش كانت تتكون على توالي العهود من المتطوعين الذين يجمعون من سكان بلاد الامبراطورية، وخاصة من آسيا الوسطى. وكمتطوعين عاطلين جمعوا ليكونوا جيشاً في بلاد بعيدة كانوا من الفقراء والاشقياء والمحكوم عليهم كسائر المتطوعين الأجانب في جيوش الامبراطوريات. وكانوا يتنقلون بالمئات بالسفن البحرية التابعة للبحرية أو (لطائفة الرؤساء) كما كانت تسمى، وهذا الجيش البري كان يستولي شيئاً فشيئاً على مراكز القوة والسلطة، لأنه هو الذي يحمي الباشوات ثم الدايات، حتى أصبح الدايات ينتخبون من بينهم من يحكم، ويسيطرون على الدولة. والجيوش التي لا انتماء لها لا يمكن الثقة في طاعتها للدولة، ولا حتى للنظام الذي تُنْشِئُهُ، لأن كل جندي كان يمكن أن يكون له عصابة تسيطر على الدولة من جهة، ويصبح أحدها حاكماً تحت اسم الداي.

بعض هؤلاء الجنود كانوا يستوطنون ويتزوجون من جزائريات، وبذلك أصبح لهم إمكانية الاستقرار. وبعضهم كانوا يرحلون إلى بلادهم ويعوضون بآخرين، لأن البحث عن المجندين وجمعهم في البواخر ظل مستمرا طيلة العهد العثماني. وكانوا مرتزقة يتقاضون أجورهم من السلطة التركية بالجزائر، وأحياناً تساعد حكومة اسطمبول على مد السلطة في الجزائر بالمال، كانت عصابات منهم أحياناً تثور على رأس السلطة في الجزائر فتغتاله أو تدخل معه في صراع تتغلب أو تغلب فيه. فإذا غلبت قتلت الداي وقامت بتصفية أتباعه، وإذا غلبت قام الداي الغالب بتصفية المتمردين. ولذلك كان الأمن منعدما. لأن الوازع الوطني منعدم من الرؤساء والمرؤوسين على السواء.

كان الشعب هو الضحية على كل حال. فكثيراً ما تدور الدائرة عليه لأنه

مغلوب على أمره يحتقره الإنكشاريون، ويصبون عليه جام غضبهم ويبتزونه ليجمعوا المال لهم وللسلطة المركزية كلما كانوا على صلة معها.

المواطنون الجزائريون كانوا يتمردون أحياناً على هذه السلطة الدخيلة الغاصبة المبتزة، والمصير كان محتوماً، فإن كثيراً من القبائل معزولة، دون أن يكون لها سند من سلطة أخرى.

على أن استيراد الجنود من مختلف أجزاء الامبراطورية تضاءل شيئاً فشيئاً حتى ضعفت القوة الحامية للجزائر.

ولذلك أخذوا يجندون بعض المواطنين الجزائريين الذين لم يكن لهم نفوذ الإنكشارية، واشتهرت في آخر العهد التركي قبيلة زواوة بالانضمام إلى الجيش، واستمرت كقوة تركية في آخر عهد الدايات حتى الاحتلال الفرنسي.

القوة البحرية ودورها الفوضوي

ثاني العنصرين اللذين يعتمد عليهما الحكم في الجزائر هو «طائفة الرؤساء»، ويعني ذلك القوة البحرية التي كانت في فترة طويلة أقوى قوة بحرية في العالم الغربي، وقد بدأت القوة البحرية الجزائرية منذ عهد آل برباروس، واستمرت تقاليد البحرية الجزائرية ونشاطها البحري حتى الاحتلال الفرنسي. وقد مرت هذه القوة بفترة ازدهار في القرن السابع عشر. ولكنها كانت دائماً قوة ضاربة تتكون من عدد كبير من السفن تؤمن للدولة العثمانية ولولاية الجزائر الحماية والمال والنشاط التجاري. وكانت هذه القوة تمكن لنفسها بشراء سفن وصناعة أخرى. أما من الناحية البشرية فقد كانت في البداية من الأتراك والمتطوعين من مختلف الجهات، واتسعت دائرة أطرها بعد أن ضم إليها آلاف المتطوعين من كل الدول الأوروبية ومن خبراء البحر وصناعة السفن الذين منحوها قوة في الرجال وخبرة في العتاد والنفوذ البحري. كان هؤلاء المتطوعون من الأوروبيين في الغالب من المتمردين على دولهم، وكانوا أيضاً مرتزقة عرفوا من نشاط القرصنة الجزائرية ما تحصل عليه من أموال فانضموا

إليها، ولو كلفهم ذلك الخروج عن مسيحيتهم واعتناق الإسلام، لأن نظام الطائفة كان يفرض على كل بحار أن يكون مسلماً.

في البداية (من عهد آل برباروس) كانت البحرية تقوم بعمل جهادي وإسلامي ضد سيطرة المسيحية ونفوذها. ولذلك كانت ندا للدولة العثمانية التي تقوم بدور الخلافة الإسلامية ضد الدول المسحية الأوروبية الخاضعة لتوجيهات البابوية ضد الإسلام، ثم تحولت الفكرة إلى حرب ضد السفن الأوروبية وسبلها وتدمير بعضها وغزو الشواطىء البحرية المتوسطية كجنوة وصقلية ومالطة وسردينيا. وبفضل انضمام الأجانب من الأوروبيين ودول الشمال إلى القرصنة الجزائريين ازداد نشاطهما حتى شواطىء دول الشمال ثم إلى أمريكا والبرازيل وايسلاندا. . .

هذه القوة البحرية كانت تقوم بسلب السفن والشواطىء ونهبها فتتوفر لها ثورة طائلة تساعد ببعضها الدولة كما قلنا، ولكن المهم من ذلك كانت تقوم بأسر البحارة وسكان السواحل الذين كانوا يهجرون أماكن سكناهم إلى الداخل. وقد توفر للقراصنة الذين يقومون بعملهم باسم الجزائر أكثر من 25 ألف أسير (يباعون كعبيد بالمال في الجزائر أو يفدون بأموال طائلة) وتوفر لهم من الغنائم أكثر من 3 ملايين جنيه.

كان هذا النشاط البحري يوفر نشاطاً تجارياً مهماً للجزائر وسكانها، وخاصة الأتراك الذين يستفيدون من القرصنة أكثر من الأهالي، ولذلك أصبحت القرصنة هي المورد الأكبر للجزائر وداياتها، وللدولة العثمانية المركزية.

هذه القوة لم تكن تعود على الجزائر والدولة العثمانية دائماً بالخير العميم. ورغم أنها كانت شريعة العصر. الأوروبيون يقومون بمثيلاتها من القرصنة باسم المسيحية، فقد كانوا يخشون من البحرية الجزائرية لكثرة سفنها وشجاعة رجالها، وأصبحوا يخشون أكثر حينما انضم إليها ملاحون وقراصنة أوروبيون لهم خبرة أكثر وتقنية جديدة مستفيدين مما في بلادهم من نشاط بحري.

غير أن ظاهرتين خطيرتين تخلفتا عن نشاط القرصنة:

أولاهما: أثر داخلي، فقد كانت القوة البرية المتمثلة في الإنكشارية وكل الجنود المتطوعين تنافس هذه القوة البحرية، خاصة وأنها تملك قوة المال والسيطرة والنفوذ عند الدولة المركزية التي كانت تستفيد من مالها وحمايتها حينما تقوم بالدفاع عن الدولة.

ولم يكن هذا الموقف دائماً. فقد كانت البحرية الجزائرية كثيراً ما تعمل لحسابها دون أن تأخذ إذن السلطة، ولو كان ذلك لغير صالح الدولة. فكثير من الدول كانت تعادي السلطنة العثمانية نظراً لعدوان القراصنة أو الدخول معهم في معركة بحرية أو على الشواطىء التي يغزوها القراصنة.

المنافسة كانت قوية بين القوة البرية والبحرية، وكثيراً ما كانت تتغلب القوة البحرية لمالها من قوة في تعيين الدايات وإسنادهم على القوة البرية.

المنافسة لم تكن في صالح الجزائر على كل حال، ولكنها طبيعية بين قوتين غير طبيعيتين. كل منهما كانت من المتطوعين والمرتزقة، وكل منهما لم يكن لها انتماء وطني أو قومي. وضحية هذه المنافسة دائماً هو الشعب الجزائري الذي لم يكن يستفيد إلا بالتبعية.

ولم تكن الجزائر بمنجاة من عواقب هذه الفوضى واللامسؤولية. فقد أعلنت الحرب على تونس رغم خضوعهما ـ رسمياً ـ لدولة واحدة. وعدة مرات حاولت السلطات التركية في الجزائر الهجوم على المغرب. وكان المغرب يحاول أيضاً من حين لآخر الهجوم على تلمسان. وكانت محاولات الطرفين تمنى بالفشل. ولذلك دشن العهد التركي في الجزائر وتونس انفصال المغرب العربي نهائياً. ولم تقم أية دولة من الطرفين بمحاولة توحيد هذه البلاد بعدما رأينا من فشل الوحدة ابتداء من عهد المرينيين.

الظاهرة الثانية: هي الانتقام من الجزائر، أو الدولة العثمانية في شخص الجزائر ـ فقد كانت الحرب مستمرة مع إسبانيا التي مكنت لنفسها من قاعدة بحرية برية هي وهران. وكانت الحامية الإسبانية المتركزة في هذه المدينة كثيراً

ما تُغِير وتحاول احتلال مناطق أخرى كمستغانم وتلمسان. وكانت تدخل مع السلطات في الجزائر في حروب طاحنة شغلت القوة البرية مدة طويلة.

ومن الأخطار التي تعرضت لها الجزائر هجوم الجيش الفرنسي ـ رغم الصداقة التي كانت تربط فرنسا بأسطمبول ـ على الجزائر عدة مرات. بعد أن ضاقت فرنسا ـ كمثال فقط ـ من الضرائب التي كانت الجزائر تحت تأثير القرصنة، تفرضها على فرنسا وغيرها من الدول الكبرى.

ومن الأخطار الكبرى أن الجزائر أعلنت الحرب على فرنسا سنة 1681 م بعد أن كانت البحرية الجزائرية قد استولت على 29 سفينة فرنسية، وأسرت نحو 300 أسير. وقد أنتهت الحرب بالصلح وانتفض الصلح الذي كانت معاهدته تقدر له مائة عام. وقد بلغ من سيطرة البحرية الجزائرية أن استولت في 4 سنوات على 350 سفينة انجليزية واسرت فيها نحو 6000 أسير. نتيجة لكل ذلك:

ـ أصبح البحر الأبيض في بعض الفترات خالياً من البحرية تخوفاً من البحرية الجزائرية.

ـ تحالف أساطيل الدول الكبرى ضد البحرية الجزائرية، خاصة بعد أن أصبحت السفن الأوروبية ذات قوة وتقنية كبرى، لم تعد السفن الجزائرية في الحقيقة تصمد لها.

ـ كان الأسطول الجزائري يحارب كل دولة لها شواطىء على البحر، ولم تكتف بدول أوروبا، بل حاربت دولاً أمريكية كذلك. وأهم خصومه البحريين إسبانيا وفرنسا وإيطاليا والدويلات التي أصبحت تابعة لها. البندقية مثلاً، ثم مالطة وغيرها من الدول الكبرى والصغرى. وقد ضاقت حكومة اسطمبول بهذه الحروب التي كانت تثير عليها الدول، وحتى الدول الصديقة لها، والتي تعقد معها معاهدات صداقة كفرنسا التي كانت الدولة العثمانية تطلب من الأسطول الجزائري الالتحاق بالأسطول العثماني. وقد شارك الأسطول الجزائري الأسطول العثماني في التصدي للبندقية التي نقضت اتفاقية الصلح. وشارك الأسطول الجزائري في هذه المعركة كما شاركت تونس وطرابلس.

ـ ولم تخل فترة من القرن الثامن عشر من هجوم الأسطول الإسباني على الجزائر لجعلها قاعدة لها في شمال إفريقيا كما قدمنا. وقد هاجم الأسطول الإسباني مرة أخرى الجزائر سنة 1783 م.

ـ أصبحت الحرب ضد الجزائر ـ بدافع من كبار الدول ومن إسبانيا بالأخص ـ حرباً مقدسة وقد تكون أسطول مشترك من مالطة ونابلي وإسبانيا. وقد بارك البابا هذا الأسطول وأقام قداساً طلب فيه النصر للأسطول. هاجم الجزائر سنة 1784 م، وقد واجه الأسطول الجزائري أسطول «الحلفاء» وأجبر على التراجع.

ـ وقامت البرتغال بدورها في الهجوم على الجزائر في نفس السنة، ولكن الأسطول الجزائري انتصر وعاد البرتغاليون إلى بلادهم.

ـ وجد الأوروبيون ألا قبل لهم بهذه الحروب فتقدمت إسبانيا بطلب الصلح مع الجزائر وقبلت كل شروطها سنة 1784 م.

ـ وكان الأسرى يباعون رغم الصلح سواء الإسبان منهم أو الفرنسيون.

وقد بعث ملك إسبانيا بهدايا قيمة لحاكم الجزائر من تَرْضِيَة للسلطات. وطلبت فرنسا بدورها الصلح فعقدت معها الجزائر صلحاً (كثيراً ما كانت معاهدات الصلح تنقض) سنة 1786 م.

ـ كانت نتيجة هذه الانتصارات أن قرر ملك إسبانيا الانسحاب من وهران رغم أنها ظلت عقوداً طويلة تحت احتلالهم، ولكن احتلالها كان يكلف الكثير من العمليات العسكرية وكثيراً من الضحايا البشرية وأموالاً طائلة. وسمح للأسبان الساكنين فتح مراكز تجارية في المدينة. ولكن فرضت عليهم ضرائب على المواد المستهلكة. ترك الإسبان وهران سنة 1792 م.

ـ تحالف الدول الكبرى ـ التي كانت بينها خصومات دائمة ـ ضد العدو المشترك كفرنسا وانجلترا، فقد تحالف أسطولهما لضرب الجزائر.

ـ اضطرار الدول الكبرى ـ فرنسا كمثال ـ إلى دفع غرامات مالية ضخمة

للجزائر لهجومها على الشواطىء الجزائرية بعد أن كلفت حملتها على الجزائر 25 مليون فرنك، وتكبدت خسائر مادية وبشرية كثيرة.

- الحرب مع الجزائر كلفت الفرنسيين كثيراً من الأطر، فقد كان القواد الأتراك يضعون أسيراً من القواد البحريين الكبار على فوهة المدفع ويقذفون به إلى العمق الجزائري. وكان الفرنسيون يقومون بالمثل. ومعنى ذلك أن قواعد الحرب لم يكن معمولاً بها بعد. وأن الأسرى لم تكن لهم حرمة إنسانية، ولا حقوق بشرية.

- أعلنت هولاندا وانجلترا الحرب على الجزائر سنة 1684 م.

- كانت النهاية أن الأسطول الجزائري ضعف شيئاً فشيئاً، ورغم انتعاشه في بعض الفترات إلا أن قوة الدول العظمى في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، والثورات التي عرفتها السلطة العثمانية من هذه الدولة وتلك، أضعفت قوة الجزائر حتى أصبحت مؤهلة للاحتلال الفرنسي كما سنرى.

وكانت النهاية الدولية للقرصنة الجزائرية في مؤتمر فيينا الذي عقد 1815 م، نوقشت فيه مسألة القرصنة وتجارة الرقيق وتحرير الأسرى المسيحيين في شمال إفريقيا. عرض على المؤتمر ضرورة وقف القرصنة، وطلب الأمير «ألان سميت» تكوين أسطول بحري مشترك يراقب القرصنة ويلاحق القراصنة. وهاجم النيابات في شمال إفريقيا ولم يهاجم السلطة العثمانية. ولكن النيابات لا تحترم سيادة السلطان، واقترح دعوة السلطان للتعاون مع الدول الكبرى، ووقف كل إمداداته للجزائر، وسحب الحامية الإنكشارية منها، وأيد ذلك سفير فرنسا. واقترح أن عملاً عسكرياً سيكون متنفساً لأوروبا. غير أن ملك فرنسا ووزير خارجيتها خالفا رأي السفير. ولم يتحمس وزير خارجية انجلترا لمشروع سميت تحسباً لتعرض النيابات في شمال أفريقيا للخطر الفرنسي، وقرر المؤتمر أخيراً تحريم القرصنة والاسترقاق في الجزائر وضرورة القضاء عليها في بقية أنحاء العالم.

ولكن انجلترا سارعت سنة 1816 م إلى مهاجمة الجزائر بأسطول قوي

وأجبرت الجزائر على تحرير الأسرى والوعد بإلغاء الاسترقاق.

وبعد مؤتمرات أخرى دولية تكلفت فرنسا وانجلترا بتحذير الجزائر بوقف القرصنة، ولم تقبل الدولة العثمانية هذا التحذير لأنه صدر عن مؤتمر لم تحضره.

وقد انتهت القرصنة نهائياً بالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 م.

تحليـل المرحلة

1 ـ لم نعمد فيما كتبنا عن هذه المرحلة من هذا الفصل أن نتابع مراحل الوجود العثماني في الجزائر على اختلاف الولاة وأسمائهم، من أمير الأمراء إلى الباشا إلى الداي. كثير من الأحداث متشابهة ألفنا بينها رغم اختلاف تواريخ أحداثها. ولو أننا فصلنا القول في بعض الأحداث المهمة التي كان لها أثر في تاريخ الجزائر.

2 ـ من المؤكد أن الوجود العثماني في الجزائر وتونس قد أنقذهما من الاحتلال الأوروبي المبكر، فقد كانت إسبانيا ـ وقد أصبحت إمبراطورية مهمة تضم إلى تاجها بعض الدول الأوروبية الكبرى، وتحسب أنها تمثل المسيحية الأوروبية ـ عازمة على احتلال شمال أفريقيا جميعه، كما همت ـ هي والبرتغال ـ باحتلال المغرب ابتداء ـ من شواطئه على الأبيض المتوسط والأطلسي وطردها المغرب منها، ولم تبق إلا سبتة ومليلية. ولذلك كانت عازمة على احتلال تونس، أو شواطئها على الأقل من الجزائر المحتلة. وقد أسست لها قاعدة احتلال مهمة في وهران. وناضلت لاستمرار احتلالها وتوسيع دائرة الاحتلال ابتداء من الهجوم على مستغانم وتلمسان، ورغم ما تكبدته من خسائر في هذه الحملات نتيجة دفاع الجزائر (التركية) عن المناطق المستهدفة.

إنطلاقاً من هذا العزم الإسباني وعزم الدول الأوروبية الأخرى من شاطىء البحر الأبيض الأوروبي، كانت تونس والجزائر مهددين باحتلال، لم تكن الدول التي قامت في الجزائر وتونس بقادرة على صد هذا الهجوم وهما في أواخر عهدها المتفسخ.

الحكم العثماني إذن أنقذ البلدين من الاحتلال الأوروبي مبكراً.

3 ـ استطاعت تونس أن تكون دولة (شبه مستقلة) تابعة رسمياً للامبراطورية العثمانية تحت حكم الدولة الحسينية حسب ما قدمنا في فصل سابق. أما الجزائر فقد استمرت تحت ولاة اتراك من أمراء وباشوات ودايات. استقلوا عملياً عن سلطة الدولة بسبب جيش الإنكشاريين والقوات البحرية. وقد ظلتا تحكمان البلاد شكلياً تحت لواء السلطة العثمانية، ولكن باستقلال مطلق.

4 ـ سبب هذا الوضع متاعب داخلية وخارجية للجزائر، واجهتها قوات الحكم التركي بكثير من العنف والاقصاء تارة. ولكن الجزائر ـ وكوطن ومواطنين ـ قدمت تضحيات خطيرة بشرية ومادية ـ ولم يكن كل الدايات سيئي المعاملة أو مضطربين في سياستهم الشعبية. فقد كان مثلاً الداي (الباشا) 791 م حسن الطبع محبا للخير ألغى عقوبة الإعدام وضحى بكثيرين وحرر الأسرى رغم أنه قام بأعمال انتقامية من خصومه.

5 ـ لم يستفد الجزائريون المواطنون كثيراً من العهد التركي. إلا بعض الذين انضموا إلى الجيش أو البحرية وهم قلة، وبعض المنافع التجارية التي كان بعضهم يستفيدها من التجارة التي كانت رابحة بسبب الأسرى والغنائم المالية. بعكس ذلك فقد كان الجزائريون ضحية المعارك الداخلية ومعارك البحرية الأجنبية التي كانت تعصف الشواطىء بضراوة ولمدة طويلة.

6 ـ الأتراك الحاكمون كانوا يعاملون المواطنين معاملة سيئة ويحتقرونهم. وقد كان المواطنون يقومون في بعض الفترات بتمردات أو شبه ثورة دفاعاً عن مصالحهم أو ضد الظلم الذي يلاحقهم.

7 ـ الحكم التركي لم يتسم بإصلاحات مهمة يستفيد منها الشعب، فلم يكن في برامج الامبراطورية العثمانية ككثير من الدول المغربية التي رافقت المرحلة برامج إصلاحية أو تعليمية. وقد كان في إمكان السلطة العثمانية أن تستفيد من الدول التي دخلت عصر النهضة والثورة العلمية والتكنولوجية والسياسية. ولكنها لم تعرف غير الحكم العسكري وبالقوة. أما ولاتها في الجزائر سواء في

العهد الأول ـ أمير الأمراء ـ أو في العهد الثاني ـ الباشوات ثم الدايات ـ فقد كان همهم هو السيطرة والنهب والسلب. وكان الجزائريون هم الضحية.

الشيء الذي يمكن أن يكون قد تحقق في الجزائر هو أن العهد التركي قضى على تمرد القبائل والحروب الداخلية التي كانت تدمر القبائل في حروب بعضها ضد بعض. إذا جاز أن نسمي ذلك امنا، فقد تحقق امن الجزائريين النسبي.

8 ـ العهد التركي أنهى فكرة توحيد المغرب الإسلامي، فقد انفصلت الجزائر وتونس نهائياً عن المغرب، ليس بسبب الغزو التركي فحسب، وهو مهم، ولكن كذلك لأن الدولة المغربية التي تبنت فكرة الوحدة في عهدي المرابطين والموحدين، لم تعد قادرة على حماية الفكرة. وقد كان المغرب يتوق أحياناً إلى احتلال تلمسان، للدفاع عنها ضد الغزو الإسباني من جهة، وليكون الوجود المغربي فيها حاجزاً للأتراك عن التطلع إلى المغرب من جهة أخرى. ولكن سرعان ما كان يطرد منها. وحاول الأتراك الهجوم على فاس، ووصلت قواتهم إليها، ولكن سرعان ما كان المغرب يطردهم منها. وبذلك انتهت أية صلة بين المغرب وبقية أجزاء المغرب العربي. حتى تونس كانت في بعض الفترات تحكم من الجزائر، في شكل وحدة حكم. ولكن الدولة المركزية خشيت من تكوين امبراطورية قوية في شمال أفريقيا ضدها ففصلت الحكم في تونس وطرابلس من الجزائر بتعيين باشا (الحاكم) في كل منهما.

9 ـ المغرب لم يستفد ـ كثيراً ـ من الوجود التركي في الجزائر حتى في بعض التنظيمات العسكرية التي حاولها في عهد السعديين باستخدام بعض الضباط الإنكشاريين، ولا استفاد من التقنية العسكرية واستخدام الأسلحة الحديثة التي استخدمها الدايات منها.

10 ـ المغرب لم يشارك في المعارك البحرية ولا في القرصنة لانشغاله بالمشاكل الداخلية والثورات التي كانت تشغل عصر الملوك ابتداء من العهد المريني.

11 ـ غير أن العهد التركي ظل مهدداً للاحتلال الفرنسي بالذات، بعد أن كانت مطامع الدولة الكبرى: انجلترا وفرنسا وإيطاليا تتجه نحو الجزائر. ولكن الفرنسيين كانوا قد وضعوا أعينهم على الجزائر. معارضة للطغيان الإسباني الذي ظهر بقوة ابتداء من القرن السادس عشر. كانت فرنسا تخشى من سلطات إسبانيا التي هزمتها في معارك ضارية وأسرت بعض ملوكها في عهد شرلكان. ولذلك كانت تخطب ودّ الامبراطورية العثمانيية لتتقي كذلك شر الحملات البحرية للقراصنة الأتراك الجزائريين: وقد تابع هؤلاء العدوان على الأسطول الفرنسي رغم علاقات الصداقة والمعاهدات التي كانت فرنسا تعقدها مع السلطنة العثمانية، ورغم تحذير السلاطين لقادة البحر بأن يخدموا الأسطول الفرنسي، فإنه كان يخضع لما تخضع له الأساطيل الأخرى. لهذا همت فرنسا على ضرب الشواطىء الجزائرية. وقامت بحملات مفردة تارة، ومع الأسطول الأنجليزي تارة أخرى. وكانت تنتهي هذه المعاهدات إلى الصلح والإفراج عن الأسرى الفرنسيين.

ويمكن القول بأن هذه التجارب الفرنسية وضعت الجزائر تحت أنظارها. حتى إذا أصبحت السلطة العثمانية تجتاز مرحلة الضعف وضعف حكم الدايات وانهياره، أو كاد ـ الأسطول التركي الجزائري الذي كان سيد البحار في بعض فترات حياته، صممت فرنسا على احتلال الجزائر. انتقاماً لنفسها و«كرامتها» فقد كانت في بعض الفترات تدفع الضرائب للجزائر. وكان لها أسرى كثيرون منهم بعض كبار ضباط البحرية الفرنسية، الذي وضع أحدهم على فوهة مدفع جزائري وقذف به إلى إحدى بواخر الأسطول الفرنسي الهاجم.

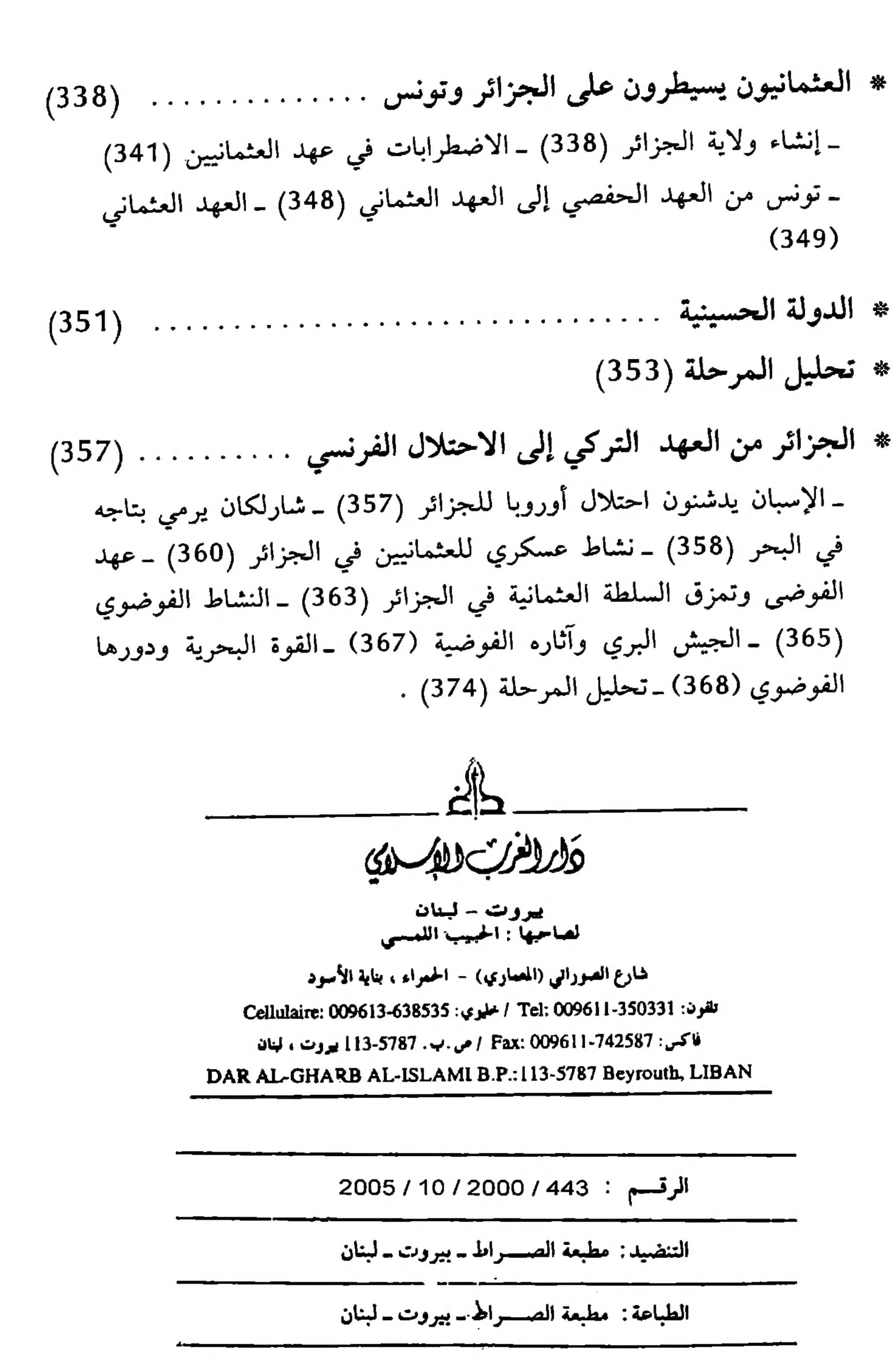
الاحتلال الفرنسي كانت له سوابق. أما لواحقه فهي احتلال تونس والمغرب.

انتهى الجزء الثاني،

ويليه الجزء الثالث

فهرس الجزء الثاني

عصر الأمبراطورية.



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصورائي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: Tel: 009611-350331 / خلوي: Cellulaire: 009613-638535
فاكس: Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقـــم : 2005 / 10 / 2000 / 443

التنضيد: مطبعة الصـــراط - بيروت - لبنان

الطباعة: مطبعة الصـــراط - بيروت - لبنان

Nouvelle lecture De L'Histoire Du Maghreb Arabe

Ancienne et Contemporaine

Vol. II

Par

Abdelkrim Ghallab
Membre de l'Académie
du Royaume Du Maroc



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

Nouvelle Lecture De L'Histoire du Maghreb Arabe

Ancienne et Contemporaine

Vol. II

Par

Abdelkrim Ghallab

Membre de l'Académie
du Royaume Du Maroc



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI